البُوتينِيّة

رُوسيَا
ومُستقبلهَا مع
الغربْ

البُوتينِيّة
رُوسيَا ومُستقبلهَا مع الغربْ

تأليف

وولتر لاكوير

ترجمة

الدكتور فواز زعرور

دار الكتاب العربي

بيروت – لبنان

البوتينية

روسيا ومستقبلها مع الغرب

ISBN: 978-9953-27-131-6

Authorized Translation from the English Language Edition:

PUTINISM

DAR AL KITAB AL ARABI

دار الكتاب العربي

Beirut - Lebanon

بيروت - لبنان

Tel (+961 1) 800811 - 862905 - 861178 هاتف

Fax (+961 1) 805478 فاكس

daralkitab@idm.net.ib بريد إلكتروني

info@Kitabalarabi.com

academia@dm.net.ib

Kitab alarabi

www.kitabalarabi.com

www.academiainternational.com

الإهداء

تخليدًا لذكرى اثنين من أساتذتي العظام:

جورج ليتشتايم George Litchtheim (1912 - 1973)

هانس (توم) مايدنر Hans (Tom) Meidner (1914 - 2001)

المحتويات

شكر وتقدير

علي أن أعود بالزمن إلى الوراء، مستذكرًا أولئك الذين ساعدوني في فهم روسيا وشعبها. يعود اهتمامي بروسيا إلى أيام الطفولة، لكن اهتمامي بدراسة التاريخ الروسي تحديدًا يعود إلى مرحلة لاحقة. كانت خبرتي في هذا المجال غير مكتملة وغير تقليدية. عندما وصلت إلى القدس طالبًا في سن السابعة عشر، وكانت حينئذ في فلسطين، قبل وقت قصير من اندلاع الحرب العالمية الثانية، توجهت للقاء أستاذ التاريخ الوحيد في المدينة، رجل لطيف من أبناء جلدتي، معربًا عن رغبتي بدراسة التاريخ الروسي. سألني إن كنت قد قرأت المجلدات الأربعة لتاريخ فاسيلي كليوتشيفيسكي Vasily Klyuchevsky. كان جوابي بالإيجاب (وهي نصف الحقيقة)، حيث قال إنه بصفته خبيرًا بالتاريخ الإنكليزي الوسيط المبكر، فإنه لن يكون ذا عونٍ بالنسبة لي. التحقت بإحدى المزارع الجماعية اليهودية (kibbutz)، حيث تصادف أن كسرت ساقي بعد سنتين في أثناء حلاقة ذقني، وهو حسبما أخبروني حدث نادر الوقوع في التاريخ الطبي. أقعدت عن الحركة لمدة شهرين تقريبًا. عندما كان يحصل ذلك مع نساء شابات في مستعمرتنا الجماعية، كان يعطى لهن جوارب لرتقها، ولكن لم يكن هنالك مثل هذا العمل للشباب.

إحدى الجارات، والدة أحد الزملاء الأعضاء، السيدة بيكمان، من أبناء نيكوليف على شاطىء البحر الأسود، كانت تعمل مدرّسة، وكانت سعيدة لعثورها على تلميذ. كنت أقرأ معها الروسية لساعات عديدة كل يوم. وبعد شهر، كنت قادرًا على قراءة صحيفة البرافدا، والتي كان عليها على ما أعتقد حينها أن تحدد مفرداتها بـ 800 - 955 كلمة حتى يتمكن الملايين من قراءتها. وبعد شهرين بت قادرًا على قراءة رواية Kapitanskaya لألكسندر بوشكين. في الأشهر التالية وقعت على مجموعة أخرى من المدرسين. وبوصفي أحد أفراد شرطة الخيالة آنذاك، كنت أمضي ليالي طويلة أطوف حول نيران المعسكر في الحقول أو في أحد الجبال. رفاقي، الذين كان معظمهم يكبرني بعشرين عامًا، ومعظمهم من أبناء سيبيريا، وعدد لا بأس به منهم يتحدر من عائلات مسيحية اعتنقت اليهودية، كانوا يعلمونني الأغاني الروسية التي تتحدث في الغالب عن (السجن والمنفى)، والتي لا أزال أستذكر معظمها حتى اليوم. كان هؤلاء الرجال ينتمون إلى مناطق صغيرة في سيبيريا بأسماء غير محببة مثل بالاغانسك Balagansk (وتعني بالروسية حالة الارتباك والاضطراب الشديد). وقد أسهموا أيضًا في إثراء جعبتي اللغوية بالعديد من المفردات والعبارات التي لا نجدها عادة في المعاجم.

في السنوات التالية، عملت كاتبًا وصحفيًا، لكن أحد اهتماماتي الرئيسية كان لا يزال المجال الروسي. في عام 1956 في لندن، أصبحت المحرر المؤسس لفصلية بعنوان Soviet Survey تحولت بعدها إلى مجلة تصدر مرة كل شهرين وتغطي الأحداث السياسية والثقافية في الاتحاد السوفييتي.

بت أعرف الكثير من الأشخاص العاملين في هذا المجال في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، ولكن أيضًا في القارة الأوروبية. لن يسعفني الزمان ولا المكان للإتيان على ذكرهم جميعًا (كانوا أساتذتي آنذاك)، لكني سأستثني منهم جين ديغراس Jane Degras التي ساعدتني إلى حد كبير

في بدايات عملي. كانت تعمل في معهد ماركس - إنجلز - لينين في موسكو لكنها انتقلت إلى تشاتهام هاوس Chatham House في لندن.

أمضيت بعض الوقت في مركز هارفرد لتعليم اللغة الروسية Harvard Russian Center خلال فترة الخمسينات، لكني لم أتلق أي تعليم رسمي. بقيت في Survey لعشر سنوات ثم انتقلت إلى موقع أخر دفع بي في اتجاهات مختلفة جدًا - الشؤون الأوروبية والشرق أوسطية. لم آسف لذلك لأني شعرت تجاه روسيا الشعور ذاته الذي أحس به كبلينغ Kipling عندما كتب عن إنكلترا: ما الذي تعرفه عن روسيا من يعرف روسيا حق المعرفة؟ كنت طوال هذه السنوات أعاني من شعور واضح بالتقصير. سبق لي أن قرأت عن روسيا، سبق لي أن تحدثت إلى أشخاص روس، لكن لم يسبق لي قط زيارة ذلك البلد. كان لهذا الأمر أن يتغير على الفور. والدا نعومي، زوجتي الراحلة، كانا يعيشان في أحد المنتجعات في القوقاز الشمالي. كان والدها أستاذًا في الطب في فرانكفورت، متخصصًا بتاريخ وفلسفة الطب. كان عليه أن يغادر ألمانيا على جناح السرعة عام 1936، والبلد الوحيد الذي وافق على استقباله كان الاتحاد السوفييتي. لم يكن له أي اهتمامات بالسياسة مطلقًا، ولذلك فقد تملكته الدهشة، بل الذهول، عند وصوله إلى موسكو، حيث زعم كل شخص أنه لم يسبق قط أن سمع بـ (وزارة الصحة)، نائبه، والآخرون الذين كانوا قد وجهوا له الدعوة. في النهاية، ترأف أحد موظفي الاستقبال بحال الغريب الحائر المرتبك وطلب منه، أولًا، أن يبتعد قدر الإمكان عن موسكو (فقد كانت هذه الأيام أيام التطهير والمحاكمات في موسكو) وثانيًا، أن لا يتعلم لغة أهل البلد. عمل بنصيحته ووجد نفسه وعائلته في أحد منتجعات القوقاز الشمالي. ذهبنا لزيارتهم في المرة الأولى في الخمسينات، ثم ولفترة من الزمن كنا نقوم بزيارتهم كل عام تقريبًا. لم يكن من السهل آنذاك الحصول على تأشيرة دخول إلى روسيا، سيما فيما يخص الزيارات خارج موسكو. لم كن أثق تمامًا بحسن طالعنا، خشية أن يعمد أحدهم يومًا ما إلى مطالبتنا بثمن هذه المكرمة. لكن ذلك اليوم لم يأت أبدًا؛ لعلهم لم يسمعوا قط عن Survey أو عني. لقد علمتني تلك التجربة التي اكتسبتها من خلال عملي في المجلة درسًا عن روسيا والبيروقراطيات عمومًا، مفاده ألا أستخف أبدًا بدور المصادفة وألا أفترض قط بأن اليد اليسرى كانت تعلم بما كانت تقوم به اليد اليمنى.

لقد كتبت بشيء من التفصيل عن هذا الفصل من حياتي في سيرتي الذاتية بعنوان (هنالك طريق طويل أمام طفل يوم الخميس) ولم أعد راغبًا بتكرار نفسي. بت أحب القوقاز (حينها، سويسرا من دون سيّاح)، وقد منحتني هذه الزيارات المتكررة والإقامات المطولة بصيرة نافذة كان يفتقر إليها معظم الزائرين والسياح؛ يبدو أننا كنا ولسنوات من أوائل الأغراب الذين وطئت أقدامهم تلك المنطقة. لقد كان صهري، فريدريك ريتشاردو، دليلًا ممتازًا.

مع ذلك، فقد أصبنا بحالة من الإحباط المعاكس في أحد الأيام عندما كنا نقود السيارة عبر أحد الطرقات الجبلية. كان ذلك خلال الأيام الأولى لعهد ليونيد بريجنيف، وخطر لي أنه في الوقت الذي كانت فيه روسيا في الأيام الخوالي بلدًا بالغ الإثارة حيث كل شيء كان متوقع الحدوث، فقد دخلت الآن فترة من الركود، أو بالأحرى من الشلل. فيما يتعلق بي شخصيًا، كانت الحياة قد أصبحت مملة، وكنت قد تعلمت ما بوسعي تعلمه في ظل هذه الظروف، وهكذا كان الأوان قد حان للتوجه نحو اهتمامات أخرى.

وكان هذا ما فعلته آنذاك على مدى الأعوام العشرين التالية، إلى أن فجأة، في عهد غورباتشيف، بدأت عجلة التاريخ تدور بسرعة كبيرة، وبزغ فجر مرحلة جديدة من التغيير، وباتت الأحداث في روسيا تتسم بالإثارة والترقب. وقد تزامن هذا مع مطالبات حثيثة بالتغيير الحقيقي. كنت أقوم بالتدريس في الولايات المتحدة ولكن لم كن راغبًا في ممارسة هذا العمل بصفة أستاذ متفرغ؛ كنت قد تركت معهد لندن الذي كنت رئيسه في أيد أمينة.

انتقلنا إلى واشنطن العاصمة، وكنت مدينًا بالكثير من الفضل لسعادة السفير ديفيد أبشاير David Abshire، رئيس مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية في تلك المدينة، الذي أفسح أمامي في المجال للقيام بما كنت أنوي القيام به والذي كان قدر كبير منه يتعلق بروسيا وأولئك الذين في الحكومة، والعالم الأكاديمي، وأماكن أخرى، في أعقاب الأحداث هناك. ولكن أين كان يتوجب علي البحث عن الأصول الأولى لولعي بروسيا واهتمامي بها؟ إنها قصة غريبة أخرى. عندما كنت صبيًا، أخبرني والديَّ أن أحد أسلافي كان طبيب الإمبراطورة الروسية. لم يحدد لي أية إمبراطورة بالضبط. لم ألق بالًا لذلك باعتباره محض تصورات وخيالات لا تمت للواقع بصلة حتى في ذلك العمر المبكر. ولكن بعد سنوات انبعث اهتمامي بهذا الأمر مجددًا على حين غرة. شرعت بالبحث، وتوصلت إلى التالي: القصة لم تكن صحيحة تمامًا، لكنها لم تكن خاطئة أيضًا، وكما هي الحال عادة في مثل هذه الأساطير والروايات العائلية، كان هناك قدر من الحقيقة في ذلك. حوالي العام 1800، كانت عائلتي تعيش في منزل صغير في سيليسيا Silesia. كان أحد أسلافي حاخامًا يهوديًا، وكان في أوقات فراغه ينظم بعض الأشعار البسيطة بالعبرية. كان شقيقه موريتز Mortiz (مولود عام 1787)، يرغب في دراسة الطب، لكن هذا الامر كان ضربًا من المستحيل نظرًا لأن العائلة كانت في حالة من الفقر المدقع. وفي أحد الأيام حضر أحد المبشرين وقدم لموريتز عرضًا رأى بأنه لا يمكن له أن يرفضه. ستقدّم له كافة التسهيلات اللازمة للدراسة إذا ما اعتنق البروتستانتية. وهو ما فعله بالضبط، وبعد بضع سنوات تخرج في كلية الطب (وعلم البلاغة؛ من الواضح أن الطب لم يكن موضوعًا دراسيًا مستقلًا آنذاك) في جامعة دوربات Dorpat (الآن Tartu) فيما يعرف اليوم بأستونيا Estonia.

كانت الوظيفة التي حصل عليها أقل من لافتة. عين رئيسًا لمركز الحجر الصحي في Taganrog على شاطىء البحر الأسود. تحول اسم موريتز إلى بوريس Boris، وحيث إن أصوات حروف العلة لا تتغير في اللغة الروسية، فقد أصبح الاسم الآن Lakier. كانت وظيفة بلا آفاق ولا ترقيات، لكن ما حصل لم يكن في الحسبان مطلقًا. قام القيصر ألكسندر الأول بزيارة لجنوب روسيا، وقدم إلى Taganrog، وتوفي هناك عام 1825. خشيت الحكومة آنذاك (وهي محقة في ذلك حسبما تبين لاحقًا) من بروز مزاعم حول عملٍ مريب وراء موت القيصر، ولذلك حاولت استدعاء أكبر عدد ممكن من الأطباء للتوقيع على شهادة الوفاة. ولكونه وافدًا من الخارج، فقد جرى التركيز على بوريس بالذات لأداء هذه المهمة، وظهر اسمه على شهادة الوفاة. كان هذا يعني أنه أصبح من النبلاء، الذين ينتمون، للأسف، لنبالة بلا وطن. انتقلت العائلة إلى موسكو، ومن بين أبنائه شد اهتمامي بشكلٍ خاص واحد منهم ويدعى ألكسندر بوريسوفيتش Alexander Borisovich (1825 - 1870)، كان أديبًا ذائع الصيت آنذاك، ومؤلفًا لمجموعة من أهم الأعمال الأدبية الروسية حول الولايات المتحدة (نشرت بالإنكليزية من قبل مطبعة جامعة شيكاغو

بعد أكثر من 100 عام من نشرها بالروسية). قبل ذلك، كان يعمل بصفة أمين سر اللجنة الحكومية المكلفة بإدارة شؤون تحرير المزارعين الروس من أحد أشكال العبودية الذي كان سائدًا آنذاك. وكان أيضًا مؤلفًا لأول عمل أدبي روسي يتحدث عن شعارات النبالة heraldry (أعيد نشره في موسكو قبل بضع سنوات) وقدم شعارًا قبيحًا نوعًا ما من شعارات النبالة لعائلة Lakier، والذي يمكن العثور عليه على الأنترنت. تزوج من ابنة P.A.Pletnev، أحد أصدقاء بوشكين ورئيس جامعة سانت بطرسبرغ الحكومية. توفيت السيدة في أثناء الولادة. وبعد بضع سنوات تزوج ثانية من سيدة من عشيرة Komnenos Varvakis في Taganrog. أنطون تشيخوف، أحد سكان Taganrog، ذكر بأن ثلاثة أو أربعة أشراف فقط كانوا يعيشون هناك في بلدته؛ أنا على يقين من أن عمي الذي أزيح ثلاث مرات من تلك القائمة كان واحدًا منهم. كانت عائلة Komnenos تمثل الأسرة الملكية لبيزنطة. وهكذا وجدت نفسي (بالرغم من بعد المسافة) أنتمي إلى كافة أنواع الشخصيات التاريخية، البعض منها متميز ويتسم بالأهمية، والآخرون ذوو سمعة مشكوك بأمرها.

مع ذلك، فقد كانت هنالك مشكلة بسيطة: لقد وجد بوريس، الطبيب وسيد البلاغة أن من الضروري بالنسبة له بعيد وصوله إلى روسيا الاستحواذ على "أسطورة" أو رواية مبتكرة، كما هو معروف في عالم أجهزة الاستخبارات. وفقًا لهذه الرواية فهو لم يولد يهوديًا في Silesia، وكونه تزوج هناك فقد كان قد خلف ورائه ابنة، كانت خلفيته ارستقراطية فرنسية محضة. كانوا يتحدرون من تولوز Toulouse وكان قد وصل إلى روسيا مع جيش نابليون. بوسعي أن أفهم الحاجة إلى رواية ملفقة من هذا النوع في روسيا في ذلك الوقت، ولكن كان عليه تلفيق رواية ما أكثر قابلية للتصديق، لأنها لم تكن تتمتع بتلك المصداقية على نطاق واسع. توفي في موسكو وهو مدفون في مقبرة أصحاب العقائد الأجنبية. وقد التقيت ببعض أحفاده.

إذًا، فقد كان هؤلاء أرحام عائلتي من الروس.

لم يكن ليتوفر لي في أبحاثي مساعد أفضل من كريستوفر وول Christopher Wall. انا ممتن له على مساعدته لي في إصدار هذا الكتاب وأيضًا لـ David Baggis وMicheal Allen وكذلك لـ Joshu Klein وIrene Losota على مساعدتهم لي في فهم بعض النقاط المحددة.

غني عن القول أن الآراء المعبر عنها في هذا الكتاب هي آرائي الخاصة ومن بنات أفكاري. المؤلفات التي كتبت عن روسيا المعاصرة بالروسية والإنكليزية قد ازدادت بوتيرة كبيرة في السنوات الأخيرة، وقد جرى إعداد قائمة ببعض المراجع الرئيسية وإدراجها في السيرة الذاتية في نهاية الكتاب. كما أن عدد المواقع الإلكترونية ذات الصلة ما برح يتزايد حتى بوتيرة أكبر، لدرجة أنها باتت عصية على الإحصاء والتدقيق. قائمة روسيا Russia List لجونسون Johnson ونافذة على أوراسيا Window on Eurasia لـ بول غوبل Paul Goble اللذان يجري نشرهما يوميًا، كانا ذا عونٍ مميز بالنسبة لي كونهما شَكَّلا مدخلًا للوصول إلى ما كنت أريد الوصول إليه. المواقع الإلكترونية الروسية، التي يصعب حصرها شكلت كذلك عونًا كبيرًا بالنسبة لي.

البُوتينِيّة

المقدمة

إنها محاولة لدراسة وتقييم الآفاق المحتملة لمستقبل روسيا، والأهم، "المشروع الروسي" (إيديولوجيًا كان أم عقيدة) الذي سيحل محل الشيوعية. ينطوي هذا المسعى على عدة سيناريوهات، بعضها مرجّح على الآخر. لسوء الحظ، فإن الأقل ترجيحًا هو ما يحصل عادة ويتحقق - أو أن بعض هذه السيناريوهات كان غريبًا وغير مألوف، لدرجة أن أحدًا لم يكن يجرؤ على الإتيان على ذكره (أو لعله فعل ذلك بناءً على افتراضات خاطئة).

من بين الدستة الأخيرة من الزعماء الاثني عشر الذين جرى اختيارهم لحكم الاتحاد السوفييتي وروسيا، جميعهم، باستثناء الأخير منهم، لم يكن مجيئهم ينطوي على أية مفاجأة. فجميعهم كانوا أعضاء في المكتب السياسي للحزب، الهيئة الرسمية الحاكمة. كان من الطبيعي لعضو هذه الهيئة أن يكون الزعيم التالي للبلاد. كان اختيار فلاديمير بوتين Vladimir Putin أكثر استثنائية بكثير، لكن السياسات التي انتهجها لم تكن كذلك. لقد رأى المتابعون للمشهد الروسي بأن صعود بوتين إلى سدة السلطة كان يمكن معارضته والوقوف في وجهه - متأثرين ربما بإحدى مسرحيات بيرتولد بريخت Bertold Brecht الأقل إثارة التي كتبت إبان العهد النازي حول الصعود القابل للممانعة إلى سدة السلطة من قبل آرتورو وي Arturo Ui، ملك تجارة القرنبيط. لكن البراهين المتوفرة بشأن مصداقية هذه الرواية ليست قاطعة إلى هذا الحد. من حيث المبدأ، فإن أي شيء كان قابلًا للحدوث في أعقاب فترة حكم يلتسن المدمرة والفوضوية. لكن في ضوء كل ما كان معروفًا عن التاريخ والتقاليد الروسية والشؤون السوفييتية الحالية، فإن ظهور ديكتاتورية قومية كان أكثر ترجيحًا من أي احتمال آخر حتى خلال فترة التسعينات. (Walter Laqueur, The Long Road to Freedom, New York, 1989). وقد رأى بعض الاقتصاديين بأن ثروات النفط والغاز لا تستطيع المساهمة إلا بنصف الدخل القومي الروسي في الحقبة البوتينية. هذا صحيح، لكن دخل النفط والغاز كان عاملًا حاسمًا، فهو يسهم إلى حد بعيد في نهوض الاقتصاد بشكل عام، وفي مجمل الخطط الاجتماعية والسياسية التي أطلقتها حكومة بوتين والتي استفاد منها السكان، وأخيرًا وليس آخرًا إسهامه في خدمة سياسة بوتين الخارجية والعسكرية خلال عامي 15/2014. في الوقت الحالي، لن يكون اختيار الزعيم القادم أو القيادة القادمة بالأمر السهل نظرًا لعدم وجود مكتب سياسي كما ذي قبل.

من السهل التكهن بأن خليفة بوتين سينتهج السياسات ذاتها التي انتهجها سلفه، أو سياسات مشابهة لها، على الصعيدين الداخلي والخارجي. ولكن من غير المرجح أنه سيكون أكثر اعتدالًا. لا توجد هنالك حقائق ثابتة. لأن الكثير يعتمد على الوضع السائد حينها، داخل وكذلك خارج روسيا. والكثير قد يعتمد على قوة أو ضعف الخلف، وعلى وجود أو عدم وجود منافس (أو منافسين). وربما ينشب صراع على السلطة بين العديد من المرشحين.

لمتابعة النقاش على خلفية هذه السطور، من الضروري اعتماد مقاربات مألوفة، من خلال تلخيص (أو محاولة تفسير) الأحداث التي حصلت منذ سقوط الاتحاد السوفييتي - صعود ميخائيل غورباتشيف والآباء الآخرين للغلاسنوست والبيريسترويكا، عصر بوريس يلتسن وبوتين.

قبل كثر من عشرين عامًا، وفي دراسة أجريتها عن أقصى اليمين في روسيا (المائة السوداء Black Hundred)، حاولت، بمفهوم تلك الأيام، "التمييز بين الهواجس المشروعة للوطنية الروسية والفانتازيا الباثولوجية لأقصى اليمين." أوضحت كذلك أنه في ضوء الوضع المتقلقل لروسيا، "فإن اليمين يتشبث بقوة بإيمانه بأن الوقت يعمل لصالحه، وأن طموحه هو استعادة مكانة روسيا كقوة عالمية." علاوة على ذلك، "فإن أقصى اليمين سوف يلعب دورًا حاسمًا في السنوات القادمة." تطرقت كذلك إلى ذكر بوشكين عدة مرات، لكن بوتين لم يظهر في هذا الكتاب. وفي الحقيقة فإنه لم يظهر في أي كتاب آخر معروف بالنسبة لي. من جهة أخرى، فقد تطرقت إلى موضوع ألكسندر ديوجين بقدر من التفصيل - لم يكن قد أصبح بعد شخصية مشهورة حينها. ولكن هنالك وطنية حقيقية مخلصة، ووطنية (حانات البيرة)، المنبوذة والسخيفة بوصفها وطنية فارغة لا معنى لها في منظور مفكري القرن التاسع عشر الروّاد أمثال بيلنسكي.

ما الذي قصدته بعبارة "الهواجس المشروعة لروسيا"؟ ما قصدته بالضبط هو التالي: محاولة استعادة بعض ما تم خسارته على الأقل. أنا لا أباهي بهذا الإنجاز التنبؤي البطولي على وجه الخصوص، لكنني أجد أن من الصعوبة بمكان فهم وتفسير ذلك التفاؤل السائد بين الكثيرين بخصوص آفاق الديمقراطية والحرية في روسيا. الأرجح أنه كان تفكيرًا حالمًا قوامه الأمل والتمني، والاقتناع بأن الحرب الباردة قد انتهت أخيرًا وأن بإمكاننا تكريس وقتنا وطاقتنا ومواردنا للمهام الأساسية التي تواجه وطننا. بالنظر إلى تاريخ روسيا، أي أرضية ستكون هنالك لمثل هذا التفاؤل؟

بدا واضحًا أن روسيا ستستعيد من جديد مكانتها كقوة عالمية بمجرد توافر الظروف لذلك. برغم كل شيء، كانت ألمانيا قد هزمت في الحرب العالمية الأولى وكان عليها أن تعاني من نتائج تلك الحرب - مع ذلك، وفي غضون خمسة عشر عامًا استعادت مكانتها كقوة رائدة. لطالما حدثت مثل هذه النكسات عبر التاريخ، والأرجح أنها ستحدث ثانية.

بدا واضحًا كذلك أن النهج العام للبحث الروسي عن عقيدة ورسالة جديدة سيتجه نحو اليمين الاستبدادي، رغم أن بوسعي الاعتراف بأنني لا أتوقع له أن يمضي بعيدًا جدًا في هذا الاتجاه، أو أن يتحقق هدفه بسرعة كبيرة. لتوضيح هذه النقطة: روسيا حاليًا هي دولة ديكتاتورية تتمتع بقدر كبير من الدعم الشعبي، لكنني لا أرى بأن استحضار الفاشية في هذا السياق سيكون مفيدًا جدًا. ولا أرى كذلك أن من المحتمل لها أن تصل إلى هذه المرحلة في المستقبل المنظور. المقارنات مع الأنظمة الإكليريكية الفاشية في أوروبا خلال الثلاثينات، مع نظام فرانسيسكو فرانكو في إسبانيا، أو مع بعض الديكتاتوريات في البلدان النامية بعد الحرب العالمية الثانية، تبدو أقرب إلى المنطق.

لكن روسيا قد مضت بعيدًا في هذا الاتجاه. فإلى أين ستمضي أبعد من ذلك؟

لقد وجدت من الغريب، بل من السخيف معرفة أن اليسار خارج روسيا كان بالكاد مدركًا للتغيرات الإيديولوجية والسياسية الحاصلة في روسيا، وأنه لا يزال ينظر إلى روسيا كجناح يساري بطريقة من الطرق. لعل هذا يتعلق بحقيقة أن المسافة بين شعبوية اليسار وشعبوية اليمين باتت متماهية إلى حد بات يصعب معه تحديد الخطوط الفاصلة بينهما. ما هو الفرق بين شيوعية الحاضر الروسية وحزب فلاديمير زيرينوفسكي؟ طالما أن كليهما يصوت لصالح الحكومة في كافة

القضايا الهامة؛ لا توجد هنالك أي معارضة سياسية حقيقية في روسيا. حتى طبقة النخبة المثقفة في روسيا تبدو أحيانًا وكأنها قد اختفت ولم يعد لها وجود. لطالما كان أقصى اليمين في أوروبا أسرع من غيره في فهمه للتغيرات الحاصلة في روسيا، وتعديل ماكينته الدعائية وسياسته على هذا الأساس.

سأتطرق في هذا الكتاب إلى الحديث عن العقيدة الجديدة الآخذة بالظهور شيئًا فشيئًا في روسيا. إن معظم البلدان، حتى معظم القوى العظمى، قادرة على البقاء والاستمرار من دون عقيدة أو رسالة أو مصير واضح، ولكن ليس روسيا. تنطوي العقيدة أو الإيديولوجية الروسية على عدة مكونات: الدين (عقيدة الكنيسة الأورثوذكسية، رسالة روسيا المقدسة، روما الثالثة والقدس الجديدة)، الوطنية/ القومية (مع اصطفافات باتجاه الشوفينية)، النمط الروسي من الجيوبولتيك، الأوراسية، شعور القلعة المحاصرة، والزابادوفوبيا (الخوف من الغرب)، الذي ابتدعه الفيلسوف والمنظر الإيديولوجي نيقولاي دانيلفيسكي كـ"ثقافة غربية"). يعرف طلاب الآدب الروسي الأوائل بأن الإيمان بفردية روسيا يعود عمليًا إلى بداياتها؛ الكتاب (غالبًا تجار) الذين كانوا في الخارج عادوا يحملون قناعة بأن الروس كانوا أفذاذا فريدين من نوعهم وليس لهم نظير. هذا ينطبق مثلًا على أفاناسي نيكيتين Afanasi Nikitin من إقليم تفير Tver، الذي ذهب إلى الهند عدة مرات قبل فاسكو دا غاما Vasco da Gana؛ وينطبق على نستور أسكندر Nestor Iskander، الذي كتب عن سقوط القسطنطينية وعلى مكسيم مكسيموس Maxim Maximus، وهو راهب من جبل آثوس Athos كان قد دعي إلى روسيا واستقر هناك. إضافة لذلك، كانت هذه القناعة مقترنة عادة بعقيدة أخرى - الروسوفوبيا، أي اليقين بأن كل الأجانب كانوا ضد روسيا. (مثل هذه المخاوف كانت بالأساس روسية؛ في المقالات الأولى بالذات التي جرى التطرق فيها إلى الحديث عن مصير أمريكي واضح في ثلاثينات القرن التاسع عشر، نجد أيضًا إشارات تؤكد بأن كل الأجانب عمليًا كانوا معادين للولايات المتحدة). من غير الواضح سبب هذا الغموض، لأن موقف العالم الخارجي من روسيا في عهد إيفان الثالث Ivan III وايفان غروزني (الرهيب) Ivan Grozny كان موقفًا لا يتسم بالعدائية بقدر ما يتسم بالافتقار إلى الاهتمام الحقيقي.

هنالك جذور راسخة متأصلة للمسيحية الروسية المخلّصة "Russian messianism، المتمثلة بالإيمان برسالة خاصة من الله. كان هذا الإيمان موجودًا لدى أمم أخرى بالطبع، سيما في القرن التاسع عشر؛ ولكن في معظم الحالات كان هذا الإيمان بمثابة مرحلة عابرة، في حين أنه في روسيا ظل راسخًا حتى ما بعد السلافوفيل، الذين هم أكثر المؤمنين تعصبًا لهذا النوع من الرسائل اللاهوتية. لا ينبغي إذًا أن يكون بمثابة مفاجئة أن المسيحية السياسية شهدت مولدًا علمانيًا جديدًا خلال الفترة السوفييتية، وأنها ظهرت مجددًا في عصرنا كجزء من البحث عن مشروع روسي جديد.

يشبه هذا البحث عن إيديولوجية جديدة إلى حد ما العودة إلى الأوضاع التي كانت سائدة قبل ثورة 1917، بالرغم من بعض التغيرات الهامة، باعتبار أن عام 2014 - 2015 يختلف عن عام 1914. مثل هذه العكسية الدراماتيكية مرشحة لبعث العديد من المواضيع المؤلمة. أن يكون ليون تروتسكي، على سبيل المثال، شخصية شريرة هو أمر مفروغ منه، كان تروتسكي يهوديًا وأمميًا، وما فعله لحق الضرر بروسيا. فلاديمير لينين، رغم كونه أفضل قليلًا ربما، كان أيضًا قوة

سلبية. لقد جاء نجاح الجيش الأحمر في الحرب الأهلية بمثابة كارثة؛ لا بد من رد الاعتبار لألكسندر كولتشاك وبايوتر رانغل وأنطون دينيكين - وهي عملية سبق أن حصلت في الحقيقة.

من ناحية أخرى، لا ينبغي الحط من قدر جوزيف ستالين. كانت فترة صعبة؛ ارتكب موبقات لا يمكن تبريرها، لكنه أسهم كذلك في جعل روسيا أعظم وأقوى، وكان بذلك قوة إيجابية. ولكن كيف ندافع عن ستالين في وجه هجمات "الليبراليين،" من منطلق أنه كان مقربًا جدًا من لينين؟

من الأفضل لهذه القضايا التاريخية أن يتم تجاهلها، أو على الأقل التقليل من أهميتها. في غضون عشرين أو خمسين عامًا، لن يكون لها أي مكانة بارزة.

يعد الدين، أو لنقل الكنيسة الأورثوذكسية، عنصرًا ذا أهمية كبرى في أي توجه إيديولوجي جديد. لم يكن للكنيسة قبل العام 1917 تلك المكانة أو الأهمية الكبيرة. قد يكون لدى طبقة النخبة الثقافية اهتمامات بالدين، ولكن ليس بالكنيسة. كان البعض من رجال الكنيسة موضع حب وإعجاب كأفراد، لكن الغباء والسذاجة والمعايير الأخلاقية المتدنية لمعظم رجال الكهنوت ولدت قدرًا لا يستهان به من الازدراء. في ظل الحكم الشيوعي، لم تكن أحوال الكنيسة على ما يرام. أغلقت الكنائس، وجرى إزعاج ومضايقة مرتاديها، وجرى سجن الكهنة والقساوسة أو نفيهم، أو حتى قتلهم.

صمدت الكنيسة، ولكن كان عليها أن تدفع ثمنًا باهظًا، فقد باتت مرتعًا لرجال الأمن السري وجرى استدراجها عمليا لتغدو جزءًا من أجهزة المخابرات GPU/NKVD/KGB. كل التعيينات الأساسية الرفيعة في تراتبية الكهنوت الكنسي كان يجب أن تحظى بموافقة الأجهزة الأمنية، وأحيانًا حتى المكتب السياسي للحزب. العديد من رجال الكنيسة، حتى أصحاب المراتب الرفيعة على سلم التراتبية الكنسية، أصبحوا مخبرين لصالح النظام.

في منظور الأحداث الماضية، مكنت هذه المهادنات الكنيسة من الصمود والبقاء، في حين أن أولئك الذين كانوا قد أسهموا في قمعها لم ينجحوا في ذلك. ولكن هل كان بقاء الكنيسة المنظمة الهدف الأسمى؟ هم لم يتصرفوا بالتأكيد على غرار شهداء العهود الأولى في تاريخ الكنيسة.

كانت الكنيسة قد أخطأت. ولكن بعد سقوط الشيوعية، اعترفت بأخطائها، وجهدت لاعتبار ذلك الفصل من تاريخها بحكم المغلق. أعيد افتتاح الكنائس، وأعيد تجديد نشاطاتها، واعتبر الحكام الجدد الكنيسة بمثابة جزء أساسي لا يتجزأ من النظام الجديد. وهكذا، برزت أسئلة جديدة إلى حيز الوجود. إلى أي درجة يجب أن تكون العلاقة وثيقة بين الكنيسة والدولة؟ ما هو الإنجيل الذي كان على الكنيسة حديثة الولادة أن تستمد منه تعاليمها؟ لطالما زعم بأن قيمها الروحية كانت شاملة، لكنها كانت في الحقيقة كنيسة دولة. قبل الثورة، كانت أقرب ربما إلى الدولة منها في أي بلد أخر. كان على الشخص المتدين أن يكون وطنيًا، وكانت الحكومة هي من يقرر طبيعة سلوك الشخص الوطني. لكن هذا التقارب بين الكنيسة والدولة لم يكن بمثابة نعمة، وكانت هنالك تحذيرات من هذا التقارب داخل الكنيسة نفسها. لهذا السبب، فقد أبدت بطريركية موسكو مؤخرًا قدرًا من الحيطة والحذر: حتى في أثناء محاولة التهرب من النزاعات مع الدولة، فقد أوضحت الكنيسة بأنها لا تدعم ضمنيًا كل سياسة تصدرها الحكومة.

كانت هنالك أسئلة مربكة أخرى. الغالبية العظمى من الروس كانت تعتبر الكنيسة بمثابة عامل إيجابي وحيوي في حياة البلاد. لكن غالبية مماثلة (80 بالمئة تقريبًا) لم تكن تمارس أي طقوس دينية أو حتى تؤم الكنيسة، ما عدا في مناسبة أو في مناسبتين من المناسبات الأكثر أهمية. كما أنها لم تكن تلتزم بتعاليم الدين أو بأوامره ونواهيه.

كانت طقوس الكنيسة الأورثوذكسية واضحة جلية، ولكن ما الذي كان عليها أن تبشر به أو تعلّمه؟ هل كان الحب الذي بشّر به السيد المسيح، أم الإحسان والرحمة؟ هل كان حب الله، أم كراهية الشيطان - يقصد اليهود، الكاثوليك، الماسونيين، الليبراليين، البابا، وكافة أعداء روسيا؟

كان لا بد من مواجهة هذه الأسئلة في أعقاب النهضة الأورثوذكسية، إلى جانب عناصر أخرى من الإيديولوجية الروسية الجديدة، كالأوراسية الجديدة، والعدائية العالمية والجيوبوليتيكا - ناهيك عن علم الكونسبيرولوجيا conspirology (علم نظريات المؤامرة) الجديد. يمكن للفرد بالطبع أن يكون وطنيًا روسيًا مخلصًا، حتى لو لم يكن يؤمن بأن الكون برمته تقريبًا كان منشغلًا بالتآمر ضد روسيا. ولكن عمليًا، كانت هنالك علاقة وثيقة ودائمة تقريبًا بين هذه العقائد المتنوعة.

جرى وضع بعض التحفظات على هذه المرحلة. أولًا، إن النمط الروسي للأوراسية والجيوبوليتيكا هو نمط حديث العهد نسبيًا. كان هنالك مثل هذه المعتقدات في القرن التاسع عشر، ولكن ليس أكثر مما هو موجود في بلدان أخرى، كما أن اعتناقها لم يكن أكثر عمقًا. لقيت هذه المخاوف زخمًا جديدًا في عهد ستالين. أما في ما يتعلق بالكونسبيرولوجيا، كنت قد افترضت بأن الاعتقاد الروسي بالمؤامرات المُقنِعة كان يعود إلى عهد ليس ببعيد، ولكن كان علي أن أقوم بمراجعة آرائي ووجهات نظري عندما عثرت على النص التالي المكتوب من قبل فلاديمير سولوفيوف، الفيلسوف الروسي العظيم في عام 1892:

> لنتخيل شخصًا موفور العافية قوي البنية وموهوبًا، ولا ينقصه اللطف أو حلاوة المعشر - لأن هذه هي الرؤية العامة المنصفة تمامًا للشعب الروسي. نحن نعرف بأن هذا الشخص أو الشعب هو الآن في حالة يرثى لها. إذا أردنا مساعدته، علينا أولًا أن نعرف ما هي مشكلته. نحن نعرف حقيقة بأنه ليس مختلًا عقليًا، وأن عقله قد ابتلي فقط بقدر من الأفكار الزائفة التي تقارب جنون العظمة والعدائية تجاه كل شخص وكل شيء. ونظرًا لكونه غير مبال حيال مزاياه الحقيقية، وغير مبال تجاه الضرر الذي يمكن أن يلحق به، فهو يتخيل أخطارًا ليس لها وجود، ويبني عليها أكثر الافتراضات سخفا وتفاهة. يبدو بالنسبة له أن كل جيرانه يزعجونه، وأنهم لا ينصاعون بما فيه الكفاية لأوامر عظمته، وأنهم يسعون بكل السبل لإيذائه؟ إنه يتهم كل شخص في عائلته بمحاولة إزعاجه والابتعاد عنه، والوقوف في معسكر عدوه. إنه يتخيل بأن جيرانه يريدون تقويض أركان منزله، بل وحتى شن هجوم مسلح ضده. لذلك فهو ينفق مبالغ طائلة على شراء البنادق والمسدسات والأقفال الحديدية. وإذا ما تسنى له وقت إضافي، فسوف يتفرغ لمواجهة عائلته بالذات.
>
> لن نقدم بالطبع على إعطائه المال، حتى لو كنا متلهفين لمساعدته، لكننا سنحاول إقناعه بأن أفكاره مخطئة وغير مبررة. ولكن إذا بقي على عناده وظل مواظبًا على جنونه، فلن ينفع معه لا المال ولا الدواء.

بعد مئة وعشرين عامًا، لا أستطيع أن أستحضر وصفًا أبلغ تعبيرًا منه عن أوضاعنا الراهنة.

عود على بدء أقول: ليست هذه المحن حكرًا على روسيا وحدها. ربما كان معظم هذه المعتقدات مستوردًا من الخارج. البعض منها ظهر أول ما ظهر في أوساط أقصى يمين المهاجرين الروس، بينما وجد معظمها في منشورات "اليمين الأوروبي الجديد" لمرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية؛ اليمين الفرنسي الجديد The French nouvelle droite والفاشيون الجدد neo - fascists، والتي تراوحت من ألان دو بينوا Alain de Benoist إلى البلجيكي جان فرانسوا ثيريارت Jean Francois Thiriat، والإيطالي جوليو إيفولا Julio Evola، وغيرهم من

الميتافيزيقيين المؤمنين بالخوارق والغيبيات، والتي كانت تجمع ما بين الاتجاهات المناوئة لأمريكا anti - Americanism وتلك المناوئة للسوفييت anti - Sovietism والإعجاب بستالين وماو وتشاوشيسكو وحركة فتح.

تبدو هذه المؤثرات واضحة جلية في كتابات ألكسندر ديوجين، أحد كبار فلاسفة العصر الجديد، ولكن يمكن تقصيها أيضًا في أعمال إيغور بانارين Igor Panarin وآخرين. بعد فترة من الزمن، بات واضحًا أن هذه الأفكار الغامضة الغريبة ينبغي أن تعزز بمنتجات محلية، وكان في هذه المرحلة أن تم جلب نيقولاي دانيلفسكي وعدد من المفكرين الروس الآخرين الذين يكنون كرهًا شديدًا للغرب إلى روسيا. إيفان إيلين (1883 - 1954)، المغترب الإيديولوجي الرجعي، شكل مصدرًا هامًا آخر من مصادر التأثير، وغالبًا ما كان يجري استحضاره في السنوات الأخيرة من قبل بوتين نفسه وأولئك المقربين منه.

جرى إعادة اكتشاف نيقولاي دانيلفسكي (1822 - 1885). شخصية مثيرة، كان ينتمي في سنواته الأولى إلى منتدى بتراشيفسكي سيركل الثقافي Petrashevsky Circle، مجموعة حوار أدبي راديكالية تدرس الاشتراكية الفرنسية، سرعان ما جرى اعتقال أعضائها. درس البيولوجيا، واختلف مع داروين، لكنه كان يكره أوروبا، التي كان يكن حيالها مشاعر عنيفة، لكنه لم يكن يعرف الكثير عنها. أصبح كتابه "روسيا وأوروبا" (1869) بمثابة الكتاب المقدس لمدرسة كراهية أوروبا. كان يعتقد بصدق (بحسب كاتب سيرته الذاتية) أن الروس كانوا أبناء النور والأوروبيين أبناء الظلام. كان الأوروبيون عنيفين ومولعين بالحرب، في حين أن الروس كانوا محبين للسلام. كان الأوروبيون يريدون الحرب، وكانت الحرب شرًا. من نواح عديدة، كان دانيلفسكي مبشرًا مثاليًا من مبشري المدرسة المناوئة للغرب في روسيا المعاصرة.

تستند الأوراسية الجديدة، التي هي عبارة عن معتقد هام من معتقدات العقيدة الروسية الجديدة، إلى الافتراض القائل بأن أصول الدولة الروسية موجودة في آسيا أكثر منها في أوروبا؛ وأن التعايش مع المغول والتتار والقبائل الآسيوية أسهم إلى حد بعيد في تشكيل روسيا؛ وأن على روسيا أن تبحث عن مستقبلها في آسيا بعد أن رفضها الغرب. يمكن القول بأنه زواج بين آنا كارنينا وجنكيز خان. لا تتماشى أفكار المدرسة الأوراسية الجديدة مع التفكير الأوراسي لأواخر القرن التاسع عشر والمدرسة التاريخية الفلسفية لفترة العشرينات، الذي كان أكثر حرصًا وذكاءً. تلقى الأوراسيون الجدد زخمًا جديدًا من خلال كتابات ليف غوميليف Lev Gumilev حول علم نشوء الأعراق ethnogenesis والانفعالية العاطفية passionarity، والتي أصبحت سائدة بعد تفكك الاتحاد السوفييتي. لقد حققوا أيضًا قدرًا أكبر من الشعبية مع صعود الصين ومنطقة شرق آسيا/الباسفيك عمومًا. تكمن مزايا العقائد الأساسية لأقصى اليمين الروسي في غموض معانيها نسبيًا؛ فهي يمكن أن تعني شيئًا ما، ولكنها أيضًا تعني شيئًا آخر. قد تعني الانفعالية العاطفية استعداد أمة ما أو مجموعة ما من الناس لتقديم التضحيات في سبيل معتقداتهم.

في ضوء الأهمية المتراجعة لأوروبا، يمكن بناء قضية منطقية حول اهتمام روسيا الشديد بأسواق شرق آسيا، واهتمامها الأكبر بآسيا عمومًا. ولكن بالنظر إلى أصولها وتاريخها، وكذلك مؤثراتها الثقافية ومعطياتها الديمغرافية، ليس هنالك سوى قدر ضئيل من الدعم لفكرة أن روسيا هي أساسًا قوة آسيوية. فالغالبية العظمى من الروس لا يعيشون في آسيا، والعديد من أولئك الذين

يعيشون في سيبيريا يتحينون الفرص لمغادرتها. علاوة على ذلك، لا يبدي الآسيويون كثيرًا من الحماس لاحتمال حدوث هجرة روسية. وهكذا يمكن للأوراسية الجديدة أن تصنف كإيديولوجية تضم باقة متنوعة من العقائد والأذواق، وليس الحقائق. قد يعتبر النقاد المتحاملون ذلك بمثابة تفكير حالم في غير محله، أو حتى بمثابة تفاهة متسترة برداء الحقيقة والواقع. إن حقيقة أن روسيا لديها مصاعب مع أوروبا لا يجعل منها دولة آسيوية. مع ذلك، فقد كانت المحاولات الهادفة إلى تقديم الأوراسية الجديدة على أنها فانتازيا خيالية محاولات غير مثمرة، لأن مثل هذه الفلسفات والعقائد غير قابلة للمناقشة العقلانية.

تطور آخر ينطوي على مفارقة واضحة تم رصده من قبل دبلوماسيين وباحثين غربيين وآسيويين على حد سواء. ففي الوقت الذي كان فيه هنالك قدر كبير من المناقشات المكثفة على المستوى الإيديولوجي حول أهمية الأوراسية وروسيا كقوة آسيوية ناشئة، وفي حين أن الكثير من الوعود جرى تقديمها بخصوص التنمية الاقتصادية والتطور العام في روسيا ما وراء جبال الأورال، إلا أن شيئًا من ذلك لم يتحقق على أرض الواقع. كان هذا نتيجة التقاعس الاعتيادي، لكنه كان بشكل رئيسي نتيجة الأحداث في أوكرانيا والقرم (والحملة المرافقة المناوئة للغرب) والتي أسهمت في خلق مزيد من التباعد بين المصالح الروسية وتلك الآسيوية.

لا يوجد في قاموس المصطلحات مصطلح يستخدم ويساء استخدامه في الحوارات السياسية في عصرنا الحالي أكثر من مصطلح "جيوبوليتيك." كان هذا المصطلح يشير أساسًا إلى العلاقة بين الجغرافيا والسياسة، وهي قضية واضحة ومطلقة المشروعية. لكنه ما برح يستخدم في بلدان مختلفة ومن قبل أناس ذوي آراء سياسية مختلفة للتعبير عن أشياء عديدة مختلفة. قد يحدث هذا أحيانًا لأن مصطلح "جيوبوليتيك" يبدو أكثر جاذبية من كلمة "بوليتيك "، لكن غالبًا ما يقصد به التعبير عن الحقوق والمهام والمزايا التاريخية الممنوحة من قبل الله والطبيعة، والتي حظي بها بلد معين بفضل موقعه الجغرافي. وهكذا، يمكن لمصطلح "جيوبوليتيك" أن يستخدم لإثبات أن المهمة التاريخية لـ روريتانيا Ruritania هي في أن تكون القوة الرائدة لأفريقيا: لأنها تمتلك مدخلاً إلى ثلاثة محيطات مختلفة وأربعة أنهار رئيسية، أو لأن المحور الروريتاني - الطوباوي يجعل من هذا الموقع الاستراتيجي وجهته الرئيسية وسياسته الحتمية. مع ذلك فإن بوسع الحقائق الجغرافية المذكورة أن تستخدم أيضًا لإثبات العكس.

يعد مصطلح "جيوبوليتيكي" مصطلحًا مفيدًا بشكل خاص عندما تكون القضية الأساسية تتعلق بإثبات لماذا يمتلك بلد بعينه رسالة إلهية تبرر له سعيه ليغدو قوة عظيمة، أو قوة عظمى، أو إمبراطورية، بالرغم من أن النظرية باتت في حكم النظرية البالية التي تجاوزها الزمن، إلا أنها تعد بمثابة تبرير مشروع للتحرك في هذا الاتجاه من وجهة نظر الجيوبوليتيكا الروسية.

جرى إحضار الرسالة الجيوبوليتيكية إلى روسيا من قبل ألكسندر ديوجين في أواخر تسعينات القرن الماضي. يهدف تفكير ديوجين إلى بسط الهيمنة الروسية على أوراسيا، بوصفها قارة (ثالثة) جديدة. ولكن بما أن روسيا لم تكن قوية بما فيه الكفاية لوحدها لأسباب عسكرية واقتصادية وديمغرافية، فقد كانت بحاجة إلى كثر من محور لتحقيق هذا الهدف: موسكو - طوكيو وموسكو - طهران كانا من ضمن الاعتبارات التي جرى أخذها بالحسبان، لكن كليهما أثبت بأنه ينطوي على مشكلات وتعقيدات كثيرة. مع ذلك، فإن محور موسكو - برلين حظي بالعديد من المتعاطفين معه

في روسيا. وهذا يتسم بأهمية كبيرة لأن ألمانيا كانت العدو التقليدي، والمملكة المتحدة وفرنسا كانتا حليفتين. على أية حال، في الوقت الذي أصبح فيه بوتين رئيسًا، كان سجل ألمانيا في الحرب العالمية الثانية قد دخل طي الصفح والنسيان.

كانت نقطة الانطلاق الفكري لديوجين من العالم اللاعقلاني، العالم الخفي والميتافيزيقي الغامض. لم تكن هذه المؤثرات جديدة في التاريخ الفكري الروسي. لكن ديوجين أدرك فعليًا بأنه في حين أن غوردجيف Gurdjieff ومدام بلافاتسكايا Madame Blavatskaya (هيلينا بيتروفنا) كانا يستهويان كتّابًا وملحّنين (أمثال مهلر وسكريابين وسيبيليوس) كثر منه عسكريين وسياسيين، فإن نمط الجيوبوليتيكا الروسية يقوم بنفس المهمة بالضبط. كانت رسالة ديوجين موضع اهتمام بالغ من قبل المفكرين العسكريين الروس والأركان العامة ووزارة الدفاع، رغم أن هذا الاهتمام كان مقترنًا بمزيج غريب من الفضول والحذر المبرر، المتمخض عن الإقرار والاعتراف بأن بعضًا من أفكاره لم يكن عمليًا. كان على أداء السياسة الخارجية (بحسب بوتين) أن يكون حيويًا وفاعلًا، لكنه كان موكلًا إلى رجال العالم كثر منه كُتَّاب أدب العلوم السياسية، مبديًا أعراض الهستيريا في الأوضاع الحرجة.

كانت بعض هذه الأفكار مرشحة لأن تصدم القارئ بوصفها أفكارًا فضولية وغريبة، مع ذلك فقد أشرت حتى الآن إلى الأفكار والمعتقدات السائدة. حتى ديوجين العام 2014 كان أكثر اعتدالًا منه قبل عشرين عامًا.

ننتقل مرة أخرى من الآراء المعتدلة إلى تلك الراديكالية - ومعظم الأدب السياسي الروسي المعاصر ينتمي إلى هذه الفئة من الأدب - حيث يغدو الفهم والتعليق صعبًا. هل ينبغي للآراء ووجهات النظر أن تؤخذ حرفيًا وعلى علاتها بأنها غريبة وغير قابلة للتصديق؟ هل يمارس أصحابها ما يسميه علماء النفس "المسامرة" confabulation؟ بمعنى آخر، هل أقنع أصحابُها أنفسَهم بأنهم يقولون لنا الحقيقة، أم إنهم يريدون ببساطة أن يفاجئوا قرّاءهم ويرفهون عنهم؟

تشتمل الهواجس المشروعة للوطنية الروسية على طموحات الروس الإثنيين في الدول المجاورة الذين يشعرون بالتحامل ضدهم ويريدون أن يصبحوا مواطنين روسًا. باعتبار أنه لا يوجد هنالك بلد متجانس بشكل كامل، فكيف يمكن للمرء أن يتعامل مع مثل تلك الطموحات جميعها بعدالة وإنصاف؟ ماذا بشأن الروس غير الإثنيين، على سبيل المثال، الذين هم في القوقاز؟ هل يمكن للاتفاقات والترتيبات الإقليمية أن تشكل حلاً، أم أنها ستصطدم بحالة من الدَوْلانية (سيطرة الدولة) وتركز السلطة الاقتصادية بيد الدولة؟ يشكل الإصرار على سلطة مركزية قوية (derzhavnost) جانبًا حيويًا أيضًا من جوانب العقيدة الروسية الجديدة. لفهم السياسة الروسية في هذا السياق، قد يكون من المفيد أكثر الأخذ بموقف بوشكين كثر منه موقف بوتين. في عام 1830، ثار البولنديون ضد الحكم الروسي؛ جرى قمع الانتفاضة وإخمادها وفقد ثمانية آلاف بولندي حياتهم في معركة أوسترولينكا Ostrolenka وحدها. لقيت القضية البولندية دعمًا كبيرًا من جانب أوروبا وأمريكا، الأمر الذي أزعج بوشكين والعديد من الروس الآخرين.

كان الرأي العام الروسي داعمًا لرد الفعل الحكومي من دون استثناء تقريبًا. في إحدى قصائده بعنوان "إلى المفترين على روسيا" To the Slanderes of Russia، كان غضب بوشكين

من المنتقدين الغربيين لروسيا أكبر حتى من غضبه من الخونة البولنديين. لماذا قاموا بتهديد روسيا بالعقوبات؟ ما شأنهم في ذلك؟ لم يكن صراعًا عائليًا بين السلافيين أنفسهم؟ لم يكونوا منشغلين بالحرب منذ زمن طويل؟ كان البولنديون قد أحرقوا موسكو، والروس دمروا براغا، التي هي جزء من وارسو. إذا كان أعداء روسيا يريدون تدخلًا عسكريًا، بحسب بوشكين، فلماذا لا يرسلون أبناءهم؛ فهنالك متسع من المكان لهم في قبور ميادين القتال في بلادنا. عواطف جياشة، كلمات معبرة.

حتى أكثر نقاد روسيا الرسمية ومجتمعها قسوة كانوا يشاركون بوشكين مشاعره. بعضهم كان حتى خائفًا من ألا يكون القيصر بما يتصف به من نبل وشهامة قاسيًا بما فيه الكفاية في تعامله مع البولنديين. ولكن ألم يكن بوشكين الشاعر الذي يمجد الحرية كثر منه الطغيان، أو لم يعاني هو بالذات في سبيل الدفاع عن معتقداته؟ كيف نفسر هذا التناقض؟ جرت محاولة على هذا الصعيد من قبل جورجي فيدوتوف، أحد كبار اللاهوتيين ومؤرخي الكنيسة وأبعد المفكرين نظرا في جيله. رأى فيدوتوف في بوشكين شخصًا كانت أراؤه السياسية قد تشكلت في القرن الثامن عشر: الحرية، نعم - ولكن ليس لكل شخص. كان بوشكين محبطًا من أبناء شعبه. كان مثله الأعلى بطرس الأكبر والإمبراطورة كاترين، رغم أنه كان ينبغي له أي يكون على دراية بالفساد الكبير داخل البلاط. لم يكن ديمقراطيًا، ولكن من كان كذلك في القرن الثامن عشر؟ مع تقدمه في السن، أصبح بوشكين محافظًا أكثر فأكثر.

هنالك بعض التشابه مع الوضع الحالي في روسيا، عدا أن المواقف السياسية لقادة روسيا الحاليين وموقفهم حيال الديمقراطية لم تتشكل في القرن الثامن عشر، وإنما في وقت كان فيه الاتحاد السوفييتي لا يزال موجودًا. لذلك، فإن السؤال الآن هو ما إذا كان موقف الجيل القادم سيكون مختلفا، والى أي درجة.

حدثت هنالك نقلة هائلة على صعيد إيديولوجية النظام الروسي خلال السنوات التي تلت سقوط الأتحاد السوفيتي. جرى استبدال الإيديولوجيا الماركسية - اللينينية بالقومية الروسية وتمجيد الدولة القوية. جرى تسريع هذه العملية بضم القرم والحالة المتعلقة بالحرب الأهلية في شرق أوكرانيا، وكذلك بالهجوم على طائرة الخطوط الجوية الماليزية (MH17) الذي أودى بحياة مئات الركاب. حاليًا، من المؤكد أن عملية الانتقال من الشيوعية إلى شكل من أشكال رأسمالية الدولة تحت إشراف أجهزة أمن الدولة باتت منتهية، ومن المستحيل معرفة إلى أين سيؤدي هذا البحث عن مشروع روسيا جديدة في نهاية المطاف.

خلال العقود الأخيرة من القوة السوفييتية، غالبًا ما كان هنالك قدر من المغالاة في الخارج فيما يتعلق بأهمية الإيديولوجيا الشيوعية. ولم يغد واضحًا أن أحدًا لم يعد يأخذ الماركسية - اللينينية على محمل الجد، إلا بعد سقوط النظام؛ كانت لا تزال تحظى بقدر من التملق والمداهنة، لكنها باتت مادة للسخرية والتهكم في أوساط أولئك الذين كانوا في القيادة العليا. هل هنالك خطر من أن يسود الآن سوء فهم مشابه مفاده أن الآراء السياسية التي لم تكن توجد يومًا إلا على محيط النظام السياسي قد انتقلت إلى مركزه؟ غالبًا ما يزعم بأن روسيا قد أصبحت دولة محافظة دينية وطنية بامتياز. لكن الاستقصاءات السوسيولوجية التي تمت حتى الآن تدعو إلى الحيطة والحذر، لأن حقيقة أن الإيديولوجيا الأساسية في روسيا قد تغيرت جذريًا لا توضح الكثير عن العمق الحقيقي لهذه

القناعات الجديدة. فبحسب الاستقصاءات السوسيولوجية كتلك التي أجريت من قبل فلاديمير بيتوخوف Vladimir Petukhov من الأكاديمية الروسية للعلوم، ليس هنالك ثمة من شك بخصوص تلك الفورة من الوطنية التي حصلت والقناعة الواسعة النطاق بأن بعض الأقاليم الضائعة (كالقرم مثلًا) قد تم استرجاعها. مع ذلك، وبمجرد إثارة السؤال المتعلق بالتضحيات التي سيتوجب تقديمها لاستعادة المزيد من المجد الضائع، فإن النتائج ستكون أقل من لافتة. هنالك أغلبية كبيرة ترغب في رؤية بلدها قوة كبرى، قوة عظمى إن أمكن، لكنها غير مستعدة لبذل جهود كبيرة، سيما جهود مالية، لتحقيق هذا الهدف. قد تكون الأوراسية موضوعًا يحظى باهتمام كبير في أوساط النخبة المثقفة، لكنها ليست كذلك بالنسبة لباقي أفراد المجتمع. فالغالبية العظمى لا تتصرف بوحي من الإيديولوجيا، لأن تركيبتها النفسية وطموحاتها هي بشكل أساسي تركيبة وطموحات أفراد مجتمع استهلاكي.

مجتمع روسيا المعاصرة هو مجتمع تقليدي، وغالبية أفراده يمقتون التغيير. لكن القيم المحافظة لا تسهم في صياغة آرائهم وسلوكياتهم بشكل حاسم. لا يوجد هنالك في الواقع محافظون حقيقيون أكثر مما يوجد ليبراليون في روسيا المعاصرة. تلعب الكنيسة الأورثوذكسية دورًا أكبر بكثير من الدور الذي كانت تلعبه في الماضي، لكن ليس واضحًا فيما إذا كانت ستكون قادرة على المحافظة على هذه المكانة لفترة طويلة: عدد صغير فقط من المؤمنين يحضرون قداديس الكنيسة (قد ترتفع هذه النسبة في الأعياد الرئيسية) أو يُقبلون على أداء الواجبات الدينية الأخرى. وبحسب الاستقصاءات، يعتبر الدين مسألة ذات أهمية قصوى بالنسبة لنسبة 8 بالمئة من السكان. الوطنية 14 بالمئة، وهي نسبة أعلى إلى حد ما.

لن تكون هذه الحقائق المتعلقة بتحفيز غالبية المجتمع الروسي بالضرورة الوحيدة التي ستصوغ السياسة الروسية في السنوات القادمة، لكنها ستحد من نطاقها بلا شك. من هنا كانت الحاجة إلى قدر من الحيطة والحذر أحيانًا عندما تستقطب البيانات والتصريحات الإيديولوجية للقادة السياسيين الروس قدرًا من الاهتمام أكبر من المعتاد، كونها تختلف كثيرًا عن بيانات وتصريحات الماضي.

جرى إطلاق تسمية النبلاء الجدد والوطنيين الغيارى المدفوعين بقيم المثالية الحقيقية على أولئك الذين يحكمون روسيا من السيلوفيك. إنها رؤية نبيلة حقًا، ولكن ما هو مدى صدقيتها؟ في ثمانينات القرن الماضي، كان قد برز وضع غريب: أنفقت إدارة الاستخبارات (KGB) قدرًا كبيرًا من وقتها في ملاحقة وقمع المنشقين، لكنهم لم يكونوا يؤمنون كثيرًا بأن الشيوعية والنظام السوفييتي هم من ضحاياهم أيضًا. لقد فعلوا ما فعلوا لأن الأوامر كانت قد صدرت إليهم من الأعلى. ما الذي نعرفه عن قناعاتهم الحقيقية؟ لعل العديد منهم كانوا من المتهكمين غير المبالين والمستعدين من دون أدنى شك لخدمة أي نظام طالما أنه يحافظ على مناصبهم وامتيازاتهم. ماذا بشأن الوضع الحالي؟ ما هي أهمية الإيديولوجيا، وما هو الوزن الحقيقي للسلطة والمال؟ سيكون من الخطأ استبعاد أهمية الوطنية وغيرها من مكونات الإيديولوجيا الجديدة بوصفها مجرد ستارة دخانية؛ بعض أفراد النخبة الجديدة قد يؤمنون بها بشكل راسخ، والبعض يؤمن بها بدرجة أقل، والبعض لا يؤمن بها على الإطلاق.

يعتبر دور النخبة المثقفة الروسية بمثابة قصة حزينة في خضم هذا السياق عمومًا. خلال القرن الأخير شهد هذا الفصل الأكثر جاذبية وإبداعًا من حياة المجتمع الروسي، الذي أسهم إلى حد كبير

في صوغ ثقافتنا، أشكالًا متنوعة من سفك الدماء. بنتيجة الهجرة و"التصفية" لم يتبق منه الكثير؛ لقد اندثرت المعايير والقيم. جرى الإنحاء باللائمة على الديمقراطيين الروس لفشلهم في محاولاتهم الإصلاحية بعد تفكك الاتحاد السوفييتي. هذا صحيح، ولكن هل كان يمكن لأي كان أن ينجح في ضوء التركيبة العقلية اللاديمقراطية للمجتمع الروسي عمومًا، والرغبة في وجود يد قوية توجه البلاد؟

قد تكون هنالك بوادر تلوح في الأفق حول ظهور طبقة متوسطة جديدة، لكن لا يوجد حتى الآن سوى دلائل قليلة جدًا تبشر بظهور طبقة نخبة مثقفة جديدة. البعض من بقايا هذه النخبة نجح في تحقيق السلام مع النظام الجديد ودعمه، لكن آخرين كانوا يعتقدون أن من الحكمة الانسحاب من السياسة والحياة العامة عمومًا. مرت روسيا عبر تاريخها الثقافي بعصر ذهبي وآخر فضي، لكن المؤشرات تكاد معدومة الآن حتى على وجود عصر برونزي. يتبادر إلى الذهن ما قاله بوشكين بعد أن انتهى من الاستماع إلى نيقولاي غوغول وهو يقرأ له "الأرواح الميتة": "رباه، كم هي حزينة بلدنا، روسيا".

الفصل الأول

نهاية الحقبة السوفييتية

وفقًا لمقولةٍ منسوبة لفولتير فإن التاريخ هو مجرد وقع أقدام لخُفٍّ حريري يهبط السلم نحو قرقعة حذاء عسكري يتسلق السلم من الأسفل. لطالما جرى في الآونة الأخيرة مناقشة السؤال المتعلق بأسباب فشل الأمم وتراجعها، وأسباب تعافيها لفترات قصيرة فقط، وأحيانًا لفترات أطول. لقد استغرق من ألمانيا مجرد خمسة عشر عامًا بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى كي تستعيد قوتها العسكرية والسياسية. واستغرق من روسيا عقدين من الزمن للنهوض والبدء من جديد بعد تفكك الاتحاد السوفييتي.

ولكن هل يعني لنا شيئًا أن نقارن بين روسيا القرن الحادي والعشرين وبقية القوى العظمى والإمبراطوريات؟ إن ظهور الاتحاد السوفييتي كان ظهورًا فذًا فريدًا من نوعه، مستندًا إلى إيديولوجيا راغبة في بناء مجتمع مختلف كليًا عن بقية المجتمعات في التاريخ، وكان لها أن تكون بداية حقبة جديدة، ومجتمع عادل وتقدمي. كان لها أن تكون بداية جديدة في حوليات الجنس البشري. كما يقول نشيد "الأممية" The Internationale، الذي قُدر له أن يكون نشيد البلاد الوطني حتى الحرب العالمية الثانية:

كل ما فعلناه سيكتسح Du passé faisons table rase

ويسترسل أيضًا ليقول:

العالم يتغير من القاعدة Le monde va changer de base

إن الثورة والنظام الذي أنجبته استقطبا كثيرًا من المعارضة والعداء في الأيام الأولى. ولكن بعد نهاية الحرب الأهلية، كان هناك قدر كبير من الحماسة، سيما في أوساط جيل الشباب. كان ذلك عصر البطولات، وكما يقول أناتولي داكتل:

نحن دائمًا على حق في جرأتنا وجسارتنا

لا عوائق تقف أمامنا على البر أو في البحر

لا نخشى جليدًا ولا نهاب غيومًا

نحقق في عام ما يحققه الآخرون في قرن

نحن نحصل على السعادة كحق لنا

نحن نرفع راية وطننا

عبر العالم كله وعبر كل العصور.

لم يتبق من عصر البطولات ذاك إلا "تظاهرات المتحمسين،" لم يتبق إلا اسم ذلك الطريق الفرعي ومحطة المترو على خط كالينين على مترو الأنفاق بمدينة موسكو. إن مؤلف القصيدة نستذكره الآن كمترجم إلى الروسية لمغامرات إيلس في بلاد العجائب وحسب. لقد كتب أيضًا "بوديوني مارش" Budyonny March احتفاءً بالقائد الشهير للحرب الأهلية.

ولكن الحماسة في ذلك الوقت كانت عبارة عن فقاعة في الهواء، كان عصر Kak Zakalyalas Stal (كيف يشكّل الفولاذ) لنيكولاي أوستروفسكي، يصف فيها الجهود الخارقة للعمال الشباب لبناء وتشغيل مصانع جديدة. كان أوستروفسكي شابًا أنهكه المرض (توفي عام 1936 وهو في الخامسة والثلاثين من العمر)، وروايته بيعت أو وزعت بملايين النسخ وأصبحت الكتاب الواقعي الاشتراكي الأكثر رواجًا بامتياز. وقد أخرجت في فيلم سينمائي ثلاث مرات، كما أخرجت أيضًا على شكل مسلسل تلفزيوني جرى عرضه خلال فترة السبعينات. رغم ذلك، في ذلك الوقت لم يعد الشباب يحسون بكثير من التعاطف تجاه بافل كورتشاغنز Pavel Korchagins، أبطال عصر ماض. معبود الجماهير الآخر كان ماغني توغورسك Magnitogorsk، أحد المراكز الجديدة لصناعة الحديد والصلب في الأورال وما وراءها. العديد من خيرة الشباب، والعديد من المثاليين تطوعوا للانتقال إلى هذه الأماكن التي أصبحت محجة تلك الفترة. كان ذلك العصر عصر Shiroka Stranna Moya Rodnaia، الأغنية التي أصبحت أشبه بالنشيد الوطني الثاني للبلاد والرمز المقدس لإذاعة موسكو. لقد أعلنت بأن الاتحاد السوفييتي لم يكن مجرد بلد فيه العديد من الجبال والأنهار، وانما أيضًا بلد بوسع الإنسان فيه أن يتنفس قدرًا من الحرية أكبر من أي مكان آخر.

لقد لعبت ماغني توغورسك دورًا ذا أهمية كبرى في الحرب العالمية الثانية، واليوم يقال بأنها إحدى أكثر الأماكن تلوثًا على سطح الأرض؛ 27 بالمئة فقط من الأطفال المولودين هناك يتمتعون بصحة جيدة. أصبحت ماغني توغورسك مدينة مغلقة على الأجانب، ولم تفتح بواباتها إلا مؤخرًا في عصر الانفتاح والإصلاح glasnost (سياسة اعتمدتها الحكومة السوفييتية تؤكد على وجوب توخي الانفتاح على المعرفة واعتماد الصدق والصراحة عند مناقشة العيوب والمشكلات الاجتماعية). تحوي المدينة الآن 400 ألف نسمة، لكن العديد منهم يتحينون الفرص للهروب منها.

وعلى الرغم من أن 1935 كانت سنة طيبة، لكن أعقبها محاكمات موسكو وعصر الخوف الكبير ومصائب الحرب وبالتالي الانتصار العظيم. بنهاية الحرب كان هنالك قدر أكبر من الأمل في أن كل شيء من الآن وصاعدًا سيكون أفضل حالًا. كانت الحماسة قد تلاشت إلى حد بعيد، ولكن ما زال هناك قدرٌ كبير من الأمل.

كانت الأممية المبكرة قد اختفت، واستبدل النشيد الوطني القديم بنشيد وطني جديد، عبارة عن أغنية وطنية تشيد بروسيا العظيمة ودورها الرائد. لقد شهدت سنوات الحرب ظهور الحزب الروسي الذي سنتحدث عنه بإسهاب، مع ذلك فقد كان هنالك شعور بأن الأسوأ قد انتهى. مات ستالين، وولى عهد الاعتقالات والإعدامات الجماعية إلى غير رجعة. وتحسنت إمدادات السلع الأولية شيئًا فشيئًا. كانت روسيا أول من أطلق إنسانًا إلى الفضاء. تحسنت شروط العيش إلى درجة معينة. وبات لدى الاتحاد السوفييتي ترسانة نووية تلي الترسانة الأمريكية مباشرةً.

لكن التقدم كان بطيئًا في الاتحاد السوفييتي أكثر منه في الغرب. كان الدمار الذي سببته الحرب على الأرض السوفييتية المحتلة أوسع نطاقًا من الدمار الذي سببته في الغرب، وقد شكل ذلك ذريعة إضافية لتبرير التعافي البطيء لروسيا. لقد كانت حجة أقنعت الكثيرين على مدى عقد من الزمن، وربما عقدين، لكنها على ما يبدو لم تعد مقنعة بعد ذلك. برزت بحلول فترة السبعينات شكوك جدية حول كفاءة النظام - من الواضح أنه كان هنالك خطأ ما، ولكن ما هو؟

كان الاتحاد السوفييتي قد أصبح قوة عظمى تمتلك ترسانة عسكرية بالغة القوة، وهو ما أفسح في المجال أمام قدرٍ كبير من الفخر والاعتزاز. لكن امتلاك قوة عسكرية كبيرة كان له ثمن باهظ جدًا. مع التقدم البطيء للاقتصاد، وبالتالي وصوله لمرحلة الركود، بات من الصعوبة بمكان مجاراة أمريكا والغرب. العديد من الخبراء الغربيين بالغوا في تقدير مستوى الأداء السوفييتي، في حين أن المواطن السوفييتي العادي كان أكثر إدراكًا لحقيقة هذا الأداء. لكنهم أيضًا لم يكن بمقدورهم السفر إلى الخارج في ذلك الوقت، ولم يكونوا مدركين تمامًا لحقيقة الأوضاع. كبار شخصيات المجتمع فقط كانوا على دراية بحقيقة الوضع، نظرًا لوجودهم في الخارج، من ناحية، ما مكنهم من تقويم الأوضاع وقياسها عن بعد، أو لأن الفرصة كانت متاحة أمامهم للوصول إلى المعلومات المحظورة، من ناحية أخرى. منذ فترة الستينات فما بعد، كانت هنالك دلائل مثبتة على وجود بوادر انشقاق، لكن تأثيرات هذه البوادر كانت محدودة جدًا. كانت إدارة الاستخبارات السوفييتية (KGB) قد وضعت المجتمع برمته تحت السيطرة والرقابة المطلقة.

ولكن عندما وضعت على المحك، كما هي الحال في أفغانستان، لم يكن المشهد جذابًا إلى ذلك الحد. ففي الجمهوريات غير الروسية سادت هنالك نزعة قومية. الشعور العام بالاستياء والانزعاج حينها جرى وصفه بشكل صريح في روايات الكتاب اليمينيين؛ الكاتب القومي بوتشفينيكي (Pochvenniki). في آواخر حقبة بريجينيف (1981 - 1982)، برزت هنالك شكاوى وتذمرات من الوضع السائد على أعلى مستوى. شكلت أزمات المواد الغذائية مادة ذات أهمية سياسية واقتصادية بالغة. كان هنالك نقد علني، ولكن لم يعقبه إجراءات واصلاحات.

لعل الأهم كان الفشل في تحسين نوعية الحياة. الهواء والماء كانا ملوثين؛ والتربة كانت مسمومة؛ والغابة الروسية التي شكلت على مدى التاريخ مصدر فخر البلاد واعتزازها، كانت على شفير التلاشي والانقراض في بعض مناطق روسيا الأوروبية. كان هنالك بعض المناضلين الأشداء من أنصار تحسين البيئة، لكن نشاطاتهم اصطدمت بنشاطات السلطات المحلية والمركزية، التي كان عليها أن تنجز الخطة، وفشل هؤلاء المناضلون، كالعادة، في إحداث أي تأثير يذكر. شهدت ظاهرة تعاطي المشروبات الروحية، التي لطالما شكلت وباء مستعصيًا عبر التاريخ الروسي، مزيدًا من التفشي والتفاقم. في يوم دفع الرواتب والأجور، لم يكن ينجز أي عمل في القرى والمدن، لأن الجميع كان في حالة من السكر تمنعه من شق طريقه نحو أماكن العمل. كان المشهد مزريًا إلى درجة لا تصدق. معدلات الجريمة كانت في تصاعد، الصغيرة منها والكبيرة، وانتشار السرقات كان يتزايد طوال الوقت، والكثير من ذلك كان يجري على الملأ. ولعل أصدق وصف لمثل هذه الأوضاع نجده على سبيل المثال في أعمال فالنتين راسبوتين Valentine Rasputin، الذي هو ربما من أعظم الروائيين القوميين موهبة، سيبيري المولد أمضى جل حياته في هذا الجزء من روسيا.

كان واضحًا في ذلك الحين بالنسبة لأي مراقب غير متحيز أن النظام كان قد فقد ديناميته، وأن عصر الحماس كان قد مضى وانقضى منذ زمن بعيد. وفي الوقت الذي كان فيه الاهتمام بالماركسية لا يزال له وجود في الجامعات الأمريكية، فقد كان من الصعب العثور على مثل هذا الاهتمام في الاتحاد السوفييتي. بعض المراقبين الغربيين وجدوا بعض العوامل التعويضية المعينة في النظام السوفييتي: لقد كانت برغم كل شيء دولة رفاه، بالحدود الدنيا لهذا الرفاه. كان الناس

يتلقون رواتب ومنحًا حكومية، ولم يكن لديهم أي خوف من البطالة. كان ذلك صحيحًا، لكنه كان رفاهًا على مستوى متدني للغاية. لقد كانت روسيا وظلت بلدًا فقيرًا، وما برحت خلال العقود الأربعة التي تلت الحرب العالمية الثانية، تلوم الحرب، لأن معظم الشرور والمصائب باتت عصية على الحل.

في نفس الوقت، كانت الفكرة القديمة المطالبة بمجاراة الركب الأمريكي، وحتى تجاوزه، لكي تصبح روسيا القوة أعظم على وجه الأرض، لاتزال تراود مخيلتهم بإلحاح. كانت الحرب الباردة تعني إنفاقًا عسكريًا مستمرًا وباهظ الكلفة. لكن أمريكا كانت أكثر ثراءً بكثير، وكان من الواضح جدًا للقيادة السوفييتية أنه ليس بمقدورها الفوز بسباق التسلح هذا، والذي كان له أن يدمر اقتصادهم. ولكن لم يتم الاعتراف بذلك، وهذا أيضًا أسهم بالانهيار والتفكك.

لو كان هنالك معارضة بسيطة داخل البلاد ضد الإنفاق العسكري، لفسر ذلك على أنه عمل غير رجولي، إن لم نقل ضربًا من ضروب الخيانة. الأهم من ذلك، أن الحقائق المتعلقة بالإنفاق العسكري لم تكن معروفة إلا لقلة قليلة من المطلعين على دقائق الأمور. كانت هنالك بعض الانتقادات الشفوية الموجهة ضد تخصيص الأرصدة والموارد للبلدان الصديقة في الخارج. جرى تسليم شحنات أسلحة بقيمة ملايين الدولارات إلى مصر وغيرها من بلدان الشرق الأوسط. لكن دولارًا واحدًا من تلك الأموال لم يجر إعادته إلى الوطن، الذي كان بأمس الحاجة إليها. الأموال والموارد التي كان الوطن بأمس الحاجة إليها، كان يجرى تحويلها وتسليمها إلى كوبا وغيرها من البلدان الآسيوية والإفريقية. لقد تجلى هذا الاستياء بالذات من خلال البغض المتزايد للأجانب والأغراب عندما كانت الوفود الرسمية والسياح يقومون بزيارة الاتحاد السوفييتي من البلدان الإفريقية والآسيوية. كانت العلاقات مع الصين قد تحسنت إلى حد ما منذ أيام العداء الصريح بين البلدين، وكان هنالك تحالف مع التوابع الأوروبية، ولكن كان على الاتحاد السوفييتي منذ ذلك الحين أن يتدخل عسكريًا مرتين، في أوروبا الشرقية في هنغاريا عام 1956، وفي تشكوسلوفاكيا 1968. كانت رومانيا قد تحدت موسكو بشكل علني، وباستثناء ألمانيا الشرقية، لم تكن هناك أي ثقة تجاه البلدان الأخرى.

ساد هنالك آنذاك وعلى نطاق واسع اعتقاد راسخ بأن الاتحاد السوفييتي كان قد تمدد أكثر مما ينبغي. كان هذا صحيحًا، وربما كان بعض قادة الاتحاد السوفييتي مدركين لذلك. لكن والحال هكذا، لم يكونوا يعرفون كيف يضعون حدًا للحرب الباردة. البعض منهم ربما كان يعتقد أن ذلك كله كان خطيئة الغرب. برغم كل شيء، حتى بعض الخبراء الأمريكيين كانوا يجادلون في ذلك، ما عدا ترومان Truman. لعله لم تكن هنالك حرب باردة. لعل بعض القادة السوفييت كان يعتقد بأن النزاع مع الغرب كان ضروريًا لأسباب داخلية، والا كيف لهم أن يبرروا وجود تلك القيود العديدة داخل البلاد، وذلك النظام الديكتاتوري المستبد؟

أحد أسباب انهيار الاتحاد السوفييتي كان ضعف القيادة العليا وعدم كفاءتها. كان ليونيد بريجينيف Leonid Brezhnev في الخامسة والسبعين عندما توفي عام 1982، وكان لا بد من انتخاب أمين عام جديد للحزب. لم يكن يوري أندروبوف Yuri Andropov في صحة جيدة على مدى سنوات، لكن نمطه في القيادة كان من بعض النواحي أفضل من نمط سلفه. لقد كان وبشكل دائم تقريبًا يستشير زملاءه في المكتب السياسي قبل اتخاذ القرارات المهمة. لم يكن متحمسًا

لإحداث التغيير، والفترة منذ السبعينات باتت تعرف بـ ركود زاستوي zastoi stagnation. كانت عجلة النظام تعمل برغم كل شيء، رغم أنها لم تكن تعمل بشكل جيد. كانت المعارضة منبوذة ومهملة، مع تشديد الأجهزة الأمنية لقبضتها على خناقها بشكل كامل. عندما توفي بريجنيف، كانت قيادة الحزب تتألف من أشخاص طاعنين في السن، بعيدين كل البعد عن مشكلات الإنسان العادي. وصفت إحدى الروايات التي نشرت في الأيام الأولى لعصر الانفتاح glasnost محنة أحد كبار المسؤولين؛ كان وزيرًا أو زعيمًا حزبيًا، عندما رفض سائقه التوقف كي يقل هذا الرجل المهم إلى منزله بعد نهاية أحد الاجتماعات. حاول الوزير الوصول إلى منزله باستخدام النقل العام، لكنه واجه مصاعب جمة، لجهله بكيفية تدبر أموره في مثل هذه الحالات.

لحق يوري أندروبوف، الذي كان رئيسًا للـ كي جي بي لعدد من السنوات، ببريجينف. لقد اكتسب شهرته من كونه رئيس استخبارات مستاءً من الأوضاع السائدة في البلاد، سيما من الفساد المستشري باستمرار، وكان متحمسًا لإجراء إصلاحات. جرى خلال فترة وجوده في منصبه صرف حوالي 18 وزيرًا وأمينًا حزبيًا بارزًا من الخدمة. ولكن لم يحصل هناك أي انفتاح، بل قمع متزايد في الداخل، ولا تغيير يذكر في السياسة الخارجية. كان أندروبوف مريضًا جدًا، وغير قادر على حضور اجتماعات المكتب السياسي. وعندما أحس بدنو أجله، اقترح ميخائيل غورباتشيف Mikhail Gorbachev أصغر أعضاء الكيان الحاكم سنًا لترؤس جلسات المكتب، وبالتالي تولي مقاليد السلطة. لكن الأغلبية تجاهلوا اقتراحاته واختاروا قسطنطين تشيرنينكو Konstantin Chernenko، الذي كان يعتبر بشكل عام شخصية غير طاغية وعلى وفاق معقول مع زملائه. إذا كان أندروبوف قد بقي في السلطة لمدة 18 شهرًا، فإن تشيرنينكو بقي لثلاثة عشر شهرًا فقط، رجلًا عجوزًا أيضًا غير قادر على حضور العديد من اجتماع الحزب أو المكتب السياسي. قام بإلقاء كلمة الرثاء خلال جنازة سلفه، لكنه كان ضعيفًا إلى درجة أنه بالكاد تمكن من إتمامها. وبما أن مراسم التأبين عرضت على التلفزيون، فقد شاهدها الملايين من المواطنين السوفييت، وكان الانطباع الذي خرجوا به مأساويًا. لقد فاقم من حالة اليأس والتشاؤم التي كانت سائدة في البلاد. بلد بمواجهة مشكلات خطيرة في العديد من المجالات، ولكن تنقصه القيادة الفاعلة الحكيمة. وكان أن تسلم ميخائيل غورباتشيف مقاليد السلطة بعد وفاة تشيرنينكو.

لا شك بأن الاتحاد السوفييتي كان في حالة يرثى لها في ذلك الحين، في حالة أسوأ مما كان يعتقده معظم الناس في الغرب. ولكن هل كان الانهيار القادم حتميًا، ربما، ولكن ليس من منظور اقتصادي. حتى القمح آنذاك كان ينبغي أن يستورد، وهو أمر غير مسبوق في بلد كان في يوم من الأيام من بين مصدري القمح الأوائل في العالم. لكن أحدًا لم يكن يتضور جوعًا، واذا كان هنالك استياء على نطاق واسع، لكنه لم يصل إلى درجة الغليان. الماكينة الإعلامية الدعائية كانت توحي للناس بأن الوضع في الغرب كان حتى أسوأ منه في الاتحاد السوفييتي، والـ كي جي بي (KGB) كانت عاكفة على قمع وإخماد أي معارضة بصورة فاعلة. إذا كان هنالك استياء، فقد كانت هنالك حالة من اللامبالاة، لم يكن لدى الناس رغبة جامحة بالانخراط في شؤون السياسة لإحداث تغييرات سياسية.

لو أجرينا استعراضًا مقتضبًا لمسيرة التاريخ المغاير للحقيقة، لوجدنا بأن نظام بوتين يدين ببقائه ونجاحه لعامل واحد فقط، ألا وهو تصدير النفط والغاز، والذي يسهم بحوالي نصف الميزانية

الروسية. حتى العام 2013، حين تم تجاوزه من قبل الولايات المتحدة، كانت روسيا أكبر منتج عالمي للنفط والغاز. وإذا كان سعر برميل النفط الخام بحدود 14 دولارًا أميركيًا عام 1988 و11 دولارًا عام 1998، فقد كان بحدود 94 دولارًا عام 2013 وحوالي 52 دولارًا الآن.

لو أن شخصًا آخر غير غورباتشيف كان قد عين أمينًا عامًا للحزب الشيوعي في 11 آذار/ مارس 1985 - لنقل عضوًا آخر من أعضاء المكتب السياسي (لنفترض جدلًا أن اسمه إيفان إيفانوف) - وأن شخصًا آخر اسمه سيرجيف مثلا َخلف إيفانوف بعد عشرة أو خمسة عشرة عامًا - لم يكن أي منهما مصلحًا ليبراليًا، بل كانا كلاهما يمخران عباب مرحلة التسعينات على مركب بريجنيف الذي كان يسير مترنحًا على غير هدى - لكان استفاد من القفزة المفاجئة في أسعار النفط والغاز التي حدثت لاحقا، من دون أي جهد يذكر على صعيد التحديث. سيبقى الاتحاد السوفييتي كقوة عظمى موجودًا، وكذلك الحزب الشيوعي باحتكاره السياسي. وقيادة الحزب سوف تتلقى الثناء والتقدير، ليس على تنامي ثروة البلاد وعلى حكمتها وحيويتها وحسب، بل على بعد نظرها وحرصها على جعل البلاد أكثر ثراء أيضًا. بعض الاصلاحات السياسية والإيديولوجية كان يمكن أن تحصل، ولكن من دون أية تغيرات جذرية. إن شخصية مثل هذا النظام الاقتصادي وهذا البلد لن تتطابق مع الرؤية الشيوعية الأصلية لمجتمع واقتصاد صناعي (أو ما بعد صناعي) ماركسي - لينيني متقدم. سيكون أشبه ببلد استعماري يعتمد اقتصاده على تصدير مواده الاولية. ولكن قد لا يكون من الصعب جدًا تجاوز هذا كله. التباينات العقائدية لن يكون لها شأن يذكر - الشيء المهم سيكون وجود ميزانية ثابتة ومستوى معيشة أعلى. سيبقى الحزب الشيوعي مستأثرًا باحتكاره السياسي، ولن يكون هنالك أي انفصال عن الاتحاد السوفييتي، والنظام سيبقى استبداديًا. من الممكن - بل من المحتمل تمامًا في الحقيقة - عدم ظهور أية توترات جديدة نتيجة ارتفاع مستوى المعيشة، والوجود المستمر لاقتصاد موجه لن يكون موضع نقاش.

لم يكن مثل هذا التطور في روسيا خلال العقدين الأخيرين مستبعدًا على الإطلاق. وانتخاب زعيم لديه قناعة راسخة بإمكانية إصلاح النظام كان محض صدفة.

البيريسترويكا

بدت السياسة السوفييتية في أوائل الثمانينات وكأنها مجمدة، وفي حالة من السكون التام. لم تستعد عجلة هذه السياسة زخمها وسرعة دورانها بصورة مفاجئة إلا بعد رحيل تشيرنينكو. وقد كان ذلك بمثابة مفاجأة للناس داخل الاتحاد السوفييتي والمراقبين في الخارج، ممن لم يكونوا يتوقعون حصول أية تغييرات أساسية في السياسة السوفييتية. لقد تم وبصورة محكمة توثيق الأحداث التي أعقبت ذلك، بدءًا بانتخاب غورباتشيف أمينًا عامًا للحزب؛ عمليًا فإن كافة المعنيين بهذا الشأن قاموا بتدوين مذكراتهم حول هذه الأحداث. لذلك من غير الضروري الرجوع إلى أية مصادر أخرى بخصوص أي تفصيل من التفاصيل.

لم يكن أحد في الخارج يعرف شيئًا سوى القليل عن غورباتشيف، وعمليًا لم يكن أحد يعرف شيئًا عن آرائه ووجهات نظره الشخصية (إن وجدت أصلًا) حيال الشؤون الداخلية والخارجية. لكن الشيء ذاته ينطبق على باقي أعضاء المكتب السياسي للحزب، باستثناء أندريه غروميكو Andrei Gromyko، الذي بوصفه وزيرًا للخارجية كان يقضي جل أوقاته في الخارج. لم يكن

رجلًا كثير الكلام على الإطلاق، وكان ينظر إلى تلك السجية حينها على أنها ضرب من ضروب الحكمة الفطرية، حتى في أوساط القيادة العليا، أن يحتفظ المرء بآرائه ووجهات نظره الشخصية لنفسه، سيما إذا جاءت هذه الآراء ووجهات النظر بهدف الانحراف عن الإجماع السائد المتشكل بتدبير من رأس المجموعة. الآراء الأكثر صدقًا (في حال وجودها) كان يجري التعبير عنها ضمن دائرة ضيقة من الأصدقاء المقربين جدًا؛ وحتى ضمن تلك الدائرة الضيقة كان يجري التعبير عنها بقدر بالغ من الحرص والحذر الذي يقتضيه الموقف. حتى القيادة كان عليها التظاهر بالوفاق التام، أو على الأقل الركون إلى الصمت، ما لم تكن القضايا موضع الرهان قضايا غير ذات شأن.

ولد ميخائيل غورباتشيف Mikhail Gorbachev في قرية صغيرة غير بعيدة عن ستافروبول Stavropol في القوقاز الشمالي. ينبغي التنويه هنا بأنه في الوقت الذي كانت فيه الأجيال الأولى من الزعماء الشيوعيين من أبناء البلدة الواحدة ممن ينتمي آباؤهم في الغالب إلى الطبقة المتوسطة أو طبقة النخبة، فإن جيل غورباتشيف الذي لعب أدوارًا رائدة في الأحداث الدرامية لمرحلتي الثمانينات والتسعينات كان يتحدر بمعظمه من أسر ريفية. من المهم أيضًا أن نعرف بأن تلك العائلات وعلى الرغم من أنها كانت تعيش بعيدًا عن مراكز القوة السياسيّة، فإنها لم تنجُ من عقابيل مرحلة الثلاثينات. العديد منهم كانوا ضحايا "القمع"، هذا المصطلح الذي شاع استخدامه في فترة ما بعد ستالين. تعرض والد غورباتشيف للاعتقال، كما والد يلتسين (كان لدى عائلته خمسة رؤوس من الخيل وأربع بقرات، ما صنفهم من فئة "الكولاكي" أي الأثرياء من مزارعي روسيا، والتي كانت حينها الطبقة "الخطأ")؛ نذر يسير جدًا من العائلات تجاوز هذه السنوات من دون أن يتعرض لأي قدر من الأذى على الإطلاق.

ولد غورباتشيف عام 1931 وتلقى علومه الابتدائية محليًا. ويبدو أنه كان شابًا متألقًا بصورة استثنائية، حيث تجلى اهتمام الحزب به في وقت مبكر، وتقرر إيفاده إلى جامعة موسكو الحكومية لدراسة القانون. كانت هذه الجامعة الجامعة الأولى في البلاد، وكان الإيفاد إليها والقبول فيها حدثًا استثنائيًا. كان ارتقاؤه المراتب الهرمية للحزب سريعًا. وفي سن الخامسة والثلاثين شغل منصب السكرتير الأول لقسم بلدة ستافروبول، وبعد سنوات قلائل أصبح رئيسًا لمنظمة إقليم ستافروبول. ثم ذاع صيته، وفي عام 1971 جرى تعيينه عضوًا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي. لقد عنى ذلك زيارات متكررة إلى موسكو، حيث استقطبت قدرات هذا الشاب اهتمام رجل البلاد القوي، يوري أندروبوف. أعقب ذلك تلقيه للعديد من عروض العمل - لم تخف إدارة الاستخبارات السوفييتية (KGB) اهتمامها بقدرات الفتى الصاعد، وكذلك إدارة التخطيط العليا، وبعض مناصريه والمدافعين عنه كانوا يريدون له أن يصبح وزيرًا للزراعة. لكن غورباتشيف لم يقبل بأي من هذه العروض، وفي عام 1980 أصبح عضوًا في المكتب السياسي للحزب، أهم مؤسسة سياسية في البلاد. يبدو وكأن الرجل قد تصرف بتواضع وكياسة تليق بقادم جديد، وأنشأ عددًا من الصداقات ولم يكن له أي أعداء.

خلال سنواته في ستافروبول، بات غورباتشيف على دراية واسعة بالوضع الداخلي، لكنه لم يكون صورة حقيقية شاملة عن الأوضاع في الاتحاد السوفييتي إلا في موسكو. بنتيجة ذلك، أصبح شديد الانتقاد للسياسات الراهنة، أو بالأحرى غياب أي تحرك حقيقي لتحسين الوضع. جمع

غورباتشيف حوله عددًا من الشخصيات التي تماثله في طريقة التفكير، آملًا ربما في تلقي الدعم الضروري تحسبًا لليوم الذي يغدو فيه في وضع يؤهله للتأثير في سياسة البلاد.

نحن على علم بواحد من هذه الاجتماعات، والذي يتسم بأهمية خاصة كونه يخص رجلًا هو بمثابة الأب الإيديولوجي للبيريسترويكا، ألكساندر ياكوفليف Alexander Yakovlev. إنه يكبر غورباتشيف بثماني سنوات، وكان أيضًا فتى البلاد اللامع الذي ارتقى مراتب المسؤولية وصولًا إلى قيادة الحزب. ولكن نتيجة لجروح بالغة أصيب بها خلال الحرب في آب/أغسطس 1942، فقد جرى إقصاؤه عن الجيش وايفاده للدراسة - حيث أصبح لاحقًا عضوًا في الأكاديمية الروسية للعلوم. وعلى غرار غورباتشيف، فقد ذهب إلى موسكو للعمل في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وفي المجال الإيديولوجي بشكل خاص. وكان من بين أولئك الذي اقترحوا وجوب تدريس علم الاجتماع في الجامعات الروسية، بخلاف ما كانت عليه الحال آنذاك. ومع ذلك، نظرًا لأنه كان أقل حرصًا وحذرًا من غورباتشيف، سرعان ما تورط في متاعب كان بغنى عنها. في شهر آب /أغسطس من عام 1972 قام بنشر مقالة في صحيفة Literaturnaya Gazetta انتقد فيها بحدة النزعة الشوفينية والمعادية للسامية التي كانت سائدة في البلاد. كانت مثل هذه النزعات حينها متجذرة بعمق في وجدان الناس، وكان لها مؤيدوها المتعصبون لها بقوة في قيادة الحزب. كان مطلب هؤلاء الناس ألا يفسح له في المجال للانخراط في العمل الإيديولوجي من خلال منصب رفيع. بالنتيجة، فقد جرى إيفاده سفيرًا إلى كندا، حيث أمضى السنوات العشر التالية من حياته واكتسب معرفة طيبة بالمؤسسات السياسية والاقتصادية الغربية. في عام 1983، قام غورباتشيف بزيارة لكندا، حيث التقى كل منهما بالآخر. تطلب الأمر قدرًا من الاستكشاف المشترك، إلا أن كليهما اكتشفا بالنهاية أن آراءهما ووجهات نظرهما كانت متقاربة وأن بوسعهما التحدث بصراحة وانفتاح. لقد توصل كل منهما إلى قناعة مفادها أن الاتحاد السوفييتي كان بحاجة إلى تغيير جذري. لكن آراء ووجهات نظر ياكوفليف النقدية كانت آنذاك، بعكس غورباتشيف، أكثر تطرفًا بكثير، فقد كان أكثر تقدمية وعملية في أفكاره حيال كيفية إحداث التغيير.

أصبح الرجلان صديقين، وبعيد عودته إلى موسكو، أصر غورباتشيف على عودة ياكوفليف إلى العاصمة السوفييتية واللجنة المركزية. كان المنصب الذي عرض عليه وقبله رئيسًا لمعهد ماركس - أنجلز - لينين. لم يكن بالضبط المنصب الأكثر الأهمية، وموقف ياكوفليف حينها من الإيديولوجيا الرسمية للحزب كان موقفًا سلبيًا. كذلك فإن موقف باقي القادة السوفييت حيال تلك الإيديولوجيا لم يكن على ذلك القدر من الحماسة - فقد عمدوا إلى تجاهلها. بالكاد تجد في خطاباتهم أية إشارة إيجابية إلى الماركسية – اللينينية؛ لقد أغفلوا ذكرها بكل بساطة. لكن ياكوفليف ذهب أبعد من ذلك بكثير، حيث اتسم موقفه بعدائية تامة وصلت إلى درجة الكراهية. لقد اعتبر العقيدة الماركسية - اللينينية عقيدة كراهية لا علاقة لها بالعلم من قريب أو بعيد.

كيف يمكن لشخص يحمل مثل هذه القناعات أن يبقى في المكتب السياسي للحزب الشيوعي؟ لقد صرح ياكوفليف لاحقًا أنه في الأيام الأولى للبيريسترويكا لم يكن قادرًا حتى على البوح بالحقيقة كاملة؛ فقد كان على المرء حينها التسلح بالرياء والكذب. لم يكن الآخرون ببساطة معنيين بذلك بأي شكل من الأشكال. فقد كانت سياسة الحزب متأصلة ليس فقط في القناعة الإيديولوجية العميقة وحسب، بل في الاهتمامات المتعلقة بالمسميات والرموز والمصطلحات: كانوا مجموعة من

الحمقى والفلاسفة التهكميين. لقد وصف النظام السوفييتي بأنه نظام استبدادي وحسب - وهو تصرف كان له أن يودي به في لجة من المتاعب لو أنه حصل في إحدى الجامعات الغربية. لقد قدم هو ومجموعة من أصدقائه المقربين إلى غورباتشيف خططًا مفصلة حول كيفية إحداث التغيير المطلوب. لكن غورباتشيف، ورغم اعترافه بأن ثورة محدودة داخل الحزب ستكون كافية لإحداث مثل هذا التغيير، فقد رأى أن الوقت ما زال مبكرًا جدًا لمثل هذه الخطوة.

غادر ياكوفليف الحزب الشيوعي عام 1991 وقام جنبًا إلى جنب مع إدوارد شيفارنادزه Edurad Shevardnadze، وزير الخارجية آنذاك، بتأسيس حزب اجتماعي ديمقراطي في منافسة مع البلاشفة Bolsheviks. استمر الحزب لبضع سنوات، لكنه لم يكن ناجحًا. فالجهاز الحصين للحزب الشيوعي كان لا يزال قويًا تمامًا، وفي حين أنهم لم يكونوا قلقين إلى ذلك الحد بشأن مصير الماركسية - اللينينية، فقد كانوا مهتمين تمامًا بقوتهم ومكانتهم في المجتمع. علاوة على ذلك، فإن وقفة ياكوفليف الفعالة في وجه الشوفينية لم تضف شيئًا إلى شعبيته. لم يقدر له بعد العام 1993 (توفي عام 2005)، أن يلعب أي دور ذي شأن، حيث انحصرت اهتماماته ونشاطاته في الشؤون الأكاديمية فقط. خلق ياكوفليف لنفسه الكثير من العداوات وهوجم، ليس فقط كعدو للحزب والبلد، بل كجاسوس أيضًا. ومع ذلك، فقد منحه سجله العسكري حصانة شبه مطلقة. من جملة القادة الحزبيين آنذاك، كان ياكوفليف فعليًا الوحيد الذي لم يقاتل في سبيل بلده وحسب، وإنما الوحيد الذي كاد أن يدفع حياته ثمنًا لذلك. والأمر الذي لم يكن مفاجئًا، أن أحدًا من قادة روسيا المعاصرة لم يظهر أو يشارك في مراسم التشييع. لقد كان ياكوفليف ناقدًا لاذعًا لتلك الردة عن الديمقراطية تحت حكم الرئيس بوريس يلتسن، وبشكل خاص تحت حكم فلاديمير بوتين.

هنالك روايات مختلفة حول بداية البيريسترويكا والغلاسنوست (حركة الانفتاح والإصلاح). استنادًا لإحدى الروايات، فقد تم إقناع يوري أندروبوف بالحاجة لإحداث تغيير اقتصادي فوري. لكن قدرة أندروبوف على الفعل كانت قد توقفت عمليًا بحلول ذلك الوقت، ولم يتسن للمبادرة التالية أن تأتي إلا بعد تسلم غورباتشيف لمقاليد السلطة - القانون الأول في أيار/مايو عام 1985 كان بمثابة مرسوم حول طرق ووسائل التغلب على تفشي ظاهرة تعاطي المشروبات الكحولية.

لم تشهد الفترة خلال العام 1986 كثيرًا من النشاط، ليس فقط بسبب الحرص المفرط، وإنما أيضًا لكون الخطط الموضوعة لتنفيذ البيريسترويكا لم تكن جاهزة. لكن الوضع الاقتصادي كان قد تدهور بقوة في هذه الأثناء نتيجة التراجع في أسعار النفط كسبب رئيسي، حيث بات التغيير الفوري أمرًا ملحًا لا مناص منه. في الوقت نفسه، فاقمت النزاعات السياسية الداخلية (كالصدامات بين أرمينيا وأذربيجان) من سوء الوضع. ومن خلال سلسلة من القوانين التي جرى إصدارها مع بداية صيف العام 1987، شرعت القيادة في تفكيك النظام الاقتصادي السوفييتي.

حتى قبل تلك الفترة، كان قد جرى إقصاء العديد من المناوئين للإصلاح عن عضوية المكتب السياسي وغيره من أجهزة الحزب الأساسية. مع ذلك، سرعان ما تبين أن المضي قدمًا بإصلاحات الغلاسنوست كان أسهل بكثير من البيريسترويكا الاقتصادية والاجتماعية. كانت الغلاسنوست تعني ببساطة الحد من حرية عمل الرقابة والسماح بنشر رواية دكتور زيفاغو Dr. Zhivago وغيرها من الأعمال التي كانت ترزح تحت سطوة الرقابة أو حظر ومنع التشويش على محطات البث الإذاعي الأجنبية باللغة الروسية.

لقد كان لسياسة الغلاسنوست مناوئوها أيضًا، كالأستاذة الجامعية نينا أندريفا Nina Andreeva، التي دافعت في مقالة لها بمساحة صفحة كاملة تحت عنوان: "ليس بمقدوري التخلي عن المبادىء الأساسية" نشرت في صحيفة سوفتسكايا روسيا Sovetskaya Rossia اليومية، عن النظام القديم. لكن على العموم، كانت الغلاسنوست تتلقى دعمًا طاغيًا من قوى اليسار والقوى الليبرالية لأنها منحتهم قدرًا أعظم بكثير من الحرية لبث أفكارهم وترويجها، وكذلك من المعسكر القومي اليميني للأسباب ذاتها.

لكن سرعان ما تبين بأن البيريسترويكا لم تكن تعني المزيد من الحرية في نشر الروايات وحسب، وإنما الفعل الحقيقي أيضًا - في مجال الاقتصاد، وفي الحياة السياسية الداخلية، وفي السياسة الخارجية - لقد شكلت نهاية لحقبة الحرب الباردة. لم يتسن لأي مجال قط أن يسلم من تأثير البيريسترويكا: لقد شمل هذا التأثير من جملة ما شمل العلاقات مع الدول التابعة - البلدان الشيوعية لأوروبا الشرقية والبلقان. لقد أظهرت تجارب الماضي بأن سيطرة الحكومات الشيوعية على الحكم لم تكن مضمونة، وكان من المشكوك فيه قدرة هذه الأنظمة على البقاء والاستمرار من دون دعم قوي من موسكو (حتى في حال استمرارها فقد كانت دومًا محاطة بخطر انعدام الثقة بها). هل كان من الصواب انتهاج السياسة القديمة، ما يعني أنه في حال حدوث تدخل عسكري طارئ يصار إلى انتهاج هذه السياسة كأمر مسلم به. كان لدى غورباتشيف وباقي الزعماء السوفييت إحساس بالنفور وعدم الرغبة. وأخيرًا بدأت بوادر هيجان قومي تلوح داخل الاتحاد السوفييتي. بالرغم من كل الجهود المبذولة على مدى عقود عديدة، لم يتسن إلغاء تلك المشاعر والعواطف القومية داخل الجمهوريات غير الروسية؛ على العكس من ذلك، مع تعاظم النزعة القومية الروسية العظمى منذ الثلاثينات، كانت النزعات القومية في الجمهوريات غير الروسية قد تلقت زخمًا جديدًا. حدث هذا في الماضي، وبدأ يحدث ثانية أواخر الثمانينات، وقد تجلى بادئ ذي بدء وبصورة حادة بين أذربيجان وأرمينيا.

لو اعتقد أندروبوف بإمكانية تنفيذ إصلاح اقتصادي بعيد الأثر مع الإبقاء على طبيعة النظام السياسي وغيره من القضايا على حالها، لما قدر لهذه الفرضيات أن توضع موضع اختبار. يبدو بأن غورباتشيف كان لديه أيضًا بعض من هذه الأوهام، ولكن لم يستغرق منه الأمر طويلًا كي يدرك بأن مثل هذا التفاؤل لم يكن مضمونًا. كانت الفترة بين 1986 و1990 عبارة عن فترة تفاؤل بالرغم من الوضع الاقتصادي المزري، ليس لأن التغييرات الكبرى نحو الأفضل كانت قد حصلت سلفًا، وإنما لكون الوعد بالتغيير قد حصل أخيرًا بعد طول انتظار، وباتت هنالك دلائل ومؤشرات على وجود إرادة حقيقية بالتحرك.

وسرعان ما تبين أن الاقتصاد من أكثر المشكلات التي كانت تواجه الحكام الجدد صعوبة وتعقيدًا. لم يكن الانتقال نحو اقتصاد مخطط خلال فترة العشرينات بالأمر السهل، لكنه لم يكن بالأمر غير المسبوق كليًا؛ فالعديد من البلدان كانت مرغمة على اعتماد إجراءات في هذا الاتجاه خلال الحرب. لكن التراجع من اقتصاد مخطط نحو اقتصاد السوق كان أمزا غير مسبوق في ذلك الوقت. لقد حصل ذلك في الصين وفيتنام، وإنما في السنوات الأخيرة فقط. علاوة على ذلك، فإن الوضع في هذه البلدان لم يكن في الحقيقة ليقارن بالوضع في روسيا، حيث إن متوسط دخل الفرد في الصين وفيتنام كان أدنى بكثير، من منطلق أن غالبية السكان كانت تعمل في الزراعة.

صحيح أن غورباتشيف ومعظم مستشاريه لم يكونوا يفكرون بتلك الطريقة المتطرفة، لكنهم بدؤوا شيئًا فشيئًا يدركون بأن أنصاف الحلول لن تنقذ البلاد. كانوا قد ورثوا وضعًا يتعذر الدفاع عنه على المدى البعيد. بالإضافة لذلك، فقد واجهوا تدهورًا مفاجئًا يؤثر على الصناعة السوفييتية، وبدرجة أكبر، على الزراعة. تواصل الهروب من الأرياف بوتيرة متزايدة. ولم يكن تصدير النفط والغاز السوفييتي قد استعاد بعد الحجم الذي كان عليه في السنوات الأخيرة، لكنه كان ذا أهمية اقتصادية بالغة. وقد تصادف أن الدخل الناتج عن تصدير النفط هبط بنسبة 30 بالمئة خلال الفترة 1985 - 1986. كان لهذا الانخفاض تأثير آني على ميزانية البلاد وعلى توفر النقد الأجنبي، الأمر الذي تسبب بدوره في أزمات عجز ونقص على صعيد السلع الاستهلاكية الأساسية والواردات المطلوبة لتسيير عجلة الصناعة والزراعة الروسية. كانت الديون السوفييتية الخارجية قد وصلت إلى عتبة 56 مليار دولار (استنادًا إلى اعتراف أدلى به نادمًا أحد وزراء الاتحاد السوفييتي مؤخرًا: "كنا مدينين لكل بلد من بلدان العالم تقريبًا").

لكن أحدًا لم يكن يفكر في موضوع الخصخصة؛ ويبدو أن غورباتشيف كان يؤمن بتجربة الجمعيات العمالية التعاونية، وهي أفكار سبق أن طرحت ونوقشت لفترة من الزمن في يوغسلافيا بعد أن كان جوزف بروس تيتو Josip Broz Tito قد غادر المعسكر السوفييتي. وهكذا فقد شهدت السنوات 1986 - 1989 العديد من المؤتمرات داخل قيادة الحزب الشيوعي التي أصدرت العديد من القرارات؛ فالاحتكار السياسي للحزب الشيوعي لم يكن قد كُسر بعد، لكن الوضع كان في حالة من الركود التام. برزت هنالك زمرة لا يستهان بقدراتها مناوئة لغورباتشيف تطالب بالحفاظ على الوضع الراهن، ما أدى بالتالي إلى انقلاب ضد غورباتشيف في آب/أغسطس 1991، وهو حدثٌ أفضى في غضون شهور قليلة إلى سقوطه (استقال من منصبه كرئيس للاتحاد السوفييتي أواخر كانون الأول / ديسمبر 1991) وصعود يلتسن - لكنه أدى أيضًا إلى انهيار الحزب الشيوعي القديم.

إذا كانت سنوات غورباتشيف لم تحقق الإصلاحات الاقتصادية المنشودة، رغم الاعتراف بأن مثل هذه الاصلاحات كانت بمثابة ضرورة ملحة، إلا أنها نجحت عمليًا في خلق "تفكير جديد" (المصطلح الرسمي المستخدم آنذاك في إدارة شؤون السياسة الخارجية). بعد ثلاث سنوات فقط بات يُنظر إلى غورباتشيف على أنه أكثر زعماء الاتحاد السوفييتي شعبية. ما الذي تسبب بهذا التراجع السريع في النشاط الاقتصادي؟ لقد لعب الوضع الاقتصادي الكارثي دورًا رئيسيًا على هذا الصعيد، لكن الأهم ربما كان الانطباع السائد بأنه لم تكن هنالك أية يد قادرة في الكرملين. كانت البلاد في طور انحلال وتفكك بحلول انقلاب شهر آب من عام 1991، لكن الجميع كان معنيًا بذلك - الساسة، وكبار ضباط الجيش، وحتى رئيس إدارة كي جي بي (KGB) - كانت تنقصهم الخبرة في كيفية إحداث التغيير السياسي الحاسم. كان يلتسن ندًا لغورباتشيف على مدى سنوات، لكن التوقيت الذي حصل فيه الانقلاب شكل بالضبط الفرصة الذهبية بالنسبة له، عندما خاطب الحشود من على ظهر الدبابة مدافعًا عن الديمقراطية وحزب الإصلاح.

إذا كانت سنوات غورباتشيف لم تحقق الاصلاحات الاقتصادية الحاسمة والبعيدة الأثر التي أقر كثيرون بأنها ضرورة ملحة، فقد كان هنالك بالتأكيد قدر كبير من "التفكير الجديد" حيال السياسة الخارجية. لقد تحقق ذلك في الحال بعد انتخاب غورباتشيف؛ كان بحاجة لسنتين فقط لإنجاز

التحضيرات - للتعرف شخصيًا على أكثر القضايا أهمية وكسب الدعم من داخل المكتب السياسي. أندريه غروميكو، لا يزال ينظر إليه على أنه كبير خبراء السياسة الخارجية، كان يتلقى دعم الرعيل الأول من الخبراء المخضرمين الذين كانوا ضد هذا التوجه. من غير المؤكد إن كانوا حتى قد وضعوا تصورًا لأية سياسة أخرى لا ينظرون إليها على أنها هرطقة. لقد أدرك غورباتشيف بأن وزيرًا جديدًا للخارجية كان ينبغي أن يأتي من أوساط الحزب أو الحكومة، بعيدًا قدر الإمكان عن غروميكو ووزير خارجيته. من هنا جاء اختياره لإدوارد شيفارنادزة، وهو رجل ذكي، لكنه يفتقر إلى الحد الأدنى من الخبرة في مجال السياسة الخارجية والدبلوماسية.

شكل غورباتشيف فريقًا جديدًا قاسمه المشترك أن أي تفاهم مع الغرب يجب أن يكون مستندًا إلى وقف إعادة التسلح. كان لمثل هذه السياسة أن تحظى بالدعم في أوساط قيادة الحزب، حيث إن هؤلاء القادة كانوا مدركين أيضًا لحقيقة أن ميزانية الدفاع باتت ثقيلة لدرجة تفوق التحمل. لا تزال الأرقام الدقيقة لحجم ميزانية الدفاع في تلك الفترة غير متوفرة حتى الآن. كان هنالك اعتقاد سائد حينها مفاده أن ميزانية الدفاع تشكل 8 - 15 بالمئة من الميزانية العامة، لكن من المؤكد أنها كانت أعلى من ذلك بكثير، ربما أعلى حتى من الأرقام الرسمية.

لعل أكثر القضايا أهمية على صعيد تخفيف توترات الحرب الباردة كانت قضية أفغانستان. كانت القوات السوفييتية متواجدة في ذلك البلد منذ العام 1979 ولم تكن أمور الحرب تسير سيرًا حسنًا. علاوة على ذلك، فقد أسهمت هذه الحرب في تعقيد العلاقات مع الصين، التي طالبت بانسحاب القوات الروسية كشرط مسبق لتطبيع العلاقات بين البلدين. مع ذلك، لم يتمكن بريجينيف وخلفاؤه المباشرون من حمل أنفسهم على اتخاذ إجراءات حاسمة. كان بوسعهم الركون إلى خيار سحب القوات السوفييتية، لكن ذلك القرار (وهم محقون في ذلك) كان سيفسر على أنه هزيمة سوفييتية. أو أنه كان بوسعهم دعم ومساندة القوات الروسية في أفغانستان؛ لكن مثل هذا التوجه كان سيسهم في تأجيج التوترات.

استمرت الحرب الأفغانية خلال فترة الثمانينات كجرح لم يندمل. (في كلمة ألقاها أمام اجتماع حزبي أوائل العام 1986، أطلق غورباتشيف على الحرب تسمية "الجرح النازف" لا أحد يعرف بالضبط متى اتخذ غورباتشيف قراره بالانسحاب من أفغانستان، لكن بحلول العام 1987 بدا واضحًا أن السوفييت كانوا بصدد مغادرة البلاد. المعارضة الوحيدة جاءت من قيادة الجيش، ولكن بما أن أداء الجيش في أفغانستان لم يكن لافتًا، لم تكن قيادة الجيش في موقف قوي يدعم موقفها المعارض للانسحاب. اقترح شيفارنادزة الإبقاء على حامية عسكرية سوفييتية صغيرة في البلاد لفترة غير محددة، لكن غورباتشيف فرض موقفه رافضًا الاقتراح. بدأ الانسحاب السوفييتي في 15 أيار/مايو 1988، وغادر آخر جندي سوفييتي أفغانستان في 15 شباط /فبراير 1989، قبل الموعد المقرر. وهكذا انتهت مأساة من الأخطاء التي أولت بحياة العديد من الجنود وأعداد كبر من المدنيين. إذا كان قرار بريجينيف الأصلي بمثابة خطأ باهظ الثمن، فإن التوقع الأمريكي بإمكانية تحقيق نصر على الإسلاميين كان أيضًا خطأً جسيمًا، كما تبين بعد سنوات.

على أهميته، فإن إنهاء الحرب الأفغانية لم يكن كافيًا لتحقيق تغير جذري في العلاقات مع الغرب - نهاية، أو على الأقل خفض للتوترات في الحرب الباردة. أول اتصال لغورباتشيف بالقادة الغربيين كان في فرنسا والمملكة المتحدة عام 1985؛ لقد ترك انطباعًا طيبًا لدى فرانسوا ميتران

Francois Mitterrand ومارغريت تاتشر Margaret Tatcher. وكلاهما أشار على البيت الأبيض بوجوب أخذ "التفكير الجديد" لغورباتشيف الهادف إلى وضع نهاية للحرب الباردة على محمل الجد. لكنه لم يكن قد تحدث بعد إلى الرئيس رونالد ريغان Ronald Reagan، الشريك الأكبر، باستثناء حديث مقتضب غير حاسم جرى بين الرجلين في جنيف، أيضًا عام 1985.

كان ريغان العدو اللدود للشيوعية والاتحاد السوفييتي؛ وكان قد تحدث عن "إمبراطورية الشر" في أحد خطاباته الشهيرة أمام اجتماع بروتستانتي عام 1983. لقد شهدت العلاقات بين واشنطن وموسكو في عهده تراجعًا غير مسبوق - فهل سيكون ممكنًا التوصل إلى اتفاق معه؟

كان ألكسندر ياكوفليف وفريقه قد وضعوا الخطوط العريضة للأفكار الأساسية للتفكير الجديد في السياسة الخارجية، ولكن كيف للأفكار أن تترجم إلى سياسة؟ الخطوة الأساسية الأولى في ذلك الاتجاه كان اجتماع ريكيافيك Reykjavik عام 1986. انعقد هذا الاجتماع بعد بضعة أشهر من كارثة تشيرنوبل Chernobyl النووية الشهيرة، والتي من وجهة النظر السوفييتية كانت كارثة حقيقية بكافة المعايير. لكن تطبيقًا للمثل القائل بأن لكل سحابة بطانة من فضة، فقد كان لتلك النتائج تأثير إيجابي على التفكير الروسي، وربما أيضًا على صناع السياسة الخارجية الأمريكان. لقد أسهمت كارثة تشيرنوبل، كما لم يسهم أي حدث آخر من قبل، في تحفيز الشعور بالحاجة الملحة لاتخاذ خطوات عاجلة نحو تطبيق مبدأ نزع السلاح.

لقد تطرق اجتماع ريكيافيك بشكل رئيسي إلى مناقشة "المسائل التقنية" من قبيل وجوب إعطاء قضية الصواريخ البالستية العابرة للقارات الأولوية أم لا أو تنفيذ وقف فوري للتجارب النووية وغيرها من النقاط المدرجة على أجندة مبادرة الدفاع الاستراتيجي الأمريكية (SDI) والخطط السوفييتية لخفض التسلح النووي. كان هنالك قدر كبير من المماحكة، وبرأي أندريه غراتشيف Andrei Grachev، أحد كبار مستشاري غروميكو والناطقين باسمه، كان الاجتماع فاشلًا.

من منظور الأحداث الماضية، على أية حال، ربما كان الاجتماع بمثابة خطوة ضرورية نحو تغييرات بعيدة المدى حدثت عام 1989. على الأقل فقد خرج الجانبان كلاهما بانطباع مفاده أن تقدمًا جديًا بات يلوح في الأفق، وأن الجانبين كليهما كانا متلهفين للتوصل إلى اتفاق. كانت العلاقات قد جُمدت لسنوات عديدة جدًا، وكان من غير المحتمل حدوث انفراج مفاجىء وحل كافة المشكلات الأساسية بضربة قاضية واحدة.

تلا اجتماع ريكيافيك زيارة ريغان إلى موسكو في أيار/مايو 1988، عندما أعلن في خطاب له في الساحة الحمراء أنه لم يعد يعتبر الاتحاد السوفييتي بمثابة إمبراطورية للشر. جاء هذا النجاح المفاجىء في تحقيق انفراج بالعلاقات مع الغرب كنتيجة لقمة أخرى أيضًا في كانون الأول / ديسمبر 1989، هذه المرة مع جورج إتش دبل يو بوش على متن الطراد السوفييتي مكسيم غوركي قرب مالطا. لقد أفضى هذا اللقاء إلى سلسلة من اللقاءات المتعلقة بشكل رئيسي بالحد من التسلح. في بيان مشترك، أعلن غورباتشيف وبوش أن القوتين العظميين كلتيهما لم تعودا تنظران إلى نفسيهما كعدوتين.

لقد استغرق من القادة الغربيين (سيما الأمريكان) وقتًا طويلًا لتقبل فكرة أن التغييرات في سياسة الكرملين كانت حقيقية وشكلت نقطة تحول تاريخية في السياسة العالمية. هذا أمر يمكن تفهمه من

منظور الأحداث والتجارب الماضية. فعلى مدى عقود كانت هنالك العديد من خيبات الأمل والنكسات، وكان القادة الغربيون خائفين من خيانة أخرى. لهذا السبب، وفي حين كانت هنالك رغبة بعدم خسارة هذه الفرصة التاريخية، كانت هنالك رغبة في معرفة إن كان غورباتشيف سيفي بوعوده قبل الإقدام على تنازلات بعيدة الأثر.

ولكن بعد عقود من الجمود، بدأت الأمور تتحرك بوتيرة أسرع وكان القادة الغربيون بطيئين إلى حد ما في ردود أفعالهم. في أحد خطاباته الشهيرة في برلين، طلب ريغان من غورباتشيف أن يخطو خطوة أخرى ويقوم بفتح البوابات. جرى حل ميثاق وارسو، وفجأة فتحت البوابات واختفى الجدار، لكن رد الفعل الغربي كان بطيئًا. لأنه في ضوء الوضع الاقتصادي الكارثي والمتدهور باستمرار في الاتحاد السوفييتي، كانت هنالك خشية من أن أيام غورباتشيف كزعيم باتت معدودة، ولا يمكن لأحد أن يضمن بأن خليفته سيكون على الدرجة ذاتها من الاستعداد لمواصلة سياسته. كان غورباتشيف بحاجة ماسة للمساعدة، كالقروض لمواجهة الحالات الطارئة الداخلية الملحة، لكن مثل هذه المساعدة لم تكن وشيكة. شعر غورباتشيف بالإحباط، بل حتى بالخيانة. أفضى إلى مستشاريه بأنه عندما كان الأمر يتعلق بالذهاب إلى الحرب بعيد غزو صدام حسين للكويت، لم يعدم البيت الأبيض الوسيلة لإيجاد المليارات للقيام بذلك، ولكن عند مواجهة أزمة سياسية طارئة، كانوا إما غير قادرين أو غير راغبين بالقيام بأي جهد.

لم يدرك غورباتشيف أن القروض وأشكال المساعدة الأخرى ينبغي أن يصادق عليها من قبل الكونغرس، أو أن الرئيس لا يملك الصلاحية والإمكانات للتفويض بمنح مثل هذه المساعدة بنفسه. كما أن قدرة البيت الأبيض على إنقاذ غورباتشيف (استقال في كانون الأول /ديسمبر عام 1991) لم تكن مؤكدة. لأنه بحلول ذلك الوقت لم تعد الأزمة اقتصادية أو مالية بحتة في طبيعتها؛ لقد بدا الاتحاد السوفييتي برمته بحالة من الانحلال والتفكك، وكانت هنالك شكوك في واشنطن حول قدرة أمريكا على التدخل، أو وجوب تدخلها لوقف هذا التفكك.

كان الانقلاب ضد غورباتشيف في آب/أغسطس 1991 قد مني بالفشل، لكن موقفه كان ضعيفًا إلى درجة كبيرة. وإذا كان النظام قد تمكن من الصمود بشكل أو بآخر، فهذا يعزى في المقام الأول إلى يلتسن، الذي عمد خلال الساعات العصيبة إلى حشد الدعم. صوريًا، بات للاتحاد السوفييتي الآن زعيمان. كان غورباتشيف لا يزال رئيسًا للاتحاد السوفييتي، لكن يلتسن كان قد انتخب رئيسًا لروسيا بنسبة 57 بالمئة من الأصوات. إضافة لذلك، أصبح يلتسن الآن رئيسًا للوزراء. بدا من الطبيعي لغورباتشيف أن يستقيل من منصبه كرئيس للاتحاد السوفييتي، نظرًا لأن هذا الاتحاد لم يعد له وجود فعليًا ككيان متماسك. لقد تم استبداله بكومونولث الدول المستقلة، الذي تشكل من إحدى عشرة جمهورية من الجمهوريات السوفييتية السابقة. كانت جمهوريات البلطيق قد حزمت أمرها على إعلان استقلالها في السنة السابقة، ولحق الآخرون بركب المنظومة في آب/أغسطس وأيلول /سبتمبر 1991.

في هذه الأثناء، عمت كافة أرجاء البلاد موجة غير مسبوقة من ارتفاع الأسعار بالرغم من الوعود المستمرة من جانب الحكومة بعدم حصول ذلك. (جرى تحرير الأسعار لاحقًا في كانون الثاني /يناير 1992). كيف سيصار إلى وضع حد لهذه الحالة من الفوضى؟ كان مردود الاقتصاد السوفييتي قد تراجع بنسبة 11 بالمئة خلال العام 1991، وارتفعت نسبة العجز في ميزانية البلاد

بحوالي الربع)، أما الإصلاحات المالية فلم تؤت كلها ولم تفلح في تحقيق أية انفراجات (الروبل الورقي من فئة الخمسين والمئة جرى استبداله بمستندات). كان المزاج العام في البلد يميل لصالح اقتصاد السوق والخصخصة، رغم أن أحدًا لم يكن يعرف على وجه اليقين ما الذي كانت تعنيه هذه التغييرات الجذرية والتأثير الذي يمكن أن تخلفه عمليًا على الوضع العام للاقتصاد في البلاد. كان يلتسن قد عين مجموعة صغيرة من الاقتصاديين للإعداد لمرحلة الانتقال إلى اقتصاد السوق، وقد أصبح هذا النظام الاقتصادي قانونًا في حزيران /يونيو 1992.

جرى كل شيء بسرعة كبيرة. ولكن هل كان بالإمكان تفادي الأزمة؟ بعد أكثر من عشر سنوات، وفي مقابلة له مع الفايننشال تايمز، قال أناتولي تشوبايس Anatoly Chubais، أحد المهندسَين الرئيسيين للخصخصة، بأن العملية كانت أشبه بسباق مع الزمن. كانت الضغوط هائلة، وتصادف أن يلتسن كان مريضًا، ولو لم يُصَرْ إلى الدفع بالمتطلبات الراديكالية بقوة، لكان الشيوعيون قد فازوا بالانتخابات عام 1996 ولكان قدر للتاريخ أن يتخذ مسارًا مغايرًا.

كل هذا قد يكون صحيحًا، حيث إن الوضع كان بالتأكيد بالغ الحساسية في موسكو. في تشرين الأول /أكتوبر 1993، جرت هنالك محاولة أخرى للإطاحة بالحكومة التي كانت آنذاك برئاسة يلتسن. اشتباك بالرشاشات على مدى عشر ساعات جرى فوق البيت الأبيض الروسي، مقر الحكومة، حيث قتل وجرح العديد من الأشخاص. تصرف يلتسن بحزم. ففي غضون ساعات جرى اعتقال قادة الانقلاب. جرى حظر جبهة الانقاذ الوطني التي كانت قد قامت بالانقلاب، كذلك جرى حظر الحزب الشيوعي. (كان قد أعلن عن الحزب الشيوعي حزبًا غير شرعي قبل سنتين، لكن المحكمة العليا كانت قد وجدت في هذا الإعلان إجراءً غير قانوني وعمدت إلى إلغائه، متذرعة بأن حزبًا سياسيًا لا ينبغي أن يُحظر بسبب أفعال وتصرفات بعض من أعضائه).

لم يكشف النقاب بعد عن القصة الكاملة لما حدث خلال أيام "خصخصة السندات". كانت الفكرة الأساسية الكامنة وراء الخصخصة ترمي إلى إعادة تدوير عجلة الاقتصاد من جديد وجعلها كثر إنتاجية. لكن الأمل كان معقودًا أيضًا على جذب المستثمرين الأجانب؛ كانت روسيا خلال هذه الفترة بصدد الانضمام إلى البنك الدولي وصندوق النقد الدولي. من غير الواضح كيف كانت ردود فعل العامة تجاه هذا المد الجارف من البدع والمحدثات. في نيسان /أبريل 1983، جرى منح الحكومة الثقة في إحدى عمليات الاستفتاء، لكن غالبية السكان لم تكن على الأرجح على علم بما كان يجري في البلاد. لقد آلت أملاك حكومية قوامها 130.000 مؤسسة متوسطة وكبيرة الحجم إلى أيدي حفنة صغيرة من المالكين، وبزغ فجر الأوليغاركيين oligarches أو حكومة القلة. الوصف الذي قدمه إيغور غايدر Yegor Gaidar، المهندس الآخر للخصخصة، حول الوضع العام في البلاد آنذاك لا يختلف في شيء عن الرواية المقدمة من قبل تشوبايس.

كان غايدر في وضع يمكّنه من الاطلاع على خفايا الأمور. لقد كان وزيرًا للاقتصاد والمالية وشغل لفترة منصب رئيس الوزراء للاتحاد الروسي بعد غورباتشيف. كان يعرف بأن الحكومة ضعيفة وأن الحكومات الضعيفة غير قادرة على اتخاذ الإجراءات الحاسمة المطلوبة. كان يعرف كل ما ينبغي معرفته حول أزمة ما بعد الاشتراكية والتي (حسبما كتب) جاءت نتيجة للمشكلات المزمنة. كانت تلك الأزمة متأصلة في صميم نمط التصنيع الاشتراكي وفي صلب الفساد العميق المستشري داخل الإدارات المالية الحكومية، إضافة إلى التراجع الحاد في أسعار الوقود. بعد عشر

سنوات، كتب غايدر مسترجعًا ذكرياته بأنه كان يعتقد بأن مرحلة النهوض والتعافي ستستغرق من سبع إلى عشر سنوات كي تتحقق. "هذه كانت فترة التحول: أكثر مهام الحكومة أهمية في بلدان ما بعد الاشتراكية في مرحلة التعافي تتمثل بخلق الشروط المسبقة لتحقيق انتقال ناجح من هذه المرحلة إلى مرحلة نمو الاستثمار، اعتمادًا على نمو الاستثمارات الرأسمالية داخل الاقتصاد وخلق طاقات إنتاجية جديدة."

ما بعد غورباتشيف

شهدت السنوات بعد استقالة غورباتشيف قدرًا كبيرًا من الاضطرابات، وانتخابات متكررة وتغييرات حكومية، واعتماد دستور جديد. خلف فيكتور تشيرنوميردين سلفه إيغور غايدر. خلال هذه الفترة، اندلعت حرب لا يستهان بها (في الشيشان) والأهم من ذلك تفكك الاتحاد السوفييتي. إذا كان هنالك ثمة من فترات استقرار جرى الحفاظ عليها، فهي تعزى بشكل رئيسي لحقيقة أن بوريس يلتسن نجح في حمل الناخبين على انتخابه ثم إعادة انتخابه ثانية رئيسًا لروسيا، ونجح في الحد من سلطات وصلاحيات مجلس الدوما (كما بات يطلق على البرلمان الآن).

كان غورباتشيف أساسًا قد جاء بيلتسن إلى المكتب السياسي للحزب الشيوعي بصفة حليف، لكن هذا التحالف لم يدم طويلًا؛ فيلتسن لم يكن أحد لاعبي الفريق. والقضايا موضع الرهان لم تكن إيديولوجية. كان يلتسن قد تعلم باكرًا كيفية إدارة الدفة بعيدًا عن الإيديولوجيا، لقد تعلم الكثير عن ذلك من تاريخ عائلته بالذات، حيث إن والده كان أحد ضحايا عمليات التطهير. سمعته كانت سمعة رئيس - ولكن على حد وصف كاتب سيرته الذاتية، تيم كولتون Tim Colton، رئيسًا يختلف عن غيره من الرؤساء.

بدأ يلتسن، المولود في أورالس Urals، حياته العملية في قرية قرب سفيردلوفسك Sverdlovsk، العاصمة غير الرسمية لأورالس. كان رجل التناقضات الكبرى - كان جذابًا، لكنه مشاكس مولع بالنزاع والخصومة، كما أنه كان مدمنًا على المشروبات الكحولية وذا ثقافة متواضعة. لا نعرف على وجه اليقين إن كان يتردد إلى إحدى عيادات الطب النفسي. في حال صدقت توقعاتنا، فلعل تشخيص طبيبه أنه ليس فقط شخصًا متهورًا جدًا، وإنما شخص يعاني من أعراض الهوس الاكتئابي. في مناسبة واحدة على الأقل، حاول الانتحار (ما يسمى قضية المقص)، أو بأية حال خلق الانطباع بمحاولة الانتحار. كان شخصًا طموًا جدًا، ومع ذلك كان الشخص الوحيد على الإطلاق الذي عرف عنه محاولته الاستقالة من المكتب السياسي (مرتين). في المواقف الاستثنائية، كان يبدي شجاعة استثنائية، وفي مواقف أخرى كان يتردد، بل حتى يعطي الانطباع بالجبن. كان يكره الحزب الشيوعي، ومع ذلك فقد كرس حياته العملية للعمل داخله. كان من أنصار التعددية الحزبية والنظام الديمقرطي، ولكن في نمطه السياسي، كزعيم، لم يكن يمت بصلة للرجل الديمقراطي.

على صعيد الخلفية الاجتماعية والشخصية، كان البون شاسعًا جدًا بين يلتسن والرجلين اللذين وقع اختياره عليهما لتنفيذ الاصلاحات الاقتصادية التي كان يتوجب تنفيذها منذ زمن بعيد. كان إيغور غايدر وأناتولي تشوبايس من رجال الفكر وأصحاب الرأي، ويتحدران من عائلتين ريفيتين. كان والد غايدر ضابطًا في الجيش برتبة كولونيل وعمل لسنوات عديدة مراسلًا حربيًا لصحيفة

البرافدا. وكان غايدر قد درس الاقتصاد وترأس مجموعة صغيرة من الزملاء الأخصائيين ممن أدركوا باكرًا أن النظام الاقتصادي السوفييتي كان نظامًا فاشلًا وأن الانتقال لاقتصاد السوق كان السبيل الوحيد لإنقاذ البلاد. أما والد تشوبايس فكان أيضًا ضابطًا كبيرًا ولاحقًا محاضرًا في مجال الفلسفة في إحدى الأكاديميات العسكرية، أما والدته فكانت مفكرة يهودية، لكنها كانت فترة يستحسن فيها عدم الكشف عن مثل هذه العيوب والنقائص.

عمل غايدر في الحكومة لفترة قصيرة نسبيًا. ولعل يلتسن كان قد وافق على مبدأ العلاج بالصدمة الذي نصح به غايدر (وقام بتنفيذه)، لكن التحول كان مؤلمًا، ولم يكن راضيًا عن النتائج الآنية. كان غايدر يأمل بتحقيق الاستقرار المالي، لكنه فشل في تحقيق هذا الحلم. مات في عمر الشباب نسبيًا، وبقدر ما هوجم خلال حياته، بقدر ما لقي الثناء بعد موته. وبحسب رأي الأغلبية، فإن البديل الوحيد لسياسته كان نشوب حرب أهلية.

نجح تشوبايس، من جهة أخرى، بالبقاء لسنوات عديدة في مناصب حكومية رفيعة، لكنه كان إلى حد بعيد يفتقر للشعبية. بعد تركه الحكومة، تقلد عدة مناصب رفيعة مترئسًا شركات حكومية ومؤسسات خاصة؛ لقد برهن على كونه ناجحًا جدًا في جذب الرساميل الأجنبية بهدف تطوير وتحديث قطاع الطاقة الروسي.

لطالما أعرب غايدر عن قناعته بعدم وجود بديل لسياسة العلاج بالصدمة الذي كان يسعى إلى تطبيقه إلى جانب تشوبايس. مع ذلك، لم يشاركهما كل الاقتصاديين هذا الرأي - حتى أولئك من ذوي القناعات الليبرالية. علماء اقتصاد من فريق يابلوكو (أبل) (Yabloko(Apple، على سبيل المثال، كان لديهم اعتقاد بأن تحولًا أكثر تدرجًا (مشروع الخمسمئة يوم) ربما كان سيتسبب بقدر أقل من الألم ويتمخض عنه التأثير ذاته في النهاية.

في حين أن البيريسترويكا كانت تتمحور أساسًا حول الاقتصاد، فإن القضايا السياسية كانت الهاجس الدائم للقيادة والبلد عمومًا - تحول النظام السياسي من نظام متراص متماسك إلى نظام التعددية الحزبية، وتفكك الاتحاد السوفييتي، وانحلال الإمبراطورية السوفييتية (بشكل خاص في أوروبا الشرقية)، والحرب الشيشانية الأولى.

مع تراخي قبضة الحكومة المركزية وعجزها عن القيام بمهام الإشراف والسيطرة على البلاد، تفشت الفوضى وعمت الاضطرابات الجمهوريات البعيدة، بادئ ذي بدء على نطاق ضيق في كازاخستان (كانون الأول /ديسمبر 1986) في أعقاب الإطاحة بالسكرتير الأول للحزب، وهو كازاخستاني إثني، واستبداله بآخر روسي. أعقب ذلك مواجهات على نطاق واسع (آب/أغسطس 1987) بين الآذريين والأرمن. سرعان ما تحولت الصدامات المحلية في إقليم كاراباخ تحديدًا إلى مواجهات أوسع نطاقًا عندما بدأ الآلاف ولاحقًا عشرات الآلاف من اللاجئين من مناطق النزاع بالوصول إلى أذربيجان وأرمينيا. ترددت موسكو بالتدخل عسكريًا، والاقتراحات التي قدمت من قبل أحد وفود الأبحاث من موسكو التي كانت تهدف إلى تحسين ظروف المعيشة، لم تفلح في تخفيف حدة نزاع قومي مرير كانت نذره تلوح في الأفق. بالنتيجة، فقد تحولت المواجهات والمذابح المنظمة وعمليات الترحيل إلى حرب أهلية دامية.

تطرقنا في هذا السياق إلى ذكر النزاع الآذربيجاني - الأرمني كونه أظهر كيفية تراخي قبضة موسكو التدريجي على الحكم وفقدانها السيطرة على البلاد. أعقب ذلك أعمال الشغب والاضطرابات التي اندلعت في بلدان البلطيق، والتي كانت أقل شراسة بكثير في طبيعتها. بعد تراخي قبضة الرقابة أو زوالها كليًا، تسيديت وسائل الإعلام الميدان وأطلقت العنان لأدواتها وفرسانها للتحرك وخوض غمار التحدي بلا حسيب أو رقيب. لقد أدى ذلك إلى حشد الناس واستقطابهم. جرت لقاءات جماهيرية حاشدة في جمهوريات البلطيق الثلاث جميعًا شارك فيها مئات الآلاف وتشكلت "الجبهات الوطنية" والكل يطالب بالاستقلال. جرت هنالك بعض المحاولات الفاترة الخجولة لقمع الحركات الانفصالية، إلا أن الانفصال الكلي مضى قدمًا بطريقة سلمية. أعلن البرلمان الليتواني استقلال البلاد في آذار/مارس 1990، تبعه البرلمان الأستوني بعد بضعة أسابيع، ثم صوت البرلمان اللاتفي في آب/أغسطس لصالح الاستقلال. وقد اعترفت الحكومة السوفييتية باستقلال هذه الجمهوريات في العام التالي. في آذار/مارس 1991 أجري استفتاء حول الحفاظ على الاتحاد السوفييتي القديم. قد يكون من الطريف استذكار أنه في الانتخابات التي أجريت في كانون الأول /ديسمبر 1991، فإن 90 بالمئة من الأصوات في الاستفتاء الأوكراني صوتت لصالح الاستقلال.

كان يلتسن قد أعلن مسبقًا أنه عندما تستخدم الجمهوريات غير الروسية حقها بمغادرة الاتحاد، يمكن لروسيا أن تفعل ذلك أيضًا. ما الذي يكون قد حدا به للإدلاء بمثل هذا التصريح؟ لعله اعتقد بأن بعض الجمهوريات كانت ستفضل البقاء مع الروس. إذا كان الأمر كذلك، فقد أخطأ في حساباته. وقد حاول أيضًا خلال سلسلة من الاجتماعات أن يبقي على شعرة معاوية مع الجمهوريات السوفييتية السابقة من خلال اتحاد فيدرالي أقل تماسكا، ولكن لم يكن واضحًا كيف يمكن لمثل هذا الهدف أن يتحقق. لقد تم في النهاية توقيع معاهدة بينهم جميعًا، باستثناء جمهوريتي التتار Tatar والشيشان. معاهدة أمن جماعي جرى توقيعها في أيار/مايو 1992، إلا أن طاجيكستان وجورجيا ظلتا خارج إطار هذه المعاهدة. وقعت روسيا وبيلاروسيا اتفاقية حول اتحاد نقدي في كانون الثاني/ يناير 1994، ومعاهدة بشأن تثبيت الحدود جرى توقيعها بين كل من روسيا والصين وكازاخستان وقرغيزيا في نيسان /أبريل 1994. الحدث الأهم كان إبرام اتفاقية بين روسيا وأوكرانيا في أيار/مايو 1997 حول وضع الأسطول الروسي في البحر الأسود - هذه الاتفاقية تمحورت حول تأمين مدخل لأسطول البحر الأسود عبر الأراضي الأوكرانية.

المعاهدات الأخرى كانت أقل أهمية، حيث إن الدول المستقلة حديثًا لم تكن قد امتلكت بعد قوات عسكرية خاصة بها. كما أن الوضع الاقتصادي كان متقلقلًا وفي حالة تغير متواصل - لقد انهار سعر صرف الروبل في تشرين الأول /كتوبر 1994. في خضم هذه الظروف، ما الذي كان يعنيه وجود كومونولث الدول المستقلة؟ هل ستكون روسيا قادرة على فرض سلطتها في الأقاليم المتبقية بعد انفصال الجمهوريات؟ لقد بدا هذا بأي حال من الأحوال أمرًا مؤكدًا. لم تبد الشيشان أية رغبة في أن تكون جزءًا من الكيان الجديد وحاولت الانفصال عنه" في كانون الأول / ديسمبر من عام 1994، تحركت القوات الروسية إلى الشيشان.

استمرت الحرب التالية حتى أيلول /سبتمبر من العام 1996، ولم تسر الأمور سيرًا حسنًا من وجهة النظر الروسية. فقد كتب أحد المراقبين قائلًا بأن هذه الحرب قصمت ظهر حكومة يلتسن؛

مراقب آخر أطلق على الشيشان اسم "بلاطة ضريح الصلف الروسي". من منظور الأحداث الماضية، فقد كانت هذه الأمور محض مبالغات، لكن من السهل فهم سبب تشكل هذه الانطباعات في ذلك الحين. إذا لم يكن الجيش الروسي قادرًا على إخضاع قوى الجمهورية القوقازية الصغيرة، فهو بالتأكيد لم يعد تلك القوة الرئيسية التي يحسب لها حساب. لم تكن المشكلات التي واجهتها روسيا في المنطقة مقتصرة على الشيشان: كانت هنالك اضطرابات في داغستان وفي أماكن أخرى أيضًا. لم تكن القوات الروسية مهيأة بشكل جيد لخوض حرب عصابات؛ كانت قد تلقت التعليمات لوقت طويل بأن تكون مستعدة لخوض حرب عالمية.

إذا كانت الحرب الشيشانية الأولى قد انتهت في ورطة، فقد كان واضحًا أن الأحوال السائدة المستجدة لم تكن لتستمر إلى ما لا نهاية، لأن الوضع لم يكن مستقرًا - وكان الاستقرار هو الهدف الذي حدا بالقوات الروسية للتحرك إلى الشيشان عام 1994. وفي حين أن 70 بالمئة من الروس كانوا يصفون الحرب الشيشانية الأولى بالحرب المأساوية، فإن 70 بالمئة وافقوا على الحرب الثانية. لهذا السبب، لم تأت الحرب الشيشانية الثانية عام 1999 (بعد غزو داغستان من قبل "وحدة دولية" من المقاتلين الإسلاميين) بمثابة مفاجأة كبيرة. كانت روسيا هذه المرة مهيأة بشكل أفضل عسكريًا وكذلك سياسيًا. لم تكن العملية مقررة كحرب، وانما كعملية لمواجهة الإرهابيين، والتي استمرت بين مد وجزر لغاية العام 2009. الأهم من ذلك، ربما، أن المناخ الدولي كان قد تغير. ففي حين أن الحرب الشيشانية الأولى كانت قد قوبلت بشجب دولي، فإن النشاطات المتنوعة للإرهابيين الإسلاميين خلال فترة التسعينات في أماكن أخرى من العالم (سيما بعد هجمات الحادي عشر من أيلول /سبتمبر في الولايات المتحدة) خلقت مناخًا لقدر كبر من التفهم للعمليات الروسية في القوقاز. علاوة على ذلك، كان لدى روسيا في الحرب الشيشانية الثانية هدفًا سياسيًا واضحًا - هزيمة حكومة الانفصالي المنشق أصلان مسخادوف Aslan Maskhadov واستبدالها بنظام موال لموسكو برئاسة أحمد قديروف Akhmad Kadyrov. نجحت روسيا في هذا المسعى؛ لكن مسألة دوام هذا النجاح بقيت أمرًا غير مؤكد. استمرت عملية أسلمة الشيشان، وكذلك حالة الفوضى وانعدام القانون والانتهاكات الحدودية والإغارات وغيرها من أشكال العنف، ولكن بمستوى أقل حدة. كانت حربًا قاسية تميزت باحتجاز أعداد كبيرة من الرهائن وخطف الآلاف ممن لم يعرف مصيرهم مطلقًا. في أغلب الحالات، كان من المستحيل تحديد الطرف المذنب، كما أن توجيه الاتهام لطرف بعينه لم يكن دائمًا بالإمكان. إذا كان واضحًا من هو الطرف الذي قام باحتجاز أكثر من ألف شخص (من ضمنهم 777 تلميذا) في بيسلان في أوسيتيا الشمالية، فقد كان أقل وضوحًا معرفة المسؤول عن تفجير المباني السكنية في موسكو وبويناكسك ونولغودونسك عام 1999.

استقر الوضع في الشيشان، لكن الحال لم تكن كذلك في داغستان. إذ لم تكن روسيا محبوبة في القوقاز الشمالي، لكنها كانت مرهوبة الجانب. حتى ألد أعدائها كانوا قد أدركوا بأن لا فرصة أمامهم لنيل الاستقلال في المستقبل المنظور. بقي القوقاز الشمالي جرحًا لن يندمل، ولكن في نفس الوقت لم يكن هنالك خطر في أن ينفقئ ويمتد.

كان الانفصاليون الشيشان على درجة من الضعف تمنعهم من تكليل مطالبهم بأي نجاح ما لم تحدث هنالك زيادة في القوة السياسية المسلمة في باقي أنحاء روسيا ترغم الحكومة المركزية على تقديم تنازلات جوهرية في القوقاز. ولأن القوى غير الروسية كانت تعتمد على معونة كبرى من

الحركات والدول الإسلامية، كان من غير المرجح تمامًا لمثل هذه المعونة أن تأتي في وقت قريب. وطالما أن الحكومة المركزية كانت قوية، لم يكن لدى روسيا ما تخشاه من جانب الانفصال الشيشاني، لكن كان من الواضح أيضًا أن النظام الذي فرضته روسيا على الشيشان لم يكن موضع ثقتها في المواقف الحرجة.

بعد أربع سنوات من تسلمه لمهام منصبه كرئيس للاتحاد الروسي، كان على بوريس يلتسن أيضًا الانخراط في حرب عصابات أخرى - ضد مجلس السوفييت الأعلى، حيث كان موقف خصومه السياسيين، سيما قدامى الشيوعيين، لا يزال قويًا تمامًا. حاول تحصين موقفه بسبل شتى، من ضمنها دستور جديد. لكن شعبيته تضاءلت، وهذا يعود بشكل رئيسي إلى الاصلاحات الاقتصادية المؤلمة التي كانت قد باتت ضرورة ملحة. كما أن المسار الذي سلكته الحرب في الشيشان لم يسهم في تعزيز شعبيته. مهما يكن من أمر، فقد عزم يلتسن على التقدم بترشيحه لفترة رئاسية ثانية عام 1996، ضاربًا عرض الحائط بنصيحة العديد من مستشاريه وأنصاره. بحسب نتيجة التصويت، فقد تراجعت شعبيته إلى 3 بالمئة، لكن حسه الغريزي الطاغي أنبأه بأن فرصة الفوز لا تزال سانحة بالنسبة له. مرشح المعارضة الرئيسي، غينادي زيغانوف Gennady Zyuganov، لم يكن ذا شخصية محببة ويفتقر إلى حس يلتسن وجاذبيته. كان لدى يلتسن قدر لا بأس به من مصادر التمويل رهن تصرفه. والعديد من أولئك الذين كانوا قد وصلوا إلى عتبة الثراء الفاحش نتيجة سياسة الخصخصة كانوا يدعمونه، حتى بعض كبار مستشاري العلاقات العامة الأمريكان جرى استخدامهم للإفادة من خبراتهم وتوجيهاتهم. علاوة على ذلك، فقد وعد يلتسن بالتراجع عن بعض من أكثر الإجراءات إجحافًا بحق المواطنين التي كانت الحكومات التي قام بتعيينها قد اعتمدتها. كذلك تم تقديم بعض الامتيازات لكبار السن والبعض الآخر للطلاب. قام صندوق النقد الدولي بمنح روسيا قرضًا بقيمة 10 مليارات دولار، وهو كبر قرض تحصل عليه روسيا في تاريخها. كذلك فقد وعد يلتسن بإنهاء الحرب في الشيشان. شيئًا فشيئًا لحق بزيغانوف، الذي كان رئيسه لفترة طويلة؛ في النهاية، حصل يلتسن على 54 بالمئة من الأصوات وزيغانوف على 41 بالمئة. كان ذلك نصرًا، لكنه لم يكن حاسمًا جدًا.

كيف نفسر أنه وبعد المحن والرزايا التي تمخضت عنها الشيوعية، أن الحزب السياسي المحافظ على تقاليده ما زال يبلي بلاءًا حسنًا للغاية؟ (غورباتشيف وزيغانوف كلاهما كانا قد غادرا قبل وقت طويل). على المرء أن ينظر أولًا إلى الأخطاء العديدة التي ارتكبها الإصلاحيون - وحقيقة أنه لم يكن هنالك فعليًا أي حزب إصلاحي. الناس التي كانت قد ادخرت شيئًا من المؤن المالية سرعان ما أدركت بأن ما يقرب من 99 بالمئة من مدخراتها كانت قد نهبت، وقدمت لها سندات بالمقابل. إن أحدًا لم يكن يعلم قيمة تلك السندات حقيقة، والتي لم تكن بالتأكيد تساوي أكثر من 15 بالمئة مما أخذ منهم. كان البرلمان البوتقة التي جمعت غالبية المناوئين والخصوم. كان يلتسن يحكم بموجب مراسيم الطوارئ، لكن البرلمان قلص، بل حتى انتزع منه صلاحياته في إصدار مثل تلك المراسيم. دستور جديد، كان قد حاز على رضا يلتسن واستحسانه، لم يفلح في كسر حالة الجمود والركود التي استمرت لسنوات. حزب يابلوكو الليبرالي، برئاسة غريغوري يافلينسكي، قدم عرضهما بدعم متقطع فاتر ليلتسن والحكومات المعينة من قبله. من وجهة نظره، لم تشكل

إصلاحات غايدر بأي حال من الأحوال علاجًا بالصدمة. لعله كان محقًا في تقديره. ولكن هل كان يمكن لصدمة علاجية كما تصورها يابولكو أن تمرر من قبل حكومة ديمقراطية؟

في أحسن أحواله، كان يلتسن يقوم بلعبة مزدوجة على صعيد العلاقات مع البلدان الأجنبية. غالبًا ما كان خطابه السياسي يتذبذب بين العداء الصريح عندما كان يتحدث إلى أحد أبناء وطنه (منحيًا باللائمة على الغرب على معظم المحن والبلايا التي حلت بروسيا)، والنبرة الودية البناءة عندما يكون يتحدث مع قادة غربيين من أمثال بيل كلينتون Bill Clintin وهلموت كول Helmut Kohl، اللذين كانا يكنان له كل المحبة والتقدير. ساعد مثل هذا التعامل المزدوج الكرملين في الحصول على الدعم المالي من الغرب، ولكن ليس بالقدر الكافي لإحداث تأثير حاسم داخليًا يمكن أن يعزز أو على الأقل يحفظ توازن واستقرار وضع يلتسن. في انتخابات العام 1995 إلى انتخابات الدوما السادسة - كانت تجري عمليًا في كل سنة في تلك الأيام - برز الشيوعيون على أنهم الحزب الوحيد الأقوى، لكنهم شكلوا شارة تحذير أخرى. كيف يمكن إقامة نظام ديمقراطي والمحافظة عليه إذا كانت الغالبية تعارض مثل هذا النظام؟ فاز الإصلاحيون بمئة وتسعة مقاعد، ومعارضو الإصلاح - الشيوعيون و"القوى الوطنية" - بأكثر من ضعف ذلك الرقم. (الفارق بين الشيوعيين و"الوطنيين" كان قد تضاءل في ذلك الحين). كان الشيوعيون بصورة عامة يقفون إلى جانب النظام القديم بينما حزب زيرينوفسكي - الحزب الديمقراطي الليبرالي - لم يكن لا ليبراليًا ولا ديمقراطيًا ووافق الشيوعيين على موقفهم حيال المشكلات الراهنة.

أفلح يلتسن في تحقيق عودة سياسية في الانتخابات الرئاسية السنة التالية. وحقيقة أن ألكسندر ديبيد Alexander Lebed (جنرال وكبير مستشاريه للشؤون الأمنية) كان قد توصل إلى اتفاق سلام مع الشيشانيين قد أسهمت بالتأكيد في دعم حملته الانتخابية. كانت 1997، السنة التي تلت فترته الثانية، السنة الأفضل أو على الأقل الأسهل خلال تلك الفترة الصعبة والمؤلمة. بعدها، وعلى حين غرة في آذار/مارس 1998، عمد يلتسن إلى صرف ليس فقط فيكتور تشيرنوميردن Viktor Chernomyrdin، وإنما كامل الطاقم الوزاري من الخدمة، بما فيهم أناتولي تشوبايس. السبب على الأرجح كان طموح رئيس الوزراء المغادر، الذي كان يعتبر نفسه خليفة يلتسن وكان يتصرف على هذا الأساس. إذا كان الأمر كذلك، فإن توقيت الصرف كان أقل من رائع، لأنه تصادف مع أزمة اقتصادية أخرى.

كان الطلب العالمي على النفط والغاز قد تراجع، وكذلك الدخل الروسي من هذا المورد. فقدت سوق الأسهم الروسية 60 بالمئة من قيمتها، وكان على يلتسن أن يحيط الدوما علمًا بخطورة الوضع. شهدت الأمور قدرًا من التحسن بحلول نهاية العام، وشهد العام 1998 زيادة بنسبة 5 بالمئة في إجمالي الناتج المحلي. من جهة أخرى، فقد عانى يلتسن من أزمة صحية أخرى في وقت كانت فيه القيادة العليا بأمس الحاجة إلى الاستقرار والتوازن أكثر من أي وقت مضى. لقد تعرض لأربع أزمات قلبية متتالية وهو ما يزال في منصبه، وفي عام 1996، أجريت له عملية مجازة شريانية على يد جراح القلب الشهير وكبير أطباء مستشفى هيوستن، مايكل دبغي؛ لم يكن الأطباء الروس متيقنين من إمكانية أن يتخطى يلتسن مثل هذه العملية الخطيرة. وكان عليه أيضًا الخضوع لعدة عمليات أخرى خلال هذه السنوات، البعض منها تم إجراؤها على يد جراحين روس، والبعض الآخر على يد أخصائيين أجانب قدموا بالطائرة إلى موسكو في سرية بالغة. تخطى يلتسن الجراحة

من دون أية مضاعفات أساسية، لكنه لم ينجح في تخطي المتاعب السياسية لأواخر التسعينات والهجمات التي كانت تستهدفه.

لكن أسعار السلع كانت متذبذبة إلى درجة مخزية، وتعافي العام 1998 لم يدم طويلًا. في آب/ أغسطس، نشرت الفايننشال تايمز رسالة كتبها جورج سوروس نصح فيها بتخفيض قيمة الروبل، حيث إن الاقتصاد الروسي كان قد وصل إلى شفير الانهيار التام. تم العمل بالنصيحة، وجرى تعويم سعر الصرف، وفقد الروبل نصف قيمته. صوت الدوما بإقالة يلتسن، لكن مثل هذه القرارات لم تكن ملزمة دستوريًا. كما أن أية محاولة لاتهام الرجل بالخيانة والتقصير لم يكتب لها النجاح. مع ذلك، ففي ذلك الوقت حتى أكثر مناصري يلتسن إخلاصًا في أوساط الأوليغاركيين كانوا خائفين من احتمال أن يتطلع الرئيس لفترة رئاسية ثالثة (الفترة الثانية كانت محددة بأربع سنوات. مع ذلك، فإن مثل هذه المخاوف لم يكن لها أساس، لأن الدعم الشعبي للرئيس كان قد تلاشى ولم يعد له وجود.

كان صندوق النقد الدولي راغبًا في إنقاذ روسيًا ماليًا مرة أخرى، لكن صبره كان قد نفد - وكذلك موارده. في غمرة هذا الوضع، ربما قرر يلتسن أواسط العام 1998 أن عليه الاستقالة وأن رئيس وزراء آخر بات ضروريًا؛ لهذا، وقع اختياره على أحد عناصر الـ KGB البالغ من العمر ستة وأربعين عامًا ويدعى فلاديمير فلاديميروفيتش بوتين. لم يكن بوتين تلك الشخصية المعروفة جيدًا، ولا تربطه أية صلة بأي حزب سياسي. كان بوريس بيريزوفسكي Boris Berezovsky، أقرب المقربين إلى يلتسن وموضع ثقته، قد رشحه لهذا المنصب. في حين أن يلتسن لم يكن يعرفه جيدًا، كان من الواضح أن بوتين كان قد حاز على دعم الرئيس كشخص بوسعه الاعتماد على ولائه. كان بوتين قد دعم أناتولي سوبتشاك Anatoly Sobchak رئيسه السابق ومحافظ سانت بطرسبرغ، حتى بعد أن تورط في مشكلات عويصة وكان عليه أن يفر من البلاد. قد يكون مثل هذا الاستعراض من الولاء يفوق كل الاعتبارات الأخرى في نظر يلتسن.

ظل يلتسن متمسكا بمنصبه حتى اليوم الأخير من السنة (والألفية) عندما، وقبل بضعة أشهر من نهاية ولايته الثانية، أعلن استقالته. أعرب عن أسفه لعدم تمكنه من تحقيق أي من أحلامه (وأحلام الشعب الروسي)، ورشح بوتين ليكون خليفته، في الوقت الحاضر، كرئيس مؤقت.

كانت نهاية حقبة. وبالنسبة لمعظم الروس كانت هذه الفترة بمثابة كابوس مروع، ليس فقط من منطلق معاناة العوز والحرمان المادي. معدلات الجريمة كانت في تصاعد، وكذلك حالات الفساد وغيرها من النقائص والسلبيات التي كانت تشكل جزءًا من الحياة في الاتحاد السوفييتي. لكن ستالين ومن جاء بعده كان بوسعهم على الأقل أن يفاخروا بأن البلاد قد تحولت إلى قوة عظمى، وهذا أيضًا لم يعد صحيحًا. هل كانت البيريسترويكا ضرورية حقًا، وإذا كانت كذلك، لم يكن بالإمكان تنفيذها بطريقة أقل إيلامًا؟ لماذا كان الانتقال في الصين أقل إيلامًا؟ وفيما يتعلق بالاقتصاد، أكثر نجاعة وكفاءة؟ الجواب المقتضب هو أن روسيا لم تكن الصين، ولم تكن دولة متعددة القوميات، وعلى العموم كانت البيريسترويكا الصينية مقتصرة على الاقتصاد، من دون أية نية لإنتاج نظام متعدد الأحزاب.

كان أحد أهداف مهندسي البيريسترويكا يتمثل بجعل الاقتصاد أكثر كفاءة، لكن لم يحالف النجاح هذا الهدف. الهدف الآخر كان يتمثل بخلق طبقة متوسطة تسهم في تحقيق النمو. عدد لا بأس به من الناس كانوا قد أثروا ثراءً فاحشًا خلال مرحلة البيريسترويكا، وكان لا يزال هناك فقر مدقع؛ ولكن لو قيض لطبقة متوسطة أن تظهر إلى حيز الوجود، لكانت بالتأكيد مختلفة عن نظيراتها في أمريكا أو أوروبا. أن تكون هنالك شريحة اجتماعية بين فاحشي الثراء ومدقعي الفقر كان أمرًا لا يرقى إليه الشك - عدد الروس الذين يحبذون السفر والرحلات الخارجية شكل مجرد مؤشر واحد من بين العديد من المؤشرات. خلال حقبة الاتحاد السوفييتي، كانت مثل هذه الرحلات ميزة مقتصرة على القلة القليلة من أفراد الفئة الميسورة، ليس فقط لأسباب أمنية، وانما لأن الكثيرين كانوا غير قادرين على تأمين نفقاتها. الآن بات بالإمكان مشاهدة حشود وأفواج السياح الروس إلى جانب الصينيين، ليس فقط في فرنسا وإيطاليا، وانما في أماكن أكثر بعدًا وأكثر غرابة وروعة.

لا شك بأن روسيا كانت قد أصبحت أكثر ثراءً، لكن مداخيل الملايين ممن هم دون طبقة الأوليغاركيا الصغيرة كانت لا تزال متدنية للغاية. مهنيو القطاع الخاص كانوا في الغالب يكسبون ضعف ما يكسبه أولئك من ذوي القدرات المماثلة العاملين في القطاع العام. لا شك بأن مثل هذا كان يشكل وصفة مضمونة للفساد.

إذا كانت هنالك طبقة متوسطة جديدة، كيف سيصار إلى تعريفها؟ هل كانت ستتألف من عائلات تملك سيارة واحدة على الأقل وأجهزة كومبيوتر، وربما بيت روسي (حتى لو كان بدائيًا)؟ كان هنالك في الواقع الملايين من مثل هؤلاء الناس في موسكو وسانت بطرسبرغ. (الدخل وكلفة المعيشة في موسكو كانت أعلى بنسبة 10 - 20 بالمئة منها في سانت بطرسبرغ). هل كانت هنالك طبقة متوسطة أساسية متواجدة خارج المدن الأكبر؟ رأس المال كان يعمل عمل المغناطيس، لكن الحياة في البلدات الريفية، كتلك الموصوفة في رواية ليشكوفسكي "ستارغورود" كانت مختلفة كليًا. فيما يتعلق بالأرياف، فقد استمر الفرار من القرى الصغيرة؛ الآلاف منها لم يعد لها وجود. أكثر منه في أي بلد آخر، كل شيء كان متركزًا في العاصمة. الأجانب لم يكونوا على دراية تامة بهذا الوضع لأن معظمهم كانوا متمركزين في موسكو. كانت نسخة جديدة من وضع تشيخوفيان Chekhovian كما جرى وصفه في "الأخوات الثلاث" Three Sisters: كانت النسوة قد نشأن في موسكو، موسكو كانت ترمز للسعادة. لم توجد هنالك أية حياة خارج موسكو.

الأصداء والإرهاصات السياسية لهذه الاتجاهات الاجتماعية كانت مثيرة ومتناقضة. كانت طبقة النخبة من أهل الفكر مقسمة، العديد من أفرادها كانوا يدعمون القضايا الليبرالية، والمتظاهرون المناوئون لبوتين خلال 2011 - 2013 كانوا يتحدرون بشكل رئيسي من طبقة النخبة. لم يكن ممكنًا تعريف وتحديد شرائح "الطبقة المتوسطة" الأخرى اعتمادًا على معدل الدخل فقط؛ الثقافة وغيرها من العوامل لعبت دورها. ولكن كان هنالك على الأقل دعمًا متساويًا للمعسكر القومي الرجعي المحافظ من هذه الأوساط. كان وضعًا غير مسبوق، وضعًا فريدًا من نوعه، روسيًا للغاية.

الفصل الثاني

من يحكم روسيا؟

من يحكم روسيا؟ هل هي طبقة النومنكلاتورا Nomenklatura الجديدة (نخبة من المتنفذين ذوي المناصب الرفيعة في الدولة وجميعهم تقريبًا أعضاء في الحزب الشيوعي)، السيلوفيك The Silovik (سياسيون من سلك أمني أو عسكري، غالبًا ضباط كي جي بي سابقون)؟ استخدم مصطلح "نومنكلاتورا" لأول مرة في كتاب للمنشق السوفييتي ميخائيل فوسلنسكي Mikhail Volsnesky عام 1970؛ كذلك أشار ميلوفان دجيلاس Milovan إلى "طبقة جديدة" في عمله الرائي "الطبقة الجديدة" الذي ظهر عام 1957 وحقق أعلى نسبة من المبيعات. لم يزعم كتاب نومنكلاتورا أن له أية أبعاد أو معايير سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية محددة. لم يكن لأحد أن يدعي بأن كافة (أو معظم) أفراد النومنكلاتورا كان لديهم سلطة سياسية. فقد كان هذا المجال حكرًا على أعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي والأمين العام للحزب وأولئك المقربين منه. كان قادة الحزب وغيرهم من الشخصيات المهمة، بالطبع، ينتمون إلى النومنكلاتورا. لكنها كانت أساسًا جماعة حديثة النشأة من أشخاص ذوي امتيازات معينة ولهم شأنهم في مجتمع كمجتمع الاتحاد السوفييتي، لكن لم يكن لهم تلك الأهمية الكبيرة على الصعيد السياسي. كانوا يتمتعون ببعض المظاهر التي تميزهم عن غيرهم من أفراد المجتمع كالسكن والسيارة والسائق الخاص والحق بالدخول إلى بعض أجهزة الدولة. وعلى رأس تلك الامتيازات كان امتلاك فيرتوشاكا vertushaka (هاتف خاص) دلالة على الانتماء.

لم يكن هنالك ثمة من شك بأن تركيبة طبقة النخبة وهيكليتها قد تغيرت عبر السنين. على سبيل المثال، كان متوسط عمر أعضاء القيادة السياسية بحدود الأربعين عامًا خلال فترة العشرينات من القرن الماضي، وخمسين عامًا بعد الحرب العالمية الثانية، وسبعين عامًا أيام بريجينيف. وكانت العضوية في الحزب السياسي، بالطبع، شرطًا مسبقًا لعضوية القيادة السياسية. كان كبار قادة الجيش وأجهزة الشرطة من ضمن التركيبة، لكنهم كانوا مستبعدين عن صناعة القرار السياسي، والشي ذاته كان ينطبق على أولئك الذين هم في مراكز قيادية في الحياة الاقتصادية والثقافية.

شهدت تركيبة نخبة صناع القرار تغيرات أساسية مع خسارة الحزب الشيوعي لمكانته البارزة السابقة. في ظل حكم بوريس يلتسن، انتقل أصحاب الثراء الفاحش إلى الصفوف الأمامية؛ وفي ظل حكم فلاديمير بوتين تسلم كبار مسؤولي إدارة الاستخبارات - كي جي بي - الحاليين والسابقين مناصب رفيعة في قيادة البلد. كانت هذه عملية غير مسبوقة. في بعض الأنظمة عبر التاريخ، كان الأثرياء وفاحشو الثراء يشغلون مناصب سياسية رفيعة، وفي الديكتاتوريات العسكرية ينتقل كبار الضباط والجنرالات إلى رأس الهرم. لكن لم يسبق لإدارات الأمن السياسي أن كانت في هرم القيادة على الإطلاق، ليس في عهد الفاشية وبالتأكيد ليس في ظل أي نظام سياسي آخر. كذلك لم يحصل ذلك في البلدان الشيوعية السابقة في أوروبا وآسيا.

الأوليغاركيا (حُكم القلة)

يعد صعود الأوليغاركيا إلى السلطة - ومصائبهم ومحنهم المتكررة وسقوطهم من نعيم الجاه ومراتب الشرف والرفعة – موضوعًا مثيرًا تناولته العديد من الدراسات، ولا تزال. كيف تمكنوا من تكديس ثرواتهم في هذه الفترة القصيرة من الزمن؟ بالأساس، من خلال الاستحواذ على الممتلكات التي تعود للدولة بأسعار رمزية أو أسعار مخفضة جدًا. لا يوجد هنالك جواب واحد بعينه يشفي غليل كافة الأسئلة والاستفسارات المحيطة بهذه القضية. مع ذلك، في السياق الحالي فإن اهتمامنا ينصب على درجة القوة السياسية التي باتت بحوزة محدثي النعمة أولئك نتيجة سياسة الخصخصة في روسيا.

بدأ كل شيء بقرار خصخصة الاقتصاد. إن أحدًا لم يكن يعرف بالضبط كيفية تنفيذ هذا الأمر، لكن العديد من الأفراد من ذوي الفطنة والنباهة كانوا يدركون بأن أملاك الدولة كان يجري بيعها أو تقريبًا وهبها والتخلي عنها. البعض منهم كانوا من كبار موظفي الحكومة، بمن فيهم وزراء ومعاونوهم - يصنف فاجيت أليكبيروف Vagit Alekperov اليوم كثامن أغنى شخص في روسيا؛ كان يشغل منصب وزير الوقود والطاقة بالوكالة. لم يكن لدى البقية أية مناصب رسمية في الدولة، لكنهم كانوا مقربين من أهل السلطة.

من بين الأوليغاركيين الذي حققوا ثرواتهم في ظل حكم يلتسن، هنالك قلة قليلة فقط حافظت على وضعها ومكانتها في ظل حكم بوتين. لقد كان طموحهم في لعب دور سياسي ذي شأن بمثابة خطيئة كبرى تسببت في سقوطهم. من غير المفهوم كيف تسنى لأولئك الذين نشأوا وترعرعوا في ظل النظام السوفييتي أن يرتكبوا مثل هذا الخطأ القاتل. هل هو الطموح الجامح، أم الاعتقاد بأنه مع نهاية الشيوعية فإن كل شيء سيغدو مباحًا؟ إن قضيتي بوريس بيريزوفسكي Boris Berezovsky وميخائيل خودوركوفسكي Mikhail Khodorkovsky، رغم ذيوع خبريهما، لم تكونا استثناءً.

بيريزوفسكي، عالم الرياضيات الموهوب (رئيس قسم الرياضيات في الأكاديمية الروسية للعلوم)، جمع ثروته في البداية من تجارة السيارات المستعملة، وبعدها خاض غمار الإعلام الروسي، ثم استثمر في إحدى كبرى شركات النفط وكذلك في شركة أيروفلوت، خطوط طيران الدولة السوفييتية في يوم من الأيام. لاحقًا، اتجه إلى تجارة النفط والغاز (شركة Sibneft، الآن غازبروم نفت). اتسمت هذه السنوات ذات الفرص الذهبية بالعنف البالغ، فقد تعرض بيريزوفسكي أكثر من مرة لمحاولة اغتيال من قبل خصومه، وفي مناسبة أخرى تم اغتيال أحد معاونيه. وهنالك تقارير تفيد بأنه هو بالذات كان قد خطط للتخلص من بعض منافسيه التجاريين.

في الوقت نفسه تقريبًا، بدأت حياته السياسية بالإقلاع، وقام إلى جانب عدد من أبناء طبقة الأوليغاركيا الآخرين بتمويل حملة يلتسن الانتخابية عام 1996 كرئيس لولاية ثانية. ونظرًا لعلاقاته الوثيقة مع ابنة يلتسن، تاتيانا، فقد دخل الدائرة الضيقة للمستشارين المقربين من الرئيس. وبعد انتخاب يلتسن مباشرة، عين بيريزوفسكي نائبًا لرئيس مجلس الأمن الروسي. بهذه الصفة، كان (من جملة أمور أخرى) مسؤولًا عن العلاقات مع الشيشان، إحدى أكثر القضايا أهمية في ذلك الحين.

طموحات بيريزوفسكي وضعته في مواجهة مع العديد من أعضاء طبقة الأوليغاركيا الآخرين وعدد من السياسيين (من أمثال أناتولي تشوبايس، الذي كان آنذاك مسؤولًا عن موضوع الخصخصة). إذا كان هذا الانخراط في مجال العمل التجاري أقرب إلى الصواب منه إلى الخطأ، فقد فشل بيريزوفسكي في التنبه إلى المخاطر التي كانت تواجهه ومجموعته في بيئة غير مألوفة بالنسبة لهم. خلال آخر سنتين ليلتسن في الحكم كرئيس، بدأ وضع بيريزوفسكي حصينًا يتعذر اختراقه؛ لم يكن لأية تعيينات في مراكز حكومية رفيعة أن تتم من دون موافقته. لقد كان هو ورومان أبراموفيتش Roman Abramovich، محدث نعمة أوليغاركي ثلاثيني آخر، أول من رشح بوتين رئيسًا للوزراء خلفًا ليفجيني بريماكوف Yevgeny Primarkov، والذي (بحسب بيريزوفسكي) لم يكن قادرًا على مجابهة المشكلات الاقتصادية والتصدي لها. كان بوتين حينها يقضي فترة راحة واستجمام في إسبانيا في فيلا تعود لبيريزوفسكي، وكان لا بد من بعض الإثارة والتحفيز. كان بوتين يعرف بالطبع أن كل رؤساء الوزارة في السنوات الأخيرة قد منوا بالفشل. علاوة على ذلك، لم تكن لدى بوتين أية خبرات اقتصادية. هل بوسعه النجاح حيث فشل الآخرون؟ في النهاية، كانت الغلبة للطموح، وقبل بوتين عرض العمل.

كانت حقبة يلتسن قد شارفت على نهايتها. لقد كان ذلك العصر عصر اللاقانون الذي تمكن خلاله الأوليغاركيون من تحقيق كل أمنياتهم تقريبًا - اقتصاديًا وكذلك سياسيًا. تمكنوا من التلاعب بالرئيس كيفما شاؤوا دون أي خشية من القانون. لكن ينبغي لبيريزوفسكي أن يكون قد أدرك بأن مثل هذه الدولة التي هي على شفير الفوضى لن تصمد إلى ما لانهاية، لأن النظام الحاكم لم يكن قادرًا على مواجهة الأزمات الملحة والمتواصلة التي تواجه البلاد. لقد كان وضعًا يجدر فيه بالدولة أو أي قوة أخرى ذات شأن (الجيش ربما) أن تثبت وجودها في نهاية المطاف كقوة قادرة على المحافظة على التوازن والاستقرار. بترشيحه بوتين، آثر بيريزوفسكي الانحياز لصالح أجهزة الأمن والاستخبارات. كان بيريزوفسكي وبقية الأوليغاركيين يمتلكون المال وقدرًا من النفوذ لدى وسائل الإعلام التي يمتلكونها والتي يمكن تجييرها إلى قوة حقيقية.

مع ذلك، لم يكن بيريزوفسكي ومعظم الأوليغاركيين الآخرين مدركين لنقاط ضعفهم. عوضهما عن جلوسه في المقعد الخلفي، متلطيًا بحذر في خلفية المشهد، وربما ناءٍ بنفسه عن المشاركة الناشطة في شؤون السياسة جملة وتفصيلًا، عمد بيريزوفسكي إلى إطلاق حملة ضد بوتين بعد أن تراءى للجميع بأن آراء ووجهات نظر الاثنين حيال مختلف القضايا كانت متباينة إلى حد كبير. لقد زعمت وسائل الإعلام التابعة لبيريزوفسكي بأن بوتين لم يظهر قدرات قيادية حقيقية في التعامل مع قضية كورسك Kursk، الغواصة الروسية التي كانت قد غرقت وعلى متنها 118 بحارًا. كان بوتين قد رفض أية مساعدة أجنبية يمكن لها أن تنقذ الغواصة، وقد استغل بيريزوفسكي هذه القضية كذريعة لمهاجمة بوتين لدفعه قدمًا نحو إجراء إصلاحات سياسية مبكرة مناوئة للديمقراطية - تحديدًا، وجوب أن يعين المحافظون مستقبلًا من قبل الكرملين بدل انتخابهم. كانت هذه الانتقادات محقة أو نصف محقة، لكن كان لها أن تخلق عدوًا من حليف سابق. رد بوتين بتأميمه لمعظم القنوات التلفزيونية التي كانت في أيدي القطاع الخاص في أعقاب الخصخصة. كان هذا يعني حرمان بيريزوفسكي من السلاح السياسي الفعال الوحيد الذي بحوزته. إضافة لذلك، فقد جرى

استحضار تهم بالفساد من قبل السلطات القضائية ضد أيروفلوت Aeroflot، والتي كان بيريزوفسكي متورطًا فيها بقوة.

كانت هذه بداية نهاية حقبة حيتان المال. وكان لا بد من استجواب بيريزوفسكي من قبل السلطات المعنية، لكنه لم يحضر جلسة الاستجواب في موسكو، فقد كان متواجدًا في الخارج ورفض العودة إلى روسيا، والتي، حسبما أفاد في رسالة إلى نيويورك تايمز كانت في طريقها للتحول إلى جمهورية موز. الشقاق والانفصال بين الرجلين اللذين سبق أن تزلجا معًا في سويسرا أصبح الآن طلاقًا بائنًا. والأرجح أن التهم الموجهة إلى بيريزوفسكي كانت بمعظمها محقة. فمن غير المعقول لهذا الحجم من الثروة أن يتكدس ويتجمع آنذاك من دون الإخلال بالقانون ومخالفته. في الوقت ذاته، من الواضح أن التهم الموجهة كانت وراءها دوافع سياسية. كان يمكن توجيه التهم بالتساوي والإنصاف ضد كل أولئك الذين أثروا خلال حقبة يلتسن، وبالطبع، ضد السياسيين وموظفي الدولة الذين كانوا يتقبلون الرشى الضخمة. وسواء كانت قضية تهرب ضريبي أو قضية استيلاء على شركات أخرى بوسائل مشروعة أو غير مشروعة، حتى التورط مع المافيا - هل كانت أوليغاركيا يلتسن نزيهة كل النزاهة من هذه الممارسات؟ لم يتمكن بيريزوفسكي من إدراك أن ميزان القوى في ظل بوتين كان آخذًا بالتغير. لم تكن بالضبط استعادة لحكم القانون، لكنها بالتأكيد ترقى لكونها تفسيرًا جديدًا للقانون من قبل حاكم جديد.

كان بيريزوفسكي مرغمًا على بيع حصته في شركة سيبنفت للنفط Sibneft - ليس للدولة، ولكن لرومان أبراموفيتش، وهو أوليغاركي آخر وحليف سابق يمتاز بدهاء سياسي كبر بكثير، التحق بركب بوتين، متعاونًا بشكل وثيق مع السادة الجدد. كان أبراموفيتش منخرطًا أيضًا بالعمل السياسي خلال حقبة يلتسن. كان عضوًا في الدوما ومحافظًا (لمنطقة تشاكتشن الفقيرة في أقصى الشمال). لكنه في عهد بوتين نقل نشاطاته من السياسة إلى كرة القدم، اللعبة التي كان له فيها ولع حقيقي. فقام بدعم أحد أندية موسكو العريقة وغرف بذلك كرجل ولعه بكرة القدم كبر بكثير من ولعه بالسياسة. كان عنيفًا بطبعه، لكنه لم يكن متهورًا وكان يؤمن بمبدأ "إن لم تكن ذئبًا كلتك الذئاب" في تعاملاته التجارية. عندما طلق زوجته الأولى، بلغت كلفة التراضي 300 مليون دولار. كان مبلغًا ضخمًا، بالتأكيد، لكنه لم يكن كبر من المبلغ الذي دفعه ثمنًا لأحد يخوته الفخمة. بهذه الطريقة، أبقى نفسه في منأى عن المتاعب وأبقى نفسه على وفاق مع سيده.

لقد حقق بعض المحامين البريطانيين مكاسب جمة من وجود بيريزوفسكي في منفاه في لندن وكذلك من حضور أبراموفيتش. الرجلان كلاهما كانا متورطين بالعديد من الدعاوى القانونية المتعلقة بملكية شركات والعديد من قضايا القدح والتشهير. حكم على بيريزوفسكي غيابيًا في موسكو كعضو في عصابة إجرامية، لكنه كان يكسب بعض قضايا القدح والتشهير في العاصمة البريطانية. هاجم بوتين بعنف وقام بتمويل عدد من النشاطات المناوئة له. لكنها كانت معركة خاسرة. كان ينبغي أن يكون واضحًا له أنه لا يمكنه تحقيق قصب السبق في حملة ضد رئيس ذي قوة لا يستهان بها. كانت هنالك مزاعم حول محاولات اغتيال فاشلة من قبل الكرملين ضد بيريزوفسكي. لسوء الحظ، لم يكن ألكسندر ليتفيننكو Alexander Litvinenko، زميل مقرب، (وأحد عناصر اد كي جي بي السابقين)، محظوظًا بالقدر ذاته. فقد جرى قتله بالسم في لندن عام 2006.

السيلوفيك

اقتصت تلك النزاعات والخصومات لنفسها، وبات بيريزوفسكي يرزح تحت نير من القنوط والاكتئاب، وفقد جزءًا كبيرًا من ممتلكاته، ثم انتحر في آذار/مارس 2013. قبيل انتحاره، وجه رسالة إلى بوتين (عن طريق زميله القديم وعدوه الحالي أبراموفيتش) يطلب الصفح والغفران على الكثير من "الأعمال الآثمة" التي كان قد اقترفها. لقد شكلت هذه النهاية رمزًا لمرحلة تاريخية كان لها وجودها: أي الهزيمة التي لحقها السيلوفيك بالأوليغاركيين الذين كانوا قد دسوا أنوفهم في السياسة، أو بالأحرى، في نشاطات موجهة ضد بوتين وزملائه. كان السيلوفيك على استعداد لتقبل فكرة أن الأوليغاركيين كانوا يحققون مكاسب مالية ضخمة وينفقون بسخاء وتبذير، حتى تقبل حقيقة أنهم يقومون بنقل الجزء الأعظم من أموالهم وأرصدتهم خارج البلاد. لعل السيلوفيك كانوا يقومون بالشيء ذاته. لكنهم لم يكونوا مستعدين لتقبل النشاطات السياسية للأوليغاركيين ما لم تكن بمبادرة من السيلوفيك أنفسهم وتحت إشرافهم وسيطرتهم.

لا حاجة بنا لسرد حكاية ميخائيل خودوركوفسكي بالتفصيل، حيث إنها ترددت على كل شفة ولسان في كل أنحاء المعمورة بعيد اعتقاله واقامته المديدة في أحد معسكرات الأعمال الشاقة. خودوركوفسكي، المولود في موسكو، والناشط في منظمة الشبيبة الشيوعية الكومسومول Komosmol، سار على خطى والديه، اللذين كانا مهندسين كيميائيين. كذلك عمل في مهنة النجارة لفترة من الزمن. لم يتسن لأحد من حيتان المال تلقي أي قدر من التعليم في مجال التجارة وإدارة الأعمال، وهو اختصاص لم يكن متوفا في الاتحاد السوفييتي؛ لم تظهر مثل هذه المدارس إلى حيز الوجود حتى أواسط التسعينات. عدد قليل منهم درس القانون الدولي والسياسة، لكن القلة القليلة جدًا منهم سبق لها السفر إلى خارج البلاد. العديد منهم اكتسب خبرته بشق الأنفس. والبعض الآخر ممن هم كبر سنًا تلقى تدريبه في مراكز سرية. اقتصاد "رمادي" مشروع أو نصف مشروع. معظمهم بدأ من الدرك الأسفل. ميخائيل فريدمان Mikhail Fridman، على سبيل المثال، كان في بداية حياته العملية يعمل في مجال غسل النوافذ؛ رومان أبراموفيتش كان صاحب بسطة رصيف؛ فلاديمير ليسين، أغنى أغنياء روسيا يومًا، عمل ميكانيكيًا في أحد المناجم؛ فاجيك أليكبيروف، عمل مستخدمًا في إحدى المنصات النفطية في بحر قزوين - عملٌ من أخطر الأعمال على الإطلاق. في العشرينات من عمره، عمل خودوركوفسكي في مجال استيراد أجهزة الكومبيوتر وسراويل الجينز والكونياك، الأمر الذي حقق له ثروة لا بأس بها. أسس مصرفًا تعاونيًا (Menatep)، وصل إلى مرحلة الإفلاس. في هذه الأثناء، ولفترة وجيزة، عمل بصفة معاون لوزير الوقود والطاقة، ما أمن له بعض المعارف من ذوي الشأن والنفوذ.

أدرك خودوركوفسكي أنه سيكون بحاجة لرأسمال أجنبي لتأسيس شركة كبرى حقيقية. وبمساعدة مستثمرين أمريكان، استحوذ على شركة يوكوس Yukos، التي كانت آنذاك كبر شركات النفط في البلاد، برأسمال يقارب 15 مليون دولار. لم تكن تقاليد العمل التجاري وأعرافه في تلك السنين، سواء اشتملت على إعلان الإفلاس، جذب مستثمرين جدد، أو التهرب من دفع الضرائب، أو الاستحواذ على شركات أخرى، غير أخلاقية وحسب، وإنما إجرامية في نظر العديد

من الناس. لكنها كانت تعمل وتنتج، وعند اعتقاله عام 2003، كان خودوركوفسكي قد أصبح أغنى رجل في روسيا، لسبب رئيسي هو نمو صناعة النفط وأرباحها الفاحشة.

على غرار بيريزوفسكي، كان خودوركوفسكي قد ارتكب خطأً قاتلًا تمثل بتورطه حتى أذنيه في السياسة، منتقدًا الحكومة، وداعمًا المعارضة. لقد بات يشكل مصدر قلق وازعاج لأولئك الذين في السلطة. فبدلًا من استحواذه على أندية كرة قدم أو اقتنائه لتحف فنية معاصرة أو استمالته لآنسات شابات، انخرط في مناظرات تلفزيونية مع بوتين، متهمًا كبار موظفي ومسؤولي الكرملين بتلقي رشاوى بملايين الدولارات. في أول محاكمة له عام 2003، جرى اتهامه بالنصب والاحتيال والتهرب الضريبي؛ وفي محاكمة ثانية عام 2009، اتهم بغسيل الأموال والاختلاس. أمضى خمس سنوات في السجن قبل أن يطلق سراحه بموجب عفو عام 2013. مع ذلك، وبخلاف بيريزوفسكي، لم تنكسر شوكة خودوركوفسكي، بل واصل انتقاداته لسياسة الحكومة وهو في السجن بل حاول أن يكرس نفسه كبطل قائد للحرية الديمقراطية وحقوق الإنسان. ولكن بحسب سجله، لم يكن هذا العمل عملًا بطوليًا إلى ذلك الحد.

عدد قليل جدًا من أوليغاركيي حقبة يلتسن تخطوا هذه المرحلة سالمين غانمين من غير أن يمسَّهم سوءٌ أو ضُر. ألكسندر كونانخين Alexander Konanykhin، الأقل شهرة في بلاد الغرب، كان في العشرين من عمره عندما أسس أولى جمعياته التعاونية في مجال البناء، مستخدمًا ستمئة عامل. بعدها مباشرة، غدا واحدًا من أكبر سماسرة البورصة المتشكلة حديثًا. لا أحد يعرف السبب الذي حدا به للدخول في صدام مع السلطات، ربما بسبب تعاونه مع بيريزوفسكي. فر إلى الولايات المتحدة طالبًا اللجوء السياسي بحجة أنه كان سيتعرض لمحاولة اغتيال حال عودته إلى بلده الأصلي. حظوظه في أمريكا كانت متفاوتة. ففي إحدى القضايا القانونية حكمت له المحكمة بـ 5.33 مليون دولار في قضية قدح وتشهير، وهو أعلى مبلغ على الإطلاق يدفع لفرد في قضية مماثلة، وقد أطلق عليه في نيويورك لقب "رجل أعمال العام (2004)". لكنه أيضًا أمضى خمسة عشر شهرًا في السجون الأمريكية. سيرته الذاتية هي بعنوان "التحدي: كيف تنجح في مجال الأعمال رغم كونك ملاحقًا من قبل مكتب التحقيقات الفيدرالي (FIB)، وادارة الاستخبارات الروسية (KGB)، ودائرة الهجرة والجنسية (INS)، وإدارة الأمن الداخلي، والعدلية، والأنتربول ورجال المافيا".

تخطى فلاديمير بوتانين Vladimir Potanin، وهو أوليغاركي آخر هذه المرحلة سالمًا غانمًا. فقد عمل في يوم من الأيام بصفة نائب رئيس وزراء في عهد يلتسن، كما شغل عددًا من المناصب الحكومية الرفيعة. وهو رئيس إحدى الشركات القابضة الرائدة، "شركة أنتيروس"، وتقدر ثروته بحوالي 12 إلى 13 مليار دولار. لطالما نأى بوتانين بنفسه عن السياسة بعد فترة يلتسن، لكنه ترأس عددًا لا يحصى من المراكز الحكومية غير السياسية إضافة إلى مساهمته في المتاحف داخل وخارج روسيا وشارك في عضوية مجالس إدارتها.

فلاديمير غوزينسكي Vladimir Gusinsky، من جهة أخرى، واجه المتاعب في مرحلة مبكرة من حياته العملية. كان والداه قد عاشا في مسكن مؤلف من غرفة واحدة ذات خدمات مشتركة مع العديد من العائلات الأخرى (Kommunalka). درس هندسة البترول لكنه عيّن لاحقًا كمدير مسرح خارج موسكو. حقق ثروته الضخمة من خلال عمله كمدير بنك ثم شرع

بشراء كبر عدد ممكن من الصحف والمحطات التلفزيونية وكذلك الشركات العاملة في مجال الإنتاج السينمائي. دأبت قنواته الإعلامية على انتقاد الحكومة بسبب الحرب في الشيشان وغيرها من القضايا. اعتقل أول مرة عام 2000 لكنه فر من روسيا، ثم جرى تجريده من جنسيته، وحصل على الجنسيتين الإسبانية والإسرائيلية. حاولت السلطات الروسية إلقاء القبض عليه وتسلمه عن طريق الأنتربول، لكن المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان وجدت بأن تهم الحكومة الروسية ضده لم تكن قانونية وتنطوي على انتهاك لمواثيق حماية حقوق الإنسان. بالنهاية، غادر غوزينسكي إسرائيل وواصل العمل في المجال التجاري في الولايات المتحدة.

كان ميخائيل فريدمان من بين الأوليغاركيين الذين خرجوا من حقبة يلتسن بأرواحهم وممتلكاتهم سالمين غانمين. كان والده شخصية بارزة (مخترع) في مجال التكنولوجيا العسكرية. تلقى فريدمان الشاب، المولود في لفوف Lvov، علومه في مجال إنتاج الفولاذ والتعدين وبدأ حياته العملية وهو في أواسط العشرينات. قام بالتعاون مع شركاء سويسريين بتأسيس شركة عرفت لاحقًا باسم "ألفا غروب" العاملة في مجال المصارف وغيرها من المجالات الأخرى. ثروته التي كانت تقدر بحدود 20 مليار دولار عام 2008، هبطت بشكل مؤقت إلى 6 مليارات في السنة التالية بنتيجة الأزمة المالية العالمية، ثم ارتفعت مجددًا إلى 16 مليار دولار عام 2013، ما جعله ثاني أغنى مواطن روسي.

كان فريدمان مساهمًا بارزًا في القضايا الثقافية اليهودية (Genesis Philanthropy Group) على غرار غوزينسكي (الذي كان يدعم فريق كرة سلة إسرائيلي على مدى عدد من السنوات)، وجيرمان خان Germa Khan وبايوتر آفين Pyotr Aven.

من بين أوليغاركيي حقبة يلتسن، كان هنالك عدد لا يستهان به منهم يتحدر من أصل إسرائيلي، ولكن كان هنالك مسلمون أيضًا، من ضمنهم أليشر أوسمانوف Alisher Usmanov، الأكثر ثراءً على الإطلاق. ولكن باستثناء أولئك الذين سبق ذكرهم، لم يكن الأوليغاركيون ناشطين في الحياة اليهودية؛ على العكس، فقد نأوا بأنفسهم عن الجالية اليهودية أو حتى أنهم، على غرار بيريزوفسكي، كانوا حسبما تردد عنهم قد تحولوا إلى الكنيسة الأورثوذكسية. العديد منهم كان يهوديًا من بعض النواحي فقط، بأب أورثوذكسي أو أم أورثوذكسية. في البروباغاندا الخاصة بهم، حاول المعادون للسامية استغلال هذه الحقائق أيما استغلال ولكن، ما فاجأهم، أن تأثير هذه البروباغاندا كان ضئيلًا نسبيًا. لطالما اعتقدوا بأن اليهود كانوا يحكمون روسيا، لكن تكرارهم لهذه المزاعم القديمة كان ذا تأثير محدود فقط، لا سيما في وقت كان فيه معظم الأوليغاركيين يخسرون الكثير من نفوذهم وأموالهم، والبعض منهم اختفى عن الأنظار تمامًا.

تختلف قائمة (فوربسForbes لعام 2013) لأغنى الأوليغاركيين خلال حقبة بوتين اختلافًا كاملًا عن قائمة يلتسن.

الاسم	الثروة مليار دولار
آليشر أوسمانوف	18
ميخائيل فؤيدمان	16

ليونيد ميخلسون 15
فيكتور فيكسلبرغ 15
فاجيت أليكبيروف 14
أندريه ملنيتشنكو 14
فلاديمير بوتانين 14
فلاديمير ليسين 14
غينادي تيمتشنكو 14
ميخائيل 13
بروخوروف 12
أليكسي مورداشوف 10
جيرمان خان 10
رومان أبراموفيش 9
ديمتري رايبولوفلف 8
إسكندر محمودوف 8
أوليغ ديريباسكا

لا تزال الأسماء في هذه القائمة على حالها تقريبًا منذ عقد من الزمن، لكن الترتيب مرجح للتغيير من عام لآخر والأرقام المعطاة هي مجرد تقديرات عامة. في إحدى المرات كان ليسين على رأس القائمة؛ وفي مرة أخرى كان ديريباسكا. بنتيجة الأزمة السياسية عام 2014 - 2015 تردد أن الأوليغاركيين قد خسروا، حتى الآن على الأقل، ربع ممتلكاتهم.

من الصعوبة الجزم بمكان وجود هذه المليارات. من بين الأسماء الواردة في القائمة أعلاه، النصف، وربما أكثر، هم من المقيمين في بلدان أخرى. على سبيل المثال، أوسمانوف، وأبراموفيتش، وجيرمان خان، وآخرون يقيمون في المملكة المتحدة، وملنيتشنكو يعيش في نيويورك وآنتيبس Antibes وآسكوت Ascot. معظم الأموال جرى نقلها إلى خارج روسيا، لا سيما إلى شمال قبرص (التركية) (التي لم توقع على أية معاهدة لتسليم المطلوبين) ولاحًا إلى لندن. لطالما كانت نسب ضريبة الدخل في روسيا منخفضة جدًا منذ أيام ستالين (13 بالمئة)، لكن مع ذلك تعتبر الشروط في المملكة المتحدة أكثر تشجيعًا. وفي حين أن موقف السلطات الروسية تجاه الاستثمارات الكبيرة هو موقف مشجع، يبدو أن هنالك انعدام ثقة - الخشية تكمن في احتمال مصادر الأرصدة في روسيا واعتقال المالكين وقتلهم.

تم التطرق إلى ذكر العبر التي استخلصها الأوليغاركيون بخصوص الانخراط بالعمل السياسي. عسى أن يكونوا قد تعلموا ذلك الدرس جيدًا. عندما قامت صحيفة كوميرسانت Kommersant، وهي تخص مجموعة يرأسها أوسمانوف، بنشر مقالة نقدية عن نظام بوتين وإلقاء ظلال الشك حول نزاهة نتائج الانتخابات، سرعان ما عمد أوسمانوف إلى طرد أولئك الذين كانوا قد سمحوا

بتمرير مثل هذا النقد للحكومة. حينها، كد أوسمانوف على الشخصية المستقلة للصحيفة. كان الفرسان الثلاثة the Three Musketeers هم أبطال أوسمانوف المفضلين منذ الطفولة، وكان أوسمانوف راعيًا لرياضة المبارزة بالسيف في روسيا كرياضة تنافسية. لكنه كان على دراية تامة بأنه حتى آثوس Athos وبورتوس Pothos وآراميس Armis، لو أنهم عاشوا في روسيا القرن الحادي والعشرين، كانوا سيعرفون حدودهم - ومن يستطيع أن يلومه في ذلك؟ لقد استذكر أوسمانوف بلا شك أيضًا السنوات التي أمضاها في السجن في أوزباكستان، موطنه الأصلي خلال فترة الثمانينات.

عندما أرادت السلطات تأسيس حزب سياسي آخر لتبرهن على الشخصية الديمقراطية للنظام، من الواضح أنه كان عليها أن تبذل جهودًا هائلة في إقناع أحد الأوليغاركيين، وهو بروخوروف، لدعم مثل هذا المسعى. من يستطيع لومه طالما أن مثل هذا المشروع يمكن له أن يخرج من نطاق السيطرة بسهولة مع تحول المعارضة الزائفة إلى معارضة حقيقية. غادر بروخوروف الحزب الذي كان قد أسسه بعد عدة أشهر.

ولد أبناء الجيل الأقدم من الأوليغاركيين خلال فترة الخمسينات، والأصغر سنًا في العقد التالي؛ معظمهم كان في أواخر العشرينات أو أوائل الثلاثينات زمن الخصخصة. عدد قليل منهم، من أمثال فلاديمير بوتانين وميخائيل فريدمان، كانوا يتحدرون من عائلات دخلت للتو في الطبقات الأدنى للنومنكلاتورا، لكن الآخرين بمعظمهم كانوا يتحدرون من عائلات فقيرة أو فقيرة نسبيًا. البعض منهم كان قد صنع لنفسه اسمًا في عالم الأكاديميا؛ الغالبية العظمى منهم كانوا قد درسوا مواد العلوم والتكنولوجيا. حوالي ثلث الأوليغاركيين حققوا ثرواتهم في مجال البنوك والشركات القابضة، وأكثر من الثلث في مجال المعادن والنفط والغاز. ومما لا غرابة فيه أن من بين فاحشي الثراء منهم كان أولئك الناشطون في مجال صناعتي النفط والغاز. لقد حقق عدد لا بأس به من الأوليغاركيين ثرواتهم بطرقي آمنة نسبيًا وسعوا للبقاء بعيدًا عن الأضواء والشهرة، لكن معظمهم كان عليه خوض غمار سجالات ونزالات طويلة مفعمة بالابتزاز والتهديد وحتى الجريمة. في حرب الألمنيوم وحدها تردد أن حوالي مئة شخص تعرضوا للقتل. رومان أبراموفيتش وديريباسكا، اللذان كانت تربطهما علاقة وثيقة مع بوتين، خرجا منتصرين في هذه الحرب. بهذه المناسبة، وعلى غرار الآخرين، كان الخط الفاصل بين العمل التجاري الحقيقي ونشاطات العصابات الإجرامية خطًا واهيًا يصعب تمييزه. من غير المؤكد أن يصار إلى كتابة القصة الكاملة لهذه السنوات الدامية في يومٍ من الأيام. إذا حصل ذلك، بوسعهم أن يجعلوا عهد بارونات اللصوصية الأمريكان يبدو وكأنه شجارات صبيانية محببة في إحدى روضات الأطفال.

هل تمتعوا بثروتهم المكتسبة حديثًا؟ لم نسمع سوى عن عددٍ ضئيل جدًا من حالات التقاعد؛ يبدو بأن جاذبية ومتعة عالم الأعمال والتجارة هي متعة طاغية لا تقاوم. العديد منهم اتخذوا لهم مكان إقامة ثاني في لندن (والتي أصبحت في الغالب مكان إقامتهم الأول)، والبعض في أمريكا وسويسرا، لكنهم واصلوا التعامل مع مؤسساتهم عن بعد. البعض حاز على جواز سفر ثان وثالث - على سبيل المثال، تيمتشنكو، كبير مستشاري بوتين الماليين في يومٍ من الأيام، أصبح مواطنًا فنلنديًا. لكن هذا لم يُجدِ دائمًا؛ ديريباسكا، على سبيل المثال، لم يمنح تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة بسبب شيء ما كان قد حدث في الماضي - قبل فرض الحكومة الأمريكية للعقوبات عام

2014. فيتالي مالكين Vitaly Malkin، وهو أوليغاركي آخر، لم يسمح له بدخول كندا رغم أنه حاول السفر إليها بجواز سفر إسرائيلي؛ كانت هنالك تهم ضده بغسيل الأموال وكذلك بالتهريب الدولي للسلاح. كان قد حاول أيضًا إقناع أعضاء في الكونغرس الأمريكي بأن ماجنتسكي Magintsky، محامي موسكو الذي مات في ظروف غامضة أثناء وجوده في السجن، كان مجرمًا حقًا.

كانوا من كبار تجّار العاديات واللوحات الفنية، المعاصرة منها والكلاسيكية، بينما في مكان آخر، كالولايات المتحدة، الجيل الثاني فقط من الأثرياء الجدد كان قد أظهر مثل هذه الاهتمامات. تمتلك زوجة أحد الأوليغاركيين معرضًا فنيًا ذائع الصيت في موسكو. أولئك الذين حققوا أقصى فائدة ممكنة من هذا الاهتمام بالفن كانوا رسامين بريطانيين معاصرين - من أمثال فرانسيس بيكون ولوسيان فرويد. في تشرين الثاني /نوفمبر 2013 باع معرض كريستي رسمًا ثلاثي الألواح لبيكون يظهر صديقه لوسيان فرويد بمبلغ 142.4 مليون دولار أميركي، وهو رقم قياسي للوحة تباع في المزاد. قبل سنوات قليلة كان على أبراموفيتش أن يدفع لمعرض سوثبي 88 مليون دولار لرسمٍ آخر ثلاثي الألواح للرسام نفسه. أوسمانوف، غير المهتم بأنصاف الحلول، اشترى كامل مجموعة روستروبوفيتش في الليلة التي سبقت عرضها في المزاد. على مر السنين، استحوذ فيكتور فيكسلبرغ على كبر مجموعة بيض فابيرجيه Fabergé egg collection. أصبح البيض مرغوبًا جدًا، وافتتح متحفًا خاصًا لعرض مجموعته (مجموعة ألكسندر إيفانوف في متحف فابيرجيه في بادن - بادن هي أيضًا غاية في الروعة).

أصبح الفن الروسي مرغوبًا وباهظ الثمن - كان على معرض كريستي أن يدفع لفيكسلبرغ 2.5 مليون دولار تعويض عطل وضرر من أجل لوحة "أوداليسك" لمعرض كوستوديف بعد أن تبين بأن أصلها مشكوك بأمره. أعظم مجموعة أعمال فنية روسية خاصة هي بحوذة بايوتر آفين، الذي "مقر إقامته الثاني" هو في قرية خارج لندن - دفع حوالي 5 ملايين دولار لرسمة كونتشالوفسكي العائلية (1917). كان كونتشالوفسكي Konchalovsky رسامًا رائعًا، لكنه رسم كثيرًا، وحتى فترة قريبة لم تحقق لوحاته أرقامًا عالية؛ قبل ثلاثين عامًا كان بوسع آفين ربما الحصول على اللوحة ذاتها بعشرين لف دولار أو أقل. ولكن قبل ثلاثين عامًا لم يكن آفين أوليغاركيًا بعد. يعتبر آل ملنيتشنكو The Melnichenkos المالكون الفخورون لاثنتين من لوحات مونيت بعنوان زنبق الماء water lily. يمكن لهذه القائمة أن تكون أطول من ذلك.

انهمك الأوليغاركيون في إنفاق تفاخري باذخ غدا مادة للتندر والمزاح، ولكن أيضًا مادة للفضيحة والنقد اللاذع. لا شك بأنه أسهم في إضعاف شعبيتهم كمجموعة. صحيح أنهم كانوا جميعًا تواقين للانخراط في قضايا العمل الخيري، لكن ما أنفقوه على هذه الأعمال كان جزءًا يسيرًا من المبالغ الضخمة التي كانوا يغدقونها على المتع والملذات.

لم تتدخل السلطات في البداية، لكن سلسلة من الظروف والمستجدات أرغمتها في النهاية على التدخل ضد بعض الحالات المتمادية في تطرفها. لشيء واحد، وهو أن معظم حالات التبذير والإنفاق الباذخ لطبقة الأوليغاركيا على الإقامات الخارجية والتحف واللوحات الفنية واليخوت لم تفد الاقتصاد الروسي في شيء. ولسبب آخر، هو أن الأزمة المالية عام 2008 أرغمت العديد منهم على التقشف والتقنين. البعض وجد نفسه بمواجهة ديون خانقة، والنتيجة أن معاناة موظفي

ومستخدمي الشركات المملوكة من قبل الأوليغاركيين كانت كبيرة جدًا. وقد أفضى هذا الوضع إلى حالة من الفوضى والاضطرابات والعنف أقلقت السلطات. لهذا السبب، تلقى الأوليغاركيون النصح بوجوب الكف عن هذه الفورة من الزهو والخيلاء والتخفي خلف ستار من المسكنة والتواضع. بعد العام 2008، عانى الكثير منهم من استمرار التخفي وراء هذا الستار الذي نأى بهم بعيدًا عن السمع والبصر، إلا في الحالات التي كانت تفرض عليهم الظهور للإنفاق على قضايا الخير والإحسان.

موظفو ومسؤولو الحكومة باتوا أيضًا من الأثرياء - البعض منهم أصبح فاحش الثراء - لكنم حققوا ذلك الثراء ضمن حيز من التكتم والسرية البالغة لم تمكن أحدًا من معرفة حجم ثرواتهم أو أموالهم أو استثماراتهم الحقيقية على وجه الدقة. بحسب ستانيسلاف بيلكوفسكي Stanislav Bellkovsky، وهو صحفي تحرٍّ روسي بارز، فإن بوتين، بثروته البالغة 70 مليار دولار، يمكن أن يصنف كواحد من أغنى الأغنياء على وجه الأرض. (لكن مثل هذه التأكيدات يصعب توثيقها بالطبع، على الأقل طالما أن بوتين موجود في السلطة.) صحفيون آخرون يقدرون بأن ثمن ساعات اليد التي كان بوتين يرتديها حول معصمه في بعض إطلالاته التلفزيونية، مثل باتيك فيليب وغيرها، يناهز المئة وستين مليون دولار. مع تدهور الأوضاع الاقتصادية عام 2014، بات أمرًا مألوفًا تمامًا مهاجمة الأوليغاركيين والنظام "الربوي" الذي كان قد مكنهم من تكديس ثرواتهم. لكن السياسيين الذين كانوا يقودون هذه الحملة كانوا أيضًا قد استفادوا من هذا النظام وباتوا من الأثرياء، ولم يكن لديهم أي رغبة في تغييره والتخلي عن مكتسباتهم. ناطقون باسم الكنيسة شاركوا أيضًا في الحملة، لكن البطريرك ظهر على شاشة التلفزيون مرتديًا ساعة يد لا يقل ثمنها عن ثمن ساعة بوتين. هذه التناقضات الصارخة بين البروباغاندا الرسمية والوضع الحقيقي للأحوال السائدة (البون الشاسع والمسافة المتباعدة بين حياة الأثرياء وبقية أبناء المجتمع) هي نقطة ضعف أساسية من نقاط ضعف هذا النظام، الذي بات العناد والمكابرة وتعمد إثارة التوترات السياسية ملاذه الوحيد للتهرب من المساءلة.

أصبح عدد أصحاب المليارات الذين يعيشون اليوم في موسكو يفوق عددهم في أي مدينة أخرى في العالم. ما برح التفاوت في توزيع الدخل بحسب مُعامل جيني Gini coefficient (على اسم الاقتصادي الإيطالي) وغيره من معاملات القياس يتزايد بقوة في كل أنحاء العالم خلال العقود الثلاثة التالية. في هذا السياق، فإن ترتيب الولايات المتحدة يأتي في ذيل قائمة البلدان المتقدمة. ولكن إذا ما صح أيضًا أن أغنى 110 أثرياء روس يملكون حوالي 35 بالمئة من إجمالي الناتج المحلي للبلاد (كما هو مثبت من قبل إدارة أبحاث كريدي سويس)، وإذا كان 93 بالمئة من المواطنين الروس يملكون أقل من 10.000 دولار، فإن خلق طبقة متوسطة قوية لم يتحقق بنتيجة الخصخصة. إن عدد أصحاب المليارات الصينيين يفوق أصحاب المليارات الروس، ولكن ليس بهامش واسع. علاوة على ذلك، فإن إجمالي الناتج المحلي الصيني (ثمانية تريليونات دولار) يفوق بأربعة أضعاف إجمالي الناتج المحلي لنظيره الروسي، والذي يساوي حاليًا إجمالي الناتج المحلي لفرنسا ويقل عن إجمالي الناتج المحلي للبرازيل.

يعد مثل هذا التطور تطورًا غير مرغوب فيه من وجهتي النظر السياسية والاقتصادية. هل من الممكن قلب هذه المعادلة وتغيير مسارها؟ لا شك بأن هنالك طرقًا متعددة للقيام بذلك - على سبيل

المثال، عن طريق إصلاحات تطال ضريبة الدخل. لكن هذا النهج قد يلحق الضرر بالمصالح الاقتصادية للقيادة السياسية ويؤدي إلى زيادة في هروب الرساميل من روسيا. على أية حال، لم تحتل هذه المسألة مرتبة متقدمة على قائمة أولويات القادة الروس، الذين كان جل همهم الحؤول دون تحول الثروة إلى سلاح سياسي قاطع. لقد نجحوا في هذا التوجه إلى حد بعيد. ولكن إذا تجاوز الإجحاف والتفاوت في توزيع الدخل حدًا معينًا، فهو مرشح لأن يتسبب بتوترات اجتماعية لا يستهان بها، وستجد القيادة السياسية نفسها مرغمة على التصرف. في غمرة الصراع بين السيلوفيك والأوليغاركيين، كانت الغلبة للسيلوفيك بشكل كامل ومن دون جهد يذكر. لم يشكل الأوليغاركيون جبهة موحدة؛ وفي أغلب الأحيان كانوا يتنافسون مع بعضهم البعض. التحالفات فيما بينهم لم تعمر طويلًا، وعادة ما كان ينقصهم الحس والتفهم السياسي. كان لهم طموحاتهم السياسية لكن من دون قاعدة قوة، كحزب سياسي أو علاقات وثيقة مع الجيش والأجهزة الأمنية.

السيلوفيك، من جهة أخرى، كان لهم رابطة مدرسية قديمة مشتركة - عملهم في الـ كي جي بي، داخل البلاد أو خارجها. وبحسب ما قاله نيقولاي باتروشيف Nikolai Patrushev في أحد خطاباته في أيلول /سبتمبر 2002، كان قد حذا حذو بوتين كرئيس للـ FSB (وريثة الـ كي جي بي)، وكان جهاز الاستخبارات قد بات الرمز الجديد للشرف والنبالة. لم تكن تأديتهم لمهامهم من أجل المال، وانما بدافع حس الواجب - أي الوطنية والمثالية.

قُدِّر ما تبقى من عملاء الـ كي جي بي السابقين في دائرة بوتين الضيقة بحوالي الثلث، وربما كانت هذه النسبة كبر في المراتب الأعلى. هذه بالطبع مجرد تقديرات، لأن عضوية "الأجهزة الأمنية" ظلت وحتى وقت قريب موضوعًا خاضعًا للسرية والكتمان وغير قابل لمناقشته على الملأ. إضافة إلى ذلك، كانوا قد تلاقوا اجتماعيًا ومهنيًا أيضًا وتلقوا دروسهم ومبادئهم العقائدية على أنهم من صفوة النخبة، وأنهم سيف النظام القاطع وترسه الحامي. كان التشيكستس The Chekists القوة الوطنية النزيهة والموثوقة الوحيدة التي يمكن التعويل عليها بصورة مطلقة.

كانوا هم أيضًا يعانون من معوقات معينة. فجهاز اد كي جي بي (سابقًا الـ Cheka والـ NKVD) لم يكن دائمًا يبلي بلاءً حسنًا في الماضي - فقد هلك القسم الأعظم منهم في خلال أعمال التطهير التي حصلت خلال فترة الثلاثينات من القرن الماضي. كان قد جرى تنفيذ حكم الإعدام رميًا بالرصاص باثنين من رؤساء الأجهزة. لكن أعلن رسميًا (وغالبًا ما جرى تصديقه) بأن الأيام الصعبة قد ولت إلى غير رجعة، وأن الخدمة في الأجهزة كانت شرفًا عظيمًا، واجبٌ ضروري ووطني - وأنه من دون الـ التشيكستس لكانت أرض الآباء والأجداد عرضة لخطر مصيري، لأنه كان يواجه أعداء لداء داخل الوطن وخارجه، يخططون ليل نهار لكيفية إلحاق الأذى بروسيا، وتدميرها إن أمكن.

كان هذا النوع من التلقين العقائدي فعالًا في أغلب الأحيان. بنتيجة سنوات طويلة من الحكم الستاليني، كانت قد تأصلت في البلاد تركيبة ذهنية مبنية على القمع والاضطهاد. بالطبع لم يتم تصديق تلك الرواية بالكامل، لكن ما تم تصديقه كان كافيًا لجذب الناس للخدمة في الأجهزة، سواء في رأس الهرم أو في قاعدته الدنيا. كان رؤساء الأجهزة بمعظمهم من أبناء الطبقة البيروقراطية من ذوي الذكاء المتوسط والقليل من الخبرة في التعامل مع العالم خارج الاتحاد السوفييتي. لعل يوري أندروبوف كان الاستثناء الوحيد، لكنه كان مريضًا عندما جرى تعيينه، ولم يتسن له الوقت

الكافي لإثبات كفاءته. كان رجل الأمن المتوسط الإمكانيات يفتقر غالبًا إلى ثقافة حقيقية؛ كان يتلقى تدريبه في إحدى أكاديميات الـ كي جي بي أو من خلال بعض الدورات الخاصة ليصبح متمكنًا بدرجة معقولة من لغة البلد التي سيوفد إليها. لكن هذا لم يكن في الغالب كافيًا لاكتساب العادات والأعراف والسلوكيات الاجتماعية التي تؤهله للتحرك بحرية وعفوية في بيئة مغايرة كليًا عن تلك التي عرفها في الوطن. إن أية نجاحات عرفها الـ كي جي بي كانت عادة نتيجة الطالع الحسن والظروف المؤاتية. لم تكن سمعة الـ كي جي بي طيبة إلى ذلك القدر خلال فترتي السبعينات والثمانينات، ولم يفلحوا في النهاية بالحؤول دون سقوط الاتحاد السوفييتي، والذي كان حسبما أشيع نتيجة تدبير جهات خارجية معادية. كان الـ كي جي بي وورثته قد بذلوا جهودًا كبيرة لتحسين صورتهم وتلميعها من خلال الروايات الأدبية والأفلام وغيرها من الوسائل. لعل أكثر تلك الوسائل نجاعة كان مسلسل ستيرلتز التلفزيوني Stirlitz (سبع عشرة دقيقة من الربيع) للمخرج جوليان سيميونوف، الذي يصف حياة وسلوك أحد عملاء الـ كي جي بي السوفييت الذي كان قد نجح باختراق رأس هرم أجهزة الأمن السري النازية، ما مكنه من تزويد رؤسائه في موسكو بتقارير حول حتى أدق خطط النازيين وأهدافهم.

تم إخراج هذا المسلسل وتمثيله بشكل جيد جدًا وحاز على شعبية هائلة حتى بات من أكثر المسلسلات شعبية على الإطلاق، وهو يعرض بصورة منتظمة على شاشات التلفزيون الروسي حتى يومنا هذا. وقد تحول إلى لعبة عنف للفتيان الصغار في كافة أنحاء الاتحاد السوفييتي. وقد ظهر ستيرلتز أيضاَ في روايات أخرى لنفس الكاتب، سيميونوف، مدمن الشراب، الذي توفي باكرًا جراء سكتة دماغية. كان فيلسوفًا تهكميًا ساخرًا حاول من وقت لآخر في رواياته تمرير بعض الشكوك وحتى الانتقادات حيال النظام. كان يعرف بأن أي عمل لم يكن له بأيَّة حال من الأحوال أن يضاهي قصة ستيرلتز البطولية: كان عبارة عن أدب خيالي قصصي محض بالغ الإثارة بالنسبة للمشاهد والقارئ معًا. كانت هنالك محاولات مشابهة أخرى لتزيين السجل كفيلم "طلقة في الضباب" لكنها لم تلق النجاح ذاته.

كان ستيرلتز بطلًا معاديًا للفاشية، في "عصر أممي تقدمي". في فترة ما بعد الاتحاد السوفييتي برز بطل من نوع آخر - بطل حقيقي غير مبتكر. لا يبدو بأن قضية نيقولاي سيرجيفيتش ليونوف كانت قضية استثنائية أو غير عادية. كان من كبار موظفي الـ كي جي بي على سلم التراتبية الهرمية، نائب رئيس الإدارة العليا. كان برتبة فريق وكان رئيس إدارة التحليلات للـ كي جي بي. بحسب كاتب سيرته الذاتية، على مدى اثني عشر عافا، لم يرتكب خطأ واحدًا في تقديراته وتقاريره التحليلية، الأمر الذي يعد إنجازًا رائعًا بحق. وبحسب كاتب السيرة الذاتية أيضًا، كانت نشاطاته المناوئة لأمريكا نابعة عن قناعة عميقة ومكللة بالبركة الربانية. من الأمثلة التي تبرهن على ذلك الحدس الاستشرافي لديه والمستند إلى معرفة وفهم عميقين بالشؤون العالمية: كان تصنيفه لليمن الجنوبي بأنه "البلد الأكثر ماركسية" في الشرق الأوسط (ولأن ليونوف لم يكن ماركسيًا، فمن غير الوضح إن كان هذا التصريح إشارة جيدة أم لا) كما أعلن بأن أحوال الشيوعية في بولونيا لم تكن على ما يرام. يبدو بأن مثل هذه التنبؤات والاستشرافات قد أثارت إعجاب رؤسائه وكذلك أولئك الذين كانوا يعملون معه، ومن بينهم بوتين.

في عام 1991 استقال ليونوف من الأجهزة احتجاجًا على نشاطات رؤسائها المتسمة بالخيانة. أصبح عضوًا في الدوما، منتميًا إلى حزب أقصى اليمين. وفي السنوات التالية، كانت له نشاطات مكثفة لصالح هذه الدوائر، بشكل رئيسي كشخصية تلفزيونية. عمل أيضًا أستاذًا لمادة التاريخ في جامعة موسكو، كما أصبح عضوًا عاملًا في الكنيسة الأورثوذكسية، مشاركا الأرشمندريت تيخون Tikhon بصفته كاهن اعتراف مع بوتين. في إحدى المقابلات، وصف تيخون ليونوف بأنه رجل النزاهة الاستثنائية: "كان لقائي به قبل عدة سنوات إلهامًا فذًا بالنسبة لي."

كان ليونوف قد أصبح رجلًا مؤمنًا متدينًا، لكن تدينه الحديث لم يرق إلى مستوى اعتناقه للدين اليهودي. وقع رسالة ووجهها إلى النائب العام في روسيا طالبًا اتخاذ خطوات ضد اليهود في ضوء نشر كتاب بعنوان "كيتروز شولخان آروخ" Kitruz Shulkhan Arukh، وهو كتاب من القرن السادس عشر حول القانون اليهودي نشر لأول مرة في البندقية. يمكن بمنتهى السهولة فهم حقيقة أن كبار السياسيين الروس أمثال غورباتشيف ويلتسن كانوا خونة في عيني رجل يحمل مثل هذه الرؤى ووجهات النظر. من ناحية أخرى، فقد كان هو نفسه منشقًا وخائنًا كونه التحق بالحزب الشيوعي وحمل "سيف وترس" النظام الشيوعي، لا بد وأنه كان يحمل إيديولوجية معينة. كذلك فإن بوسع أولئك الذين كان قد التحق بهم في البداية أن يعتبروا انعطافته اللاحقة نحو القومية "البورجوازية والأكليركية الرجعية " بمثابة ضرب من ضروب الخيانة.

لم يحط بوتين نفسه، بالطبع، بعملاء الـ كي جي بي السابقين فقط. وبحسب التقديرات الروسية والغربية كليهما، فإن حوالي 30 إلى 40 بالمئة فقط من أولئك الذين كانوا يشغلون مناصب عليا كانوا من عملاء الـ كي جي بي الحاليين أو السابقين. كان هنالك آخرون ضمن دائرة بوتين الضيقة ممن سبق أن عملوا معه خلال سنواته في بطرسبرغ وأماكن أخرى والذين كان يشعر أن بوسعه الوثوق بهم والتعويل عليهم. كان هنالك الإخوة روتنبرغ، على سبيل المثال، الذين كانوا زملاءه المقربين في رياضة الكاراتية والجودو وغيرها من الفنون البدنية. كافة جوانب حياة بوتين ونشاطاته تقريبًا جرى تحليلها بقدر كبير من التفصيل، لكن الأمر غير المعروف للكثيرين أنه حاز على الحزام الأسود من الدرجة الثامنة في لعبة الكاراتية، وهو مغرم إلى حد الولع بالفنون البدنية؛ لقد تم لغاية الآن استبعاد تأثير تقنيات وقواعد مثل هذه الرياضات على عملية صنع القرار السياسي عند بوتين. شكل أولئك الذين حازوا على الحزام الأسود فيما بينهم رابطة أخوية. بعض الأوليغاركيين ممن هم ضمن الدائرة الضيقة كانوا يتعاملون مع شؤون بوتين الشخصية، بينما كان الآخرون يعملون بصفة مستشارين مقربين.

يعتقد بعض المراقبين لمسرح الأحداث في موسكو بوجود مكتب سياسي غير رسمي لبوتين، ويزعمون بأنه يشبه مكتب بريجينيف السياسي خلال فترة الركود. يبدو أن المقارنة بين بوتين وبريجينيف مقارنة متكلفة بعيدة عن الواقع، لكن وجود مجموعة من المستشارين المقربين هي حقيقة مؤكدة، حتى لو كانت غير بنيوية وعرضة لتغييرات متكررة. وبحسب تشيلنوكوف فقد تشكلت المجموعة عام 2013 من الشخصيات التالية:

سيرجي إيفانوف، جنرال سابق في الـ كي جي بي، كان مسؤولًا عن الإدارة العامة. كان بوتين على معرفة به منذ أيام بطرسبرغ، عندما كانا كلاهما يعمل لصالح آناتولي سوبتشاك Anatoly Sobchak، المحافظ.

إيغنور سيتشين، كان سابقًا رئيسًا لوزراء، وهو حاليًا رئيس شركة روزنفت Rosneft.

سيرجي تشيميزوف Sergey Chemezov، لا يعرف أحد عنه سوى القليل باستثناء المطلعين على خفايا الأمور. وهو رئيس شركة تجارية تدعى غوستكنولوجيا Gostechnologia، وكانت خبرته محصورة في المجال الصناعي.

غينادي تيمتشنكو Gennady Timchenko، وهو المدير المالي (أو مستشار) المجموعة. لقد أمضى جل وقته خلال السنوات العشرين الماضية خارج روسيا.

يوري كوفالتشوك Yury Kovalchuk، شريك بملكية مصرف روسيا. حائز على درجة الدكتوراة في الفيزياء، لكن خبرته الأحدث كانت في مجالي الإعلام والصيرفة.

سيرجي سوبيانين Sergey Sobyanin، محافظ موسكو خلفًا ليوري لوزكوف (الذي استبعد عن عمله بعد سنوات طويلة من الخدمة لأنه تورَّط في نزاعات مهمة مع بوتين والإدارة). وهو أيضًا رئيس مجموعة من المحافظين وكبار المسؤولين الآخرين الذين يمثلون الأورالس وسيبيريا.

فياتشيسلاف فولودين Vyacheslav Volodin، يتحدر من ساراتوف وكان عرضة لاتهامات متنوعة خلال مسيرة حياته السياسية لكنه كان دائمًا ينجح في تخليص نفسه.

ديمتري مدفيديف Dimitry Medvedev، ممثل مخلص لبوتين. كلما شغل بوتين منصب رئيس الوزراء، كان مدفيديف رئيسًا، والعكس صحيح. من غير المعروف حجم القوة الحقيقية التي يتمتع بها.

بعدها، يأتي دور "مرشحي المكتب السياسي" - وهم أعضاء غير كاملي العضوية، ولكن احتمالات ترقيتهم مرجحة جدًا. يأتي على رأس القائمة الشخصيات التالية:

سيرجي شويغو Sergey Shoygu، وزير الدفاع حاليًا. يعود بأصوله إلى توفا Tuva، الجمهورية الآسيوية الصغيرة والتي أصبحت جزءًا من الاتحاد السوفييتي، يتحدر من أسرة ريفية محلية؛ كان والده نائب رئيس وزراء. وهو متحدث بارع، كما أنه بحسب نتائج التصويت أكثر السياسيين الروس شعبية بعد بوتين.

إيغور شوفالوف Igor Shuvalov، شغل العديد من المناصب الحكومية الرفيعة وكان أحد مستشاري بوتين الاقتصاديين.

ألكسي كودرين Alexei Kudrrin، وزير مالية سابق، تعود معرفته ببوتين إلى أيام عملهما معًا في سانت بطرسبرغ.

أركادي روتنبرغ Arkady Rotenberg، شريك بوتين في الألعاب القتالية العنيفة. حائز على حزام أسود في الكاراتية وبقدر بسيط من المساعدة حقق ثروته في صناعتي النفط والغاز.

أليشر أوسمانوف Alisher Usmanov، أبرز محطات حياته العملية كانت في مجال التعدين، لاسيما صناعة الفولاذ.

رومان أبراموفيتش Roman Abramovich، الذي ليس بحاجة لأي مزيد من التعريف.

هذا "المكتب السياسي"، المتواجد غبّ الطلب، هو عبارة عن كيان غير رسمي. لم يسبق لأعضائه يومًا أن تباهوا وتفاخروا "بانتمائهم"؛ على العكس، فهم، باستثناء أبراموفيتش، حاولوا النأي بأنفسهم بعيدًا عن الأضواء والشهرة قدر الإمكان. البعض منهم جرى ترقيته والبعض الآخر جرى تخفيض مرتبته، وهي إجراءات لا مناص منها في مثل هذه الدوائر الضيقة. لكن أولئك الذين كانوا ينتمون إلى المجموعة كانوا موضع رعاية خاصة ونادرًا ما خسروا مواقعهم.

من الرائع السير في ركاب عملية إعادة تأهيل جهازي Cheka والـ كي جي بي. أما الغلاسنوست، فهم من منظور المدافعين عن روسيا، من تسبب بشيطنة أولئك الذين خدموا بوصفهم "سيف الشيوعية والنظام السوفييتي وترسهما الحامي". جرى تحميلهم مسؤولية عمليات التطهير -

الملايين الذين جرى إرسالهم إلى معسكرات الأعمال الشاقة، ومئات الآلاف الذين جرى قتلهم والإجهاز عليهم. لكن هذا لم يكن منصفًا، لأن حوالي عشرين ألفًا من أبناء العاملين في جهاز التشيكا كانوا من بين الضحايا. هذا صحيح تاريخيًا" فأعمال التطهير والمذابح الجماعية خلال فترة الثلاثينات كانت من بنات أفكار ستالين، وليس جهاز NKVD. لكن أعمال القتل كانت لا تزال مستمرة على يد الأجهزة، وستالين أيضًا جرى إعادة تأهيله جزئيًا الآن. وبحسب ما عبر عنه بوتين في عدة مناسبات، فقد كان ستالين شخصية جدلية إلى حد ما. البعض من تابعي بوتين ومرؤوسيه سلطوا على ستالين مزيدًا من الأضواء الإيجابية.

مع ذلك، لم تدم هذه الشيطنة طويلًا. فقد بدأت عملية إعادة التأهيل في عهد يلتسن بخطاب العام 1997 الذي أعلن فيه عن "يوم التشيكست" Chekist، ليغدو عيدًا يحتفل فيه كل عام في 20 كانون الأول /ديسمبر. كان لا بد من منح الهدايا والتكريمات للكتب والأفلام التي تستعيد الذكرى العطرة لأجهزة التشيكا والـ كي جي بي والـ NKVD. باتت هذه الاحتفاليات المتقطعة في عهد بوتين عقيدة من عقائد أمن الدولة. وقد أطلق على العاملين المنضوين تحت لوائها اسم "النبلاء الجدد" بوصفهم معصومين عن الفساد ولم يكن حافزهم العامل المادي، وإنما القيم والمبادئ.

ذهب البعض من أولئك المنخرطين في عملية إعادة التأهيل إلى أبعد من ذلك، وأحاطوا أولئك العاملين في الأجهزة بهالة من القداسة جعلتهم يبدون في عيون الناس أشبه بقديسي العصر الحديث. وقد لعبت الكنيسة الأورثوذكسية دورًا رائدًا في هذه الحملة بدعمها ورعايتها "للعسكر الروحي" كأحد مساعيها على هذا الصعيد. وجرى منح أحد الرؤساء الجدد للـ كي جي بي/إف بي أس واحدًا من أرفع أوسمة الكنيسة الأورثوذكسية حمل اسم ديمتري دونسكوي، الذي إضافة إلى كونه بطلًا قوميًا، جرى في الآونة الأخيرة ترقيته إلى مرتبة قديس. وفي حين أن ديمتري كان بطلًا تاريخيًا قاتل المغول والتتار، وانتصر في معركة كولوكوفو الشهيرة، فإن إيليا موروميتس، الذي أصبح أشبه بقديس شفيع للأجهزة الروسية، ينتمي إلى عالم أساطير الثقافة الشعبية. إنه بطل عظيم (بوغاتير) خاض غمار العديد من المعارك وأصبح بدوره قديسًا أيضًا.

ذهب هذا التعاون بين الكنيسة والدولة في مجال العمل الأمني والجاسوسية المستند إلى تبرير أيديولوجي مدروس إلى مدى أبعد مما كان عليه أيام روسيا القيصرية. في تلك الأيام كان جهاز الشرطة السرية "Okhrana" ضروريًا جدًا، بل حيويًا، ويشكل جزءًا من مستلزمات حماية النظام، لكنه كان يؤدي وظيفته في الظل. لم يكن هنالك أي تمجيد أو تبجيل لعملائه. كان ينظر إليه على أنه من المسلمات: لم تكن هنالك ثمة من حاجة لأي تبرير أو أي شهرة.

كان لزامًا على الأسئلة والاستفسارات المتعلقة بهوية أولئك الذين يحكمون روسيا أن تبقى مفتوحة في الوقت الراهن. البوتينية Putinism هي عبارة عن نظام استبدادي، يمثل مصالح العديد من الجماعات في المجتمع الروسي. إ ن مصطلح تركيبة "السلطة العمودية" الذي غالبًا ما يجري استحضاره يعني بكل بساطة أن الأوامر يجري تمريرها من القمة إلى القاعدة، وهو بيان واضح جلي إن كان هنالك ثمة من بيان أصلًا.

قد تكون هوية القائد الأعلى عرضية تعتمد على المصادفة. لو لم يكن بوتين قد عين من قبل يلتسن، لكان هنالك شخص آخر بمواصفات مشابهة. سلطاته وصلاحياته ليست سلطات

وصلاحيات غير محدودة. لقد عادت مجدداً عقيدة الرئيس القائد والتراجع الواضح عن مبادئ الغلاسنوست والأهداف الديمقراطية. "ديمقراطية السيادة" هي مرادف لمثل هذا التراجع - ليس بالإجمال، لكن بشكل هام وأساسي. هذا يعني أن البلاد ليست مهيئة لاعتماد ديمقراطية على النمط الغربي، وربما لن تعتمد قط مثل هذا النمط في يوم من الأيام. على أية حال، لقد أثبت النظام السياسي على أنه ليس بالنظام الذي يريده غالبية الروس، حيث إنه لا يمت بصلة لتقاليد البلاد ولا يتناغم مع القيم والمبادئ الروسية.

قبل أكثر من قرن بقليل، نشر روبرت ميشيل، وهو طالب لماني يدرس علم السياسة والاجتماع، أفكاره حول "القبضة الحديدية لقانون الأوليغاركيا." كانت أفكاره مثيرة للاهتمام، لكن حسه وحدسه السياسي (على غرار البعض من معاصريه الذي عبروا عن أفكار مشابهة - مثل باريتو وموسكا) كان أقل حصافة وحنكة؛ كان ثلاثتهم بالأساس من المتعاطفين مع موسوليني. أما ميشيل، الذي كان أساساً من الداعمين للاشتراكية، فكان قلقاً من أنه حتى في المؤسسات الديمقراطية (لا سيما في مؤسسات مثل اتحاد نقابات العمال) فإن نخبة من نخب الأوليغاركيا ستتقدم في النهاية لتولي مقاليد الأمور.

لم يكن ميشيل يشير إلى أصحاب المليارات وحسب، ولكن إلى القيادة السياسية أيضاً. منذئذ، برزت إلى حيز الوجود نظريات متعددة حول أصل ووظيفة طبقات النخبة، لكن أياً منها لم يجد طريقه إلى حيز التطبيق في روسيا - الاتحاد السوفييتي السابق. هذا لأن الوضع الروسي هو وضع غير مسبوق وفريد من نوعه. وبالنظر إلى تاريخ روسيا وتقاليدها، من غير المحتمل أن تكون هنالك حركة ديمقراطية قوية كانت قد برزت في عهد ما بعد يلتسن، حتى لو لم يكن خيار بوتين كرئيس مطروحاً. لكن غالباً ما كانت المصادفة تلعب دورها، وروسيا ليست البلد الوحيد الذي يولد من رحم الشيوعية. البعض كان يتحرك باتجاه الديمقراطية؛ والبعض الآخر (بعد بدايات مبشرة) كان يتحرك بعيداً عنها. من المؤسف القول بأن الوضع في كل هذه البلدان هو في حالة مزرية من التقلبات والتغييرات المتواصلة. لكنه التعبير الوحيد الذي ينسجم مع أي درجة من درجات القناعة.

لقد تم بذل الكثير من الجهود في محاولة لوضع تعريف محدد للبوتينية، ولأسباب وجيهة. لأنه إذا ما توجب على الزعيم الذي أطلق على هذا النظام اسمه أن يستقيل أو يرغم على التقاعد، فمن المحتمل أن يحافظ شكل الحكومة الجديدة على بقائه واستمراره، لأنه على ما يبدو يتماشى مع الاحتياجات والرغبات الحالية لروسيا. إنها ديكتاتورية موافق عليها من قبل الأغلبية، طالما أن الظروف مؤاتية. إذا ما تراجع هذا الدعم، سيصار على الأرجح إلى استنباط وتطبيق إجراءات حكم أكثر صرامة وقسوة. وبشكلها الحالي، فإن البوتينية تشبه أكثر ما تشبه ذلك النوع من الديكتاتورية التي كانت (أو لا تزال) مطبقة في البلدان النامية - لا سيما في الشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية.

اعتمد نجاح بوتين (ولا يزال) على عاملين اثنين، في المقام الأول الطلب المتزايد باستمرار على النفط والغاز وبالتالي، تحسن مذهل في الموارد المالية الروسية. وقد أدى ذلك إلى ظهور مجموعة صغيرة من فاحشي الثراء من أصحاب المليارات، هم الأوليغاركيون. لقد أفضى ذلك بشكل طبيعي إلى تحسن كبير في الظروف المعيشية لشرائح واسعة من المجتمع، والتي شكلت بالتالي وسائط الدعم لبوتين ونظامه.

مصدر النجاح الآخر للبوتينية كان الطبيعة الرديئة لعملية الانتقال من الشيوعية إلى شكل جديد من أشكال الحكم المستند إلى اقتصاد السوق. ما كان حري بها أن تكون إصلاحات تؤدي إلى مجتمع ديمقراطي، تحولت إلى إدارة للفوضى السياسية الضاربة أطنابها والفساد والجشع المستشري بصورة جنونية في كافة مفاصل النظام. لقد نجحت البوتينية إلى حد ما في التعامل مع ما سبق، معززة من صلاحيات وسلطة الدولة. لقد مكنت الثروة الجديدة الحكومة الروسية من اعتماد سياسة خارجية وطنية فاعلة تهدف إلى استعادة أجزاء مختلفة من الاتحاد السوفييتي كان قد خسرها بنتيجة انهيار 1989 - 1991. في الوقت نفسه، قبلت البوتينية الميراث الاجتماعي والاقتصادي السلبي لحقبة يلتسن.

لقد بات أمرًا مألوفًا اعتبار روسيا ما بعد الانهيار بمثابة "فولتا عليا مجهزة بأسلحة نووية". لكن مثل هذه المقارنات كانت أقل من دقيقة، حيث إن الفولتا العليا لم يسبق أن اعتبرت نفسها روما ثالثة بمهام يسوعية يتوجب عليها تنفيذها، ولم تكن هنالك "فكرة فولتا عليا" يمكن مقارنتها بالفكرة الروسية، كما أنها لم تحظ (كما تفعل روسيا في عهد بوتين) بحسن الطالع المتمثل بتحقيق مكاسب غير متوقعة على صعيد النفط والغاز نتيجة القفزة الهائلة في الأسعار، ما مكنها من لعب درو هام في الشؤون العالمية. لقد جعلت هذه الظروف المتنوعة من روسيا حالة فذة فريدة من نوعها. قد تكون المقارنات مع الفاشية التاريخية مقارنات صحيحة ومفيدة في بعض النواحي، ولكن ليس في نواح أخرى، ولا يمكن لها أن تشكل دلالة أو مؤشر فيما يتعلق بالأحداث القادمة.

الفصل الثالث

دعائم المشروع الروسي الجديد

<u>الكنيسة الأورثوذكسية الروسية</u>

لطالما لعبت العقيدة الأورثوذكسية دورًا مركزيًا في تاريخ المشروع الروسي Russian Idea. هذه هي الحال اليوم ووفق كافة الاحتمالات، ستكون غدًا. جاءت المسيحية إلى روسيا من القسطنطينية، على الرغم من وجود آراء ووجهات نظر عديدة حول أصولها. وبحسب أحد هذه الآراء، فإن أميرًا من كييف أرسل وفدًا إلى بيزنطة بحثًا عن عقيدة مناسبة. وقد أعجبوا أيما إعجاب بالطقوس الأورثوذكسية التي كانت تجري ممارستها في كنيسة آيا صوفيا Hagia Sophia وأوصوا باعتمادها. من المرجح، مع ذلك، أن الكنيسة الأورثوذكسية قدمت إلى روسيا عن طريق مبشرين من بيزنطة كانوا يزورون المستعمرات الإغريقية في جنوب روسيا.

كانت الكنيسة الروسية في البداية تحت رعاية واشراف بطريرك القسطنطينية؛ ومع أفول نجم بيزنطة وضعفها، أصبحت مستقلة. يعود تاريخ الكنيسة الروسية في القرون التالية إلى عهود طويلة ومعقدة، على غرار تاريخ باقي الكنائس. إنها حكاية انقسامات واعادة التئام شمل ونزاعات مع الدولة، وفي الغالب، تعاون. كانت الكنيسة منخرطة بقوة في السياسة. كثيرون تنبئوا بأن هذا سيلحق الضرر بالكنيسة، لكنهم لم يصدقوا في نبوءتهم. فمن الواضح أن تحديد دور الكنيسة كان من اختصاص فويفان بروكوبوفيتش Foefan Prokopovich، أحد كهنة ومستشاري القيصر بطرس الأكبر، في كتاب بعنوان "القانون الروحي" Dukhovny Reglament، الذي يقضي بوجوب تبجيل الملوك وإطاعتهم. كان أولئك الذين دأبوا على معارضة الملوك من العصاة والمذنبين بمعظمهم.

حتى عهد الثورة الروسية، كان لا يزال للكنيسة، أو بالأحرى العقيدة اللاهوتية، تأثير لا يستهان به على كافة شرائح المجتمع، بما فيها طبقة النخبة من أهل الفكر والثقافة. وفي عهد الشيوعية، لم تبل الكنيسة بلاءً حسنًا كما ينبغي، سيما خلال السنوات الأولى من عهد النظام الجديد، عندما كانت الكنائس تدمر ويتعرض مرتادوها للملاحقة والاعتقال. تغير هذا الوضع إلى حد ما خلال الحرب العالمية الثانية، عندما سعى ستالين إلى إدراج الكنيسة ضمن الجبهة العامة المشتركة في وجه ألمانيا النازية، مقدمًا تنازلات معينة محدودة لنشاطات الكنيسة، دائمًا على أمل تخلي الشباب عن اهتمامهم بالدين ودخول الكنيسة شيئًا فشيئاً في موت سريري يفضي إلى نهايتها.

كان هذا الافتراض مبنيًا على الاعتقاد الخاطئ بأن الأفكار الشيوعية لا تزال قادرة على اجتذاب العقول واستمالتها. لذلك، حافظت العقيدة الأورثوذكسية الروسية على بقائها - بقاء محفوف بالمخاطر استدعى دفع ثمن باهظ، حيث إن هذه العقيدة لم تتعرض للاختراق وحسب، بل جرى الاستحواذ عليها بشكل فعلي من قبل أجهزة أمن الدولة. لا يمكن لأحد كائنًا من كان أن يصبح أسقفًا، ناهيك عن طموحه بالارتقاء إلى مرتبة أعلى، ما لم يصر إلى تدقيقه وتمحيصه من قبل

المكتب السياسي وجهاز الـ كي جي بي. عندما جرى فتح سجلات الأرشيف لفترة وجيزة عام 1991، تجلت الحقيقة المرة: حتى البطريرك كان عميلًا. في أحد خطاباته كد البطريرك هذا الأمر وقدم اعترافه الأبوي pater peccavi بالنيابة عن زعامة الكنيسة ودوره بالذات. كانت حجته أن التنازلات كان يجب تقديمها للمحافظة على البقاء.

بالنظر إلى ذلك التصريح بالمنظور المتميز لهذه الأيام، يتبين بأنه صحيح تمامًا. يمكن إعداد قضية دفاعًا عن موضوع انهيار الكنيسة. لأن الكنيسة بقيت بالفعل، في حين أن أولئك الذين كانوا قد اضطهدوها لم يفلحوا بالبقاء. لم يصبح رجال الكنيسة شيوعيين، لكن البعض من الشيوعيين السابقين آثروا الرجوع إلى الدين والعقيدة. عادت كلمات "الله وروسيا المقدسة" للظهور مجددًا في النشيد الوطني لروسيا ما بعد الاتحاد السوفييتي، في حين أن مفاهيم الشيوعية والصراع النهائي قد تلاشت إلى غير رجعة.

ألم يكن صحيحًا أن بعض المعتقدات عمليًا كان عليها في وقت من الأوقات أن تقدم تنازلات مشابهة كي تحافظ على بقائها واستمراريتها؟ لقد انقضى عصر الشهداء منذ زمن بعيد، ولم يعد من العدل والواقعية أن ننتظر من رجال الكنيسة المعاصرين أن يتصرفوا كما تصرف المسيح وشهداء المسيحية الأوائل.

يعد مثل هذا الدفاع محقًا وفي الوقت نفسه غير محق. لقد التزم البابا الصمت خلال الحرب العالمية الثانية في وقت كان حريًا به أن يصرخ بأعلى صوته، رغم انه لم يكن مصنفًا ضمن قائمة عملاء الغستابو. هل كان رجال الكنيسة الأورثوذكسية سيتعرضون للتعذيب والقتل لو أنهم رفضو العمل كعملاء للأجهزة؟ قد يكون هذا الأمر مستبعدًا. لكنهم كانوا سيحرمون من الترقية على مراتب التسلسل الهرمي للكنيسة. باختصار، لقد بقيت الكنيسة، لكن سلطتها الأخلاقية تضاءلت إلى حد كبير، بل ربما تلاشت بالكامل.

المواقف السياسية التي اتخذتها الكنيسة بعد استعادتها لحريتها لم تظهر أن أي تغير أساسي قد حصل في نمط تفكيرها. فقد كانت في الغالب تتخذ مسارًا وراء الوطنية والقومية، باتجاه الشوفينية. لم تكن قد أصبحت أكثر تسامحًا حيال العقائد الأخرى: الثوران المعادي للسامية، على سبيل المثال، كان يجري التسامح معه. في عام 1993 - 1994، جرى نشر طبعات جديدة من بروتوكولات حكماء صهيون Protocols of the Elders of Zion بمساعدة أبرشية الأب آيون Father Ioann وبركته. كان مقدرًا للأب آيون (Ivan Synchov) أن يصبح متروبوليت كنيستي سانت بطرسبرغ ولادوغا - ليس كاهنًا مغمورًا، بل كاهنًا يحتل أسمى المراتب الكنسية تحت البطريرك مباشرة. جرى طبع عشرين ألف نسخة (المعدل الوسطي لطباعة نسخ كتب روسيا هذه الأيام هو ألفا نسخة). في حين أن الكنيسة الأورثوذكسية لم تبتدع البرتوكولات ربما، فقد كانت أهم عامل على الإطلاق أسهم في الترويج للعنوان. وظهرت أحدث طبعة (2013) ببركة كنيستي مدينة تيرنوبول Ternopol وكريمينتس Kremenets. جرى طباعة ثمانية آلاف نسخة.

كان البطريرك (أليكسي) Aleksei يرزح تحت ضغوط كبيرة حيث إن إحدى محاكم موسكو كانت في هذه الأثناء قد أعلنت بأن "البروتوكولات" مزورة. كان هذا الأمر معروفًا منذ زمن طويل: كان تزويرًا يعود إلى القرن التاسع عشر ربما دبر بمساعدة من جهاز الشرطة السرية

القيصرية. لم يتم إثبات أصولها حتى يومنا هذا. لقد زعموا بقدر كبير من التفصيل، السخيف غالبًا، بأن اليهودية العالمية كانت تخطط لتدمير روسيا وحكم العالم. الطريف في الأمر، أن البروتوكولات لم تلق أي نجاح في روسيا ما قبل الحرب. كان ستوليبين Stolypin، وهو رئيس وزراء ذو مصداقية مطلقة لدى جناح اليمين، قد أحاط القيصر علمًا بأن البروتوكولات كانت مزورة. لم تحقق البروتوكولات النجاح إلا بعد الحرب العالمية الأولى، عندما بدأ بعض عناصر العسكر النازي من أمثال الألماني البلطيقي لفرد روزنبرغ Alfred Rosenberg باستخدامها.

في نهاية المطاف، عمد لكسي إلى فصل نفسه وكنيسته عن نشاطات آيون الدعائية. رغم ذلك، فقد تضرع المتروبوليت إلى الله دفاعًا عن البروتوكولات المزورة. أعلن البطريرك أن الكنيسة لم تكن عنصرية. وقد ظهرت المقابلة في إحدى الصحف الروسية - بالإنكليزية. من غير المؤكد فيما إذا كان المتروبوليت يؤمن حقًا بأصالة البروتوكولات وموثوقيتها، ولكن بوصفها سلاحًا دعائيًا، لم يكن لأي شيء آخر أن يحل محلها.

منذئذ، جرى الكشف عن العديد من المؤامرات الشنيعة القذرة، ومن ضمنها "بارباروسا 3" التي اتهم فيها عدد من الدبلوماسيين بمحاولة تقويض أركان روسيا من الداخل. لكن يبدو بأن الكنيسة لم يكن لها يد في ذلك.

قد لا يكون من الإنصاف تحميل الكنيسة المسؤولية عن أفكار وأفعال بعض رجالها. لكن الأمر كان أبعد من ذلك: لم يكن موقف الكنيسة حيال العقائد المسيحية الأخرى بالتأكيد موقفًا مسكونيًا في صميمه. علاوة على ذلك، فقد كان موقفًا عدائيًا تجاه الكاثوليكية ولم يكن أكثر ودًا تجاه الكنائس البروتستانتية، ولكن لسبب وحيد وهو أن هذه الكنائس كانت تعتبر أعداءً أقل خطرًا. رفضت الكنيسة الأورثوذكسية تقبل حقيقة أن ملايين المواطنين الروس كانوا ينتمون لعقائد أخرى؛ فقد كانت تسعى لاحتكارٍ في هذا الميدان. في رسالة إلى بوريس يلتسن، تذمر البطريرك من النشاطات الدينية والتبشيرية الزائفة التي لحقت الضرر الروحي والمادي بالناس، وكذلك باستقرار روسيا ونسيجها المدني. جرى توجيه تحذير إلى كهنة الإصلاح بوجوب التزامهم بالمسار المرسوم لهم من الأعلى. علاوة على ذلك، كانت هنالك نزاعات بين بطريركية موسكو والكنيسة الروسية في الخارج.

من الصعوبة بمكان قياس عمق ومغزى النهضة الدينية في روسيا ما بعد الاتحاد السوفييتي. وبحسب استطلاعات رأي موثوقة، فإن 15 بالمئة فقط يعتبرون أنفسهم من الملحدين المنكرين لوجود الله. في حين يعتقد ثلثا الروس أن الدين ينبغي أن يلعب دورًا أعظم في الحياة الروسية، رغم أن جزءًا ضئيلًا فقط من هؤلاء صرح بأنه كان يحاول العيش وفقًا لمبادئ المسيحية. وكان 2 إلى 3 بالمئة يحضرون صلوات الكنيسة وطقوسها بانتظام. وأظهرت استطلاعات سابقة أيضًا أن عدد النساء المتدينات في العالم الغربي هو أكثر من الرجال. وقد تبين كذلك بأن الدين لم يكن له أي تأثير ذي شأن على السلوك الانتخابي. هنالك العديد من التناقضات، ولكن هذا ينطبق فقط على المواقف الدينية. فمثلًا، على الرغم من أن غالبية الروس يشعرون بالفخر والاعتزاز عند ترديدهم أو استماعهم للنشيد الوطني الروسي، فإن عددًا لا يكاد يذكر منهم يعرفون كلمات السطور الأولى منه.

في أثناء العقدين التاليين، جرى إعادة افتتاح العديد من الكنائس القديمة وبناء أخرى جديدة؛ أكثر من عشرين ألف كاهن كانوا يؤدون خدماتهم للمؤمنين. مع ذلك، يبدو بأن تأثير الدين على تلك الفئات من ذوي الثقافة الرفيعة قد تراجع. في أواخر مرحلة بريجنيف، كان هنالك اهتمام كبير بالدين في أوساط المثقفين الشباب. لكن مثل هذا الاهتمام الذي لا يزال مستمرًا اتجه نحو تعاليم المعتقدات الأكثر غرابة (أو الخرافات والغيبيات)، سواء منها المتعلقة بنبوءات نوسترادAMوس Nostradamus أو مدام بلافاتسكايا Madam Blavatskaya، الروسية المهتمة بالسحر والتنجيم.

أطلق ميخائيل إيبشتاين Mikhail Epstein على هذه الظاهرة التي انتشرت خلال فترة السبعينات اسم "العقيدة الدنيا" minimal "السقيمة" poor، والتي تدل على ورع وتدين متكلف خارج إطار الكنيسة، من دون أماكن عبادة أو طقوس أو عقائد. إنها تشير تحديدًا إلى أولئك الكتاب الشباب آنذاك من أمثال فاسيلي كسيونوف vasily Aksyonov وبولات أوكوتزافا Bulat Okudzhava، وبعض معاصريهم، أو جوزف برودسكي Joseph Brodsky في مرحلة لاحقة. مع ذلك، لا حاجة هنالك بالدولة لاستغلال مثل هذا الورع الزائف، لأنه بخلاف الديانة الرسمية المتمثلة بالكنيسة الأورثوذكسية، فهو لا يمجد القومية أو الولاء للدولة وحكامها.

يفضي هذا إلى السؤال حول الأسباب التي أدت إلى ذلك التراجع في جاذبية الكنيسة، حتى في أوساط النخبة المثقفة. كان هنالك وقت (كمثال واحد فقط) عندما كان أفراد من اليهود وعائلات بكاملها (روبنشتاين وباسترناك مثلًا) يؤثرون التحول إلى مذهب جديد، في حين أن سيمون فرانك، وهو مفكر ديني كبير، كان يعتقد بأنه ما لم ينتمي المرء إلى الكنيسة الأورثوذكسية، فلن يكون جديرًا بانتمائه إلى روسيا.

باختصار، لا يبدو بأن الكنيسة الأورثوذكسية الروسية كانت ناجحة تمامًا في أوساط النخبة المثقفة. وفي حين أن ذلك لا يعتبر نهاية العالم من وجهة نظر الكنيسة، فإنه لا يزال يشكل ظاهرة لافتة تستحق التوقف عندها. حتى لينين نفسه كان يساوره القلق بشأن تأثير الكنيسة في أوساط النخبة المثقفة. كان مقتنعًا بأن الدين، كظاهرة ومفارقة تاريخية، لم يكن متناغمًا مع الماركسية. لكنه رفض إدراج موضوع الإلحاد ضمن برنامج الحزب. كان مُحبَطًا عندما عمد بعض روّاد المفكرين، بعد فشل ثورة 1905، إلى الابتعاد عن الماركسية باتجاه الفكر الديني أو شبه الديني حسبما جرى التعبير عنه في مجموعة المقالات "التقدمية" بل حتى المتطرفة (Vechi) التي كتبها عدد من المفكرين سابقًا والتي تؤكد بصورة مفاجئة على الدين.

كانت روسيا في وقت من الأوقات موطنًا لمجموعة رائعة من المفكرين الدينيين من أمثال فاسيلي روزانوف Vasily Rozanov وفلاديمير سولوفيوف Vladimir Solovyov. كان كتّاب القرن التاسع عشر العظام من أمثال غوغول Gogol وتولستوي Tolstoy ودوستويفسكي Dostoyevsky منشغلين تمامًا عن الأمور الدينية، الأمر الذي لم يكن دومًا من دواعي سرور الكنيسة، كما هي الحال مع تولستوي، الذي كان محرومًا كنسيًا. كان سولوفيوف موضع حب واحترام الكنيسة الرسمية بسبب الدور المركزي للـ سوبورنوست sobornost (التأكيد على الجماعة أكثر منه على الفرد) في تفكيره. أكثر ما كانت تمقته الكنيسة هو تأثير الفلاسفة الهلينيين Hellenistic على تفكيره وبخاصة مسكونيته - البحث عن أرضية مشتركة مع الكاثوليكية، التي

كانت بمثابة لعنة إكليركية في نظر الكنيسة. (كان سولوفيوف أيضًا مناوئًا صريحًا لعداء السامية وقام بنشر بيان ضد ما اعتبره عارًا وطنيًا. هذا أيضًا سبّب له النزاع مع الكنيسة.)

كان لسولوفيوف تأثير عظيم على معاصريه والجيل التالي - ليس بذلك القدر على اللاهوتيين، وإنما على الفلاسفة والكتاب والفنانين. قصته عن ظهور المسيح الدجّال Antichrist كانت بمثابة مقالة تاريخية - أدبية مؤثرة، قصة السيطرة على العالم وإخضاعه على يد قوة آسيوية ما. كان تأثيرها هائلًا؛ كانت بمثابة مساهمة في الإيمان الروسي التقليدي بالمؤامرات المثيرة والمعقدة.

لم يكن اليهود محظوظين فيما يتعلق بموقف الكنيسة الأورثوذكسية، حتى على أعلى مستويات الرفعة والحنكة الفكرية. جورج فلوروفسكي George Florovsky مهام، الذي يعد ربما من رواد اللاهوتيين في مرحلة ما بين الحربين، كان عنصريًا وكان يدعو إلى خصي اليهود؛ ولم يكن موقف لوسيف Losef، دعامة أخرى من دعائم النظام اللاهوتي الأورثوذكسي، أكثر تسامحًا بكثير.

كان سيرجي بولغاكوف Sergei Bolgakov ونيقولاي بيردابيف Nikolai Berdaev من أهم مفكري الجيل التالي من اللاهوتيين الرواد. كان بولغاكوف متطرفًا في بداية حياته، معارضًا لحكومة الفرد و"الوطنية الزائفة." نأى بنفسه في أواخر حياته عن الآراء الشوفينية والرجعية، رغم إيمانه الحقيقي بالقومية الروسية. لكنه كان يضع تصورًا لقومية ثقافية أكثر منها سياسية، بخلاف الشوفينية التي كان ترعاها وتتبناها القوى العلمانية. كان لا يزال متهمًا في نظر السلطات الكنسية بسبب دعمه وتأييده لآراء عقائدية دينية غير أورثوذكسية (sophiology).

كانت شهرة بيردابيف كمفكر ديني خارج الكنيسة الأورثوذكسية الروسية أقوى منها في داخلها. هو أيضًا كان متطرفًا في بداية حياته، وقد تعرض للاعتقال والنفي لعدة سنوات. كان يؤمن بأن أمام روسيا رسالة يتوجب عليها تأديتها. في "مشروعه الروسي" Russian Idea، أعاد التذكير بأن النخبة المثقفة الروسية كانت محبطة من الأداء المزري لبلدها. مع ذلك، فهي لم تتخل يومًا عن إيمانها بأن أمام روسيا رسالة تاريخية يتوجب عليها تأديتها وسيأتي اليوم الذي ستقول فيه كلمتها للعالم. لم يسهب في الكلام، لكن من الواضح أن الإشارة كانت للمسيحية الحقة. حتى بايوتر تشادابيف Pyotr Chaadayev، الناقد الأكثر حدة لمفكري روسيا القرن التاسع عشر، كان يؤمن بوجود قوى كامنة لدى الشعب الروسي، قوى لا بد أن تنطلق وتتحرر في يوم من الأيام.

هنالك بون شاسع من التباين بين هؤلاء المفكرين الدينيين وأولئك من أبناء الجيل المعاصر. لا يتعلق الأمر بالمستوى الثقافي للناطقين أو حقيقة أن آراءهم وبياناتهم كانت تنزع لكونها سياسية أكثر منها روحية في طبيعتها. كانوا منشغلين بقضايا على غرار عائلة القيصر وأولئك القائمين على خدمته، الذين تعرضوا للقتل على أيدي البلاشفة عام 1918. في أحد قراراتهم السياسية، جرى تطويب أفراد عائلة رومانوف the Romanovs وإعلان قداستهم بعد ضغوط واضحة من جانب أنصار المَلكية ضمن صفوف أعضاء الكنيسة الناشطين. في حين أن هذه الجريمة بحق عائلة، لا سيما الأطفال منهم، كانت بمثابة عمل خسيس جدير بالازدراء، إلا أنهم لم يُقتلوا بسبب عقيدتهم ولا يعتبرون بالتالي في عداد الشهداء. لذلك كان على سلطات الكنيسة أن تفكر بتبرير آخر، ولم تكن النتيجة مقنعة بأي حال من الأحوال.

على العموم، لقد تلاشى ذلك الانقسام بين الكنيسة والدولة بشكل كامل. لكن الكنيسة ظلت أداة بيد الحكومة، كما في أيام السوفييت. كان يمكن لتصريحاتها حول السياسة الخارجية أن تأتي (وغالبًا ما كانت تأتي) من وزارة الخارجية أو الأركان العامة للجيش أو الشرطة. هذه البيانات، سواء كانت صحيحة أو خاطئة، كانت خارج إطار العالم الروحي ولم يكن فيها أي شيء تحديدًا يمت للدين بصلة.

حدثت هنالك مصادفات غريبة داخل الكنيسة، وكان يبدو أحيانًا وكأن البطريرك قد فقد السيطرة على الأمور: كانت هنالك قضية كبار الشخصيات الأورثوذكسية في الدوما ممن كان تعيينهم يهدف إلى الدفاع عن مصالح الكنيسة في البرلمان الروسي. لكنه فاجأ الجميع وتحول إلى الإسلام مكرشا جل وقته في السعي لإثبات أن روتشيلد Rothschild (وليس الـ CIA) هو المسؤول الحقيقي عن إشعال فتيل ثورات الربيع العربي، الأمر الذي لم يكن محبذًا على الإطلاق. كان هنالك رجل كنيسة آخر رفيع المستوى زعم بأن الكنيسة كانت تحت سيطرة لوبي من اللوطيين حاول التأثير عليها للسير في هذا الاتجاه.

لم تنقطع الهجمات أبدًا ضد الغرب الملحد من قبل كنيسة موسكو، ولكن أيضًا من قبل بوتين. لقد أعلن بوتين بأن العديد من بلدان أوروبا - الأطلسية قد ابتعدت عن جذورها، بما فيها القيم المسيحية. من جهة أخرى، كانت روسيا تبدو وكأنها المدافع عن القيم التقليدية في وجه هجوم من قبل الغرب، دفاع قوي لمنع روسيا من التردي في لجة من الظلمة الفوضوية.

لقد كرر البطريرك كيريل Kirill الكلام الحرفي لبوتين تقريبًا في عدة مناسبات. وهاجم الأرشمندريت (تشابلن) فسيفولود Chaplain Vsevolod سياسة فصل الدين عن الدولة معتبرًا إياها خطأ جسيمًا من قبل الغرب، وظاهرة شنيعة "حدثت فقط في الحضارة الغربية وسوف تفضي إلى القضاء على الغرب." بعدها، ومع تدرج المرء مراتب التسلسل الهرمي، تغدو تصريحات رجال الكنيسة أقل صرامة وحدة. من بين النصائح البالغ عددها 1350 للمؤمنين حول كيفية الدفاع عن أنفسهم ضد القوى الشريرة الخفية يبرز سؤال واحد: ما هي الكتب الأكثر إزعاجًا لإبليس؟ الجواب: الكتب التي دونها قديسون.

يمثل الإيمان بالشيطانية أو عبادة الشيطان Satanism ظاهرة خاصة في روسيا تعود إلى ما قبل أيام الحرب العالمية الأولى وإلى تقارير الإعلام الروسي التي تتحدث من وقت لآخر عن وجود جماعات تمارس طقوس عبادة الشيطان. في الآونة الأخيرة، عام 2008، جرى اعتقال ثمانية شبان بين السابعة عشرة والتاسعة عشرة قرب ياروسلاف Yaroslavl بتهمة قتل وإحراق أربعة شبان آخرين.

يوجد للوثنية الجديدة neo - paganism وإتباع معينون في روسيا وفي بلدان البلطيق وأماكن أخرى من أوروبا الشرقية منذ الثمانينات. لكنها لم تشكل يومًا عاملًا ذا أهمية سياسية. في روسيا، تنقسم الوثنية الجديدة إلى العديد من المجموعات الصغيرة. البعض من هذه المجموعات يتلقى الإيحاء من الحركة البيئية ecological movement، الصلاة باتجاه الشمس، باتجاه القمر؛ وبعضها الآخر يعبد الأرض وآلهة أخرى. مع ذلك، هنالك آخرون يعلنون عن أنفسهم صراحة بأنهم من الفاشيين الجدد، الذين يقومون من وقت لآخر بارتكاب أعمال عنف كحرق

الكنائس. العديد منهم يحتفل بالانقلاب الصيفي summer solstice. إنهم يستمدون وحيهم والهامهم من ثقافة الأرياف الشعبية لأيام ما قبل المسيحية. ولكن بما أن المعلومات الموثقة التي نعرفها عن ذلك العصر هي معلومات شحيحة جدًا، فالعديد من الطقوس والأعراف التي جرى اعتمادها مؤخرًا تعود إلى عوالم الفانتازيا والبدع والتزوير. وبحسب بعض التقارير، فإن أعدادها قد تزايدت في السنوات الأخيرة؛ الشباب في المدن، بدافع الضجر أو الاستبعاد عن الكنيسة الأورثوذكسية، شرعوا يبحثون عن شيء أكثر إثارة و/أو أصالة. لكن هذه التقارير حول تزايد الأعداد قد يكون مبالغًا فيه تمامًا. إن أيًا من جماعات الوثنية الجديدة لم يعمر طويلًا حتى الآن، وليس أمامها اليوم أي فرصة للمنافسة مع الكنيسة الأورثوذكسية الأصيلة والعميقة الجذور. وبالنظر إلى الشخصية المحافظة جدًا للكنيسة الأورثوذكسية وجاذبيتها المحدودة في نظر الشباب، يمكن لهذا أن يتغير في المستقبل، والكنيسة الأورثوذكسية يمكن أن تشارك باقي بعض المعتقدات الأخرى مصيرها - تحديدًا تراجع في عدد المؤمنين المواظبين على أداء واجباتهم الدينية. لكن هذا قد يستغرق وقتًا لا بأس به، ومن غير المؤكد على الإطلاق من سيكون المستفيد من تطور من هذا النوع.

في هذه الأثناء، كانت الكنيسة الأورثوذكسية الروسية تؤدي بصورة رئيسية وظيفة سياسية تتمثل بدعمها الحكومة، لا سيما في مجال البروباغاندا المناوئة للغرب. من المثير مراقبة التغييرات التي حصلت. في عام 1880، بمناسبة إزاحة الستار عن أحد النصب التذكارية في موسكو تكريمًا لألكسندر بوشكين (كان موقع النصب قد تغير في عهد ستالين)، جرى دعوة فيودور دوستويفسكي Fyodor Dostoyevsky لإلقاء الكلمة في تكريم الشاعر. كان دوستويفسكي رجلًا عميق الإيمان، وفي حين أنه لم يكن بالضبط من أتباع السلافوفيل Slavophile (كان وقتهم قد ولى)، إلا أنه كان يتبع تقاليدهم بقوة. أصبح الخطاب الذي أعده في حالة من النشوة التي ما برحت تولد موجات كبر من النشوة بين المستمعين بمثابة حدث العام، إن لم يكن العقد، وجرت مناقشته على نطاقي واسع؛ قال دوستويفسكي في نهاية الخطاب:

> نعم، إن قدر الروس هو بما لا يقبل مجالًا للنقاش قدر أوروبي وعالمي بالكامل. أن تصبح روسيًا أصيلًا ومن كافة النواحي يعني، ربما (وهذا ما يجب أن تتذكره)، أن تصبح أخًا لكل الرجال، رجلًا عالميًا.... للأسف، فإن شعوب أوروبا ليس لديها أدنى فكرة عن مقدار الحب والمودة التي نكنها لهم....

ليس من السهل أن تتخيل خطابًا من هذا النوع بعد 140 عامًا. لم يكن دوستويفسكي ليعتقل - لقد انقضت تلك الأيام. لكن المنظمين سيندمون على كونهم وجهوا إليه الدعوة، وسيكون هناك قدر كبير من الاستهجان. لم تعاقبه الكنيسة بالحرمان الكنسي، لكن تحذيرًا كان سيوجه له بعدم تكرار مثل هذه العبارات غير اللائقة، بل الزائفة والملحدة تقريبًا. وكانت صحيفة زافترا Zavtra للأسبوع التالي، الدورية الرائدة لأقصى اليمين، ستتهمه بالسذاجة البالغة التي تقترب من حدود الخيانة.

رواد مفكّري اليمين الروسي

من خلال اطلاعه على صفحات ويكيبيديا Wikipedia (النسخة الروسية) قد يصادف القارئ صورة لرجل وسيم، ليس في عنفوان الشباب، يحمل قاذف آر بي جي RPG مضاد للدبابات. على

صفحة أخرى، يظهر الرجل نفسه أمام دبابة وهو يحمل بندقية كلاشينكوف آلية. من الواضح أنه رجل لا مجال للمزاح معه. ضابط روسي ربما، أو شخصية بارزة في مجال صناعة الأسلحة، ربما جامع سلاح أو رجل له الكثير من الأعداء؟ بعيدًا عن ذلك: هو فيلسوف، وبما أن مسرح الأحداث هو أوسيتيا الجنوبية والزمن حوالي العام 2008، فالأرجح أنه ليس مارتن هايدغر Martin Heidegger أيضًا. اسمه ألكسندر جيديفيتش ديوجين Alexander Jelyevish Dujun، وهو فيلسوف غير عادي. أيّ دبابات أو طائرات يريد تدميرها أو إعطابها؟ إنها قصة طويلة ومعقدة ومثيرة.

كانت هنالك زيادة مفرطة في عدد الجماعات منذ الثمانينات، سيما في موسكو، مجموعات لشباب تأثروا بالنازية وقلدوها وجماعات مشابهة ظهرت في بلدان أوروبية أخرى، لكن ظهورها في روسيا كان أكثر إثارة وأصعب تفسيرًا. لا شك بأنه كان جزئيًا نتيجة الجاذبية المتراجعة للشيوعية خلال حقبة بريجينيف. ولكن بالنظر إلى سجل الاحتلال الألماني في روسيا وجرائم الحرب التي ارتكبت، وكذلك الضرر الهائل الذي حل بها وبملايين الروس الذين قضوا في تلك الحرب، من الصعب فهم كيفية تأثر الشباب الروس بإيديولوجية كانت تعتبرهم أشباه بشر، حتى ولو أخذ المرء في الحسبان حافز الشباب الذي يدفعهم لإحداث صدمة لدى أهاليهم ومعارفهم من كبار السن مفادها أن هذا الجيل لم يمر بتجربة الغزو والاحتلال الألماني وأن كل ما يعرفه عن الفاشية هو معرفة من الدرجة الثانية أو الثالثة. مهما يكن من أمر، تبقى الحقيقة بأن هنالك العديد من مثل هذه الجماعات، حتى لو أنها لا تعمر طويلًا. من المفاجئ أيضًا أن رد فعل السلطات المعنية كان لبقًا ومهذبًا، أكثر تهذيبًا من معاملة المنشقين الديمقراطيين.

بعض هذه الجماعات كانت "ثقافية" أكثر منها سياسية في هويتها، كجماعة حليقي الرؤوس Skinheads، التي تقلد صرعات غربية معينة. جماعات أخرى، مع ذلك، كانت سياسية لأبعد الحدود على غرار مجموعة متنوعة من الأحزاب البلشفية الوطنية الصغيرة. كانت هذه الأحزاب محظورة عادة من قبل الحكومة، لكنها بعد فترة ظهرت مجددًا تحت اسمٍ جديد. كان هنالك جبهة الخلاص الوطنية National Salvation Front التي استمرت لبضع سنوات ثم تداعت وتصدعت. البعض من هذه الجماعات لم يخف حقيقة أنها كانت وثيقة الصلة بالنازيين، تحمل رموز النازية وتهتف بشعاراتها. جماعات أخرى أكثر اعتدالًا، قبلت ببعض أفكار النازية وممارساتها لكنها رفضت البقية. بعض الجماعات استمرت لفترة زمنية أطول من جماعات أخرى لم تعمر إلا لفترة قصيرة فقط. أخيرًا كان هنالك دائمًا قدر معين من الأصالة لدى هذه الجماعات؛ فالبعض منها كان أصيلًا وعفويًا بلا شك، ولكن كانت هنالك شكوك حول الشخصية الأصيلة لجماعات أخرى، والتي ربما كانت تحت رعاية أو على الأقل تتلقى العون من قوى وجهات غير معروفة. لقد حصلت مثل هذه الحالات على مسرح أحزاب وجماعات الجناح اليميني من قبل، قبل وبعد ثورة 1905، ولعله كان هنالك تكرار للمشهد والأداء ذاته خلال التسعينات.

الفيلسوف الذي يحمل قاذف الـ أر بي جي كان ينتمي لإحدى هذه الجماعات في شبابه لكنه أصبح رجلًا محترفًا جدًا في السنوات التالية. من بين قائمة رواد المفكرين الروس، هنالك ألكسندر ديوجين الذي يحتل مرتبة مرموقة جدًا. سبقه في ذلك البطريرك وكذلك إدوارد ليمونوف، ونيكيتا ميخالكوف Nikita Mikhalkov، صانع الأفلام الشهير، وميخائيل ليونتيف Mikhail

Leontiev، زاخر بريليبين Zakhar Prilepin، وعدد آخر ربما. لكن مثل هذه القوائم المعتمدة عادة على إطلالات تلفزيونية متكررة تعتمد على قيم التسلية والترفيه أكثر منه التأثير السياسي. من هذا المنظور يحتل ديوجين مرتبة عالية تمامًا، رغم أن أولئك في الغرب الذين جعلوا منه شبيهًا لبوتين في نمط التفكير قد يكونوا يبالغون. إنه يظهر بالرغم من ذلك تحت اسمٍ مختلف، في إحدى أكثر روايات بيلفين مبيعًا للحقبة ما بعد السوفييتية، بعنوان شابابيف والفراغ Chapaev and the Void والتي تناقش فيها الشخصيات الرئيسية الجيوبولتيك والإمبريالية الجديدة والأوراسية الجديدة بشغفٍ عظيم. عرف بيلفين باهتمامه بالبوذية، لكن المناقشات السياسية الواردة في الرواية تجري في بيئة فكرية عقلانية.

يعتقد بعض معاصري ديوجين بأنه نجم فريد من نوعه، رجل ذو ثقافة تاريخية هائلة وأعظم الإيديولوجيين قاطبة في زماننا.

وُلِدَ ديوجين في موسكو في العام 1962، وهو ابن لجنرال في الاستخبارات العسكرية. التحق ديوجين في آخر سنوات الحقبة السوفييتية بمجموعة صغيرة من الشباب الذين يقلدون وحدة SS الألمانية - وحدة نخبوية شبه عسكرية من وحدات الحزب النازي الألماني والحرس الشخصي لهتلر - وأصبح قائدها. من غير المعروف إن كانت رومانسية البطولة عامل الجذب الرئيسي (لا يعقل أنها كانت وطنية ألمانية) أو أنه عامل التدهور والانحطاط والماسوشية السادية التي غالبًا ما كان يتم ملاحظتها لدى معجبي ما بعد الحرب من غير الألمان. لكنه في مرحلة ما ترك تلك الجماعة وانتقل إلى منظمة باميات Pamyat، وهي أهم المنظمات المعادية للسامية في ذلك الوقت. في عام 1992، انسحب من باميات (أو استبعد منها) وشرع في كسب رزقه من خلال تقديم خبراته "الجيوسياسية" والظهور في مختلف محطات الإذاعات الخاصة. كانت عقيدته السياسية حينها وطنية بلشفية، لكنه أصبح أيضًا مستشارًا لرئيس البرلمان الروسي.

في عام 2002، بات ديوجين بين عشية وضحاها معروفًا لدى شريحة واسعة جدًا من الناس، وعمد إلى تأسيس حزبه السياسي الخاص، إيفرازيا Evrazia. في العام 2009، عُين أستاذًا لمادة علم الاجتماع في جامعة موسكو الحكومية، لكنه واصل عمله كمستشار لرئيس البرلمان الروسي وسياسيين آخرين رفيعي المستوى. وبالرغم من معارضته الشديدة ليلتسن وإدارته، فقد دخل دائرة حكومة بوتين وبات موضع طلب متزايد كمستشار وخبير في مواضيع متنوعة. لقد كان رجلًا يمكن الاعتماد عليه دائمًا في بعض الأفكار الجديدة. وأصبح كذلك نجمًا تلفزيونيًا. (يمكن مشاهدة بعض إطلالاته الآن على موقع يوتيوب).

من بين كتبه العديدة، لعل الأكثر قراءة هو تقرير موسوعي (أكثر من ستمئة صفحة) حول نظريات المؤامرة. كانت ميول ديوجين تتجه دومًا نحو الغيبية والميتافيزيقيا، ومن غير المعروف عدد نظريات المؤامرة التي يؤمن بها. تلقى أعماله رواجًا كبيرًا" ويجد قراؤه كل ما يودون معرفته وحول الكونت دراكولا ة Count Dracula وليو شتراوس Leo Strauss، أشهر المحافظين الجدد، وحول زاخاروف ("أحد رواد العالمية") و"الإيديولوجيا الاستبدادية الليبرالية،" حول أبولو Apollo والعديد من الصليبيين المناوئين لروسيا في الماضي، حول مشروع قرن أمريكي جديد a New American Century و"ميتافيزيقيا حرب السحر والتنجيم." لعل القارئ لم يكن ليعرف

أن خروتشوف Khrushchev كان عميلًا أطلسيًا وغورباتشيف عميلًا مزدوجًا، لكنه سيجد التفاصيل هنا.

ظهرت كتب ديوجين ومجلاته في دار للنشر أسسها بنفسه. ولعله كان يحبذ الدعم السياسي وربما أيضًا المادي المقدم من مختلف المؤسسات الرسمية (بحسب بعض التقارير كانت تأتي من الاستخبارات العسكرية). قدم لروسيا آراء ووجهات نظر كبار الكتاب الأوروبيين من الفاشيين الجدد من أمثال جوليو إيفولا Julio Evola وأقصى اليمين الجديد من أمثال ألان دو بينوا Alain de Benoist، بالإضافة إلى بعض المفكرين الأكثر غموضًا أمثال رينيه غونيون Rene Guenon وجان فرانسوا ثيريار Jean Francois Thiriart والكاتب الفرنسي الروماني جان بارفوليسكو Jean Parvullescu، الذي لم يسمع عنه أحد في روسيا إلا النذر القليل. عمد أيضًا إلى نبش ذكرى بعض المفكرين الألمان للمرحلة ما قبل الهتلرية أمثال لانز فون ليبنفلز Lanz von Liebenfels. يبدو أن ديوجين بدأ يدرك في مرحلة لاحقة بأن الوطنيين الروس من الشباب لن يقفوا عند المتاريس المعنوية التي وضعها بارفوليسكو، وأن عدائية باميات الأولية للسامية لم تكن لتستقطب الدعم السياسي للجماهير، ناهيك عن المفكرين الذين تحتاجهم حركة سياسية ما، وأنه بالنسبة لحركة روسيا، من أقصى اليمين، فإن بعض تجارب الأسلاف الروس كانت ضرورة لا غنى عنها، وليس فقط تجارب الأجانب المبهمة التي لا نعرف عنها شيئًا. وقد وجد هذه الأشياء لدى المنظرين الروس المعادين للغرب في القرن التاسع عشر أمثال قسطنطين ليونتيف Konstentin Leontiev ونيكولاي دانيلفسكي Nikolay Danilevsky.

مع ذلك، يبدو بأنها كلما كانت أكثر مناوئة للحدسية والتنبؤية كلما زاد اهتمامه بها. لكن الحصيلة الإجمالية لا تعني شيئًا أبدًا، ولا حتى كمعلومات مغلوطة. بالرغم من أن أعماله كانت موضع طلب عظيم، إلا أن من الصعب اتباع نمط تفكيره بسبب تغيراته الإيديولوجية السريعة والتناقضات في وجهات نظره ونزوعه نحو استحضار مواضيع لا علاقة لها بالسياسة (مثل القانون الثاني للدينامية الحرارية).

في بداية حياته، بدا ديوجين وكأنه قد اعتنق الوثنية الجديدة، ولكن في عام 1999 التحق على حين غرة بالكنيسة الأورثوذكسية - المؤمن الشاب التحق بكنيسة المؤمنين كبار السن. لقد عبر عن آراء متناقضة حيال العديد من القضايا. وهذا ينطبق على سبيل المثال على الصين؛ ففي مرحلة مبكرة بدا وكأنه استبعد الصين من نطاق نشاطاته الجيوسياسية لكنه أدرج اليابان، الأمر الذي يتناقض مع كل "القوانين الجيوسياسية،" كون اليابان جزيرة. ولكن فيما بعد، وكونه أدرك الأهمية المتعاظمة للصين، يبدو بأنه عذل من آرائه ووجهات نظره. أن يكون عضوًا في اليمين المتطرف العدائية لليهود هذا أمر بديهي، لكن ديوجين لم يطلق أبدًا أية آراء أو تصريحات راديكالية مناوئة للسامية. على العكس، فقد عبر عن اهتمام كبير بعقيدة الكابالا Kabbalah - وهي فلسفة دينية سرية عند أحبار اليهود وبعض نصارى العصر الوسيط مبنية على تفسير الكتاب المقدس تفسيرًا صوفيًا - بسبب طبيعتها الغامضة، ويبدو بأنه تعاطف أيضًا مع معظم العناصر المتطرفة في أوساط داعمي إسرائيل. لقد أوقعه هذا في نزاع مع أعداء السامية من أنصاف المثقفين في اليمين الروسي ممن ليس لديهم أدنى درجة من الاهتمام بالكابالا، أو أي كتاب يهودي آخر ما لم يعترف بالجريمة الطقسية.

شجب ديوجين البروباغندا المعادية للأجانب لجماعات اليمين المتطرف، والتي كانت (حسب زعمه) تتسبب "بضرر بالغ للقضية الوطنية،" وأصبح مؤيدًا أعمى للأوراسية، الحركة التي تبشر برسالة روسيا في الشرق وتريد بتر نفسها عن الغرب والتأثيرات الغربية. لقد اكتشف أيضًا تعاليم ليف غوميليف Lev Gumilev، سيما نظريات غوميليف التوسعية حول نشوء الأعراق والانفعالية العاطفية Passionarity، والنزوع نحو إعطائه ميزة الشك، حتى الإعجاب به. مع ذلك فإن عمله في الحقيقة كان يتألف بمعظمه من تكأيدات إيديولوجية ليس لها أي إثبات. لم يكن هنالك ثمة من فرق كبير بينه وبين بعض منظري الإيديولوجية النازيين أمثال هانس غوينثر Hans Guenther باستثناء أنه في حالة ديوجين فإن الأعراق المفضلة لم تكن جرمانية Nordic وإنما بدوية رعوية Nomadic. أصبح داعمًا كبيرًا لنظريات متنوعة تعود لعصر منصرم وقام بدمجها مع سمته الأوراسية الخاصة المتعلقة بالجيوبوليتيك والتي كانت قضيته الأساسية خلال العقدين الماضيين.

تنقل ديوجين عبر العديد من الأحزاب السياسية المتنوعة مثل رودينا Rodina وأسس حزبًا جديدًا لرعاية الأوراسية ومن ضمنه منظمة شبابية تروّج للأفكار الأوراسية. تغير موقف ديوجين من السلطات بقدر ما تغيرت معتقداته الإيديولوجية؛ لقد تعاطف بشكل أو بآخر مع بوتين ("أوراسيٌ قح") لكنه كان ينتقده من وقتٍ لآخر لكونه بالغ الحذر (أو بطيء جدًا) يسعى إلى توسيع الإمبراطورية الروسية واستعادة أراضٍ وأقاليم كانت ضائعة. ولكن مع تحول المزاج العام في البلاد أكثر فأكثر نحو اليمين، ومع ارتداء سياسة بوتين لباسًا أكثر قسوة وشدة، باتت علاقات ديوجين مع السلطات أكثر متانة. قام بدعوة بوتين للالتحاق "بحركته الأوراسية الدولية." لا حاجة للقول إن الدعوة تم تجاهلها، لكنها لا تزال موضع ترحيب.

من بين أولئك الذين تجشموا عناء متابعة كتابات ديوجين، هنالك من يعتقد بأنه مجرد حرباء سياسية، بينما يعتقد آخرون بأنه مجرد حالة من حالات الفوضى المتأصلة والنزيهة والمعدية الممزوجة بقدرٍ من حب الظهور والهستيريا. العوامل الثابتة في إيديولوجيته هي معاداة العولمة، معاداة الليبرالية (كونها أهم بند من بنود أجندته الإيديولوجية)، والعداء للأمركة، وعقيدة السحر والتنجيم، والأوراسية، والجيوبوليتيك، ووجود قوى خفية تسهم في تشكيل السياسة العالمية، ونشر خرافة القوة العظمى الروسية. وقد كانت هذه العوامل مقترنة بمعتقدات الإمبريالية الآرية العنصرية ومعتقدات السحر والتنجيم المعبر عنها بطريقة تلطيفية والتي لا يزال نطاقها غير واضح، ولا شك بأن لهذه المعتقدات عقابيلها.

ولكن أية عقابيل؟ وهل نحن بحاجة حقًا لهذه الشطحات الإيديولوجية المتناقضة غالبًا؟ إنه لأمر يبعث على الريبة أن يتحول فرد لماني خلال فترة العشرينات والثلاثينات إلى شخصية نازية نتيجة قراءة كتاب دوّنه زعيم نازي، وهذا كان صحيحًا حتى فيما يتعلق بـ كتاب هتلر "كفاحي" Mein Kampf.

المؤثران الروسيان الأكثر أهمية على فكر ديوجين وايديولوجيات أخرى لأقصى اليمين الروسي كان قسطنطين ليونتيف ونيكولاي دانيلفسكي. من الصعب تصنيف ليونتيف، بإيمانه العميق بالعقيدة الباطنية mysticism، وحتى تشاؤميته الأكثر عمقًا، والتي برهنت أحيانًا عن كونها تنبؤية: كان قد تنبأ بالثورة العظيمة في روسيا في القرن العشرين، التي حرض عليها ونفذها المسيح الدجال.

كان ديوجين بشكلي خاص منجذبًا إلى إيمان ليونتيف "بالاستشراق أو التوجه نحو الشرق،" والذي جاء نتيجة عدائه للتأثيرات الغربية على روسيا. ولعل ذلك ساعد في استثارة حماس ديوجين للتوجه نحو الأوراسية، التي كان لها أن تلعب دورًا مركزيًا في السنوات الأخيرة.

أمضى نيكولاي دانيلفسكي سنوات عديدة في السلك القنصلي الروسي خلال عهد الإمبراطورية العثمانية، ولطالما كان عرضة لمؤامرات ومكائد بيزنطة وتأثيرها على روسيا. وبوصفه عالمًا بالتدريب، فقد أصبح دانيلفسكي شخصًا ذائع الصيت، سيما بعد نشره لكتابه روسيا وأوروبا Russia and Europe. لعله كان أكثر المفكرين المناوئين لأوروبا تطرفًا في عصره، في سنواته الأولى كان ينتمي إلى مجموعة من المفكرين معارضة للنظام السياسي لتلك الأيام (دوستويفسكي كان عضوًا آخر). لقد زعم بأن هنالك فجوة واسعة لا يمكن ردمها بين روسيا وألمانيا والبلدان اللاتينية. كما روج أيضًا لنظرية تتعلق بتطور الثقافات على درجة عالية من التنبؤية في نهجها ومقاربتها، ما استقطب لها بعض الاهتمام خلال حياته.

كان هذان التأثيران على ديوجين هما التأثيران الوحيدان تقريبًا، لكنهما كانا على قدرٍ بالغ من الأهمية وحققا انتشارًا واسعًا أكثر مما كان متخيلًا.

يشبه هذا الوضع من بعض النواحي ذلك الوضع الذي كان يواجه هتلر عندما ظهر على مسرح أحداث ميونيخ بعيد الحرب العالمية الأولى مباشرة. كان هنالك العديد من الجمعيات مثل جمعية تول Thule التي تروّج لأفكار قريبة من أفكار هتلر الخاصة وقد التحق بعض نازيي الأيام اللاحقة بهذه الجمعية، لكن هتلر لم يعرها الكثير من الاهتمام، بل حط من قدرها وسخر منها، وسرعان ما انفصل عنها. كان يعتقد بأن هذه الجماعات غير فاعلة لأنها كانت تفتقر إلى الحس الفطري والقدرة على تفهم أحاسيس ومشاعر الآخرين، وكانت إيديولوجيتهم بالغة التعقيد. وبدلًا من تركيزها على بعض النقاط الجوهرية والمواظبة على تكرارها، فقد كانوا منشغلين بما كان يعتبره هتلر قضايا سرية مقصورة على فئة قليلة من الناس. الشيء ذاته كان ينطبق على لفرد روزنبرغ، وهو لماني بلطيقي أصبح أيضًا عضوًا بجمعية تول. كان قد ساعد في إحضار بروتوكولات حكماء صهيون من روسيا إلى ألمانيا.

اعتبر كتاب روزنبرغ "خرافة القرن العشرين" The Myth of the Twentieth Century ثاني كتاب من حيث الأهمية بعد كفاحي. لكن هتلر لم يقرأه أبدًا واعتبره غورينغ Goring سلعة مغشوشة. استخف غوبلس Goebbels به ورأى بأنه رجل بلا ضمير، بل حتى معتوه. جرى بيع رائعته الأدبية أو توزيعها في السنوات التالية بمليون نسخة، لكن من غير المؤكد إن كان العديد من الناس قد قرأها. لأنها بشطحاتها الفانتازية عن العرق والدم، وعن الهرطقة المارسينية Marcionism - هرطقة مسيحية تعود للقرنين الثاني والثالث والتي ترفض العهد القديم وتنكر تجسد الرب في المسيح ككائن بشري - والكاثارية Catharism - هرطقة كان يؤمن بها طائفة مسيحية ازدهرت في أوروبا الغربية في القرنين الثانـي والثالث عشر وتتنبأ باعتقادٍ مزدوج يؤكد على التخلي المتقشف عن العالم المادي و"المسيحية السلبية " Negative Christianity، فقد تجاهلت العقائد الأولية للبروباغندا السياسية.

إذا كان ديوجين قد أبلى بلاء حسنًا أكثر من روزنبرغ، فلعل ذلك بسبب التلفزيون. كانت كتب ديوجين تقرأ على نطاق واسع أكثر من كتب روزنبرغ بكثير، وكان له تأثيره الكبير على أنصاف المثقفين. لكنه على شاشة التلفزيون كان مرغمًا على التركيز على النقاط الجوهرية، الأمر الذي لم يكن ضروريًا في كتبه. في إطلالته التلفزيونية، كان عليه أن يسقط الإشارة إلى غونيون وايفولا وبارفوليسكو وغيرهم من الكتاب الظلاميين Obscurantists المشابهين. وبخلاف هتلر، لم يكن ديوجين مهيئًا لترؤس حزب جماهيري - كان يقدم مواعظه كـي تساعده في أن يصبح من مفكري النخبة، كما كانت الحال بعد أن عمد العديد من ألمع وأفضل المفكرين إلى مغادرة البلاد. لم يغادر سوى النذر اليسير من المفكرين في مجال الإنسانيات ممن كانوا على دراية بالتيارات الفكرية المعاصرة.

لطالما تعامل ديوجين مع بقية إيديولوجيي اليمين (معظمهم مقدمي برامج تلفزيونية حوارية)، من أمثال ميخائيل ليونتيف وسيرجـي كورجينيان. يقال بأن ميخائيل ليونتيف هو أحد المعلقين المفضلين لبوتين، بينما كان كورجينيان ناشطًا في مجال المسرح قرر الالتحاق بمعسكر بوتين من دون تردد؛ في إحدى المناسبات، أعلن بأن المصابين بلوثة عقلية فقط لن يفعلوا ذلك. بعدها، في أيار/ مايو 2014، وبعد "مقابلة عاطفية " جرى فصل ديوجين مؤقتًا من منصبه في قسم علم الاجتماع في جامعة موسكو الحكومية. انتهز أصدقاؤه من صحيفة زافترا الدورية التابعة لأقصى اليمين هذه الفرصة للاحتجاج على أنه بصفته فيلسوفًا، لم يكن ينبغي له أساسًا أن يكون قد عين في قسم علم الاجتماع. جرت هنالك نقاشات حول أهليته العقلية عمومًا بهذه المناسبة.

لم يكن لدى ديوجين بأي حال من الأحوال أي احتكار في المجال المناوئ للغرب والمناوئ للديمقراطية. بعد تفكك الاتحاد السوفييتي، كانت هنالك حاجة لموسوعة صغيرة تتسع لأسماء كافة الجماعات والناطقين باسمها الناشطين في هذا المجال.

هنالك مكسيم كلاشنيكوف Maxim Kalashinkov على سبيل المثال، (ليس مخترع البندقية الآلية الشهيرة). مولود باسم فلاديمير ألكسندروفيتش كوتشيرينكو Vlaimir Alexanderovich Kucherenko في تركمانستان، نشأ في أوديسا ودرس التاريخ والاقتصاد في موسكو. وهو مؤلف العديد من الكتب منها " سيف الإمبـراطورية المكسـور "The Broken Sword of the Empire، و" إمبراطورية الظلام" The Empire of Darkness، و " المعركة من أجل السماء" The Battle for Skies، و" العرق الدوني" Inferior Race، و " سوبر مان الروسية " Superman Speaks Russian (رجل المستقبل الفوقي المثالي الذي بوسعه أن يسمو فوق الأخلاقيات المسيحية ويفرض أخلاقياته وقيمه الخاصة)، و" هل لدينا مستقبل" Do? We Have a Future التي لاقت رواجًا كبيرًا على صعيد المبيعات. وقد تمت دعوته إلى الكرملين من قبل الرئيس ديمتري مدفيديف لإجراء نقاش حول أفكاره - البعض منها عقلانية، والبعض متطرفة، والبقية تنتمي لعالم الطب النفسي أكثر منه التحليل السياسي.

الصورة العامة التالية تظهر من دراسة هذه الكتب: كـلاشنيكوف يدعى أحيانًا محافظًا (كعضو في معهد المحافظة الديناميكية في موسكو Institute of Dynamic Conservatism)، لكن هذا غير صحيح. إنه معجب بستالين وهتلر كليهما. قبل عشر سنوات، تنبأ بالانهيار الوشيك

للولايات المتحدة والعرق الأبيض عمومًا. واستنادًا لما قاله، فإن لدى روسيا الفرصة لتحقيق عودة عظيمة، لأن انهيارها حدث في وقت مبكر وبوسعها أن تتعلم من تجربتها.

هنالك شرطان أساسيان لتحقيق رؤيته حول رؤيته حول عودة عظيمة لروسيا. لا بد أولًا من إيجاد شخصية روسية جديدة. لأن العقلية الحالية لروسيا عقلية غبية حمقاء ميؤوس منها غير مدركة حتى لمصلحتها الخاصة هي بالذات. إنها عقلية مريضة ولا سبيل إلى شفائها؛ وهي في طريقها للهلاك والتلاشي ما لم يظهر عرقٌ جديد من الروس إلى حيز الوجود. لذلك، لا بد من وجود أمة جديدة، عرق جديد من الرجال الخارقين والنساء الخارقات. عند هذه المرحلة يُدخل كلاشنيكوف إلى الميدان، الذي هو ليس جديدًا تمامًا - مشروع أهنينرب Ahnenerbe النازي الذي كان يهدف إلى خلق عرق جرماني جديد. هو يقول بإن الكثير يمكن تعلمه من التجربة الألمانية في فترة الثلاثينات. لكن الوقت كالسيف، فكيف يمكن إنشاء عرق جديد في غضون سنوات قليلة؟ يبقى هذا السؤال مفتوحًا.

ثانيًا، كل هذا يجب أن ينفذ بسرية، بما فيه العرق الجديد، والاقتصاد الجديد، والاتحاد السوفييتي الجديد، والآ فإن قوى الظلام ستعمل على تخريبه. خلف واجهة الدولة، سيكون هنالك واجهة أخرى، دولة حقيقية، والشيء ذاته سوف ينطبق على كافة المؤسسات الهامة الأخرى، كالجيش والشرطة والاقتصاد وغيرها. من منظور كلاشنيكوف، فإن هذه المؤسسات الموازية ستكون قادرة على إنجاز ما لم تستطع المؤسسات الرسمية إنجازه - من خلال القيام بأفعال واجراءات غير قانونية وغير مقيدة بحقوق الإنسان وغيرها من مثل هذه الاعتبارات. إنها ستكون قادرة على إبعاد الأموال عن أيدي الأوليغاركيين باستخدام طرق ووسائل سايكولوجية وغير سايكولوجية. لن يدرك الأوليغاركيون حتى ما يحدث لهم. السيطرة على القطاع المالي ستكون من جديد في أيدي الدولة. هل ستكون الدولة السرية أكثر نزاهة، وهل سيكون هنالك قدر أقل من الفساد؟ يفترض كلاشنيكوف هذا من المسلمات، ربما لأن الدولة الجديدة ستتألف من أعضاء العرق الجديد من الرجال الخارقين المبرمجين جينيًا ليكونوا ليس فقط أكثر ذكاءً، وإنما أقل فسادًا أيضًا. بهذه الطريقة، ستظهر إلى حيز الوجود روسيا جديدة وآمة جديدة.

في حين أن فكر ألكسندر ديوجين يركز على سمة الجيوبولتيك الخاصة به، فإن تركيز كلاشنيكوف هو على التكنولوجيا المعاصرة، التي بوسعها تحقيق كل شيء تقريبًا. إنه مؤمن بالابتكار والإبداع إلى أقصى حدود الإيمان؛ وكذلك كان بيريا Peria وأدولف هتلر. - في إحدى مقابلاته تحدث عن نفسه بوصفه ستاليني، لكن في مقابلة أخرى جرى الحوار التالي: "لقد نقل عنك الإعلام قولك: "أنا لست شيوعيًا، أنا فاشي "، فكان جوابه: "أنا من أتباع قسطنطين ليونتيف وكنت ممن جذبهم نيتشه. أنا أقدر ستالين عاليًا وأؤمن بأن الكثير من القيم يمكن تعلمها من التجربة الألمانية خـلال فترة الثلاثينات."

في عام 2014 أصبح كلاشنيكوف إلى حد ما أكثر تشاؤمًا. آخر أعماله كان بعنوان: "انهيار نظام بوتين: عتمة في نهاية النفق "The Collapse Of the Putin Regiine: Darkness At The End of the Tunnel إنـه لا يـزال يـمـقـت الأنجلوساكسون ("لطالما كانوا أعداء ألداء للروس: كل تاريخنا يظهر هذا")، معتبرًا إياهم باردين، ومنافقين، وماكرين،

وأذكياء وقساة. لكن الهدف الجوهري من الكتاب هو أن روسيا بوتين لن تتحطم وحسب، ولكن كل شيء في كل مكان سيتناثر إلى شظايا - الاقتصاد والمجتمع والنسيج الاجتماعي برمته.

على غرار ديوجين، يعتبر كلاشنيكوف مفكرًا أصيلًا، على الرغم من أن العديد من أفكاره شاركه فيها أو استلبها منه المفكرون اخرون من الآخرين أقصى اليمين. كان هنالك على سبيل المثال التنبؤ بأن الولايات المتحدة الأمريكية ستتفكك عام 2010. بحسب إيغور بانارين Igor Panarin، أحد محللي الـ كـي جي بـي الذي أصبح مؤخـرًا عميدًا لأكـاديمية وزارة الخـارجية الروسية للدبلوماسيين المبتدئين، فإن ولاية كاليفورنيا ستصبح جزءًا من الصين، وتكساس جزءًا من مكسيكو، وهكذا دواليك. نيكولاي ستاريكوف Nikolai Starikov، مقدم برامج تلفزيونية شعبية متخصص بالأفلام الوثائقية التاريخية، أخجل كافة المؤرخين المحترفين بحله للعديد من الألغاز والأسرار الغامضة للقرن العشرين. على سبيل المثال فقد أثبت ستاريكوف بما لا يدع مجالًا لأي شك بأن ثورتي شباط /فبراير وتشرين الأول /أكتوبر في روسيا وثورة تشرين الثاني / نوفمبر (1918) في ألمانيا كانت مفبركة ومنظمة من قبل الاستخبارات البريطانية، بدعم محتمل من الولايات المتحدة وفرنسا. هدفهم في الحرب العالمية الأولى كان إرغام القوتين على استنزاف بعضهما البعض وبالتالي إشعال فتيل الثورات هناك. عندما جرى حث هتلر، الذي كان بالفعل عميلًا بريطانيًا، من قبل تشرتشل وروزفلت على مهاجمة الاتحاد السوفييتي خلال الحرب العالمية الثانية، كان من حسن الحظ وجود ستالين هناك لإيقافه عند حده.

أخيرًا، خـلال أيام القتال فـي شرق أوكرانيا فـي صيف 2014، اكتشف الإعلام الروسي وخلق بطلًا آخر هو إيغور ستريلكوف Igor Strelkov، رجل المهام الصعبة والمفكر الوطني في آنٍ معًا. مولود باسم إيغور جيركن Igor Girkin في موسكو ويبلغ حاليًا سن الخامسة والأربعين تقريبًا. كان ستريلكوف جنرال احتياط في إدارة المخابرات العسكرية الروسية وقاتل في عدد من الميادين ومن ضمنها يوغسلافيا السابقة، ثم أصبح قائدًا ذا شأنٍ رفيع للثوار في شرق أوكرانيا. وبحسب أحد البيانات المكتوبة بخط يده، فقد كان يطلق على مقاتليه اسم الجيش "الأرثوذكسي،" متباهيًا بخدمة يسوع المسيح، وليس العجل الذهبي. لقد وصف بأنه شخص ورع ومتدين إلى أبعد الحدود. لقد طالب على سبيل المثال بتطبيق حظرٍ على إطلاق الشتائم والسباب على شاشة التلفزيون وفي الحياة العادية. لكنه اتهم أيضًا بقتل آلاف البوسنيين واختفاء العديد من الشيشانيين وإعدام العديد من الأوكرانيين. تعد ظاهرة ستريلكوف هذه ظاهرة مثيرة لعدة أسباب: لقد اتهم بوتين وغيره من كبار شخصيات النخبة بالتراخـي في قراراتهم وتصرفاتهم في أوكرانيا، وتنبأ بأنهم ما لم يعدلوا من أساليبهم، فإنهم سيدمرون روسيا وسيطاح بهم بعيدًا عن السلطة. يبدو بأن هذه التوترات تشير إلى نزاعٍ أعمق بين الدوائر الراديكالية فـي الجيش، سيما الـ GRU، استخبارات الجيش، والسيلوفيكٍ الأكثر حذراً إلى حد ما - وهم من ضباط الـ كي جـي بي السابقون الذين يحكمون روسيا حاليًا.

الأوراسية Euraianism

بحسب بعض المصادر، فإن مصطلح "الأوراسية " استخدم لأول مرة من قبل الموسوعي الألماني والرحالة العالمي ألكسندر فون هامبولت Alexander von Humboldt في أوائل القرن

التاسع عشر. وهي (إلى جانب الجيوبوليتيكا) تعد أهم مكون من مكونات العقيدة الروسية الجديدة على الإطلاق. يمكن تعقب أصولها إلى أزمنة موغلة في القدم، لكن نسختها المحدثة - تحديدًا، الأوراسية الجديدة - مختلفة تمامًا فـي طبيعتها وشخصيتها. المؤيدون المعاصرون للأوراسية يفضلون تفسير نيكولاي دانيلفسكي في كتابه الكلاسيكي "أوروبا وروسيا Europe and Russia، الذي يسلط الضوء على فكرة أنه لا يوجد هنالك ثقافة إنسانية عالمية شاملة، ولا قيم مشتركة، وأن هنالك هوة سحيقة بين العالم الأوروبي والسلافي بشكلٍ خاص. كان لدانيلفسكي تأثير لا يستهان به على قسطنطين ليونتييف وآخرين. لكنه ذو فائدة محدودة للأوراسية الجديدة لأن أتباعها مهتمون غاية الاهتمام بأمريكا، ويريدون ألمانيا شريكًا، ويتخيلون مستقبل أوراسيا ممتدًا من دبلن إلى فلاديفوستوك. كان لهذا أن يدب الذعر فـي قلب دانيلفسكي. كان الأوراسيون الأول مهتمين باك " الأوْرَبَة Europeanization"؛ أما أوراسيو اليوم فيخشون الأمركة Americaniztion.

ظهرت الأوراسية أساسًا فـي أوساط المغتربين الروس فـي أوائل فترة العشرينات " وأول بيان عقائدي رئيسي لها كان عام 1921، وهو عبارة عن مجموعة من المقالات بعنوان "الهجرة الجماعية إلى الشرق " Exodus to the East، والتي تكرر مفهوم الهوة التي لا سبيل إلى جسرها بين روسيا والغرب وحتى العداء المر بينهما. ولكن لا شيء هناك حول أمريكا والأطلسية Athlanticism أو حول الليبرالية والديمقراطية، وهي المواضيع ذات الأهمية القصوى بالنسبة لأوراسيي اليوم الجدد.

إن أفضل تلخيص لأهدافها يمكن إيجاده فـي مقالة بقلم كاسبر ماير Casper Meyer بعنوان "روستوتزيف والأصول الكلاسيكية للأوراسية،" المنشورة عام 2009 في مجلة متخصصة بالتاريخ القديم وعلم الآثار:

> لقد وضع برنامجـهم تصورًا للنظام البلشفي بأنه نظام مؤقت، لكنه بمثابة المحفز الضروري الذي يمهد الطريق للدولة الأوراسية الإيديوقراطية الشاملة. لقد حتم الاتساع الإيكولوجـي الشاسع لأوراسيا على سكانها المتناثرين هنا وهناك أن يجتمعوا تحت راية سلطة مركزية واحدة ويسعون على مراحل لاستعادة إمبراطورية سهبية مغرقة في القدم بأشكال تاريخية متغيرة. كانت الإمبراطوريةالروسية وريثًا طبيعيًا لإمبراطورية جنكيز خان المغولية وانتهجت، على غرار سلفها، سياسة العداء مع الغرب "الجرماني الروماني" Romano Germanic. ستكون روسيا ما بعد البلشفية تجسيدًا نهائيًا "للقدر الجيوبوليتيكي " الأوراسي وسيتوجب أن تكون قيادتها موضع ثقة من قبل أولئك الذين أعادوا تنظيم جوهر البلاد ودورها المكلل بالعناية الإلهية.

كانت فترة العشرينات بمثابة العصر الذهبي للأوراسية؛ وبعد عام 1929، تصدعت الحركة وتداعت. واستمر العديد من الناس بالاعتقاد بأن روسيا كانت بلدًا وثقافة فريدة من نوعها، لكنها كانت أقل حماسة بشأن الأصول والمؤثرات الآسيوية الصافية. بعض الأوراسيين، سيما الشباب منهم، تحولوا إلى مؤيدين للسوفييت وحتى مؤيدين للشيوعية، لأسباب عاطفية وجدانية أكثر منها إيديولوجية. البعض منهم تحول حتى إلى عملاء سوفييت ذوي شأن في أوروبا الشرقية أو تعاونوا مع جهاز NKVD/ KGB الذي لم ينقذهم من الإعدام أو معسكرات الأعمال الشاقة بعد عودتهم إلى الاتحاد السوفييتي. ولعل قصة سيرجـي إيفرون، غير المعروفة بتفاصيلها حتى اليوم، تعد من اكثر القصص حزنًا ومآساوية. سرجـي هذا ضابط شاب فـي الجيش الأبيض (من أصل يهودي)، كان قد التقى بمارينا تزسفيتايفا Marina Tsveteava، الشاعرة الروسية العظيمة، فـي أرض

مكسيميليان فولوشين في القرم ووقع في حبها. بعدها تزوجا. ساعد إيفرون الاستخبارات الروسية في خطف جنرال روسي أبيض في باريس. كان عليه أن يفر إلى الاتحاد السوفييتي لكنه اعتقل هناك وأعدم بعد أن شهد أحد أفراد عائلته (تحت التعذيب) بأن إيفرون كان جاسوسًا تروتسكيًا. عمدت تزسفيتايفا إلى الانتحار بعدها مباشرة.

الأمير ميرسكي Mirsky (ديمتري بيتروفيتش سفاياتوبولوك ميرسكي)، الذي كان في منفاه في المملكة المتحدة اختفى أيضًا حال عودته إلى روسيا؛ لا يزال تاريخ وظروف موته (ربما عام 1939) غير معروفة. المؤرخ البريطانـي المعروف كار E.H.Carr قد يكون متورطًا بسذاجة بنهايته الحزينة. بصفته متعاطفًا مع الاتحاد السوفييتي رغم كونه ناقدًا للماركسية، التقى كار ميرسكي في أحد شوارع موسكو، وفي غمرة سروره بلقاء صديق قديم من أيام لندن، اقترب منه وحـاول أن يتجاذب معه أطراف الحديث. تظاهر ميرسكي بأنه لم يسبق له أن التقى كار من قبل، لكن من الواضح أن محاولته باءت بالفشل. ورد ذكر هذه القصة هنا لإظهار السذاجة السياسية الهائلة للأوراسيين. في وقت سابق، جرى اعتقال بعضهم بمناورة من قبل أجهزة الاستخبارات السوفييتية، استدرجوا من خـلالها للقاء بعض أعضـاء "المعارضة " داخل الاتحاد السوفييتي والذين كانوا في الحقيقة عملاء للأجهزة.

في نهاية المطاف غادرت الشخصيات الكبيرة في صفوف الأوراسيين الأول إلى الولايات المتحدة وأصبحوا أساتذة في كبرى جامعاتها. توفي تروبتسكوي Truetskoy في عمر مبكر في فيينا مباشرة بعد اتحاد الأنشلوس Anschuluss - وهو اتحاد سياسي عمل على توحيد ألمانيا النازية والنمسا عام 1938. وقبيل وفاته بفترة وجيزة، كان قد نشر كتابًا يشجب فيه سياسات التمييز العنصري والشوفينية (Pseudo Nationalism)، وهو شبيه في نظرته لمقالته في البيان الأساسي للأوراسيين قبل خمسة عشر عامًا التي يشجب فيها الشوفينية. وقد تسبب ذلك في اعتقاله لفترة وجيزة من قبل الغستابو.

لماذا أوراسيا؟ لا يوجد جواب واضح على هذا السؤال باستثناء أن بعض الروس كانوا منزعجين لأن الأوروبيين كانوا قد رفضوا تقبلهم كنظراء وربما لكون كافة جوانب الثقافة الأوروبية لم ترق لهم - إن كان هنالك مثل هذا الشيء في المقام الأول. إذا كان الأوراسيون قد تذرعوا بأن روسيا كانت بمثابة قوة ثالثة مختلفة عن أوروبا وآسيا كلتيهما، فلعل ذلك شكل نقطة البداية لنقاش مثير. أي شيء أكثر جموحًا كان له أن يطيح بهم بعيدًا عن الحقيقة التاريخية. إن أصول روسيا لم تكن فـي آسيا، وإنما فـي أوروبا. كانت الأوراسية النسخة الروسية المحدثة والمعدلة للإمبريالية في بلدان أخرى - نسخة عن "الإمبريالية البناءة " للورد ميلنر Lord Milner، نسخة عن مفهوم جوليس فيري Jules Milner القائل بأن على الأعراق الأسمى أن تتولى رعاية الأعراق الأدنى الأقل حظًا في الحياة، ونسخة عن نظيرتها الجرمانية خلال فترة التسعينات من القرن التاسع عشر. بعد مئة عام، لم تكن مثل هذه المقولات الجدلية مناسبة، لكن كان لا يزال صحيحًا أن الهدف من التوسع لم يكن إيثاريًا. لقد كان وراء ذلك التوسع رغبة باسترجاع رسالة روسيا القومية ومكانتها كقوة يحسب لها حساب، وفي ضوء الظروف المعاصرة لا يمكن تحقيق ذلك إلا من خلال شكل من أشكال التحالف الذي تشرف وتسيطر عليه روسيا. كان هذا يعني، من جملة ما يعني، تحسين وتلميع صورة جنكيز خان وباتو خان، والغولدن هورد

Golden Horde - الجيش المغولي الذي اجتاح أوروبا الشرقية في القرن الثالث عشر، وبقية الخانات الآخرين.

كان الغزو الآسيوي لروسيا قد بدأ في القرن السادس عشر. توجه القوزاق إلى ما وراء جبال الأورال لاستكشاف أحوال الصيد ونصب الشراك للحيوانات. كان إيفان غروزني (الرهيب) هو من أرسلهم، والحملة التي كانت بقيادة جرمق تيموفيفيتش Yermak Timofeevich كان قد جرى تنظيمها وتمويلها من قبل أسرة أحد التجار الأثرياء، آل ستروغانوف. لا نعرف سوى القليل عن هذه الحملة. كل ما نعرفه عنها مستند إلى حوليات متنوعة تعود لعقود عديدة أعقبت الحدث وقد لا تكون صحيحة. ففي حال كانت التقارير صحيحة، وفي حال كان قوام جيش تيموفيفيتش الصغير 840 رجلًا، وفي حال أنهم كانوا جميعًا يتقدمون سيرًا على الأقدام والنذر اليسير منهم كان مسلحًا ببعض البنادق، فلا شك بأنها كانت مغامرة جسورة في ضوء المسافات الشاسعة التي جرى قطعها - في غضون سنوات قليلة كانوا قد وصلوا إلى ما ندعوه اليوم "مضيق أو بحر بيرنغ ". فايتوس بيرنغ هو ضابط من الدنمارك يخدم في الجيش الروسي، قاد عددًا من الحملات خلال أربعينات القرن الثامن عشر وكان أول من استكشف كامتشاتكا Kamchatka تقريبًا بصورة جدية).

عدد لا يكاد يذكر من الروس كانوا يذهبون إلى سيبيريا في تلك السنوات ولوقت طويل بعد ذلك، باستثناء المجرمين والمساجين السياسيين، الذين لم يكونوا يذهبون إلى هناك بملء إرادتهم. لم تتأسس المدن الكبيرة وراء الأورال إلا في القرن التاسع عشر (فلاديفوستوك عام 1860)؛ خاباروفسك (خاباروفسكا آنذاك) تأسست كقاعدة عسكرية متقدمة، كما كانت فلاديفوستوك، قاعدة بحرية. باختصار، لقد بدأ استيطان سيبيريا والشرق الأقصى الروسي قبل وقت ليس ببعيد، وكان جزءًا من التوسع الإمبريالي العام خلال القرن التاسع عشر.

بالنظر إليه في هذا السياق نجد بأن التوسع الاستعماري الروسي باتجاه الشرق لم يكن أفضل أو أسوأ من توسع القوى الإمبريالية الأخرى. ربما كان يمكن تبريره لأن الروس جلبوا معهم التقدم إلى هذه الأجزاء من آسيا - ماركس، سوف نستحضر سيرته، استحديث هذه المقولة الجدلية بخصوص السمة التقدمية للحكم البريطاني في الهند. لكن نوعية الجدليات التي كانت مقبولة في القرن التاسع عشر لا مكان لها على الإطلاق في عصرنا هذا.

بحسب الأسطورة، فإن القبائل التي كانت تعيش في روسيا كانت قد استدعت روريك Rurik - وهو محارب اسكندنافي توفي عام 879 ميلادي ومؤسس السلالة التي حكمت روسيا حتى 1598 - والفرنجة Varangians ليأتوا ويحكمونهم، كبديل للفوضى (يعرف هذا في التاريخ الروسي بالـ بريزفاني فارياغوف Prizanie varyagov)، لكن حتى الأسطورة لا تخبرنا إذا كان قد تم استدعاء الروس إلى سيبيريا. على خلفية هذه الأحداث، يبدو أن الانبهار بالشرق كان متعلقًا بأنماط ثقافية معينة في أوساط النخبة الروسية المثقفة لم تعمر طويلًا، لكن هذا أيضًا جاء عن طريق أوروبا. كانت الإمبراطورة كاثرين العظمى Catherine the Great متحمسة للشرق؛ عرفت الكثير عن آسيا عندما زارت القرم. لم تكن هذه الأنماط الثقافية التي ابتدأت في القرن الثامن عشر مقتصرة على روسيا. لقد كانت سائدة بالمستوى ذاته في أوروبا الغربية - على شكل اهتمام بالفن الياباني (الرسامان البارزان نيقولاي وسفيتوسلاف ذهبا إلى الهند وأصبحا هنودًا). كان ذلك أيضًا الوقت الذي بدأت فيه دراسة الشرق تشق طريقها إلى حيز الوجود -

مدارس روزن Rosen، بارتولد Bartold، وأولدنبرغ Oldenburg وغيرهم - النذر اليسير منهم من أصل مغولي.

الموجة الثانية من الاهتمام والانشغال بآسيا حدثت خـلال "العصر الفضي " للشعراء الرمزيين حوالي نهاية القرن العشرين، جيل ألكسندر بلوك Alexander Blok وأندريه بايلي Anderi Byely. لكنهم لم يكونوا أسرى إعجاب أو حب أعمى، فقد كانوا متوجسين من نهاية أسيوية مأساوية مدمرة. كان الرمزيون متأثرين بفلاديمير سولوفيوف Vladimir Solovyov، الذي سبق أن كتب عن خطر القومية المغولية ورأى بأنه كان لدى الشرق المعاصر الكثير الكثير ليفعله حيال كِسرى العظيم Xerxes the Great أكثر منه حيال السيد المسيح. لقد اتفقوا حول ما كتبه تينيسون Tennyson حينها:

خمسون عاماً في أوروبا خير من عصر بحاله في شمال الصين

لم يشك أحد في أن روسيا كانت في وقت من الأوقات عرضة للمؤثرات الآسيوية؛ مثال على ذلك أن كلمة نقود (dengy) كانت ذات أصل تتاري. الكلمة الألمانية لـ مترجـم (Dolmetsch) تـأتـي من أصل تتاري، ولكن ما هـي الاستنتاجات البعيدة المنال التي ينبغي على المرء استخلاصها من كل هذا؟

كتب نيقولاي كارامزين Nikolai Karamzin في موضع ما أن أمراء وملوك سلالة خـان بطريقة أو بأخرى أنشأوا روسيا العظمى وكذلك مفهوم الحكم الاستبدادي autocracy (ولعل اسم كارامزين بالذات هو اسم ذو أصول آسيوية). لكن كل هذا كان قد حدث قبل زمان بعيد، وفيما يتعلق بالثقافة الروسية، ماذا كان تأثير الغولدن هورد على العصر الذهبي للثقافة الروسية في القرن التاسع عشر؟ آلاف المفكرين والفنانين الروس ذهبوا إلى أوروبا، ولكن من ذهب إلى آسيا؟

لم تكن لغة المفكرين اللغة المغولية أو التتارية، ولم تكن حتى الروسية. المشاهد الكبرى في الأدب الروسي كتبت بالفرنسية. افتتاحية الحرب والسلام وعدد من الصفحات بعد المقدمة كانت بالفرنسية. نشأ تايوتشيف Tyutchev في بيت كان الخدم فيه فقط يتحدثون بالروسية، وفي مرحلة تالية من حياته، أيضًا، كانت لغته الفرنسية الشفوية أفضل من لغته الروسية. أمضى إيفان تورجينيف Ivan Turgenev جل حياته الراشدة في فرنسا.

لكن الملحنين والمؤلفين الموسيقيين الروس كانوا يريدون أن يكونوا متميزين عن الغرب.

عندما أراد الخمسة العظام: ميلي بالاكيريف Mily Balakirev، وألكسندر لاورودين Alexander Borodin، وسيزار كوي Cesar Cui، وموديست موسورجسكي Modest Mussorgsky، ونيقولاي ريمسكي كورساكوف Nikolai Rismsky Korsaakov، العثور على هوية روسية أصيلة، شرعوا ينهلون بقوة من الأفكار والمواضيع الشرقية (أو ما كانوا يعتقدون بأنها ألحان شرقية أصيلة) التي أنتجت " شهرزاد " Scheherazade و"إسلاميات " Islamiyet و " عنترة " Anter (المعدة استنادًا إلى خلفية تمثل بالجزيرة العربية).

كان للاستشراق والاهتمام بالشرق أيضًا علاقة بأهداف السياسة الخارجية الروسية المعاصرة. فكما اكتشف بافيل ميليوكوف Pavel Milyukov، الليبرالي، أهمية بيزنطة بالنسبة لروسيا،

كذلك فإن الأوراسيين، كونهم شهدوا فشل التجارب السياسية الغربية في بلادهم (وهزيمة ثورة 1905)، فقد وجهوا أنظارهم شرقًا. ومثلما كان هنالك نمط ثقافي ياباني سائد في فرنسا قبل مئتي عام، كان هنالك نمط هندي سائد في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى - بدأ كل شخص على حين غرة يقرأ رابندرانات طاغور Rabindranath Tagore، والكتّاب الرواد أمثال هيرمان هيسه Hermann Hessa كانوا مهتمين ومنشغلين بالأفكار والمواضيع الهندية مثل السيدهارتا Siddhartha. كان للهند عودة ثانية إلى الثقافة الغربية في زمن الثورة الطلابية خلال فترتي الستينات والسبعينات. في روسيا ولاحقا في المهجر الروسي، كان هذا النمط من التأثر سياسيًا كثر منه ثقافي.

لكن ذلك الانبهار السياسي كان بمعظمه انبهارًا بشرق خيالي (وآسيا خيالية) إلى حد بعيد. حتى أكثر الأوراسيين حماسة لم يسبق له زيارة آسيا قط، ناهيك عن اتخاذها مكان إقامة أو استقرار. لم يقوموا بدراسة الصينية أو الأوردو، ناهيك عن العربية، والانغماس في حضارة هذه البلاد وثقافتها. بالنسبة للأوراسيين، كانت الأرض السهبية ذات أهمية قصوى، ولكن كم منهم قصد سهوب أو مروج أو براري روسيا الواقعة خلف الأورال في حياته، ولو لفترة وجيزة؟

بالنسبة لمعظمهم، فإن تلك السهوب والمروج والبراري لم تكن أكثر من عالم ميتافيزيقي خيالي لا يمت للواقع بصلة. لا ينبغي للمرء أبدًا أن يقلل من أهمية الميثولوجيا في السياسة والتاريخ، ولكن بما أن الأوراسية قد أصبحت قوة سياسية - ويمكن لها حتى أن تكون أكثر أهمية بكثير في المستقبل - من الضروري من وقت لآخر تذكر أصول تلك الحركة في عالم من الفانتازيا.

ظهرت الأوراسية الجديدة، الحركة التي يرأسها ألكسندر ديوجين وبعض المنظرين الإيديولوجيين المشابهين له في العقلية، إلى حيز الوجود في روسيا خلال التسعينات وهي الآن حركة سياسية، وليست فقط اتجاهًا ثقافيًا. لكن ديوجين أيضًا كان قد استمد وحيه والهامه الأصيل من الفاشية الجديدة في فرنسا وبلجيكا وإيطاليا، وليس في مروج ترانسبايكال Tranabaikal الخضراء. هنالك قومية طورانية Pan - Turanism في تركيا وجماعات مشابهة في بعض بلدان آسيا الوسطى، لكنها لا تشكل حركة عالمية - فالتباينات بين هذه الفروع المتنوعة في المصالح والبرامج هي تباينات كبيرة جدًا.

قامت الموجة الأولى من الأوراسيين في العشرينات بتطوير أفكارهم نتيجة إحباطهم وخيبة أملهم من أوروبا. كانوا ينتمون إلى الحزب الذي سبق أن هُزم في الحرب الأهلية، وكانوا يبحثون عن سبيل إيديولوجـي للخروج من المأزق الذي وجدوا أنفسهم واقعين فيه. لم يكن في الحسبان أنهم سيتخلون عن روسيا. ولكن كيف سيجدون قاسمًا مشتركًا بين مستقبل روسيا ومستقبلهم هم بالذات؟

فيما يتعلق بالحكومة الروسية الحالية وأولئك الذين يدعمونها، يمكن القول بقدر بسيط من المبالغة "بأننا جميعًا أوراسيون الآن." وينبغي أن يكون لهذا الأمر من إحدى نواحيه علاقة بكرههم لأوروبا ونفورهم منها، لكنه أيضاً انعكاس للشعبية الهائلة لأفكار ليف غوميليف.

كان غوميليف، نجل الأديبة الكبيرة آنا آخاماتوفا Anna Akhamatova وشاعر آخر قتله البلاشفة عام 1921، بمثابة سبنغلر Spengler روسيا (أوزوالد سبنغلر (1880 - 1936) قال بأن الحضارات والثقافات خاضعة لدورة النمو ذاتها كما البشر) وله جمهور واسع من القراء.

حاول غوميليف في العديد من كتبه ومقالاته إثبات الأصول الآسيوية والبدوية لبلده الأصلي. بالنسبة لأوزوالد سبنغلر الألمانـي، فإن المستقبل هو للشعوب الشابة كالألمان والروس " أما بالنسبة لغوميليف، فقد كان المغول هم الشعب الشاب. لقد أفضت الأفكار المتطرفة لغوموليف إلى الزج به في السجون ومعسكرات الأشغال الشاقة أكثر من مرة. كانت أفكاره في بعض الأحيان تتسم بقدر من الإثارة والأصالة البالغة، وفي أحيان أخرى كانت تبدو غريبة ومخطئة بشكل واضح. كان يدعي بأنه ينتهج السبيل العلمي في تحليلاته. ولكن عندما أعلن في إحدى مقابلاته قائلًا: "سأبوح لكم بسر - روسيا لن تكون إلا قوة أوراسية "، لم يكن هذا التصريح الذي تعذر إثباته أو نفيه يمت للعلمية بصلة.

عمد غوميليف إلى استعداء الكنيسة الأورثوذكسية بهذا النهج الآسيوي وأبعد عنه غلاة القوميين (لأن آراءه أفسدت وشوهت نضالات أنصار ومؤيدي الوحدة السلافية Pan - Slavism)، الذين أطلقوا عليه اسم الكاره لروسيا. وقد أزعج أيضًا اليهود بتعليقاته على التاريخ اليهودي في العصور الوسطى، وهو موضوع والحق يقال لم يكن يمت بصلة لمجالات خبراته وتحليلاته. لكن الاستقبال والترحيب الذي لقيه في كازاخستان وفي أوساط الروس الآخرين من غير الإثنيين كان منقطع النظير. فقد أطلق اسمه على إحدى الجامعات وأقيم له نصب تذكاري فـي قازان Kazan، كما أن صوره باتت تظهر على أحد طوابع البريد الصادرة عن مصلحة البريد الكازاخستانية.

ظهرت الأوراسية الجديدة إلى حيز الوجود في أعقاب انهيار الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفييتي. نحن نشهد الآن تكرارًا مثيرًا لما حدث في عشرينات القرن الماضي: حوالي نهاية ذلك العقد جرى إقصاء ذلك الجيل من مؤسسي الأوراسية عن آخرهم من مناصبهم القيادية، والتي آلت إلى أيدي مقاتلين أصغر سنًا من المؤيدين للسوفييت. عادة ما كانوا يوصفون بـ"الجناح اليساري " لكنهم كانوا في الحقيقة من مؤيدي روسيا أكثر منهم ماركسيون، ناهيك عن كونهم شيوعيين. كان هدفهم يتمثل بإيجاد منصة أو قاعدة مشتركة للضباط الشباب الذين سبق أن حاربوا فـي صفوف الجيوش البيضاء خلال الحرب الأهلية - والاتحاد السوفييتي. كانوا يؤمنون بأنهم هم من أرسى القواعد المتينة لمثل هذا الصرح من الوطنية والقومية، والذي كان عليه أن يدَّثر بدثار أوراسي. لم تبتعد فرضياتهم كثيرًا عن الخط المرسوم والهدف المحدد، لأن النزعة أو الاتجاه السائد في روسيا كان بعيدًا عن الأممية باتجاه القومية. لكنهم لم يكونوا يحبذون عامل الوقت - فقد كان يستغرق منهم أكثر مما يتوقعون، وعدد قليل جدًا منهم كان سيعيش ليشهد تحقق أحلامه. لم يكونوا الجماعة الاغترابية الوحيدة التي تتعرف إلى هذا الاتجاه السائد بالشكل الصحيح. هنالك جماعات آخرى نحت هذا المنحى، من أمثال جماعة سمينافيخ أوستريالوف Ustryalov's Smenavekh وجماعة الشباب الروس Young Russians التابعة لألكسندر ليفوفيتش كازمبيك Alexander Lvovich Kazembek التي كانت تنحى باتجاه الفاشية. لقد واجه أولئك الذين ارتكبوا خطأ العودة إلى روسيا قبل الأوان مصيرًا أسود. أما أولئك الذين تريثوا قليلًا، حتى فترة الستينات، فعلى الأقل لم يرسَلوا إلى معسكرات الأشغال الشاقة. (عاد كازمبيك إلى روسيا في الستينات وحصل على وظيفة متواضعة - عمل لدى بطريركية موسكو). بنهاية فترة العشرينات، كانت الحركة الأوراسية قد خرجت من حيز الوجود. كان الشيوعيون قد استولوا على مجلتهم، ولكن بعد فترة لم يعودوا يحققون من ورائهم أية فائدة.

يتلخص وجه الشبه الحالي مع أول موجة من الأوراسيين بالتالي. بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، كان الوطنيون بحاجة إلى عقيدة جديدة. بحسب ما كتب أحد مفكري اليمين الروسي في صحيفة زافترا الأسبوعية، لسان حال هذه الأوساط: نخبة من دون إيديولوجيا هي نخبة تشكل خطرًا. وصحيحٌ أن الحركة السياسية التي تحترم نفسها تحتاج إلى إيديولوجيا: المصالح وحدها لا تكفي. ما الذي حصل بعد روسيا الشيوعية؟ كان ديوجين قد جرب الفاشية في بداية حياته، لكنها لم تكن فكرة صائبة إلى ذلك الحد، رغم الثوب البراق الذي ألقي عليها، كما أن نهج "المحافظة "، حسبما أظهرت تجارب البلدان الأخرى، لم يكن كافيًا - كان يفتقد إلى الإثارة، لدرجة أنه كان نهجًا سقيمًا ومضجرًا. نظر ديوجين إلى تجارب اليمين الأوروبي الجديد المناوئة للديمقراطية والمناوئة لليبرالية. كان لديهم بعض الأفكار، لكن أيًا منها لم يكن ناجحًا. لم يكتب لأي من هذه الجماعات النجاح في أن تصبح حركة جماهيرية أو على الأقل تكسب موقعًا ذا نفوذ حقيقي.

جرى في هذه المرحلة إعادة اكتشاف الأوراسية من جديد كبند إيديولوجي ملائم على نحو متميز على جدول الأعمال. كانت بندًا وطنيًا/استبداديًا، بندًا قوميًا مناوئًا للديمقراطية ؛ وكانت قبل كل شيء بندًا مناسبًا لاستخدامه من قبل قوةٍ تصحيحية أو تعديلية تحاول استعادة الأراضي والأقاليم التي كانت قد فقدت. كان بندًا مناوئًا للرأسمالية - أي ضد الأوليغاركيين - ولكن ليس إلى هذا الحد. كانت بندًا مبهمًا بما يكفي لاستيعاب الناس والجماعات ذات الرؤى المختلفة في السياسة والعالم. على حين غرة اكتشف كل شخص الأوراسية - حزب الشيوعية القديم - الجديد، فلاديمير زيرينوفسكي وحتى بوتين، الذي قال أيضًا بأنه كان أوراسيًا. لكن ديوجين كان سباقًا في هذا المجال. لعل الأوراسية لم تكن كافية وكان لا بد من اقتباس بعض الأفكار والقيم من الفاشية ومن مبادئ حزب الشعب الأمريكي. لكن هذا كان يمكن إنجازه دون المضي بعيدًا في هذا الاتجاه - برغم كل شيء، لم تكن هناك أي عقيدة منظمة متماسكة للقائد، ولا حزب حكومي. الأوراسية في هذا السياق لم تكن عديمة المغزى بالكامل، لكن كان يمكن تفسيرها دائمًا بطرق شتى. الأسماء والمصطلحات لم تكن تعني شيئًا كثيرًا - والحزب النازي من البداية إلى النهاية كان عبارة عن حزب العمال القوميين الاشتراكيين الألمان (NSDAP)، على الرغم من أن العمال كانوا ممثّلين بشكل ضعيف بالمقارنة مع الطبقات الأخرى. ولكن ماذا كان يهم ذلك؟

لا نقصد بذلك الإيحاء بأن فكرة أو مفهوم "أوراسيا" كانت فكرة مخادعة. لا شك بأن البعض كان يؤمن بصدق بهذا النوع من الميثولوجيا؛ والبقية كانوا يحبونها كونها تقبل العديد من التفسيرات بطرقٍ عديدة مختلفة. لقد فتحت الطريق لتحالفات وقوى أخرى في أوروبا. كان للـ "القوى المحافظة" و"الفاشيون الجدد" عيوبهم. كانت "الأوراسية " أكثر حيادية بكثير وكان لها قلةً من الأتباع ؛ كان بوسع الأوراسية اجتذاب كل شخص. خلال فترة العشرينات عملت الأوراسية بمثابة جسر لتقبل الاتحاد السوفييتي من دون الإيمان بالماركسية - اللينينة كضرورة حتمية. في الوقت الحاضر يمكن لها أن تؤدي خدماتها بطريقة مشابهة، عن طريق تقبلها لسياسة الحكومة الحالية، محافظة كانت أم مغالية في محافظتها. فيما يتعلق بالسياسة الخارجية لروسيا الجديدة، فإن تقديم روسيا كقوة أوراسية يمكن أن يمهد الطريق لعلاقات أكثر متانة مع الشعب التركي وربما أيضًا مع الشرق الأقصى. ستكون روسيا في هذه الحال واحدة من عدة قوى ضمن إئتلافٍ عظيم مستند إلى تعاونٍ اقتصادي وسياسي وثيق.

تتجلى في هذه المرحلة مصاعب مثل هذه الاستراتيجية وتغدو واضحة للعيان. وسيغدو ائتلاف من هذا النوع ائتلافًا ذا معنى من وجهة نظرٍ روسية فقط إذا ما لعبت روسيا الدور الرئيسي فيه. لأن هذه هي رسالتها التاريخية: أن تحتل روسيا المرتبة الثانية إلى جانب مجموعة تركية من الدول أو كتابع للصين، هو أمر ليس في الحسبان. ولكن لماذا ليس ائتلافًا من النظراء؟ لأن الاختلافات في وجهات النظر والمصالح هي اختلافات عظيمة وديناميكية السياسة العالمية لا تلتزم بقوانين المساواة. بالنظر إلى الحجم السكاني والقوة الاقتصادية كليهما، نجد بأن روسيا ليست في موقع قوي مقارنة مع أعضاء الائتلاف الأوراسي المحتملين. إنها لا تتمتع حتى بأي احتكار على صعيد امتلاك الأسلحة النووية.

قد يكون الأمر مختلفًا لو كان هناك خطر جدي، عدو مشترك، ولطالما بذل الأوراسيون الجدد قصارى جهدهم لتقديم أمريكا والغرب عمومًا كعدو. لكن أوروبا باتت تضعف أكثر فكثر، والسياسة الخارجية الأمريكية باتت تنحى نحو الانسحاب من ميدان السياسة العالمية ومن الأطلسي إلى الباسيفك، والأوراسيون الجدد سيجدون أنفسهم في حاجة ماسة لعدو، وسيجدون صعوبة بالغة في إيجاد مثل هذا العدو.

ما الذي تبقى من الإمبراطورية المغولية كمثال ؟ موقفها تجاه الدين، ربما؟ لن تكون الكنيسة الأورذوكسية سعيدة على الإطلاق. أم أن الاعتقاد بأن تاريخ قبائل البدو الرحل هو تمثيليًا يتجه نحو مستقبل توحيد مصائر الشعوب والأمم؟ ستكون أوروبا في حالة يرثى لها، ولكن من أي منظورٍ نظرنا، فمن غير الواضح ما الذي على الماضي الأوراسي أن يقدمه لروسيا في القرن الحادي والعشرين.

في ضوء الانبهار الروسي الحالي، الرسمي وغير الرسمي، بالأوراسية وآسيا، وقبل كل شيء بسيبيريا، ينبغي للمرء أن يكون قد توقع بذل جهودٍ عظيمة من جانب الكرملين لتعزيز علاقاته في آسيا. في عام 2014، عين بوتين أحد الجنرالات كممثلٍ خاص له للتعامل مع احتياجات مناطق وآقاليم ما وراء الأورال وتطويرها. ولكن على العموم كان هنالك انطباع بأنهم كانوا قد هُمشوا وأهملوا، ما أفضى إلى استياءٍ واسع النطاق وحتى شكلٍ من أشكال الانفصالية السيبيرية. اندلعت هنالك تظاهرات مناوئة للكرملين في أماكن مثل نوفوسيبيرسك Novosibirsk، وكان هنالك قناعة راسخة في موسكو بوجوب القيام بإجراء عاجل. هكذا وعلى حين غرة فتحت جبهة جديدة ووجد الكرملين نفسه بمواجهة مشكلات جديدة لم تكن في حسبانه على الإطلاق.

الجيوبوليتيكا الروسية

كان مصطلح "جيوبوليتيك " الذي جرى صياغته في أو حوالي العام 1898 من قبل الجغرافي السويدي رودولف جيلين "Rudolf Kjellen بالأساس مرادفًا للجغرافيا السياسية، مع بعض الأفكار الإضافية المقتبسة من الفلسفة السياسية. كان مختلفًا عن الجوانب الأخرى للجغرافيا، كالجغرافيا الطبيعية. مع ذلك، وفي غضون فترة قصيرة اكتسب المصطلح دلالات محددة تختلف اختلافًا كبيرًا بين بلد وآخر وبحسب النظرة السياسية لأولئك الذين يستخدمونه. كان جيلن، عضو البرلمان السويدي، ناشطًا في مجال السياسة. كان مؤيدًا لألمانيا، وأهم عمل من أعماله كتب بالألمانية. كانت الفكرة العامة للجيوبوليتيك فكرة ضبابية غير مؤكدة بعد. فريدريك راتزل

Friedrich Ratzel، بروفسور ألمانـي، مؤسس مشارك للمدرسة الجـديدة؛ وقد ظهر عمله " الجغرافيا السياسية Politische Geographie" عام 1897. ألفريد ماهان Alfred Mahan، أدميرال فـي البحرية الأمريكية، كان أحد الكتاب الأوائل الآخرين الذين كتبوا عن هذا الموضوع؛ نشر أول أعماله "تأثير القوة البحرية على التاريخ Influence of Sea Power Upon History" عام 1890. كتاب هالفورد ماكندر Halford Mackinder بعنوان " البحار البريطانية British Seas" ظهر عام 9021. وكارل هوشوفر Karl Hushofer، أشهر مفسري المدرسة الألمانية، كان حينها ضابطًا في هيئة الأركان العامة البافارية. ظهرت أعماله في مرحلة لاحقة نوعًا ما، لكن أفكاره جرى صياغتها في الوقت ذاته تقريبًا أو بعده بقليل

وصلت الجيوبوليتيك إلى روسيا في وقتٍ متأخر؛ في روسيا القيصرية، لم يكن هناك اهتمام كبير بالموضوع، وفي ظل الشيوعية اصطدمت مع الماركسية اللينينة. كانت الماركسية معنية بالاقتصاد أكثر منه بالجغرافيا. الجيوبوليتيك هي مصطلح غالبًا يستخدم بلا تمييز "ويساء استخدامه " ولذلك فقد أفسح في المجال أمام ظهور العديد من الأفكار والمفاهيم المغلوطة. من بعض النواحـي كان يصرّح بوضوح بأن الجغرافيا كان لها تأثير على السياسة. اليوم، سيما في الولايات المتحدة، غالبًا ما يستخدم مرادفًا لكلمة "جغرافيا" (الجغرافيا هي مادة لا تدرس عادة في المدارس الأمريكية، وتدرس فقط بشكلٍ نسبي في عدد لا يكاد يذكر من الجامعات). لهذا السبب، ينبغي توخـي الحذر عندما تستخدم كلمة "جيوبوليتيك " في الحديث العام أو الكتابة. في أغلب الأحيان، هي لا تعني شيئًا، فهي ببساطة مجرد مصطلح عصري.

غالبًا ما كان تأثير تعاليم الجيوبوليتيك على النازية تأثيراً مبالغًا فيه؛ لم يلاحظ بأنها أثرت على الفاشية الإيطالية. وهي معروفة بالنسبة للأديب الحالي من خلال الخبرة الشخصية. كان يذهب إلى المدرسة في ألمانيا بعد أن كانت النازية قد تسلمت مقاليد السلطة. كانت الجغرافيا إحدى مواده المفضلة. كانت مادة عصرية في ذلك الوقت ومتماهية إلى حدٍ بعيد مع الجيوبوليتيك، ولكن لم يكن هنالك سوى قدر ضئيل من المسحة النازية فيما كنا نتعلمه. كانت مجلة المجموعة، Zeitschrift Fuer Geopolitik، مجلة مثيرة وتحوي أخبارًا وتعليقات حول البلدان الأجنبية غير موجودة عادة في وسائل الإعلام الألمانية. لم يكن هنالك أي شيء "فاشي " بخصوص الجيوبوليتيك؛ الموضوع كان غير معروف تقريبًا في إيطاليا في عهد موسوليني.

هذا صحيح، إن فكرة "الحاجة إلى الفضاء" Lebensraum كانت جزءاً من العقيدة النازية، لكن أصولها كانت في مكانٍ آخر، بشكلٍ رئيسي في رواية هانس غريم Hans Grimm بعنوان فولكون روم Volkohne Raum. مع ذلك، فإن هتلر (كان العرق بالنسبة له أكثر أهمية) وغوبلز وغورينغ لم يكن لديهم اهتمام خاص بالموضوع أو باستخدام مصطلح "الأرض الحيوية " Hearthland. فقط رودلف هيس Rudolf (الذي كان مساعد هوشوفر فـي ميونيخ لفترة وجيزة) استخدم التعبير، وانشق في منتصف الحرب. في حين أن هوشوفر كان يخدم في هيئة الأركان العامة للجيش، إلا أنه لم يكن ميالًا للقتال في كتاباته. عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية أصيب بالقنوط والإحباط لأنه كان يخشى من نتائجها. هوشوفر، باختصار، لم يكن يومًا شخصًا مرغوبًا فيه تمامًا في الرايخ الثالث The Reich؛ زوجته كانت من أصلٍ يهودي وولده آلبرخت،

الذي كان يتعاون مع المعارضة ضد هتلر، جرى إعدامه حوالي نهاية الحرب. سياسة هوشوفر كانت محافظة أكثر منها نازية.

الإضافات اللاحقة للجيوبوليتيك مثل الـ "ليبنسروم " Lebensraum أو نظريات هالفورد ماكندر Halford Mackinder (حول الأرض الحيوية: "من يحكم أوروبا الشرقية يتحكم بالأرض الحيوية. من يحكم الأرض الحيوية يتحكم بجزيرة العالم. من يحكم جزيرة العالم يتحكم بالعالم ") كانت أكثر من مريبة؛ كان ماكندر رجلًا متعدد الجوانب - أحد المدراء الأول لمعهد الاقتصاد في لندن، وعضو برلمان، وأول من وصل إلى قمة جبل كينيا. لكن هذا الرأي العرضي غير الملزم تحديدًا هو عرض عديم الفائدة. الشيء ذاته ينطبق على اعتقاد ماهان وايمانه بالدور الحيوي لمحطات الفحم (للسفن)، هذا الدور الذي عفا عليه الزمن وتجاوزه التقدم التكنولوجـي.

ولكن بعد تفكك الاتحاد السوفييتي، وجدت الجيوبوليتيك موطنًا جديدًا لها في روسيا. بحسب زملاء جيوبوليتيكيين معاصرين من أقصى اليمين الأوروبي، "فهي فضيلة من فضائل الموهوب ألكسندر) ديوجين، الذي هو أشبه بمركز أبحاث مختزل برجل واحد...". إنه ضليع في كافة اللغات الأوروبية الرئيسية، واسع المعرفة في تراث المسائل المناوئة لليبرالية والمقتصرة على فئة محدودة من الناس والذي جرى إنقاذه من قبل اليمين الجديد وانتشاله من هوة ذاكرة ما بعد الحرب، وهو قبل كل شيء معارض فذ للولايات المتحدة، حصن الليبرالية العالمية وبالتالي المصدر الرئيسي للشر في زماننا، يتميز بالبراعة السياسية وغزارة الإنتاج.

إذا كانت الجيوبوليتيك قد انتشرت في روسيا في السنوات الأخيرة، كذلك فعلت التباينات في الرأي في أوساط الجيوبوليتيكيين. إن رؤساء (شكليين في الغالب) المؤسسات الجيوبوليتيكية الروسية المختلفة هم عادةً من جنرالات الجيش أو القوى الجوية المتقاعدين أمثال ليونيد إيفاشوف، مع باقة من المفكرين (من أمثال فاديم تسيمبورسكي) Vadim Tsimbursiky وبعض الدبلوماسيين السابقين. لقد جرى انتقاد نظرية "ديوجين السياسية الرابعة " من قبل بعض زملائه الجيوبوليتيكيين على إمعانه أكثر من اللازم في استبعاد أهمية عامل العرق. لقد أبدى بعض الجيوبوليتيكيين الروس إعجابه بإنغدال F.William (صحفي ألمانـي أمريكي غير معروف على نطاق واسع يعيش فـي ألمانيا)، كان يدعى "الحكيم " و"العبقري"؛ يرى هذا الصحفي المحترف المناوئ لأمريكا بأن كافة الانقلابات والثورات في العالم قامت بتحريض من الـ CIA وتدبيرها. يؤكد العديد من الجيوبوليتيكيين الروس المحافظين على النزاع بين الغرب المسيحي والإسلام المتطرف، في حين أن آخرين يعتقدون بعدم وجود أ ي نزاع لأن الغرب سلم قواعده المسيحية قبل زمن بعيد.

ناتاليا ناروتشنيتسكايا Natalya Narochnitskaya، دبلوماسية روسية سابقة (في الأمم المتحدة)، منخرطة بقوة في النشاطات الجيوبوليتيكية كونها في صف أقصى اليمين فـي الطيف السياسي. أيدت عودة إلى النمط السوفييتي المقتبس عن الإيديولوجية السوفييتية، ووجـوب أن يستبدل بالكنيسة الأورثوذكسية، التي بدورها ينبغي أن تلعب دورًا رائدًا في السياسة السوفييتية/ الروسية.

ليونيد سافين Leonid Savin، من جهة أخرى، يعتقد بأن الأورثوذكسية المسيحية الروسية لا تقدم دواءً شافيًا لجميع العلل أيضًا. وفي الوقت الذي يقر فيه سافين بأن الكنيسة هي "مستودع الحكمة،" يبدو بأنه يشكك بعمق الانتماء الديني للعديد من المؤمنين الذين في الحقيقة يذهبون إلى الكنيسة مرتين في السنة فقط، في عيدي الفصح والميلاد.

سافين هو محرر مجلة جيوبوليتيكا Geopoliytika، وهو منخرط بقوة في مدرسة الجيوبوليتيك الأوروبية التعاونية. وبصفته منسقًا رئيسيًا للحركة الأوراسية، فقد عمل جنبًا إلى جنب مع ديوجين وفي عدة مناسبات أكد على السايبرجيوبوليتك Cybergeopolitics - في إشارة واضحة إلى تأثير التطورات التكنولوجية على السياسة. في مقابلة أجراها عام 2013 حاول أن يوضح أهداف حركته وآرائه الشخصية حول الوضع العالمي. إن الهدف الرئيسي للأوراسيين، حسب ما قال، هو تأسيس نظام عالمي متعدد الأقطاب من خمسة مراكز قوى أو أكثر. لسوء الحظ، فإن أوروبا في الوقت الحاضر تتبع سياسات مؤيدة للأطلسية. الإسلام في رأيه لا يشكل أي تهديد لروسيا لأن المسلمين كانوا دائمًا متكاملين بشكلٍ جيد مع المجتمع الروسي. وهو يرى آفاقًا طيبة ومشجعة لحلف موسكو برلين؛ أصبحت ألمانيا مرتبطة بواشنطن لأن أمريكا خلال فترة الحرب الباردة كانت تستخدم بروباغندا حالكة السواد وتستثير خوف العالم من غزو سوفييتي. لكن هذا تم تجاوزه الآن. لقد اكتشف سافين الكثير من العناصر الآسيوية في ألمانيا، سيما في بافاريا، التي كانت قبل بضعة قرون مسكونة من قبل الآفاريين Avarians. ربما ستجد بافاريا يومًا طريق العودة إلى أصولها الآسيوية.

ماذا عن الصين؟ يواجه مئات الملايين من الصينيين حوالي أربعين مليون روسيًا (ليس جميعهم من الروس الإثنيين) شرق الأورال. يعرف سافين بأن بعض الروس والأوروبيين يتحدثون عن الصين بوصفها عدوًا محتملًا، ولكن بالرغم من حدوث بعض النزاعات الحدودية، ليس لدى الصين أي اهتمامات في هذا الجزء من العالم. سوف تركز الصين على تايوان وجزر الباسيفيك، والاهتمامات الجيوبوليتيكية لأقمارها الصناعية ستركز على هذه المناطق بالذات، وليس على سيبيريا والشرق الأقصى. سوف تكون الصين بحاجة لتلقي الدعم من روسيا ودول أخرى - حالة مثيرة من حالات التفكير الحالم الذي يهيمن على الحقائق الجيوبوليتيكية وبديهيات الفطرة السليمة.

ماذا عن الوضع داخل روسيا؟ من وجهة نظر سافين، فإن مشكلة روسيا الرئيسية هي مجموعة نيوليبرالية داخل الكرملين. يتمتع بوتين بدعم أناس معينين يريدون المزيد من الإجراءات الراديكالية ضد الفساد والعملاء الغربيين وغير ذلك. الجماهير لا تؤمن بأفكار الديمقراطية وحقوق الإنسان التي تحملها المعارضة المؤيدة للغرب. ميخائيل خودوركوفسكي، كما يوضح سابين، هو أحد أصدقاء البارون روتشيلد - وجميعنا يعرف ما يعنيه هذا. إن المعرفة التي يمتلكها راديكاليو جناح اليمين الروسي حول موقع الثروات الرئيسية في العالم المعاصر هي معلومات عفى عليها الزمن بحوالي قرن؛ لا يبدو بأنهم يتعاملون مع وكالة أنباء بلومبرغ الأمريكية Bloomberg وغيرها من مصادر المعلومات.

بإخضاعنا هذا الأدب الروسي الراهن للتحليل النقدي، يبرز السؤال التالي: ما علاقة هذا الخليط من التفاهات والسخافات بالجيوبوليتيك؟

يتمحور مفهوم الجيوبوليتيك حول الجغرافيا السياسية، والقوة البرية والقوة البحرية وتفرعاتها، وحول الفضاء والأقاليم الشاسعة والهيمنة الاستراتيجية على مناطق بعينها. لا علاقة للجيوبوليتيك بالليبرالية الجديدة والكنيسة الأورثوذكسية، ولا حتى بالـ CIA والـ KGB. إنها تتعامل مع أفكار جيلن وراتزل وهوشوفر، وربما محاولات تطبيقها على العالم المعاصر، إن أمكن ذلك. إنها لا تتعامل مع روتشيلد وخودوركوفسكي، ولا حتى مع بوتين.

باختصار إن هذا النوع "من الجيوبوليتيك " ليس جيوبوليتيكا، وانما مجرد استملاك للاسم: إنها قضية إنشاء مضلل للنظرية. ربما كان القصد هو إثبات أن القوى البحرية "الأطلسية " هي ديمقراطية - ليبرالية وبالتالي شريرة، وأن القوة البرية هي قوة محافظة وبالتالي ذات نوايا وطنية صالحة. أرادت أن تظهر بأن القوة البرية هي قوة مخولة، في الواقع مرغمة، على التوسع حتى تصل إلى حدودها الطبيعية، مهما كانت هذه الحدود. لهذا الغرض فإن جيوبوليتيكيي اليوم قد يكونوا اقتبسوا أيضًا إحدى النظريات من الكيمياء العضوية أو القانون الثاني للديناميكا الحرارية، كما فعل ديوجين عمليًا في هذه المناسبة.

التخريف؟

لطالما اتسم عنصر الفانتازيا بالقوة (والقوة المتعاظمة) في الأدب السياسي الروسي - ليس فقط على المستوى الشعبي. كيف نفسر هذا؟ أين نشأ، وما هي أهميته في السياق العام "للعقيدة الروسية الجديدة"؟ يمكن الوقوع على تعابير متطرفة، حتى فانتازية، موجهة ضد "العدو" في كل الأزمنة وكل البلدان. ليس هذا الأمر مقتصرًا تحديدًا على روسيا. ولكن عندما تكون التعابير والنظريات زائفة بصورة علنية، بل سخيفة، سوف يصار في أغلب الأحيان إلى نبذها وإهمالها. كيف نشرح هذا؟

جوزيف غوبلز، وزير البروباغاندا النازي وممارسٌ مجرب في هذا النوع من الأدب، هو مثال رئيسي حول الفبركة المدروسة لسياسة التزييف والتضليل. مسؤول الأمن الداخلي فـي برلين في السنوات التي سبقت مباشرةً استيلاء النازية لمقاليد السلطة كان يهوديًا يدعى برنارد وايلس Bernhard Weilss، ضابط ومسؤول جيش سابق ذو آراء معتدلة. أطلق هوبلز حملة شاملة ضده، محولًا إياه إلى شخصية شيطانية، بالغة الخطورة وماكرة ومراوغة إلى درجة لا تصدق، تهدف إلى تدمير كل شيء في طريقها. عندما كان الأصدقاء يشيرون لغوبلز بأن وايلس (الذي كان قد أطلق عليه لقب إيزودورIsidor) كان بيروقراطيًا مسالمًا تمامًا، كان يضحك ويقول: "أو تعتقدون أني غافلٌ عن هذا؟"

هذا مثال نموذجـي عن نهجٍ تهكمي ساخر. ولكن ليس كل العبارات والأفكار والنظريات السخيفة بصورة جلية كانت مفبركة عن قصد ومستغلة لأغراض تهكمية كجزء من حملة دعائية أوسع نطاقًا. البعض منها، كما هي الحال في روسيا المعاصرة، يجري تصديقها بعمق لأسبابٍ لم يجر التحقق منها بشكلٍ كافٍ. كانت بروتوكولات حكماء صهيون ثمرة فبركة مدروسة، والشيء ذاته ينطبق على "مؤامرة الأطباء" فـي آخر سنة من سنوات ستالين. لكن البروتوكولات وحكاية اغتيالات الأطباء اليهود كليهما جرى تصديقها من قبل العديد من الناس، أما لماذا صدقوها فيبقى سؤالًا تصعب الإجابة عليه.

هنالك اتجاه واسع النطاق (ليس روسيًا بالتحديد ولم يبتكر هناك) للإيمان بالشعوذة والقوى الخفية كمحركات حقيقية لسياسات العالم، في حين أن أولئك الذين نقرأ ونسمع عنهم في وسائل الإعلام ما هم إلا مجرد دمى تحركها تلك القوى. يؤمن بعض منظري الإيديولوجيا الروس (أو يتظاهرون بالإيمان) بأن الصراع الحقيقي في السياسة العالمية هو بين طرفين - حزب روتشيلد وأتباع روكفلر Rockefellers. بحسب أتباع ليندن Lyndon Larouche الأوسع ثقافة واطلاعًا، على سبيل المثال، هي مواجهة شرسة بين فئاتٍ على مستوى فلسفي أعلى: الأرسطوطاليون Aristotelians والأفلاطونيون الجدد neo - Platonists. لكن من غير الواضح أين يحتفظون بأموالهم - بالتأكيد ليس في يونان اليوم. كان هنالك في السنوات الأخيرة تعاون وثيق بين اليمين الروسي المتطرف واللاروخيين Larouchans، (وآخر الأمثلة على ذلك هي مقالة "On Eurofascism" لسيرجي غلاسييف، المنشورة في Executive Intelligence، لسان حال لاروخ. وغلاسييف هو أحد مستشاري الرئيس بوتين؛ للاطلاع على مقابلة أخرى من مقابلات غلاسييف مع ديمتري سايمس Dimitri Simes، انظر مجلة National Interest عدد 27 حزيران / يونيو 4 201).

هذا الإيمان باليد الخفية والقوى الشريرة ينحى لكونه إيمانًا قويًا بشكل خاص في أوقات الاضطرابات الكبرى، كما كانت الحال بعد الحرب العالمية الأولى والثورة الروسية (أحداث ذات أهمية تاريخية عالمية لا يمكن تفسيرها بسهولة) - وبعد تفكك الاتحاد السوفييتي، وهو حدث مشابه ذو عواقب ضخمة. كيف يمكن مثلًا لقوة عظمى أنشئت لتبقى إلى الأبد (حسبما كان السوفييت يرددون في نشيدهم الوطني) - قوة كانت تبدو حصينة منيعة، أن تنهار هكذا فجأة بين عشية وضحاها؟

النهج الواضح الذي كان ينبغي اتباعه لتقصي هذه القضية يتمثل بالبحث عن أسباب داخلية محلية؛ لا بد من وجود خطأ أو خلل ما في أسس النظام بالذات. لكن هذا الأمر ما كان له أن يكون على تلك الدرجة من الصعوبة، أو الإيلام، لأن الكثير من الناس كانوا يؤمنون بالنظام وكانوا مقتنعين بأن أسسه متينة وراسخة. من هنا كان ذلك الإغراء الطاغي بالبحث وراء ما هو ظاهري، البحث عن القوى الخفية، وعن المكائد السرية التي تحاك من قبل قوى السحر والشعوذة، وعن القوى الخارجية المصممة على تدمير الاتحاد السوفييتي.

اتخذ هذا البحث عن المجرمين الحقيقيين أشكالًا متنوعة. إحدى هذه الأشكال تمثل بالبحث عن مخطط رئيسي، ما يسمى ب عقيدة ديولس Duless doctrine. كان هذا بمثابة مخطط تمهيدي لسياسة الـ CIA الإجمالية التي وضعها آلان ديولس Allen Duless عام 1945 والتي كانت تهدف إلى تدمير الاتحاد السوفييتي. كانت سياسة بسيطة، لكنها حاذقة ومبدعة. لم تضع في تصورها حربًا أو ما يشبه الحرب، وانما تدمير البلاد والدولة والأمة بحالها وتقويضها من الداخل من خلال تقويض وافساد التراث الثقافي للاتحاد السوفييتي والقيم الأخلاقية للأمة السوفييتية. كان لا بد للكتاب والممثلين وصناع الأفلام السوفييت من أن يتأثروا بذلك بهدف نشر ثقافة العنف والفسوق والمسكرات والإدمان على المخدرات والوقاحات والأراء العالمية المتحررة والفساد والكراهية بين مختلف القوميات والاستياء العام، وهذا غيض من فيض الرذائل والموبقات الأخرى المتعلقة بتلك السياسة.

كان ينبغي أن يكون واضحًا منذ البداية أن هنالك شيئًا مريبًا بشأن "خطة ديولس الرئيسية." في عام 1945، لم يكن هنالك أي CIA أو حرب باردة. ولم يكن ديولس في منصب رفيع، وحيث إنه لم يكن خبيرًا روسيًا، فإن أحدًا لم يكن يتوقع منه تقديم دراسة استراتيجية كبرى بشأن ما يتوجب فعله حيال الاتحاد السوفييتي. لم تكن الحياة الثقافية السوفييتية مجال تخصصه. علاوة على ذلك، فقد كانت الحياة الثقافية السوفييتية خاضعة للإدارة والقوانين الصارمة لستالين وأندريه زادانوف وغيرها من أدوات الرقابة. لم يكونوا ليسمحوا لبوريس باسترناك Boris Pasternak بتجارة المخدرات وآنا آخماتوفا Anna Akhamatova بالترويج للبورنوغراف والمشروبات الكحولية والحض على نشر العنف. حتى بالنسبة لأولئك ذوي الاطلاع المتواضع على تفاصيل الحياة الثقافية السوفييتية، فإن مجمل المشروع كان لا بد أن يبدو منافيًا للعقل والطبيعة البشرية.

حاول بعض طلاب المشهد السوفييتي تعقب أصول هذه الوثيقة. كما أسلفنا، فإن بعض العبارات كانت مقتبسة عن رواية دوستويفسكي "الشياطين" The Possessed:"سوف نستفيد من حملات الافتراء وتشويه السمعة، ومعاقرة الخمر، وسوف نفسد الشباب." ظهرت الخطة المزعومة في الستينات والسبعينات في روايات سياسية لكتاب سوفييت مغمورين - نيقولاي ياكوفليف، ودولد ميخائيليك Dold Mikhailik، وأناتولي إيفانوف. لكن هذه الوثيقة أو المشروع، في شكلها الحالي، لم تبدأ إلا في عام 1993، عندما منحها المتروبوليت آيون، متروبوليت بطرسبرغ ولادوغا بركاته، وحتى مصادقته وتفويضه، في رسالة بعنوان "معركة روسيا Bitva za Rossii". هذه الشخصية الكنسية اقتبست عن ديولس (بل جعلت منه جنرالًا):

> من خلال نشر بذور الفوضى في روسيا، نحن نستبدل قيمهم بأخرى زائفة، ما سيرغمهم على التصديق. كيف؟ سنجد عملاء وأعوان وحلفاء لنا في روسيا نفسها. في سلسلة من الحلقات، سوف نقدم تراجيديا عظيمة: موت آخر الأمم المحطمة على وجه الأرض، القضاء المبرم على وعيهم القومي. من الفن والأدب على سبيل المثال، سنستأصل بالتدريج العنصر الاجتماعي. سنعيد تدريب الفنانين، ونشجع لديهم الرغبة في تصوير العالم، ونتفحَّص تلك العمليات التي تحدث في أوساط جماهير الشعب. الأدب، والمسرح والسينما، جميعها ستخاطب أدنى وأحط المشاعر البشرية. سنستخدم كل وسائلنا لدعم ومؤآزرة ما يسمى بالمبدعين ممن سيغرسون في عقول الناس ووجدانهم عقيدة الجنس والعنف والسادية والخيانة، باختصار - العهر والفجور والرذيلة....

أي باختصار، انتصار إبليس.

استرسل المتروبوليت الراحل في هذا الهراء والعبث: "سنخلق الفوضى والارتباك في آلية عمل الحكومة." لقد تطرق بأدق التفاصيل إلى الكراس سيِّئ الذكر المعادي للسامية "بروتوكولات حكماء صهيون،" الذي كان أحد رعاته، منوهًا بأن بعض المؤرخين لم يكونوا مؤمنين بموثوقية خطة ديولس وأصالتها. كذلك هاجم الغرب الكاثوليكي الذي استسلم للزهو والخيلاء والمجد الزائف للعظمة الدنيوية، وابتعد عن الجوهر الكوني للأورثوذكسية الحقة. أشار إلى سخرية وتهكمية "أوروبا المتنورة " التي كانت بكل بساطة تستعصي على الكلمات. لكنه كان دائمًا يعود إلى البروتوكولات. رغم أنه كان يقر بأن تاريخها كان ضبابيًا مبهمًا إلى حد ما، وأنه كان بعيدًا عن كونه مؤهلًا لإصدار حكمه فيما إذا كانت مزيفة أم لا، إلا أنه لم يتراجع عن المصادقة على رسالتها بشكل كامل، لأن كل ما حدث خلال الأعوام الثمانين المنصرمة منذ ظهورها كان يؤكد هذه الرسالة.

وثيقة ديولس، بعدها، تظهر على شكل نسخة منقحة أو معدلة عن البروتوكولات، مصدقة، و/أو مقتبسة مع الموافقة من قبل مجموعة كاملة من المواطنين الروس، بما فيهم فلاديمير فولفوفيتش زيرينوفسكي، رئيس حزب روسيا الديمقراطي الليبرالي (LDPR)؛ ونيكيتا ميخالكوف Nikita Mikhalkov، أحد أكبر صناع الأفلام الروس المتميزين؛ وسيرجي كاراموزرا Sergei Karamurze، أستاذ كيمياء ومعلق سياسي؛ وسيرجي غلاسييف Sergei Glazyev، أحد الشخصيات السياسية الأخرى المعروفة. بالرغم من كونها بالتأكيد حالة قصوى من حالات التخريف السياسي، فإن خطة ديولس الرئيسية جرى الاستشهاد بها بقدر من التفصيل كدليل إثبات، لأنها تساعد في فهم الاستعداد والجاهزية التي تم من خلالها تقبل أعمال التزوير والتزييف كحقيقة منزلة في روسيا المعاصرة، من قبل المتطرفين أولًا، ولاحقًا من قبل باقي شرائح المؤسسة.

جاء النظام الستاليني إلى روسيا قبل ثمانين عامًا، وجاء معه الإيمان الراسخ بتأكيدات من الواضح أنها غير صحيحة. جرى الإعلان عن هذا التقليد والتأكيد عليه خلال فترات معينة، وبدرجة أقل في فترات أخرى - كما جرى شجبه في مناسبات عديدة من قبل خبراء مختصين، لكنه لم يُرفض أو يهمل بالكامل قط. إذا كان هنالك في السنوات الأخيرة تعاطف متزايد، بل حتى حنين معين، لفترة ستالين في التاريخ الروسي، فلا ينبغي أن يكون مفاجئًا أن يشمل هذا الاستعداد لتصديق تأكيدات من الواضح أنها غير صحيحة.

بحسب استطلاع ISIOM وغيره من استطلاعات الرأي العام الروسية، فإن 50 بالمئة من الروس كانوا ينظرون إلى ستالين نظرة إيجابية في عام 2008 - 2009، ولم يشهد هذا الرقم بالتأكيد أي تراجع منذ ذلك الحين. هذا لا يعني أن انتقاد ستالين بات من المحظورات أو أن كافة جوانب حكمه باتت مرغوبة. لكن الإفراط في العداء للستالينية بات أمرًا مستهجنًا من قبل السلطات، وقد جرى تعديل الكتب المدرسية على هذا الأساس. ما يعنيه ذلك إذًا أن مواقف سيكولوجية معينة كانت سائدة إبان الحقبة الستالينية باتت أيضًا موضع تقبل وترحيب.

هذا يشمل الإيمان بنظرية المؤامرات لتفسير أحداث الماضي والحاضر. ولكن ليس بمقدور هذه التركيبة العقلية بمفردها أن تفسر أسباب هذا الولع الذي نشهده هذه الأيام. كيف نفسر حقيقة أن أعمال التزوير المدروسة والمتعمدة يجري غالبًا تصديقها والإيمان بها إيمانًا يقينيًا راسخًا لا يتزعزع؟

لقد تم ملاحظة هذه الظاهرة اللافتة ووصفها من قبل أخصائيي الطب النفسي والأمراض العصبية والنفسية على مدى فترة طويلة من الزمن، وهي تعرف باسم " التخريف Confabulation". جرى تشخيصها وتوصيفها لأول مرة عام 1889 لدى المرضى الذين يعانون من فقدان جزئي للذاكرة من قبل أخصائي الطب النفسي المتميز الروسي سيرجي كورساكوف Sergei Korsakoff(1854 - 1955)، وهي تعرف في مجال الطب المعاصر بمتلازمة فيرنيكه – كورساكوف Wernicke - Korsakoff syndrome. أخضعت الحالة لدراسة مكثفة في العقود الأخيرة، عندما أصبح الطب وعلم النفس مهتمين بصورة متزايدة بمشكلات الذاكرة. مثال سريري على ذلك:

في صباح أحد أيام الاثنين في دار للمسنين، سألت إحدى الممرضات في كولونيا في ألمانيا السيد "كيه " البالغ من العمر 73 عامًا عن عطلة نهاية الأسبوع التي أمضاها. كان جوابه:

"آه، لقد توجـهت مع زوجتي إلى هنغاريا بالطائرة وأمضينا أوقاتًا رائعة ". تسمرت الممرضة في مكانها لبرهة، لأن زوجة السيد كيه كانت قد رحلت عن هذه الدنيا قبل خمس سنوات ولم يكن السيد كيه قد غادر الدار لأشهر. هل كان يحاول التأثير على مشاعرها؟ الأرجح أن السيد كيه كان يُخرّف، وهي ظاهرة يحاول الشخص من خلالها أن يصف أو حتى أن يتصرف بوحي من أفكار زائفة غير حقيقية يعتقد بأنها حقيقية.

(ماريا دوروثيا هايدلر: "هل عقلك يكذب عليك؟ مجلة American Scientist، آذار/ مارس 2014).

أظهرت الدراسات حول ظاهرة "التخريف " أن هنالك أشكالًا متعددة يقدم المصابون بها قصصهم بتفاصيل دقيقة للغاية، وغالبًا بقناعة راسخة، ولن يرغموا على إعادة النظر برواياتهم إذا ما تمت مواجهتهم بحجج منطقية عقلانية. وجد أولئك العاملون في مجال أبحاث هذه الظاهرة أن أسبابها تعود في الغالب إلى إصابة ما تلحق بالدماغ ينتج عنها نقص بالفيتامين B (الثيامين). (اعتقد كورساكوف فـي البداية أن إدمان المشروبات الروحية كـان أحـد الأسباب المرجحة.) ولكن بالإجمال، لم يحدث هنالك أي إجماع بخصوص أسباب هذه الحالة، ربما لكونها ناتجة عن أكثر من سبب أو إصابة أو مرض محدد.

ما كتب عن حالة التخريف واسع ومتشعب، لكنه لم يكن ذا فائدة تذكر على صعيد تفسير الأسباب الكامنة وراء الحالات المتعددة للتخريف السياسي. من غير المرجـح أن يكون متروبوليت سانت بطرسبرغ ولادوغا الراحـل والأشخاص الكثر الآخرون ممن كانوا يتاجرون بعقيدة ديوليس ونظريات المؤامرة المشابهة ويروجون لها يعانون جميعًا من عوز الفيتامين B. لا شك بأن البعض كان يعرف أكثر من غيره عن مثل هذه الأعراض، لكنهم قدموا رواياتهم كيفما اتفق لنشر أفكارهم. البعض الآخر قد يكونوا اعتقدوا بأن نظرياتهم أو معتقداتهم ربما كانت صحيحة فـي جـانب واحد منها فقط، ما يكفي لنشرها من دون التعرض لأي مساءلة. أو لعلهم اعتقدوا بأنه حتى النظريات غير المثبتة قد تكون تنطوي على قدر من الصحة بالنسبة إليهم - ما يكفي، على الأقل، لتقديمها لجمهور نهم متعطش لهذا النوع من النظريات. على أية حال، هنالك تشابه لافت بين التخريف السياسي والتخريف كحالة طبيَّة مرضية: القناعة الراسخة للأشخاص المصابين بالتخريف بأنهم ينطقون بالحقيقة، وإزالة الشك عندما يساور الشك أحدهم. وعود على بدء نقول: ليست هذه الظاهرة بأي حال من الأحوال ظاهرة روسية محضة، لكنها باتت منتشرة على نحو خاص في روسيا، حيث جرى الإقبال عليها والإيمان بها ليس من قبل تلك الشرائح الأكثر سذاجة والأقل ثقافة من المجتمع وحسب، بل أيضًا من قبل شرائح تلك النخبة المثقفة المدربة على عدم الانقياد الأعمى وراء مثل هذه الأمور، والاكتفاء فقط بالنهج النقدي. التخريف السياسي هو بالتأكيد ظاهرة تستحق قدرًا أكبر بكثير من الدراسة وقد تكون روسيا أحد أنسب الأماكن للقيام بذلك.

الفصل الرابـع

بوتين والبوتينية

لا يوجد أي نظير لكتاب "دليل الأعلام " Who’s who في روسيا حتى الآن. ولكن إن وجد، فإن المدخل إلى بوتين سيبدو تقريبًا على النحو التالي:

فلاديمير فلاديميروفيتش ب وتين Vladimir Vladimirovich، مولود في لينينغراد عام 1952. الأب: فلاديمير سبيريدونوفيتش، توفي عام 1999، شارك في الحرب العالمية الثانية وأصيب بجروح بالغة. الجد، سبيريدون Spiridon، كان طاهيًا قام بإعداد الطعام عدة مرات للينين وستالين. الأم، ماريا إيفانوفا، كانت عاملة في أحد المصانع. لها أخوان، كلاهما توفي عن عمر مبكر جدًا. عائلة فقيرة، كـانت تعيش فـي شقة مشتركة مع عدد من العائلات الأخـرى (kommunalka). وبحسب فيرا غوريفتش، زميلة بوتين المفضلة في المدرسة الابتدائية، والتي بقى على علاقة بها لسنوات عديدة، فإن الأم كانت "شخصية لطيفة جدًا، ودودة، غير أنانية، تمثل روح الطيبة." يستذكر بوتين أنه فـي التسعينات عندما كان في مجلس مدينة سانت بطرسبرغ، ذهب إلى إسرائيل بصفة عضو في وفد. قدمت إليه والدته صليب المعمودية كـي يباركه عند ضريح الرب: " فعلتُ مثلما قالت، ثم وضعت الصليب حول عنقي. ولم أنزع ذلك الصليب عن عنقي قط." كان يواظب على الدوام فـي المدرسة ذات الرقم 193 فـي لينينغراد؛ وكان معروفًا بحبه للخصام والمشاكسة. أظهر موهبة مبكرة في الرياضة، سيما رياضة الجودو والسامبو. التحق بجامعة لينينغراد الحكومية،

وتخرج عام 1975 فـي قسم الحقوق. عضو فـي الحزب الشيوعي منذ العام 1972. التحق بجهاز الـ كـي جـي بي عام 1975. عمل بادئ ذي بدء في إدارة مكافحة الجاسوسية، وعمل لاحقًا في مجال مراقبة الأجانب والموظفين القنصليين في لينينغراد. عيّن في درسدن، ساكسونيا (في ألمانيا الشرقية)، بين عامي 1985 و1990. لا توجد هنالك أية معلومات موثوقة متوفرة عن طبيعة عمله في ألمانيا الشرقية. استدعي مجددًا إلى سانت بطرسبرغ عام 1991، وعمل في إدارة إحدى الجامعات المحلية. استقال من الـ كـي جـي بي في آب/أغسطس 1991 برتبة مقدم. شغل منصب رئيس قسم العلاقات العامة في مكتب محافظ سانت بطرسبرغ، بين عامي 1991 و1996. انتقل إلى موسكو عام 1997، وشغل مناصب متنوعة في أجهزة الدولة، وأصبح النائب الأول لرئيس مكتب الشؤون الرئاسية (فـي عهد يلتسن)، 1998. فـي تموز/يوليو 1998 أصبح رئيسًا للـ FSB، إحدى المؤسسات العديدة وريثة الـ KGB. في آب/أغسطس 1999 أصبح نائبًا لرئيس الوزراء، ثم عين رئيسًا لوزراء روسيا بعد سبعة أيام فقط. في تموز/يوليو 1983 تزوج من ليودميلا شكريبنيفا Lyudmila Shkrebneva؛ طلق زوجته عام 2013. لديه ابنتان، ماشا وكاتيا؛ يصر على الخصوصية، يعيش بأسماء مستعارة. تزوج مجددًا عام 2014 من بطلة الجمباز الأولمبية ألينا كابايفا Alina Kabayeva.

الكثير من النشاطات ميزت البدايات الأولى للرجل الذي قدر له أن يصبح حاكم روسيا لعدة سنوات. كانت حياة ناجحة. كان قد اكتسب سمعة كموظف متحمس مجدّ وموثوق، مظهرًا قدرًا

كبيرًا من الولاء لرؤسائه - أولهم أناتولي سوبتشاك Anatoly Sobchak وآخرهم بوريس يلتسن - لكنه كان معروفًا ضمن دائرة ضيقة من البيروقراطيين. بعد لقائه مباشرة لأول مرة، أعرب يلتسن عن رغبته في أن يراه خليفة له. عندما أصبح بوتين رئيسًا للوزراء عام 1999، حتى بعد سنة (في أيار/مايو 2000) عندما خلف يلتسن، كان لا يزال غير معروف جيدًا. هنالك ما يدفع إلى الاعتقاد بأنه لم يكن مهتمًا بالشهرة والأضواء في هذه المرحلة من حياته العملية. ولكن بعد فترة وجيزة، باتت روسيا عن بكرة أبيها تعرف الكثير عن هذا الرجل - وحتى كلبه اللابرادور الذي كان يدعى كوني وشكله وكيف كان ينبح كلما ذكر أمامه اسم بوتين المستعار.

كان عمل بوتين فـي الـ KGB قد علمه مزايا خلو الوجه من التعابير facelessness. مع ذلك، فقد كانت له بالتأكيد آراؤه الشخصية ونمط عمل جرى وصفه وتحليله على مدى الأعوام العشرة الماضية في عشرات السير الذاتية والمقالات النقدية السياسية المنشورة بالروسية والإنكليزية ولغات أخرى. بالإضافة لذلك، فإن الذكريات عن مدراء بوتين وأساتذته في أثناء خدمته في مدرسة الـ KGB التدريبية هي ذكريات تتسم بأهمية خاصة. أحد زملائه، مقدم متقاعد، يستذكر قائلًا:

> لا أستطيع القول إنه كان خبيرًا واسع الاطلاع. لكني أذكر بأني كتبت حول بعض السجايا والخصال السلبية في تقييمه. كان انطوائيًا وانعزاليًا - الأمر الذي يمكن اعتباره صفة إيجابية وسلبية في آنٍ معًا. استذكر أيضًا بعض الميول الأكاديمية لديه. لا أقصد أنه كان جامدًا تعوزه النباهة، كان فطنًا وصاحب نكتة دائمًا. كان بوتين طالبًا مثابرًا، من دون زلات وأخطاء. لم تكن هنالك أية حوادث عرضية في حياته. لم يكن هنالك ثمة من داعٍ للتشكيك في نزاهته واستقامته.

عندما أصبح بوتين رئيسًا، كانت روسيا تتخبط فـي تيه من الفوضى والاضطرابات المروعة. كانت الدولة والاقتصاد في حالة يرثى لها من العطالة والركود. كانت هنالك حاجة إلى قدر كبير من روح الطموح و/أو الوطنية لإلهام قيادة البلاد ورفع روحها المعنوية فـي هذه الظروف. نظرًا لعدم كونه خبيرًا اقتصاديًا، لم يكن بوتين ربما على اطلاع كامل بخطورة الوضع، لكن لا بد أنه كان قد عرف الكثير عن هذا الوضع في ضوء المناصب الرفيعة التي كان قد شغلها خلال السنوات السابقة. فيما يتعلق برئيس وزرائه، قام بوتين بتعيين ميخائيل كاسيانوف، الذي تحول لاحقًا إلى ناقد لاذع لنظامه. أجرى كاسيانوف إصلاحات هامة وناجحة فـي المجال الاقتصادي (النظام الضريبي، إصلاحات نقدية، إصلاحات جمركية). جرى خفض التضخم وشهد الاقتصاد نموًا لافتًا خلال عهده بحوالي الثلث.

مع ذلك، فقد اختلف مع أسلوب بوتين في إدارة الحكومة، مؤكدًا بأن فصل السلطات جرى إلغاؤه واستبداله بمبدأ "السلطة العمودية " الذي كان يعني أن كافة القرارات الهامة كان يتم اتخاذها من قبل الحكومة، دون أن يكون للبرلمان أو القضاء أي رأي بعد الآن. كانت هنالك مزاعم تتعلق باتهامات بالغش والاحتيال ضد كاسيانوف، لكن الشيء ذاته كان ينطبق على بوتين؛ من الصعب استثناء أي مسؤول روسي واحد من مسؤولي تلك الفترة أو السنوات التالية من اتهامات الفساد. انضم كاسيانوف إلى المعارضة بعد استقالته عام 2004، لكنه لم يكن يتمتع بقدر كبير من الشعبية، فشارفت حياته السياسية على نهايتها.

خلف كاسيانوف كرئيس وزراء ميخائيل فراد!كين؛ وكان هذا المجلس يضم اقتصاديين ليبراليين معروفين، هما جيرمان غريف وألكسي كودرين.

لم تكن بداية رئاسة بوتين بداية مبشرة. فبعد ثلاثة أشهر من تعيينه، في آب / أغسطس 2000، وقعت كارثة الغواصة كورسك. كانت كورسك عبارة عن غواصة حاملة للصواريخ تعمل بالطاقة النووية، وقد غرقت في بحر بارنتس. كان بوتين في إجازة آنذاك، لكنه لم يعد على الفور إلى موسكو أو قام بزيارة الموقع، كما أنه لم يقبل عروضًا بالمساعدة كانت قد قدمت من قبل بلدان أجنبية. ومع ذلك خرج سالمًا من هذه القضية، مثلما خرج سالمًا أيضًا من كارثة الهجوم الإرهابي الذي وقع عام 2002، وأودى بحياة 130 شخصًا خلال المحاولة الفاشلة للقوات الخاصة الروسية لتحرير الرهائن الذين كانوا محتجزين في مسرح موسكو. كان هجومًا شنّه متمردون شيشان في مسرح دوبروفسكا Dubrovska Theatre في موسكو. وقع الهجوم في أثناء تقديم مسرحية موسيقية حول رواية "القبطانان The Two Captains للمؤلف فينيامين كافرين Veniamin Kaverin. عمدت القوات الخاصة إلى ضخ غاز سام إلى داخل المسرح عبر فتحات التهوية الخاصة بالمسرح، ما تسبب بموت الكثيرين. مهما يكن من أمر، فإن شعبية بوتين لم تتأثر. ربما تشكل انطباع بوجوب عدم الإنحاء باللائمة عليه شخصيًا. أو لعله الشعور بأن روسيا كانت بحاجة إلى رجل قوي، رجل قائد، يعيد للدولة هيبتها، وأن على البلاد أن تنتهج سياسة خارجية أكثر حزمًا وأكثر قومية، وأنها في ظل حكم بوتين ستحصل على الأشياء التي كانت بحاجة إليها.

الشيء الأهم كان حسن الطالع الذي حالف بوتين والذي تمثل ببدء ارتفاع أسعار النفط والغاز؛ من دون هذا المستجد، لم يكن لأي من سياساته أن تنفذ. كان سعر برميل النفط أيام يلتسن (1994) بحدود 16 دولارًا. في عام 2002 كان بحدود 22 دولارًا؛ في عام 2004 بلغ 50 دولارًا؛ ووصل في عام 2008 إلى 91 دولارًا حيث راوح عند هذا المستوى لمدة خمس سنوات. من 2001 إلى 2007 كان الاقتصاد ينمو بمعدل 7 بالمئة سنويًا. بحلول العام 2006 كان إجمالي الناتج المحلي الروسي قد تضاعف عما كان عليه بنهاية عهد يلتسن. تمكنت روسيا من إعادة تسديد كافة ديونها، وظهرت طبقة وسطى جديدة إلى حيز الوجود، وتضاعفت الرواتب التقاعدية - باختصار، كل شخص تقريبًا استفاد من هذا الازدهار، الذي كان يعزى ليس لحسن الطالع وحسب، وانما أيضًا للقيادة الحكيمة والكفوءة لبوتين. كانت واحدة من أغرب حالات الحظ الطيب في التاريخ المعاصر.

نظرة بوتين الاستشرافية إلى الاقتصاد كانت قد تشكلت على الأرجح خلال السنوات التي أمضاها في ألمانيا - المثال الألماني الغربي تحديدًا. كان من المؤيدين لسياسة سوق ضمن حدود، وكان يصر على تطبيق قدر كبير من السيطرة الحكومية والإشراف الحكومي على الاقتصاد، وكان يقاوم بحزم أية محاولة من قبل الأوليغاركيين للسيطرة على السلطة السياسية. أولئك ممن لم ينصاعوا للقوانين الجديدة، أمثال ميخائيل كودوروفسكي وبوريس بيريزوفسكي، وجدوا أنفسهم إما في معسكرات الأعمال الشاقة أو في المنفى. علاوة على ذلك، فقد كانت تطفو على السطح طبقة جديدة من فاحشي الثراء أمثال غينادي تيمشنكو Gene di Tymshinko، ممن كانوا معروفين شخصيًا بالنسبة له والذين كان بمقدوره ضمنيًا أن يعول على ولائهم.

لم يكن حكام روسيا الجدد من الأوليغاركيين، بل كانوا زملاء بوتين السابقين من أيام سانت بطرسبرغ والـ كي جي بي. وكان هناك أيضًا بعض كبار مسؤولي الجيش والشرطة، وبعض الأخصائيين، وحتى بعض "الليبراليين" (في الأيام الأولى)، وكل من كان يمكن الوثوق به. كان

نمط القيادة استبداديًا تمامًا. ربع أو ثلث المسؤولين ربما كانوا من كوادر الـ كـي جـي بي السابقين. ولعل دورهم في الحكومة كان حتى على مستوى أعلى، حيث إن الخلفية الأمنية لم يكن لها ذلك الصدى العلني واسع النطاق. يجدر بنا التنويه هنا إلى أن حالة ميخائيل فرادكين، ثانـي رئيس وزراء لبوتين، تتسم بأهمية خـاصة فـي هذا السياق. لم يكن يعرف عنه سوى القليل عندما عين لأول مرة، باستثناء أنه كان ناشطًا في مجال التجارة الخارجية. مع ذلك، بعد استقالته كرئيس وزراء عام 2007، أصبح رئيسًا للاستخبارات الخارجية الروسية، ومن غير المرجح لمثل هذا المنصب أن يكون قد ذهب إلى شخص آخر من دون خبرة سابقة في هذا المجال.

معظم أولئك الذين كانوا يخدمون في مراتب عليا أصبحوا من الأثرياء، لكن إلى أي درجة، ومن أي مصادر، وأين كانت أرصدتهم مودعة كانت بالتالي أسرارًا رسمية على درجة عالية من السرية. كان هنالك بعض القواعد والقوانين - من ضمن هذه القواعد عدم الإنفاق بهدف التباهي والتفاخر (سرعان ما كانت الزوجة تغدو القوامة الرئيسية على العائلة أحيانًا). قدر كبير من الكتابات ظهرت حول هذا الموضوع، البعض ربما مبالغ فيه (كان بوتين يوصف أحيانًا بأغنى رجل على وجه الأرض)، لكن يبدو من المؤكد أن أحدًا لم يغادر منصبًا رفيعًا في الحكومة وهو في حالة من العوز أو بحاجة لضمان اجتماعي.

أصبح بوتين رئيسًا الآن، مع ذلك فلم يعرف سوى القليل عن آراءه. هل كان في أعماقه مصلحًا، متعاطفًا مع الليبراليين، أم إنه كان محافظًا؟ هل كان يريد تغيير البلد، أم إنه كان يرى أن من أولوياته تهدئة البلد وتحقيق الأمن والطمأنينة بعد سنوات من الاضطرابات وعدم الاستقرار؟ كان سيبدو من غير الواقعي أن نتوقع من أحد خريجي مدرسة الـ كـي جـي بي أن يعمد إلى تحويل المجتمع الروسي إلى مجتمع ديمقراطي. ولكن هل سيقبل بالتغييرات التي كانت قد حدثت في عهد غورباتشيف، أم إنه سيعمد إلى إنتاج نظام استبدادي صارم يتجه شيئًا فشيئًا نحو اليمين، استنادًا إلى نظرة عالمية رجعية محافظة؟ هل سيكون تركيز النظام الجديد على السياسة الديمقراطية أو الخارجية؟ هذه الأسئلة الأساسية وغيرها تركت من دون جواب لفترة ليست بالقصيرة. كانت هنالك مؤشرات ودلائل متناقضة، ولكن بحلول عام 2005 ترسخ الانطباع بأن الباعث المحافظ والقومي كان الأقوى. كان أولئك الذين يعملون معه جنبًا إلى جنب والراغبين في أن يشاركوا انطباعاتهم ينظرون إليه على أنه وطني شديد الحذر يمسك بأوراق اللعب قريبًا من صدره، لا يثق بالآخرين، باستثناء قلة قليلة ربما من ذوي الخلفية المشابهة لخلفيته. من الواضح أنه لم يؤمن بالاشتراكية يومًا، ناهيك عن الشيوعية. لا يبدو بالتأكيد أنه كان يعتقد بأن روسيا كانت مستعدة للتحرك بخطى سريعة في الطريق نحو الديمقراطية.

مثله الأعلى حينها كان يوري أندروبوف. لكن أندروبوف لم يكن مهتمًا إلى ذلك الحد بالقوميين الروس فـي الأجهزة التي كان يرأسها. بوتين، من جهة أخرى، فـي الوقت الذي لم يكن فيه عضوًا فـي هذا الفصيل، كان أكثر ميلًا للإصغاء إليهم؛ كان ميالًا للقادة والمفكرين السياسيين القوميين لأيام روسيا القيصرية وبعض أولئك الذين تركوا روسيا بعد 1917. المفارقة، في هذا الوقت، أن دعم بوتين كان أضعف في الأجهزة منه في باقي شرائح الدولة والمجتمع. من غير المعروف سبب هذه الحالة، ولعلها تغيرت منذئذ، سيما مع الحرب الشيشانية الثانية. لم يكن بوتين يثق بالحكومات الأجنبية، الأمر الذي لم يكن مفاجئًا على نحوٍ خاص، حيث إنه كان قد تلقى تدريبه على هذا العمل.

لقد كتب الكثير عن "بوتين عديم الملامح "، ورجولته، ونشاطه في رياضة الجودو وغيرها من أنواع الرياضة. لقد ظهر في لقطات كوميدية وأخرى مثيرة، وظهر في إحدى اللقطات وهو يقبل نمرة نائمة وإحدى أسماك الحفش الضخمة، ووصف أيضًا كراعٍ للأمة الذي يواجه أزمة اقتصادية كبرى. تصنيف شعبيته لدى الناس كان دائمًا مرتفعًا، وأحيانًا محلقًا إلى مستوى 80 بالمئة وربما أعلى. لعبت وسائل الإعلام الممسوك من قبل الدولة دورًا في صعود نجمه وشعبيته.

بوسع المرء أن يفكر بقادة آخرين من قادة القرن الحادي والعشرين ممن حققوا شعبية مشابهة وأصبحوا موضع تقديس لدى شعوبهم، لكن من الصحيح أيضًا، وهو أمر يبعث على الإعجاب، أن بوتين ناسب دور القائد كما يريده العديد من الروس آنذاك. لم تكن المؤسسات الديمقراطية فكرة رائجة أو محل طلب، لأن البلاد كانت بحاجة إلى قائد يتمتع بالقوة والثقة بالنفس. لقد بات معظم الروس يعتقدون بأن الديمقراطية هي ما شهدتها بلادهم بين 1995 و2000 وأنهم لم يعودوا يريدون المزيد. لم تشهد روسيا يومًا أي قدرٍ من الديمقراطية، باستثناء ربما بضعة أشهر عام 1917، وهو ما يفسر وجود ذلك الشعور المتأصل بالنفور والكراهية وانعدام الثقة، والاعتقاد بأن الديمقراطية هي حالة يغدو من خلالها قلة من الناس فاحشي الثراء، بينما يبقى الآخرون يرزحون تحت نير من الفقر المدقع ويزدادون فقرًا يومًا بعد يوم.

بعد سنوات عديدة من الفوضى والغموض، كان لا بد لبوتين أن يظهر بمظهر الفارس المنقذ في درعه البرّاق، ليس فقط بالنسبة للنخبة المثقفة، وانما للكثير من باقي شرائح الشعب. لعله لم يكن البطل المثالي، لكنه كان بالتأكيد مفضلًا قياسًا إلى ما كانوا يعانونه ويتعرضون له في الماضي القريب. كان التلفزيون يتسم بأهمية كبرى، ولكن حتى أكبر جرعات البث التلفزيوني كانت ستجد أنه من المستحيل أن تسوّق للجماهير شخصيات الماضي القديم أمثال ليونيد برجينيف أو قسطنطين تشيرنينكو بدور المنقذ. وسواء كان لهذا النجاح البوتيني أن يكون ذا تأثير دائم، وسواء كان سينجح في تنفيذ الإصلاحات البنيوية الأساسية التي تحتاجها البلاد للاستمرار والنجاح في القرن الحادي والعشرين، فإن الأمر يبقى رهن الزمن.

سيتوجب علينا العودة إلى هذه القضية عند التطرق إلى آفاق روسيا وتوقعاتها. تقبيل أسماك الحفش والنمرة النائمة قد يعزز لفترة حالة التفاؤل السائدة في البلاد؛ وقد يستثير شعورًا بأن روسيا لم تعد بلدًا ضعيفًا محاطًا بالوحوش الكاسرة الخطرة، وإنما دولة قوية محاطة بالضعفاء. لكن هذه الحالة التفاؤلية لن تدوم طويلًا. فهي لن تذهب بروسيا إلى تخوم نظام ديمقراطي حقيقي؛ كما أنها لن تفضي إلى الإصلاحات الاقتصادية التي تحتاجها البلاد بصورة ملحة. وهي ربما لن تساعد روسيا على إنتاج مزيد من الأطفال. إن لم يزدد الطلب على النفط والغاز ولم ترتفع الأسعار بصورة دراماتيكية، فإن فشلًا ذريعًا سيكون بانتظار بوتين. لكنه كان محظوظًا، وفي ضوء التاريخ سيِّئ الطالع للبلاد ومزاجية الشعب، فإن روسيا لم تكن ببساطة على استعداد لتقبل شخصية مثل ألكسندر ياكوفليف أو أي شخصية أخرى تقودها نحو نظام غير استبدادي.

لقد كانت الهجمات الإرهابية التي شنها المتمردون الشيشان في القوقاز في 2003 - 2004 بمثابة اختبار لنظام بوتين. أخطر الانتكاسات تمثلت باغتيال شريك روسيا الرئيس الشيشاني أحمد قديروف Akhmad Kadyrov في أيار/ مايو 2004، وكذلك حصار بيسلان Beslan، عندما جرى قتل 330 شخصًا معظمهم من الأطفال في أوسيتيا الشمالية، في محاولة إنقاذ فاشلة أخرى.

مع ذلك، وبعد العديد من الهجمات الإرهابية الأخرى، نجحت موسكو فـي فرض سيطرتها على القوقاز الشمالي، وتعيين قديروف الأصغر حاكمًا على الإقليم خلفًا لوالده. لكن ثمنًا باهظًا كان لا بد أن يدفع، ليس فقط على شكل إعانات مالية؛ فالقوقاز الشمالي فقد هويته الروسية إلى حدٍ بعيد وأصبح جَيْبًا إسلاميًّا.

في عام 2004، جرى انتخاب بوتين رئيسًا للمرة الثانية. على صعيد الوطن، جرى مصادرة ممتلكات يوكوسYukos، إحدى شركات النفط العملاقة، وجرى اعتقال مالكها، ميخائيل خودوركوفسكي عام 2003 والحكم عليه بالسجن لمدة تسع سنوات بتهمة التهرب الضريبي وجرائم آخرى. جرى تمديد الحكم في محاكمة ثانية؛ ولم يطلق سراحه إلا بعد تدخلات مكثفة على أعلى المستويات عام 2013. كان خودوركوفسي قد فشل فـي فهم ميزان القوى المتغير فـي روسيا، مطلقًا احتجاجاته على الملأ ومعارضًا الرئيس في كثير من سياساته وآراءه. كان واحدًا من أغنى أغنياء العالم؛ وبحسب التقديرات، بعد مغادرته السجن ومعسكر الاعتقال، تركت له السلطات ثروة تقدر بحوالي 200 مليون دولار.

شهدت الفترة 2006 - 2007 توترات مع جيران روسيا أمثال أوكرانيا وجورجيا وبلدان البلطيق. أصبح ديمتري مدفيديف رئيسًا عام 2008، وبوتين رئيسًا للوزراء - بداية إجراء ترادفي مكّن بوتين من لعب دور رائد في السياسة الروسية يتجاوز رئاسة الفترتين التي ينحر عليها القانون. كذلك في عام 2008، خاضت روسيا حربًا مع جورجيا لبضعة أيام، ما نجم عنه خسارة أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا، اللتين أصبحتا "مستقلتين ". حدث هناك انفراج محدود في العلاقات مع الولايات المتحدة عام 2009، لكنه لم يدم طويلًا. العلاقات مع البلدان الأوروبية وجيران روسيا لم تتحسن، وكان هنالك تقييد بطيء لكنه منهجي للحريات، وللحقوق المدنية والسياسية على الصعيد المحلي. عمدت الدولة إلى الاستيلاء على وسائل الإعلام أو ممارسة الضغوط عليها، وفوز بوتين بالانتخابات الرئاسية بنسبة 63 % من الأصوات في آذار/مارس 2012 لم يكن بالتالي بمثابة مفاجأة كبرى. شغل مدفيديف منصب رئيس الوزراء. اعتقد بعض المعلقين الغربيين بأن مدفيديف كان يمثل بديلًا معتدلًا لبوتين على صعيد السياستين الخارجية والداخلية كلتيهما، لكن هذا الافتراض كان مخطئًا. كان قد اختير بالضبط لأنه لم يكن ينهج سياسة مغايرة بشكل متميز لسياسة بوتين، كما أنه لم تكن لديه طموحات واضحة تؤهله لأن يكون بديلًا. وخـلال فترة بوتين الرئاسية الثالثة حدث هنالك تصلب كبير في سياسات روسيا الداخلية والخارجية (ضم القرم 2014). خلقت التظاهرات التي قام بها أبناء الطبقة المتوسطة الجديدة وطبقة النخبة المثقفة ضد "اللصوص والمحتالين " انطباعًا خاطئًا بظهور معارضة قوية، لكن هذا كان بمثابة قراءة مغلوطة للوضع. فالدعم الذي تلقته سياسة بوتين القومية نجم عنه نسب قبول غير مسبوقة. لقد عزز موقفه الجريء المناوئ للغرب من مكانته داخل البلاد. وبحسب أحد المعلقين: طالما بقيت أسعار النفط والغاز مرتفعة، لن يكون هنالك أي خطر جدي يتهدد الحكومة.

كان نمط الحكم استبداديًا، رغم استخدام مصطلح " عمودي ". وهذا يعني أن الأوامر التي كانت تصدر من الأعلى كانت مبرمة غير قابلة للنقض. لقد استتبع هذا عدم إضاعة أي وقت في النقاش، لكنها لم تضمن حكومة فاعلة. جرى إطلاق الوعود بمحاربة الفساد، ذلك البلاء الذي أرهق روسيا منذ زمن بعيد.

جرى الإعلان عن العديد من البرامج الاجتماعية. لكن في الحقيقة، لم يتم إنجاز سوى القليل على صعيد الحرب ضد الفساد الذي ظل منتشرًا كما قبل، رغم إفادة عرضية من تهم الفساد لهزيمة المناوئين والأعداء السياسيين أو على الأقل لإضعافهم. بعض البرامج الاجتماعية لم ينفذ منها شيء يذكر، ما أدى إلى شكاوى وتذمرات علنية من جانب بوتين.

كان لدى بوتين ثلاثة رؤساء أركان معظم هذا الوقت. الثانــي منهم، فلاديسلاف سوركوف، الذي شغل هذا المنصب من عام 2004 إلى عام 2011، كان أكثرهم ذكاءً وموهبة. بدأ سوركوف العمل مع بوتين بطاقة أدنى عام 2000. وبوصفه شيشاني الأصل من جهة أبيه، فقد نشأ في بيئة روسية بالكامل. كان رجل الأفكار، مكملًا لبوتين، الذي كان اهتمامه يقتصر على مواقف أساسية معينة كالوطنية والقومية. كان سوركوف يسهم إلى درجة كبيرة في صياغة سياسة النظام، بما فيها فكرة الديمقراطية المحدودة (ديمقراطية السيادة أو الديمقراطية الممسوكة). وبحسب تقارير واردة من مصادر مطلعة على خفايا الأمور، كان بوتين يتعامل مع سوركوف من مسافة محددة لم يكن يسمح له بتجـاوزها، حيث إن سوركوف كان قادمًا من عالم التجـارة والاقتصاد (أو بالأحرى، العلاقات العامة) وليس له أي خلفية أمنية.

يبدو كذلك بأن سوركوف كان أكثر ليبرالية بقليل من الآخرين فـي هذه المجموعة، غير متحمس جدًا حيال خط بوتين الديكتاتوري الأكثر تشددًا بعد العام 2010. سُجل لروسكوف قوله أثناء الاحتجاجات الجماهيرية التي اندلعت عام 2012 "بأن الاحتجاجات كانت تضم بعضًا من خيرة الناس في بلادنا "، الأمر الذي لم يرُق للأغلبية المحافظة في القيادة. كان أقل نجاحًا في محاولته تأسيس منظمة شبابية للحزب الحاكم تحت اسم "منظمتنا" Ours، وهي مهمة ربما كان قد أكره عليها. مع ذلك، وحتى بعد صرفه من عمله، فقد استمر بالعمل بكامل طاقاته وكان يقوم بتنفيذ بعض المهام لصالح الكرملين. تظهر السجلات أن بوتين كان مؤمنًا بتناوب للسلطة من هذا النوع، مستندًا إلى عدم إبقاء المسؤولين في مناصبهم لفترة طويلة، ولكن عدم التخلي عنهم مرة واحدة، ما لم يثبت عليهم عدم الولاء. لقد أدرك خطر إنشاء مجموعة متنامية من الساخطين على السلطة.

كان سوركوف رجلًا متقد الذكاء، لم يُخف ذلك، ما جعله في موضع الشك والريبة من قبل البيروقراطيين الذين كانوا يشكلون الغالبية العظمى في أعلى مراتب سلطة الكرملين. كان بوسعه الاستفادة من ألكسندر ديوجين (الذي تخاصم معه لاحقًا) وكذلك مع غليب بافلوفسكي Gelb Pavlovsky، وهو منشقّ سابق كان قد أصلح ذات بينه مع "الأجهزة ". ولكن في النهاية يبدو بأن آراءه واقتراحاته كانت قد زادت عن الحد بالنسبة لرئيسه.

سبق سوركوف في منصبه ألكسندر فولوشين Alexander Voloshin الذي أصبح لاحقًا رئيسًا لشركة نيكل Norislsk Nickel، إحدى الشركات الروسية الرائدة. خليفة سوركوف كان سيرجـي إيفانوف، أحد زملاء بوتين السابقين في الـ كـي جـي بي والذي شغل أيضًا منصب نائب وزير الدفاع، ومن الواضح أن بوتين كان ينظر إليه على أنه أكثر اتزانًا وعقلانية.

البوتينية

ما هي البوتينية؟ عقول وأقلام كثيرة أجهدت نفسها واستنفدت حبرها في البحث عن تعريفٍ دقيق لهذا السؤال، كما يحصل غالبًا عند ظهور نظام جديد إلى حيز الوجود. لكنها لم تكن مغامرة ناجحة جدًا: البوتينية هي رأسمالية الدولة، سياسة اقتصادية ليبرالية لكنها أيضًا تنطوي على قدرٍ كبير من تدخل الدولة - تدخل شامل تقريبًا عندما يتعلق الأمر بالقضايا الهامة. إنها حكومة استبدادية، لكن هذا ليس جديدًا في التاريخ الروسي، حيث يجري التخفيف من حدة الاستبدادية وتلطيفها بالفساد وعدم الكفاءة. هنالك برلمان، لكن أحزاب المعارضة ليست حقيقة في المعارضة. هنالك صحافة حرة، لكن الحرية مقصورة على الصحف الصغيرة وينبغي على النقد ألا يتمادى أكثر من اللازم. هنالك دستور، لكنه ليس بالدليل أو المرشد الأفضل لوقائي روسيا وحقائق روسيا المعاصرة. كان هنالك دستور ستاليني عام 1935، يقال بأنه أكثر الدساتير ديمقراطية في العالم، لكنه لم يكن يمت بصلة لممارسات الستالينية. بات الأمر برمته مادة مغرية للتهكم والسخرية البائسة والنكات. يدرك المؤرخون بأن كل نظام وخاصة كل نظام سياسي متطرف، هو نظام مختلف وفريد من نوعه غالبًا. لا شك بأن البحث عن عقيدة سياسية روسية جديدة هو أمر فريد من نوعه لأن الانتقالات من الشيوعية كانت محدودة جدًا وكل منها كان مختلفًا عن غيره، سواء كان ذلك في الصين أو فيتنام أو أوروبا الشرقية.

يعتقد العديد من المراقبين الوثيقي الصلة بالمشهد الروسي بعدم وجود طلب كبير حاليًا على إيديولوجية جديدة، والاهتمام بهذا الموضوع هو اهتمام ضئيل للغاية. إذا ما تشاجر الناس، فشجارهم فـي معظم الحالات هو حول الشؤون المالية - حول دخلهم أو استثماراتهم وأرباحهم، وحول أفضل السبل المتاحـة لخدمة مصالحهم - ليس حول المسائل الإيديولوجية أو المادية الديالكتيكية.

لا يعني هذا أن أولئك الذين يديرون دفة الحكم في البلاد يحرصون فقط على استثماراتهم. فحقيقة أنهم أصبحوا من أصحاب المليارات لا تجردهم من أهلية الظهور بمظهر الوطنيين الحريصين على العيش في بلدٍ قوي جدير بأن يكون لاعبًا أساسيًا في ميدان السياسة العالمية. الوطنية يمكن تلطيفها والتخفيف من حدة مضامينها ومدلولاتها، لكنها لا تختفي بالضرورة بوجود الثروة والدخل المرتفع. لو أعدنا صياغة ما قاله كارل ماركس في قالب جديد، لأمكننا القول بأن البنية الأساسية المالية لا يزال لها تأثير على البنية الأساسية الإيديولوجية والسياسة المتبعة. هنالك مصلحة واضحة لطبقة النبلاء الجدد في الإبقاء على الوضع الراهن من دون تغيير ويمكن للوطنية أن تكون ذات فائدة مؤكدة في هذا السياق.

بحسب ما أوضحه أندرانيك ميغرانيان Andranik Migranyan، وهو ناطق بلسان النظام الجديد، فهم يريدون سلطة قوية وليس فوضى. لقد استعادت الدولة في عهد بوتين آلية عملها التقليدية، واستعادت كذلك فاعليتها وسلطتها على مواردها، وأصبحت أكبر مؤسسة مسؤولة عن وضع قوانين اللعبة. قد يكون النظام ديكتاتوريًا استبداديًا، لكنه بحاجة إلى موافقة مواطنيه.

قد لا يكون هنالك أي إيديولوجية بوتينية مفصلة، ولكن هنالك وثيقة جرى إعدادها من قبل نخبة من أصحاب الفكر أنشأها جيرمان غريف عام 1999، قبيل تعيينه وزيرًا للتطوير الاقتصادي مباشرة. شكلت هذه النخبة أو الجماعة، التي حظيت بموافقة بوتين، منبرًا لحملة بوتين الانتخابية، وجرى الاستعانة بآرائها ومقترحاتها في مناسبات عدة. استهلت هذه الجماعة نشاطها بالقول إن

روسيا تمر بأعظم أزمة في تاريخها وأن كافة مواردها ومقدراتها السياسية والاقتصادية والأخلاقية ينبغي حشدها لتمكين البلد الموحد من التغلب عليها. البلاد بحاجة إلى شعور جديد بالمسؤولية، إلى مشروع روسيا الجديدة. هذا المشروع الروسي الجديد ينبغي له أن يشكل الأساس لسياسة الدولة وأساسًا للتضامن.

لم تصبح البلاد فاشية، رغم تحركها في هذا الاتجاه. هنالك برلمان والعديد من الأحزاب السياسية، لكنهم يشكلون معارضة موالية تصوت إلى جانب الحكومة حول كافة القضايا المهمة. كان هنالك برلمان، ينبغي أن نستذكر ذلك، أيضًا في ألمانيا بعد 1933 وكذلك في معظم البلدان الشيوعية. لقد رأى جان جاك روسو بأن الديموقواطية ممكنة حتى في غياب أحزاب المعارضة، لكن عددًا قليلًا من طلاب السياسة قد يوافقونه الرأي.

هنالك أيضًا صحافة حرة، طالما لم يتماد الكتّاب في نقدهم للسلطات علمًا أن الصحف (أو المحطات التلفزيونية) لا تصل إلا لعددٍ محدود من القراء والمشاهدين. إذا ما أصبحت الصحف والإذاعات والمحطات التلفزيونية المعارضة بالغة التأثير، فسيصار إلى إغلاقها أو استبدال مالكيها. بهذه الطريقة يمكن الحفاظ على واجهة من الديمقراطية.

إن أهم مكون من مكونات الإيديولوجية الجديدة هو القومية التي يصحبها نزعة عداء للغرب Anti - Westernism. إن أصول هذا العداء المتادي للغرب غير واضحة على الإطلاق؛ لم يكن العداء لأمريكا موجودًا قبل الحرب الباردة بتلك الدرجة المهمة. ولكن من منظورٍ عملي أكثر واقعية، ينبغي أن يكون له علاقة بضرورة أن تقوم منظمة FSP، خليفة KGB، بتبرير وجودها وميزانيتها وسياستها. لأنه ما لم يُصَر إلى حماية روسيا من أعدائها الخطرين والأقوياء والماكرين، فسوف تتعرض البلاد إلى الدمار مرة أخرى. من هنا كانت الحاجة للإبقاء على هذا الجهاز الأمني الضخم والمكلف تحت رئاسة طبقة النبلاء الجدد التي تحكم البلاد. هذه باختصار شديد هي الأركان الأساسية للإيمان بتفكير هذه الطبقة الجديدة.

ماذا عن عقيدة بوتين؟ إنها ليست في الحقيقة سمة دائمة الحضور في التاريخ الروسي - بالرغم من كل شيء، لم يسبق لأي وزير قيصري قط أن أصبح موضوعًا لمثل هذا الثناء والمديح. إحدى شركات الفودكا أطلقت على منتجاتها اسم بوتين، وكذلك منتجات مخفوق اللبن والكراميل والآيس كريم والكباب والطماطم المقاومة للصقيع. لعله كان قد سعى لذلك بمغامراته وهو عاري الصدر في سيبيريا وتوفا. أو لعل ذلك حدث لأنه كان يبدو أكثر شبابًا بكثير ويتحرك بسرعة تفوق سرعة بريجينيف وخلفائه المباشرين. من الواضح أن البلاد كانت بحاجة لمثل هذا الشخص. في مدينة ياورسلاف غير البعيدة عن موسكو، كان لا بد من احتجاز مجموعة من النسوة في إحدى عيادات الطب النفسي بسبب إعجابهم الخارج عن السيطرة بالرجل الذي كان يرتدي بزةً بيضاء (كي يشبه الطائر) ويطير مع اللقالق البيضاء في سيبيريا في طائرة شراعية معلقة. لم يكن هذا ليحصل مع ستالين أو خروتشوف أو بريجينيف.

من سيخلف بوتين يومًا ما؟ هنالك نصف دزينة من الأسماء جرى ذكرها. من الواضح أن الخليفة سيتوجب عليه أن ينتمي إلى "طبقة النبلاء" الجدد. سيتوجب عليه أن يكون قادرًا، ولكن ليس إلى ذلك الحد، كي لا يطغى بريقه على سلفه. سيتوجب عليه أن يكون على ولاء للقائد الذي

عينه وعلى ثقة بأنه سينتهج السياسة ذاتها التي انتهجها سلفه. من بين تلك الأسماء، لعل سيرجي شويغو Sergri Shoigu هو الأكثر شهرة. إنه ليس روسيًا إثنيًا (ستالين لم يكن كذلك أيضًا)، وخلفيته الدينية خلفية بوذية، لكنه يعتبر صقرًا في مجال السياسة الخارجية. شغل ديمتري مدفيديف منصب بديل بوتين في الماضي؛ لا يعتقد بأنه سيكون قائدًا قويًا، لكن هذا الظرف يمكن أن يعمل لصالحه إذا ما تمكّن من السمو بنفسه فوق دائرة الشبهات. الأسماء الأخرى المشمولة في هذه القائمة تتضمن سيرجي سوبيانين، محافظ موسكو. مع ذلك، إذا ما أجل بوتين تقاعده لسنوات، فإن مرشحًا شابًا قد يطل على الساحة بفرص أكبر من فرص أولئك الذين سبق ذكرهم.

الفصل الخـامس

ستالين وسقوط الإمبراطورية البيزنطية

استطلاع الرأي العام: روسيا، 2013. بيان: كان ستالين قائدًا حكيمًا ارتقى بالاتحاد السوفييتي إلى مراتب القوة والازدهار.

موافقة تامة	14.8 بالمئة
موافقة شبه تامة	32.0 بالمئة

شخصيات تاريخية عظيمة، 2012:	
لينين	37 بالمئة
ماركس	4 بالمئة
بطرس الأكبر	37 بالمئة
بوشكين	29 بالمئة
ستالين	49 بالمئة

بعد ستين عامًا من وفاة ستالين، كان لا يزال على روسيا أن تتصالح مع تراثه. في زمن المؤتمر العشرين للحزب مع الخطاب الشهير لنيكيتا خروتشوف، اعتقد كثيرون أن هذه المرحلة كان قد تم الوصول إليها أو سيتم الوصول إليها في الحال. ولكن بعيدًا عن ذلك: هاكم الآن إحدى موسوعات ستالين التي تخبرنا أنه لا يوجد أي دليل قاطع بأن خروتشوف قتله، إلى جانب بيريا Lavrentiy Beria بمفرده أو مع أي عضو من أعضاء المكتب السياسي أو عائلته باستثناء ربما فياتشيسلاف مولوتوف Vyacheslav Molotov. رجل مسكين، بصرف النظر عن إنجازاته العملاقة، يبدو بأنه كان محاطًا بالأعداء والخونة. بعيدًا عن الإنحاء عليه باللائمة على تورطه في كثير من أعمال التطهير، يؤسفنا القول أن "راعي الأمة" لم يكن أكثر تنبهًا ويقظة تحول دون تمكين أولئك الذين نجحوا في قتله من تنفيذ مأربهم، قبل تمكنه من تنفيذ الإصلاحات العظيمة التي كانت لا تزال تراود مخيلته.

لكن ما الذي دفع بمثل هذه الأمور إلى دائرة الاهتمام الآن، بعد مضي أكثر من ستين عامًا على وفاته؟ لم يعد للاتحاد السوفييتي الذي كان ستالين زعيمه العظيم أي وجود، وكذلك الحزب الشيوعي الذي شغل لسنوات عديدة منصب أمينه العام. ومع ذلك، فالمناظرة لا تزال مستمرة. ستالين، بطل التطهير العظيم، جرى تطهيره - واعادته إلى وضعه السابق. ولا تزال عملية الإعادة هذه مستمرة، من دون أي نهاية في المستقبل المنظور. لا تزال مستمرة لأن زعيمًا عظيمًا بحجم

ستالين يرسم إلى درجة حاسمة شخصية البلاد، وما لم يتم وقف عجلة هذه الاستمرارية، فعجلة هذه المناظرة محكومة بمواصلة الدوران.

مع الاستثناء الممكن لهتلر، من الصعب التفكير بزعيم سياسي في عصرنا الحاضر كان أقل ملائمة لمثل هذه المهمة. كان ستالين يفتقر إلى الجاذبية، ويعوزه السحر والكاريزما، ولم يكن يتمتع بذلك القدر من الذكاء المتميز وبعد النظر. معظم المشاريع الكبرى التي كان يخطط لتنفيذها باءت بالفشل، البعض منها في حياته، والبعض الآخر بعد موته. وحتى تلك التي حالفها النجاح، كانت مدينة بنجاحها لكفاءة الآخرين وجهودهم. مع ذلك، فقد كان هذا الرجل متميزًا بخصال وسجايا تفصح عن مكنونها الرسالة الخاصة التالية التي لم يكن متوقعًا لأحد آخر أن يقرأها:

> يبدو بأن ستالين هو أعظم كائن بشري في تاريخنا. لا نجد في تاريخ الجنس البشري مثالًا مشابهًا عن عظمة شخص بعينه، عن عمق الشعبية، عن الإجلال والحب. يجدر بنا أن نفخر بكوننا من معاصريه ومن المتعاونين معه، مهما كان دورنا متواضعًا في هذا التعاون مقارنة بما يقوم به. كم ننسى نحن البشر، وأخص بالذكر جيل الشباب - أننا نتنشق الهواء ذاته الذي يتنشقه - أننا نعيش تحت السماء نفسها. كم يهتف الناس: "حبيبنا الغالي ستالين" - ثم ينصرفون إلى شؤونهم الخاصة ويتصرفون بخسة ودناءة في العمل وفي علاقاتهم مع الآخرين. التعايش مع ستالين يستدعي من معاصريه طهارة وتفان، إيمانًا وارادة، وبسالة أخلاقية واجتماعية لا حدود لها.

كتبت هذه الرسالة بمناسبة الذكرى السبعين لميلاد ستالين عام 1949 من قبل أحد كبار ملحني الموسيقى الشعبية. إحدى أغانيه، التي كانت تحمل الكوبليه المكررة: " لا يوجد وطن في الدنيا يتنشق فيه الناس هواء حرية كذاك الذي نتنشقه "، ظلت لسنوات عديدة الموسيقى المميّزة لإذاعة موسكو. الملحن الذي كتب هذه الكلمات كان عليه أن يعرف بأن في كل عائلة من معارفه من دون استثناء كان هنالك شخص "مقموع "، حتى يستخدم تلك العبارات التلطيفية للسنوات اللاحقة، أن الشخص الذي كتب عنه كان أحد كبار سفاحي المجازر الجماعية في التاريخ الحديث وأحد كبار الكذابين. مع ذلك فقد ألمح إلى "طهارة ليس لها حدود" و"بسالة أخلاقية واجتماعية ".

جرى تحليل الستالينية على خلفية الحماسة العارمة، وتخلّف البلاد، وسذاجة المتحمسين، والأخطار المترائية من الخارج، وغيرها. ولكن طالما أن كافة المحظورات والممنوعات قد أفسح أمامها في المجال للخروج من عقالها، كيف نفسر ونشرح هذا الإعجاب الذي يقارب العبادة بعد أن كانت حقيقة ستالين قد باتت معروفة وأزيح عنها الستار - قد يعزى ذلك في جانب منه إلى ذلك الانفراج الذي حصل في عهد خروتشوف، وفي تفصيل أكبر بكثير بعد الغلاسنوست، عندما سنحت الفرصة أمام الشهود المعصومين أمثال المؤرخ ديمتري فولكوغونوف Dimitri Volkogonov لدراسة ستالين وعهده بقدر كبير من التفصيل؛ بعد أن تم نشر سيرة البيانات الشخصية للزعيم الراحل والبيانات الذاتية التي كتبها بنفسه، إلى جانب روايات وأفلام ووثائق حول الفترة الستالينية؟ ولكن لماذا لا يزال من الصعب، وغالبًا من المستحيل، النطق بالحقيقة حيال هذا الرجل؟

تأسست جمعية "ميموريال" Memorial، وهي جمعية تاريخية ثقافية، في كانون الثاني/يناير 1989. وقامت بجمع مواد أصلية موثقة حول ضحايا الستالينية. وبفضل مبادرتها، جرى إصدار قانون إعادة التأهيل عام 1991. مع ذلك، فإن معظم الدعم المالي للجمعية كان يأتي من خارج روسيا.

كان هنالك وبلا أي شك إجماع بهذا الخصوص. كان للستالينية مدافعون أيديولوجيون، وكان هنالك الكثير ممن استفادوا من السياسات الستالينية. كان دعم ستالين يأتي أساسًا من صقور الحزب الشيوعي، ولكن في غضون سنوات قليلة انضمت إليهم جماعات وأفراد آخرون - معظمهم من القوميين الروس - ممن لم يكونوا من المدافعين الأوائل عن ستالين. ولكن بمرور الوقت، تغيرت نظرتهم بصورة جذرية. في عهد ستالين أصبح الاتحاد السوفييتي شيئًا فشيئًا قوة عظمى، كانت مصدر فخر واعتزاز عظيم للوطنيين الروس. ومع انهيار الاتحاد السوفييتي، تضاءل شأن روسيا في العالم. وهذا هو بيت القصيد والأمر المهم في النهاية. كانت العقيدة الماركسية اللينينية ظاهرة عابرة، و"الأممية البروليتارية " سرعان ما أهملت ودخلت عالم النسيان؛ لكن وضع القوة العظمى كان مبعث فخر واعتزاز كبيرين، وخسارته بمثابة مأساة - في نظر القوميين الروس بالتأكيد. كان التحدي الأكبر والمهمة الأسمى بالنسبة لهم هي استعادة تلك المكانة. صحيح أن ستالين لم يكن روسيًا إثنيًا، لكنه أصبح روسيًا فخريًا تماشى مع حياتهم ومبادئهم وبذل كل ما بوسعه للدفاع عن قضيتهم ودعمها.

نذر يسير من القوميين الروس يمكن أن يتماشى مع كل عمل أو فعل كان يقوم به ستالين، لكن الأشياء الحسنة (بحسب اعتقادهم) التي كان يقوم بها كانت تفوق بمراحل إخفاقاته وأخطاءه. إنه جزء لا يمكن تغريبه عن تاريخ روسيا لأنه يكمن في صميم هذا التاريخ.

ما هي إنجازات ستالين العظيمة؟ أولًا وقبل كل شيء، بالطبع، أن البلاد في عهده توسعت وأصبحت قوة عظمى. لقد بنى صناعة قوية عصرية وجعل من الزراعة مقومًا فاعلًا من مقومات الاقتصاد. وبفضل قيادته الحكيمة والكفوءة، تم دحر الغزو النازي. وبفضل قبضته الحديدية، خرجت كل المكائد والمؤامرات العديدة التي حيكت ضد الاتحاد السوفييتي بخفي حنين.

بعض من إنجازات ستالين لم يعد يجري الاتيان على ذكرها - على سبيل المثال، أن الفضل يعود إليه كما يعود للينين في انتصار ثورة أكتوبر العظيمة؛ أو أنه بفضل المساعدة التي قدمها لتروتسكي، كانت الغلبة للروس في الحرب الأهلية. يعتقد غالبية الروس أنهم كانوا بغنى عن تلك الثورة وتلك الحرب الأهلية.

ماذا بشأن الإنجازات الأخرى؟ فيما يتعلق بتوسع روسيا، فقد كانت روسيا القيصرية أكثر نجاحًا على هذا الصعيد. لقد كانت الإمبراطورية القيصرية تشمل فنلندا ومعظم بولونيا، وهو توسع لم يعد يعرفه الاتحاد السوفييتي. الخطوات الكبرى على صعيد الصناعة والزراعة؟ كان الاتحاد السوفييتي في أثناء عهد ستالين ولسنوات عديدة متخلفا عن ركب البلدان المتقدمة. كان ثمن المعاناة باهظًا لقاء أي خطوة كان يجري اتخاذها كائنة ما كانت. كان ستالين استراتيجيًا كارثيًا في بداية الحرب العالمية الثانية. تجاهل العديد من التحذيرات بشأن الهجوم النازي، وبالنتيجة، كان عدد الجنود الروس من القتلى والأسرى هائلًا. وإذا ما قدر للاتحاد السوفييتي أن يحقق النصر في النهاية، فهذا يعود بشكل رئيسي إلى أن ستالين كان قد قلل من تدخل ماريشالاته وجنرالاته في أمور الحرب. الاتحاد السوفييتي هزم ألمانيا النازية، مثلما هزمت روسيا نابليون. لكن القيصر مع ذلك لم يحظ بمكانة القائد العسكري العظيم لكل العصور والأزمنة. الثمن الذي كان يتوجب دفعه مقابل كل إنجازات ستالين كان مذهلًا - بخصوص عدد الذين قتلوا أو أرسلوا إلى معسكرات الاعتقال. كان النظام السياسي الذي ظهر إلى حيز الوجود نظامًا ديكتاتوريًا متوحشًا يستند إلى قمعٍ وبروباغاندا

بدائية كذوبة، وكذلك إلى تقديس وتبجيل غير مسبوق للزعيم وصل إلى حد العبادة التي لامست تخوم السخف والابتذال - ستالين، بوصفه العبقري الذي عقمت من بعده الأرحام، القديس الأعظم، والبطل الذي خسئت من بعده الأبطال.

نسوق إليكم في هذا السياق مثالًا من بين ملايين الأمثلة، وهي مقالة حول ستالين وهو يعلق على إحدى اللوحات للرسام فيودور شيربن Fyodor Shurpin، والتي حظيت بجائزة ستالين الحكومية أواخر الأربعينات. اللوحة تصور ستالين في وقت مبكر من صباح يوم مشرق وهو يتمشى في حقول إحدى المزارع التعاونية حيث تتراءى على البعد خطوط أبراج التوتر العالي. كان يرتدي سترة قصيرة ضيقة بيضاء ومعطفه المطري منسدل فوق ذراعه وأنوار الربيع الذهبية تضيء ملامح وجهه المفعم بتعابير المجد والعظمة وتنعكس على مجمل تقاطيع جسده، وأشعة الشمس الذهبية تكلل كامل المشهد بهالة من السحر والروعة. يستحضر أحدهم أبياتًا من الشعر عن ستالين لشاعر الشعب دزامبول Dzambul يقول فيها:

أيها العظيم ستالين، يا شمس الربيع المتألقة التي تسير بثقة نحو الفجر الجديد. إن صورة الرفيق ستالين هي صورة المسيرة المظفرة للشيوعية، رمز الشجاعة، رمز الشيوعية، رمز المجد الذي يفخر به الشعب السوفييتي العظيم، المُطالب بمآثر بطولية جديدة لمصلحة وطننا العظيم؛ في هذه الصورة تتجسد الملامح الخالدة لرجل حكيم مهيب، وفي الوقت نفسه رجل عفوي متواضع إلى درجة مدهشة، وهو زعيمنا المحبوب...

يتبين من السجلات أن ستالين قام بزيارة إحدى القرى في يوم من الأيام قبل تطبيق قانون الملكية الجماعية الاشتراكي.

هذه إذا كانت الروح ونمط الحياة السائدة آنذاك. كان هذا النمط هو ما حدا بميخائيل بريشفين Mikhail Prishvinلأن يدون في مذكراته بأن " البرافدا هي أسوأ كاذب عرفه العالم على الإطلاق." لم يكن بريشفين عالمًا بالسياسة أو حتى مهتمًا بها. كان مؤلفًا محبوبًا لكتب الأطفال، لكنه كان يعرف الفرق بين الحقائق والأكاذيب. وكان يعرف بأن البرافدا كانت صوت سيدها.

بالنهاية، فإن الصرح الذي أشاده ستالين لم يعمر طويلًا؛ لقد بدأ يتداعى بعد موته. قيل في معرض الدفاع عنه بأن ذلك لم يكن خطأه، وانما خطأ ومسؤولية أولئك الذين خلفوه من القادة والزعماء الخونة غير الأكفاء. مع ذلك، فإن أولئك الخلفاء كان يجري اختيارهم وتدريبهم من قبله. ومن أي زاوية نظرنا، لا يمكن لستالين أن يتنصل من المسؤولية.

بعد زوال الاتحاد السوفييتي، بدأت ظاهرة الإعجاب بستالين وتبجيله تعود مجددًا بشكل جدي من خلال المقالات والكتب التي ألفها يوري زوخوف Yuri Zhukov في الكومسومولسكايا برافدا Komsomolskaya وفاديم كوزينوف Vadim Kozhinov في الـ ناش سوفرمينيك ومولودايا غفارديا، صحيفتان تابعتان "للحزب الروسي " الذي كان يتمتع بقدر من الحرية حتى خلال فترة الثمانينات، بالرغم من أن يوري أندروبوف كرئيس للاستخبارات كان قد اتخذ موقفًا متشائمًا أو معاديًا من آرائها.

بحسب كوزينوف، فقد كان ستالين قوميًا روسيًا بحق، بالرغم من أنه كان يعتبر نفسه ماركسيًا لينينيًا مخلصًا. مع ذلك، لم تكن الستالينية في الوقت نفسه ظاهرة روسية محضة، فقد حولت "القوى العالمية القوية ستالين إلى زعيم مطلق القوة ". بكلمات أخرى، كان الأجانب مسؤولين عن ظاهرة

التقديس والعبادة تلك. بعض أنصار اليمين الروسي ذهبوا أبعد من ذلك حين قالوا إن هدف ستالين هو تطهير الحزب من "الأمميين،" وكان في ذلك كل الخير.

وأخيرًا، كان هنالك أبطال النهج المعادي للسامية. بالنسبة إليهم، كان ستالين مجرد دمية يحرك خيوطها اتباع تروتسكي وكاغانوفيتش.

استمرت ظاهرة الدفاع عن ستالين خلال فترة التسعينات، ولو بوتيرة أقل، لكنها عادت إلى زخمها الأول مع بداية القرن الحادي والعشرين. كان سيد الكرملين الجديد من أصحاب الرأي القائل بأن "ديمقراطية ستالين " كانت قد أوغلت بعيدًا أكثر من اللازم. أعيد نصب تماثيل ستالين من جديد في مدن مختلفة. مع بعض الاستثناءات، فقد جرى حظر نشر الكتب التي كانت تتحدث عن القمع والاضطهاد. الاستثناء الرئيسي كان كتاب سولجنيتسين Solzhenitsyn، الذي كان صدقه واخلاصه كقومي روسي فوق كل الشبهات. خلال إحدى المقابلات سأل بوتين: "ما هو الفرق الأساسي بين كرومويل Cromwell وستالين؟ هل بوسعكم أن تخبروني؟ لا فرق..." لكن كان على بوتين أن يعرف أنه كانت هنالك بعض الاختلافات. صحيح أن ما فعله كرومويل في إيرلندا جرى تصنيفه من قبل بعض المؤرخين كمذبحة جماعية، لكنها حدثت قبل عدة قرون مضت، في وقت كانت فيه المعايير الإنسانية مختلفة كليًا عن معايير القرن العشرين. وحتى لو تجاهل المرء الأرواح والحقوق البشرية، يبقى هنالك ذلك الشيء الصغير المتمثل بالولاء، الذي، حسبما تردد، لطالما كان بوتين من كبار مؤيديه - الولاء على سبيل المثال لزملاء المرء بالذات. جرى هنالك نقاش مفتوح حول وجوب تكريم ستالين في محطة مترو كورسكي في موسكو. في الوقت ذاته، كانت استطلاعات الرأي تظهر بأن أكثر من نصف السكان تقريبًا لديهم آراء إيجابية تجاه ستالين وسياساته.

صحيح أن بوتين صرح في مناسبة أو اثنتين بأن ستالين (ومجمل عهده) كان موضع جدل، وأن بعضًا من أعماله وأفعاله لم تكن موضع إعجاب. لأن ستالين، برغم كل شيء، كان قد أصدر أوامره بقتل عشرين ألفا من زملاء بوتين من جهاز الـ NKVD/KGB، سيف الاتحاد السوفييتي ودرعه الشهير. أدم يكن لذلك صداه؟ وقد عرج مدفيديف على ذكر الاستبداد والمجتمع المغلق، ملمحًا إلى أن بعض سياسات ذلك العهد على الأقل لم تعد مقبولة. ولكن على العموم، فقد تشكل هنالك انطباع بأن الأصوات المناوئة لمعاداة الستالينية كانت تعلو يومًا بعد يوم وتغدو أكثر وضوحًا وأكثر رسمية. في أحد مؤتمرات أساتذة مادة التاريخ في حزيران /يونيو 2007، أعلن بوتين عن إعداد كتاب كان بحسب التقارير يهدف إلى تقديم ستالين كبطل مرعب ولكن ناجح يتصرف بعقلانية؛ كان الرعب أحد سبل التطور، وكان الهدف من ذلك غرس شعور من الفخر والاعتزاز في نفوس الشباب بوطنهم.

بعد ذلك بفترة وجيزة، في تموز/يوليو 2009، أعلنت وزارة التربية بأن كتاب أرخبيل الغولاق Gulag Archipelago لسولجنيتسين سيصبح مقررًا مطلوبًا لطلاب المرحلة الثانوية الروس. مع ذلك فقد كان لدى الأساتذة حرية الاختيار من قائمة من حوالي أربعين كتابًا تغطي الفترة الستالينية.

بحسب مجموعة متنوعة من استطلاعات الرأي، فقد كان هنالك اتجاه متزايد بأن المناقشات والمناظرات حول ستالين ودوره التاريخي كانت تتسم بأهمية خاصة، سيما للمفكرين والمؤرخين، وليس لعامة الناس عمومًا. مع ذلك، وفيما يتعلق بالكتب والمنشورات، فقد كانت هنالك أغلبية واضحة من المناوئين للمدرسة الفكرية المعادية لستالين. وفيما يتعلق بالحكومة، كانت المهمة الرئيسية تتمثل بتعزيز الإحساس بالفخر والاعتزاز بالوطن، ولهذا السبب فإن خطًا آحادي الجانب مناوئا لستالين لم يكن مجديًا.

لقد تشكل الانطباع بأنه خلال فترة بوتين كان هنالك توجه مطرد لإحياء الستالينية. سيل من الكتب التي كانت تزعم بأن أعمال التطهير التي قام بها ستالين والعديد من تجاوزاته كانت مبررة، وأن معظم الزعماء السياسيين في ذلك الوقت كانوا قد خانوا ستالين وغدروا به، وأنه لولا تلك المواقف الجسورة والحاسمة التي اتخذها ستالين قبيل وخلال الحرب العالمية الثانية لما قدر للاتحاد السوفييتي أن يكسب الحرب.

يحتج البعض قائلًا بأن ما يسمى بأعمال التطهير العرقي (الاعتقالات والإعدامات الجماعية) كانت في الحقيقة قد تمت بتحريض وتنفيذ أعداء ستالين وليس ستالين نفسه. لقد زعم أعداء السامية في أوساط هؤلاء الكتّاب بأنها كانت من فعل اليهود. وبمجرد أن أبعد اليهود عن جهاز NKVD/KGB، توقفت أعمال التطهير.

كان ستالين شخصًا مصابًا بجنون العظمة، وكان مرضه معديًا، والهدف من هذا الأدب الجديد كان إظهار أن خيالاته وتصوراته كانت مبررة. كان مقتنعًا بأن أولئك الذين من حوله في المكتب السياسي والجهاز الأمني كانوا في أحسن أحوالهم أناسًا بسطاء سذّج، وطيبي القلب، غير مدركين لحقيقة أن العالم كان يعج بالأعداء وأنه من دون قائد مثله، فسوف تضيع البلاد. كان درّة فريدة من نوعها لا تعوض. وصلت هذه الحالة من جنون العظمة إلى ذروتها خلال السنة أو السنتين الأخيرتين من حياته مع مؤامرة "الأطباء"، عندما زعم بأن الأطباء الذين يعالجون كبار السياسيين والجنرالات قد حاولوا عن عمد قتل مرضاهم؛ من الواضح أن أحدًا في الكرملين من أندريه زدانوف وألكسندر تشيرباكوف ومن بعدهم لم يمت ميتة طبيعية. لقد اتفق أن معظم الأطباء كانوا يهودًا، ومن الواضح أن ستالين كان يخطط لاعتقال جميع أو معظم اليهود في روسيا وترحيلهم إلى مكان بعيد داخل الاتحاد السوفييتي.

كان التوجه العام لهذه الموجة الجديدة من الأدب الاعتذاري تنحى إلى تبرير كل ما فعله ستالين. بعض الكتاب والمؤلفين كانوا مختصين محترفين بتفنيد أو معارضة أي شيء كان يصرح به من قبل الآخرين والقاء ظلال من الشك عليه. البقية، مؤرخون محترفون أو أنصاف محترفين، كانوا يسعون إلى تقديم نظريات أكثر حذلقة وتعقيدًا لتبرير مذابح ستالين الجماعية.

لقد شكل ذلك فرقًا شاسعًا حول ما إذا كانت هذه الكتب هي من بنات أفكار كتّاب خياليين يسعون وراء الإثارة وإدهاش القارئ أو مزوّرين أو مخرّفين، أو أنهم كانوا مقتنعين بصدق بأن خيالاتهم وتصوراتهم كانت حقيقية أو كانوا من المؤمنين الحقيقين بستالين ممن يهدفون إلى جعل خيالاتهم بمثابة السياسة الرسمية للحزب في السنوات القادمة.

كل هذه الحوافز والدوافع المتنوعة يمكن إيجادها في أوساط أولئك الباحثين عن أعذار ومبررات لستالين. من غير المفاجئ وجود مثل هؤلاء المبرّرين؛ عبر التاريخ، كانت أكثر المقولات والنظريات غرابة وبعدًا عن الحقيقة تجد من يصدقها، وكلما كانت البواعث أكثر عاطفية أو سياسية، كان الإغراء بالسباحة عكس التيار أكبر.

كانت القضية الحاسمة تتمحور حول ما إذا كانت السلطات ستقبل بهذه المعطيات كأساس لسياسة حزب جديد، لكن لم يكن هناك أي جواب واضح؛ فقد أوضحت السلطات مكان تموضع تعاطفها، لكنها كانت لا تزال غير قادرة على حمل نفسها على تصديق النسخة الستالينية والموافقة عليها.

بمرور الوقت، فإن أهمية قضية ستالين سيكون محكوم عليها بالأفول والتلاشي. حتى الآن لا تزال القضية تتسم بقدر ضئيل من الأهمية بالنسبة للجيل الأصغر سنًا. مهما يكن من أمر، فهي تبقى قضية ذات شأن، لأن ستالين هو في الحقيقة جزء من تاريخ روسيا، واذا ما اعتقد حكامها بأن الحقيقة حول هذا الجزء من تاريخ بلادهم لا يمكن إبرازها خشية أن يكون لها تأثير خطير على الثقافة الوطنية - واذا، بمعنى آخر، ما طغى الفخر والاعتزاز على الحقيقة - فإن هذا سيثير أسئلة مربكة حول شخصية مثل هذا المجتمع. إن تاريخ كافة الأمم، سيما بدايتها، مجلّل بالخرافات، ولكن هنالك فرق بين السؤال ما إذا كان رومولوس وريموس Romulus and Remus شخصيتين حقيقيتين بالأساس، والنزوع المتعمد نحو تغطية جرائم ديكتاتور آثم شرير على نحو خاص والمجتمع الذي أوجده. ما الذي يستفيده المرء من شعب يجد من المستحيل تلمس الفرق بين الحقيقة والزيف، بين الوحش والقديس؟

سقوط الإمبراطورية

الستالينية هي إحدى القضايا التي أسهمت في إحاطة مولد عقيدة جديدة للمجتمع الروسي بهالة من الشك والريبة. فهي تثير السؤال المتعلق بالصدقية في التاريخ عمومًا وأي نوع من التراث ستحبذ روسيا الجديدة التأكيد عليه وبناء ذاتها على أساسه. قضية أخرى استحوذت على حيز واسع من النقاش، هي قضية بيزنطة، سيما الأسباب وراء سقوط الإمبراطورية؟

لا يزال السبب وراء اكتساب هذا السؤال مثل تلك الأهمية غير واضح حاليًا. وبحسب مدرسة الفكر القومي الأوراسية، فإن تأثير التراث البيزنطي على روسيا كان أقل بكثير من تأثير المغول والتتار. مهما يكن من أمر، فالإمبراطوريات لا تدوم إلى الأبد، وهكذا يغدو من الأهمية بمكان استكشاف السبب وراء بقاء بيزنطة الفترة التي بقيتها، وتحري الأسباب التي أفضت إلى سقوطها.

في كانون الثاني /يناير عام 2008، بثت القناة الرئيسية في التلفزيون الروسي فيلمًا وثائقيا بعنوان (سقوط بيزنطة)، من إنتاج الأرشمندريت تيخون Tikhon.

كان تيخون، المولود في موسكو عام 1958، يشغل منصب رئيس معهد سريتنسكي مونستري Sretensky Monastery، وهو معهد لاهوتي أورثوذكسي في موسكو. وقد تردد أيضًا بأنه كان يعمل بصفة مستشارٍ روحي لبوتين، لكنه رفض الإجابة عن أسئلة تتعلق بهذا الموضوع خلال المقابلات التي كانت تجرى معه.

كان الأب تيخون قد تدرب أساسًا كمنتج أفلام وتخرج من المعهد الرائد في هذا المجال. فيما يتعلق بظروف تحوله الديني وعمله كقسيس، تقول سيرته الذاتية التي خطها بنفسه إنه كان ينتمي إلى مجموعة من الطلاب الذين كانوا ساخطين على القحط الفكري وانعدام الجاذبية لدى الإيديولوجية الشيوعية، وكانوا منخرطين في تجارب روحية مع مجلس Ouijaالروحاني. كانت المجموعة التي ينتمي إليها تحاول التحادث في إحدى جلساتها مع نيكولاي غوغول Nikolai Gogol، الكاتب الروسي الشهير. غوغول (أو شبحه) كان يظهر في الوقت المناسب، ويوبخ الطلاب بعنف ويطلب منهم تجرع السم حالما يمكنهم ذلك. استشار الطلاب المذعورون في اليوم التالي أحد الكهنة الذي أخبرهم بأنهم كانوا ضحايا بعض المشعوذين المحتالين - واذا كانوا حقًا مهتمين بالدين، فينبغي عليهم دراسته بجدية. هذا ما فعله تيخون وخرج بنتائج جديرة بالتقدير والإعجاب.

يبدأ الفيلم الوثائقي بأنشودة عن بيزنطة. كانت تمتد من مضيق جبل طارق حتى نهر الفرات ودامت لفترة أطول من أي إمبراطورية أخرى. كانت قوانينها متميزة؛ كانت هندستها وعمارتها لا تضاهى؛ وكان نظامها المالي فائق الروعة. كانت ثروة عاصمتها عصية على الحساب، في حين أن جمالها وأناقتها أذهلت البرابرة الأوروبيين ممن قاموا بزيارتها. كل هذا كان في زمن كان فيه الاسكندنافيون والإنكليز، وكذلك الفرنسيون والألمان، القساة والجهلة والبدائيون، منشغلين بشيء واحد فقط - النهب والسرقة. بنتيجة سلب ونهب ثروات القسطنطينية بدأت رساميل المصارف الأوروبية تتضخم وتتعاظم وتأسس نظام الإقراض المتوحش المعاصر - النظام الرأسمالي الشهير بشهيته المفتوحة للربح. أول عاصمة يهودية ذات شأن وجدت بنتيجة المضاربات بالآثار والعاديات البيزنطية. لم يتحول الغرب البربري إلى غرب متحضر إلا بعد أن استولى على الإمبراطورية البيزنطية وقام بنهبها وسرقتها وتدميرها وابتلاعها.

لكن هذه كانت مجرد البداية. فقد تخلت بيزنطة عن سيطرتها على تجارتها ومقدراتها المالية "لأصدقائها" الأجانب من الغرب. الغرب بالتالي استدرج بيزنطة للانضمام إلى كل أنواع المؤسسات التجارية الغربية الموحدة. كانت رساميل بيزنطة تتدفق نحو الغرب، وأصبح تجار بيزنطة مفلسين أو معتمدين على الغرب. في هذا الوقت أدركت الإمبراطورية ما كان يحدث، لكن بعد فوات الأوان.

لم يكن الأوان قد فات، لأنه بعد ستين عامًا، حاولت بيزنطة استعادة مجدها الضائع، لكن بلا جدوى. تعرض الإمبراطور أندرونيكوس Andronikos الذي حاول استرجاع أسباب القوة والسلطة للقتل بطريقة وحشية، وتحولت بيزنطة إلى "الإمبراطورية الشريرة ". وبمرور الوقت، كان يجري سحب هذه الصورة بصورة متواصلة من المستودعات الإيديولوجية الغربية كي يصار إلى استخدامها كلما دعت الحاجة. الاتصال الشرير مع الغرب جلب إلى بيزنطة الأوليغاركيين والفساد. والعلاقات الثقافية أنتجت طابورًا خامسًا غربيًا. كان الشباب يذهبون إلى الخارج للدراسة، بنتائج كان بالإمكان توقعها والتنبؤ بها.

كل هذا تكشف في بداية الحقبة التي يسميها المؤرخون "بالنهضة الأوروبية "، التي يعتبرها المؤلف بمثابة شر مستطير. أول من استسلم لهذه التأثيرات الغربية كان طبقة النخبة المثقفة: "عملية خلق جديد لمشروع قومي هليني إغريقي وثني على مستوى العالم." وهكذا تمضي الحكاية

نحو النهاية المريرة: "ضحت طبقة النخبة المثقفة بمبادئها السامية لصالح منافع ومزايا عملية. انهارت الروح الملهمة في واحدة من أعظم الإمبراطوريات التي كانت قد قدمت للعالم أمثلة مهيبة رائعة عن تحليقات الروح في ذلك الملكوت الذي تحول الآن إلى مرتع للنزاعات والسفاهات والسخرية والتهكم."

في معرض وصفه لحشرجات النزع الأخير لبيزنطة، يختتم الراوي كلامه قائلًا: "لا تزال جمار كراهية الحقد والانتقام التي يكنها الغرب تجاه بيزنطة متقدة حتى اليوم. من دون فهم واستيعاب هذه الحقيقة الصادمة وإنما المؤكدة، فإننا نعرّض فهمنا ليس فقط لتاريخ الأيام الخوالي، وإنما أيضًا لتاريخ القرن العشرين بل والحادي والعشرين للخطر."

جرى عرض هذا الفيلم الوثائقي بشكلٍ متكرر على القناة الأولى للتلفزيون الروسي، وجرت مناقشته على نطاق واسع على مدى ثلاثة أشهر. كانت آراء معظم بل كافة المؤرخين سلبية؛ الجانبان كلاهما اتفقا على أن الفيلم كان حقًا حول روسيا المعاصرة، وليس بيزنطة. كان النقّاد السياسيون والأدبيون منقسمين أيضًا؛ الغالبية العظمى لم تتفق مع استنتاجات الأب تيخون.

يظهر عرض فيلم وثائقي من هذا النوع على قناة التلفزيون الروسي الرئيسية بأن جانبًا لا يستهان به من الرأي العام الروسي لم يصدق في الحقيقة بأن الغرب كان على تلك الدرجة من العداء لروسيا وكل ما يمثلها، ولكن أن يكون مثل هذا العداء متأصلًا ومتجذرًا إلى حد يجعل روسيا عاجزة عن القيام بأي شيء حياله قد يؤثر عليها. لذلك، فإن هدف الغرب كان متمحورًا حول تدمير روسيا، وأنه ينتظر فقط الفرصة المناسبة للتخلص من العدو الأبدي. إذا كانت هذه هي الحال، ألم يكن من واجب زعماء روسيا التحسب وأخذ الحيطة لمنع تكرار مثل هذا الوضع إطلاقًا؟

لم يكن إنتاج فيلم وثائقي ذي أهمية تاريخية من قبل منتج /راهب، بصرف النظر عن علاقاته، الدليل الوحيد على عاطفة وجدانية سائدة. فقد جرت هنالك محاولات ومساعٍ مشابهة على مستويات مختلفة من التطور والتعقيد. الشخصية الأخرى التي يجدر الإشارة إليها هي رواية "الإمبراطورية الثالثة " لميخائيل يوريف Mikhail Yuriev التي حققت أعلى نسبة مبيعات.

إنها رواية خيالية ضخمة (620 صفحة) كتبت من قبل أحد كبار رجال الأعمال الذي كان أيضًا عضوًا في مجلس الدوما. تتحدث الرواية عن زيارة قام بها عالم اجتماع برازيلي شاب إلى روسيا في مستقبل ليس ببعيد. كانت روسيا في ذلك الوقت قد ابتلعت أوروبا والصين وبقية العالم تقريبًا. بعد أن كان قد توضح بأن القوات الأمريكية الخاصة كانت مسؤولة عن كافة الهجمات الإرهابية داخل روسيا، عمد الكرملين إلى الرد داخل شيكاغو وأوهايو؛ كانت الحصيلة خمس وعشرون ألف ضحية في شيكاغو، وأكثر من ذلك في أوهايو.

لكن هذا لم يكن كل شيء: في أعقاب بعض التحذيرات أرسلت روسيا عدة صواريخ نووية إلى صحارى نيفادا ويوتاه ونيومكسيكو؛ ولأسباب إنسانية، كان قد تم اختيار هذه المناطق المأهولة قليلًا بالسكان. كان على أمريكا أن تدفع ترليون دولار تعويضًا مقابل تمسكها بألاسكا. حتى قبل ذلك في 2014، كانت روسيا قد غادرت كل المنظمات الدولية وأنهت كافة التزاماتها بموجب معاهدات

دولية. داخل روسيا، لم يعد لأوكرانيا وجود، لأن جميع الأوكرانيين كانوا قد أصبحوا روسًا. كان قد تم إلغاء البرلمان لانتفاء الحاجة إلى وجوده. البلاد كان يحكمها إمبراطور.

يمكن القول بأن فانتازيا من هذا النوع لا تستحق نقاشًا جديًا. لم تتم الموافقة على فيلم تيخون الوثائقي، على سبيل المثال، من قبل بطريرك موسكو، وقد أعلن بقية كبار رجال الكنيسة بأن آراء تيخون ووجهات نظره لم تكن تعبر عن آراء ومواقف الكنيسة الأورثوذكسية. حصلت هنالك أحداث غريبة في السنوات الأخيرة في أوساط كبار رجال الكنيسة. لقد تحول أحدهم ويدعى فياتشيسلاف بولوسين Vyacheslav Polosin، الذي كان رئيسًا للجنة الدوما المسؤولة عن الشؤون الدينية، إلى الإسلام وكرّس الكثير من وقته وجهده منذ ذلك الحين لإثبات أن روتشيلد وجورج سوروس George Soros كانا قد أطلقا شرارة الربيع العربي، والذي من وجهة نظره كان ظاهرة بالغة السلبية. إحدى الشخصيات الكبيرة الأخرى خرجت إلى الملأ بزعم أنه كان هنالك في أوساط قيادة الكنيسة لوبي بالغ القوة يحاول منع إصدار تشريع يسمح بزواج المثليين. (إن صح ذلك، فإن هذا اللوبي كان غير فاعلٍ بمفرده.)

في ضوء السيناريوهات المزعجة والمربكة التي جرى استحضارها في "الإمبراطورية الثالثة،" يمكن للمرء أن يكون قد توقع من المؤلف بناء ملجأ عميق تحت الأرض في بيته بعيدًا عن وسط موسكو أو اللجوء إلى بعض جزر البحر الجنوبي. عوضًا عن ذلك، فقد انتقل يورييف إلى الولايات المتحدة بحجة أن فرص العمل هناك أفضل بكثير. بالطبع، يمكن أن تكون هذه هي الحال، لكنها تثير أسئلة تتعلق بالسلامة العقلية للمؤلفين والناشرين في العاصمة الروسية وكذلك أصالة وعمق وطنيتهم. لماذا نأخذ على محمل الجد فيلمًا وثائقيًا تلفزيونيًا أنتجه أرشمندريت مغمور على صعيد التراتبية الهرمية الكنسية؟ برغم كل شيء، فإن السيد بوتين معروف ببراغماتيته؛ ولا هو ولا زملائه سيرغمون على تغيير قراراتهم السياسية جراء فانتازيا طوباوية أو غير طوباوية.

كان لمثل هذه الحجج والمزاعم أن تبدو مقنعة في عام 2008 و2007، عندما جرى تقديم العملين موضوع البحث للعامة لأول مرة. لسوء الحظ، يشعر المرء بمرور الوقت بأنه بات أقل يقينًا بهذا الخصوص.

الفصل السادس

الديمغرافيا

ينبغي لأي نقاش وأي توقع بشأن مستقبل روسيا أن يبدأ بالتركيز على الديمغرافيا. وما لم يكن من المعروف، ولو بشكل تقريبي، عدد الذين سيعيشون في البلاد خلال الأعوام العشرة أو العشرين أو الخمسين القادمة منذ الآن، فإن مثل هذا النقاش سيكون بلا جدوى، أو أنه سيفضي إلى استنتاجات متعددة، وليس استنتاجًا واحدًا.

ومن المعتقد أنه في القرن الثامن عشر، بعد وفاة بطرس الأكبر، كان حوالي خمسة إلى ستة ملايين شخص يعيشون في ما كان يعرف آنذاك بروسيا. الإحصاء (الامبراطوري) الأول والوحيد حدث عام 1897؛ وقد استغرق إعداده سنوات، وكان دقيقا بلا شك، واستنتج بأن عدد السكان الذين كانوا يعيشون آنذاك في الإمبراطورية الروسية هو 125 مليون نسمة (16 مليوناً في المدن والباقي في الأرياف).

وبحسب قوميين روس من التشكيلة القومية المتطرفة، كان ينبغي أن يكون هنالك 600 مليون روسي يعيشون في روسيا اليوم، لولا حقيقة أنه منذ العام 1897 حدثت سلسلة من الكوارث الكبرى - الحربان العالميتان الأولى والثانية، والحرب الأهلية بين عامي 1918 - 1919، والحكم الشيوعي (بما فيه المجاعة التي حلت بالبلاد نتيجة سياسة الخصخصة الزراعية وجماعية ملكية وسائل الإنتاج، ومذابح ستالين الجماعية ومعسكرات الاعتقال) - والتي أثرت سلبًا على معدل النمو السكاني. الرقم الفعلي اليوم، بحسب زعمهم، هو بحدود 142 مليون نسمة.

لكن لا يمكن للكوارث وحدها أن تتسبب بكل هذا المستوى من التراجع والتردي: لنأخذ، على سبيل المثال، التراجع في نسبة المواليد والحجم السكاني خلال فترة التسعينات، الفترة التي لم تشهد أية حروب أو حروب أهلية، ولم تشهد كذلك أي عمليات تطهير جماعي أو أعمال عنف واضطرابات وقلاقل اجتماعية.

طالما أن مهمتنا في السياق الحالي هي التركيز على مستقبل البلاد، وليس على ماضيها، لا بد من التساؤل فيما إذا كانت الكثافة السكانية المنخفضة للبلاد، بالإضافة إلى التراجع العام في عدد السكان - معدل الكثافة السكانية المنخفض البالغ 8.6 أشخاص في الكيلومتر المربع يعكس تناقضًا صارخًا مقارنة بالمعدل البالغ 112 شخصًا في الاتحاد الأوروبي و 246 في المملكة المتحدة - ستعرض للخطر قدراتها على الإبقاء على أراضيها الحالية، ناهيك عن طموحاتها باسترجاع الأراضي التي كانت قد فقدتها في أعقاب انهيار الاتحاد السوفييتي. ويمكن القول بأن الظروف المناخية في شمال روسيا وسيبيريا والشرق الأقصى ستحكم على كثافتها السكانية بأن لا تصل أبدًا إلى مستوياتٍ مشابهة لتلك التي في أوروبا. من جهة أخرى، فإن ظاهرتي الاحترار العالمي والتطور التكنولوجي مرشحتان لأحداث تغيرات شاملة غير متوقعة على صعيد النمو السكاني.

التنبؤات الحالية من قبل معلقين خارجيين تختلف إلى درجة كبيرة؛ فبينما يجمع الكل على وجود تحسن مطرد منذ التسعينات، فإن أيًا منهم لا يبدو متفائلًا إلى ذلك الحد بشأن المستقبل. وبحسب

أحدث التقديرات والحسابات الروسية حول المسارات الحالية، فإن عدد سكان البلاد والهجرة الغائبة مرشحة لأن تتقلص بحدود 20 بالمئة تقريبًا من جيلٍ لآخر. أما متوسط العمر بالنسبة للرجال الآن فهو بحدود 65 عامًا وبحدود 76 عامًا بالنسبة للنساء. يقابل هذا 77 عامًا للرجال و82 للنساء فـي ألمانيا. وهناك توافق عام على أن الإدمان الكحولي هو العامل المهم الوحيد المسؤول عن العمر الوسطي الأقصر بكثير للرجال. في عهد غورباتشيف، جرى بذل جهود لمكافحة الإدمان على شرب الكحول، ولكن لم يكن له تأثير طويل الأمد. لقد لاحظ المعلقون بأن السويد كانت تعاني من مشكلة مشابهة مع الإدمان على الكحول، لكنها نجحت في التغلب عليها من خلال جهود المجتمع المدني. لماذا؟ لأن لديها حالة اجتماعية مكرسة لخدمة السكان، حالة وطنية تعلن عن هويتها من خلال خدمة الفرد والمحافظة على حقوقه، وحـالة قانونية قادرة على تنظيم الحياة بمساعدة القوانين. لقد كانت روسيا في حاجة ماسة إلى هذه الجوانب الثلاثة جميعًا.

تشير تقديرات برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (UNPD) إلى أن التراجـع السكاني في روسيا سوف يستمر. فئة النساء الروسيات المقبلات على عمر العشرين ستتقلص بسرعة خلال العقد القادم، بنتيجة التراجـع الحاد في عدد المواليد خلال التسعينات. وبمعدل ولادات مقداره 1.7 بالمئة فقط، فإن معدل التكاثر السكاني سيتراجع إلى درجة مخيفة.

سيكون لهذه الأرقام السلبية عواقب سياسية فورية. القوات المسلحة الروسية ستواجه نقصًا في عدد المجنّدين، سيما الروس الإثنيون. وقد تشهد روسيا تراجعًا خطيرًا في عدد خريجي الكليات العسكرية؛ كانت روسيا خلال فترة التسعينات لا تزال تسهم بحوالي 9 بالمئة في عدد المجندين على مستوى العالم، لكن هذه النسبة ستكون قد انخفضت إلى 3 بالمئة بحلول العام 2030، وفقًا للتقديرات. ولعل حقيقة تراجـع مخصصات التعليم أيضًا في الميزانية في السنوات الأخيرة يسهم في هذه الظاهرة.

نظرة أخرى معتدلة في تشاؤمها توصلت إلى الاستنتاج بأن سياسات بوتين على صعيد تشجيع زيادة النسل قد تكون مسؤولة جزئيًا عن الزيادة الطفيفة في عدد المواليد وبالتالي عدد السكان في روسيا. ومهما يكن من أمر، يبقى صحيحًا أنه بحلول العام 2040 سينخفض عدد السكان ممن هم ضمن الفئة العمرية 20 - 29 عامًا إلى نصف ما هو عليه اليوم. وفي حين أن تراجـع روسيا يبدو أمرًا مفروغًا منه على المدى الطويل، لكنه قد يستغرق وقتًا أطول مما هو متوقع.

هنالك مسألة ما برحت تناقش منذ بعض الوقت حول ما إذا كان بوسع السياسات المؤيدة لزيادة النسل أن تعكس هذا التراجـع على صعيد عدد السكان، تحديدًا في روسيا. الدليل التاريخي غير واضح. فقد جرى اختبار سياسات زيادة النسل فـي روسيا خلال فترة الثلاثينات (عندما حدث هنالك انخفاض كبير مفاجـئ في معدل الولادات)، وأيضًا في عهد ستالين بعد الحرب، وجرى كذلك اختبارها فـي ألمانيا النازية وأيضًا فـي الآونة الأخيرة فـي عدد من البلدان الأوروبية، سيما البلدان الاسكندنافية في أعقاب الأبحاث التي أجريت ومبادرة غونار Gunnar وآلفا ميردال Alva Myrdal.

يمكن لمثل هذه السياسات أن تتخذ أشكالًا متنوعة كتشديد القيود على مسألة الإجهاض. في ألمانيا النازية عام 1944 أصبح الإجهاض جريمة عقوبتها الإعدام. قبل ذلك، فـي عام 1941، جرى

وقف إنتاج الواقيات الذكرية. وهنالك إجراءات أكثر إيجابية جرى تطبيقها على نطاق واسع كتمديد إجازة الأمومة وتقديم حوافز مادية. مرة أخرى، كان المثال النازي هو المثال الأكثر راديكالية، لكن نظريًا أكثر منه عمليًا. كان هتلر وباقي القادة النازيين يؤمنون بأن مكان المرأة هو ملازمة البيت وإنجاب الأطفال ورعايتهم. لكن السياسات الاقتصادية النازية، سيما المتعلقة منها بإعادة التسلح ومقتضيات الحرب، كانت تستدعي إبعاد الملايين من النساء عن بيوتهن من أجل العمل - في الصناعة بشكل خاص. إن حقيقة أن النساء كن يتلقين أوسمة تقديرية ("صليب الأم" the Mother Cross بدءًا من الطفل الثالث) لم يكن لها تأثير يذكر، والمكافآت المادية كانت ضئيلة للغاية.

من خلال دراستها الاستقصائية للتجربة الروسية عام 2013، استنتجت سيرافيما تشيركوفا بأن التغيرات على صعيد سياسات تنظيم النسل الروسية في المدى المنظور كان لها أثر إيجابي لا يستهان به على الولادة الثانية: إن تزايد احتمال إنجاب الولد الثاني للأسرة بمعدل 2.2 بالمئة وسطيًا. وفي ضوء إصلاحات سياسة تنظيم الأسرة للعام 2007، جرى استحداث ما يسمى بمفهوم "رأسمال الأمومة" maternity capital. جرى تخصيص منحة مادية بمقدار 40 يورو للطفل الأول و 85 يورو للطفل الثاني. كانت تجربة البلدان الاسكندنافية تجربة مشابهة؛ فالمعونات في بلدان شمال أوروبا كانت تقدم أيضًا من أجل الاحتفاظ بمكان العمل لفترة لا بأس بها بعد الحمل - حتى ثلاث سنوات. أما في روسيا، فإن فترة إجازة الأمومة هي عشرون أسبوعًا، عشرة أسابيع عادة خلال فترة الحمل، وعشرة أسابيع بعد الولادة.

مع ذلك، فإن هذه الاستنتاجات تنطبق على الوقت الحالي ولفترة قصيرة قادمة فقط، وتستند إلى احتمال إنجاب طفل ثان، في حين أن روسيا بحاجة ماسة إلى نسبة ولادات أعلى لمواجهة خطر التراجع الحاد في عدد السكان. بكلمات أخرى، فإن بوسع سياسات زيادة النسل أن تبطئ من عملية التراجع الحاد في عدد السكان، ولكن ليس إلى حد تغيير اتجاهها كليًا.

إذا لم تكن عملية التراجع في عدد السكان في روسيا أكثر حدة، فهذا نتيجة الهجرة إليها، وقد يتبلور هذا الأمر بصورة أفضل في المستقبل. يعود تاريخ الهجرة إلى روسيا بمعظمه إلى القرن الثامن عشر عندما حثت الإمبراطورة كاثرين المستوطنين الألمان المقيمين بشكل رئيسي في جنوب غرب ألمانيا على الاستقرار في روسيا، والذين أصبح معظمهم يعرف باسم "ألمان الفولغا" Volga Germans. جرى تأسيس أول مكتب لرعاية شؤون المهاجرين من وسط أوروبا عام 1736 - وربما كان الأول من نوعه في العالم. كان مهاجرو السنوات الأخيرة يأتون من جمهوريات آسيا الوسطى التي كانت يومًا جزءًا من الاتحاد السوفييتي ومن القوقاز. ولا يزال عددهم غير معروف بالضبط، رغم كونهم يسهمون بحوالي 8 بالمئة من إجمالي الناتج المحلي الروسي. وبحسب تقديرات البنك الدولي، فإن حوالي 12 مليون عامل أجنبي يجري استخدامهم في روسيا، مليون عامل منهم فقط يعمل بصورة قانونية. ولو قررت روسيا ترحيل العديد منهم وامتنعت عن إبقاء بواباتها مفتوحة جزئيًا على الأقل في المستقبل، فسوف يشكل ذلك ضربة قاسية للاقتصاد الروسي ويؤثر سلبًا على البنية الديمغرافية للبلاد. لهذا السبب، عارض بوتين الخطوات الهادفة إلى تخفيض أعدادهم بشكل كبير.

مع ذلك، فأن وجود ملايين عديدة قد تسبب بحساسيات في بلد، على غرار العديد من البلدان، لا يعرف عنه ترحيبه الحار بالأجانب. "روسيا للروس" هو الشعار الذي كان يهتف به الآلاف من أبناء موسكو وهذه، رغم الاحتياجات الاقتصادية، هي أيضًا سياسة الحكومة.

كان بوتين يتعامل مع "المهاجرين الملتزمين بالقانون بتلميحات محببة" في عدد من المقالات والخطابات - جميعها كانت في صالح الاندماج والتكامل مع روسيا. من وجهة نظره، فإن المشروع المتعدد الثقافات الذي يرفض مفهوم التكامل من خلال الاندماج قد فشل. لقد تمخضت التعددية الثقافية عن تشكيل مجتمعات قومية ودينية لا ترفض الاندماج وحسب وإنما لا تتكيف معه أيضًا. أعرب عن دهشته كون بلدان الجوار ومدن بحالها في العالم الغربي حيث تعيش أجيال المهاجرين بحالة من الرفاه والازدهار لا يتحدثون حتى لغة البلد المضيف: "يمكن أن يكون هنالك نتيجة واحدة فقط لمثل هذا النمط الاجتماعي - رهاب الأجانب من جانب السكان الأصليين الذين يسعون بصورة مفهومة لحماية مصالحهم وأعمالهم ومزاياهم الاجتماعية من المنافسين الأجانب".

قال بوتين إن روسيا التاريخية لم تكن يومًا دولة إثنية أو بوتقة أمريكية، حيث كان كل شخص بطريقة أو بأخرى مهاجرًا آخر. تطورت روسيا عبر القرون كدولة متعددة الإثنيات كان فيها تأقلم مشترك، وتفاهم مشترك، وتوحيد للشعب من خلال العائلات والصداقات والعمل، بوجود المئات من الإثنيات المتعايشة جنبًا إلى جنب على الأرض نفسها. كان جوهر هذا التعايش والنسيج الجامع للمستقبل الروسي هو الشعب الروسي بالذات والثقافة الروسية التي وحدت أبناء هذا الشعب ضمن بوتقة واحدة. كان هنالك مد ثقافي جامع يتدفق ليس فقط من الروس الإثنيين، بل من كافة حواضن هذه الهوية، بصرف النظر عن الجنسية. كانت هذه هي مجموعة القوانين الثقافية والحضارية التي ينبغي رعايتها وتعزيزها والمحافظة عليها - بشكل أساسي من خلال التعليم. أشار بوتين أيضًا إلى ما يسمى بالقانون الثقافي cultural canon الأمريكي (الغربي)، وإلى مئات الكتب التي يتوجب قراءتها من قبل كل طالب يحترم نفسه، واقترح مشروعًا مشابهًا بالنسبة لروسيا:

> نحن بحاجة إلى استراتيجية سياسية قومية مستندة إلى الوطنية المدنية. ينبغي على أي شخص يعيش في بلدنا ألا ينسى عقيدته وعرقه. ولكن قبل أي شيء آخر، يتوجب عليه أن يكون مواطنًا روسيًا وأن يفخر بذلك. لا يحق لأحد أن يضع الاعتبارات الإثنية والدينية فوق قوانين الدولة.

هذه بخطوطها العريضة المحضة هي رؤية بوتين حول التكامل الذي ينبغي أن يبنى عليه مستقبل روسيا، والمؤسسات القوية هي شرط مسبق لتحقيق تلك الغاية. إنها، حسبما نوّه المعلقون، نداء مدوٍّ ليس فقط لهيمنة الثقافة الروسية، بل للوطنية والدولة القوية. في الوقت نفسه، كانت هنالك تحذيرات ضد الشوفينية وغيرها من العقائد المغالية في وطنيتها.

لا يمكن إنكار ملاحظات بوتين حول مواضع العجز والتقصير ومصاعب التعددية الثقافية؛ فنجاحات الحركة المناوئة للهجرة والمهاجرين في المملكة المتحدة وفرنسا وغيرها من البلدان الأوروبية في السنوات الأخيرة تقدم دليلًا واضحًا بهذا الخصوص. كذلك لا مجال هنالك لأي شك بخصوص عظمة الثقافة الروسية.

تنشأ المصاعب بمجرد أن يتحرك المرء من دنيا الرغائب إلى دنيا الوقائع. مع كل الاحترام والتعاطف الذي تكنه الجماعات الإثنية والدينية للثقافة الروسية، فقد تفضل تقاليدها وعاداتها وثقافتها وطريقة حياتها الخاصة. بمعنى آخر، قد تقبل الاندماج والتماهي إلى درجة معينة فقط. وقد

تفضل خيار الكومونولث أو تحالف غير متماسك لمجموعة من الدول على وجود دولة قوية واحدة كما يريدها بوتين. يستحضر بوتين الفخر والاعتزاز، لكن ليس كل ما سطّره التاريخ الروسي يمكن له أن يغرس مشاعر الفخر والاعتزاز في نفوس الروس الإثنيين وغير الإثنيين على حد سواء. لم تكن التجربة الروسية على مدى سبعين عامًا تجربة إيجابية. ففي اللحظة التي تلاشت فيها الدولة القوية، انهار الاتحاد السوفييتي. لن ينتهي النقاش أبدًا حول إيجابية أو سلبية ما حدث، وفيما إذا كانت الدول المستقلة الناشئة قابلة للحياة أم لا. باختصار، لا بد لبعض المصالح والطموحات من أن تخضع لسيطرة الآخرين وهيمنتهم؛ ولا بد من وجود نوع من الإرغام والإكراه. والسؤال هو إلى أي حد يمكن لهذا الأمر أن يتماشى مع معايير الديمقراطية. يتبدى هذا ربما بشكل أكثر وضوحًا بكثير عندما يصار إلى أخذ أوضاع وطموحات الأقليات المسلمة في روسيا بعين الاعتبار.

الإسلام الروسي

الإسلام هو "قدر روسيا" - هكذا تنبأ ألكسي مالاشينكو Alexy Malashenko، أحد كبار خبراء روسيا في هذا المجال. لقد استقطب إعلانه هذا الاهتمام في زمن كان فيه القتال مستعرًا في القوقاز. القتال هنالك كان لا يزال مستمرًا في بعض الأنحاء، وربما لن يتوقف بشكل كامل في المستقبل المنظور. لكن الإسلام السياسي يبقى قضية تتسم بأهمية بالغة.

يعود تعايش روسيا مع الإسلام إلى قرون عديدة؛ وفي أجزاء معينة من البلاد يسبق تعايشها مع المسيحية. كانت معظم روسيا ولزمن طويل تحت حكم التتار. لكن على الرغم من هذا التعايش، كان ينظر إلى المسلمين بصورة أساسية كأغراب في روسيا. على مر السنين بات التتار أكثر تآلفًا مع عادات البلاد وتقاليدها. وكانوا يعملون، في المقام الأول، كمدبري منازل لدى العديد من العائلات في روسيا. ومن ذا الذي لا تسحره عائدة غاريفولينا Aida Garifullina (مواطنة من قازان) بصوتها ونظراتها. قبل ذلك بجيل، كان مسلم ماغومايف Muslim Magomayev (1942 - 2008) أحد أشهر مطربـي الاتحاد السوفييتي وروسيا.

شكل المسلمون في إقليم الفولغا الأوسط، قازان، وجوارها مثالًا رائعًا للتعايش السلمي. ولم تكن المنطقة محرومة إلى ذلك الحد. كان متوسط الدخل الذي توفره صناعتا النفط والغاز يؤمن مستوى معيشة أعلى من متوسط الدخل في العديد من المناطق الأخرى في روسيا، باستثناء العاصمة. ومع ذلك، فالموقف الروسي حيال مسلمين من مناطق أخرى من البلاد، سيما القوقاز، بقي سلبيًا.

فيما يتعلق بالعلاقات الخارجية، لم تعد البلدان المسلمة تتسم بذلك القدر من الأهمية بعد تفكك الإمبراطورية الإسلامية. ولم تكن البلدان المسلمة (مثل تركيا وايران والعالم العربي) تعتبر مصدر تهديد كبير، لكنها أيضًا لم تكن تعتبر حليفة إلى ذلك الحد في وجه الغرب. كانت التجربة الماضية بعد الحرب العالمية الثانية تجربة مشجعة من وجهة نظر موسكو. كانت هنالك القومية الطورانية، والإيرانيون أيضًا حاولوا أن يحققوا لأنفسهم موطن قدم في آسيا الوسطى، لكنهم لم يحققوا نجاحًا كبيرًا على هذا الصعيد ولم ينظر إليهم بالتالي على أنهم يشكلون خطرًا كبيرًا. تغير هذا الوضع إلى حد ما عندما باتت أجهزة الأمن الروسية على علم بنشاطات الدعاة الراديكاليين. كانت ذروة نشاطتهم في منطقة آسيا الوسطى، وتسببوا في ظهور النشاطات المتطرفة في المجتمعات المسلمة.

لكن مثل هذه المعلومات نادرًا ما كانت تصل إلى مسامع العامة. تمخض هذا التأثير عن نوع من الأدب يسلط الضوء على الأهمية المتزايدة للإسلام فـي أوروبا وروسيا نتيجة النمو الديمغرافي لهذه المجتمعات. إحدى الروايات الشهيرة للكاتبة إيلينا تشودينوفا Elena Chudinova نوتردام جامع باريس" The Notre Dame de Paris Moque، تتحدث عن فرنسا بعد استيلاء المسلمين عليها، تبدأ الأحداث بإلقاء الحجارة من قبل العامة على قوس النصر Arc de Triomphe. بعيدًا عن المجـال القصصي والروائـي، فإن دراسة مثل (أسلمة روسيا) The Islamization of Russia للكاتبين غولوب تشيكوف Golub Chikov ومناتساكانيان Mnatsakanyan (2005) ينبغي أن يتم التطرق إلى ذكرها. تُختتم الدراسة بأربعة سيناريوهات، لا يحمل أي منها أي قدر من التفاؤل.

هنالك حوالي عشرين مليون مسلم في روسيا. لا يوجد رقم دقيق لهذا العدد بسبب وجود ملايين "العمال الضيوف" في روسيا من جمهوريات آسيا الوسطى، والذين يعمل معظمهم بطريقة غير شرعية. تتركز المجتمعات المسلمة في روسيا في ثلاث مناطق رئيسية هي القوقاز وموسكو وإقليم الفولغا الأوسط. وتعد جمهوريات آسيا الوسطى جمهوريات مسلمة بمعظمها، لكنها انفصلت عن روسيا بعد تفكك الاتحاد السوفييتي.

استغرقت عملية فتح القوقاز سنوات عديدة وألهمت جيلين من الكتاب والأدباء الروس أمثال ألكسندر بوشكين، وميخائيل ليرمونتوف وليو تولستوي. كان ليرمونتوف قد نادى زميلًا له في الجيش باسم "غورتس" gorets (مسلم من سكان الجبال)، الأمر الذي اعتبر بمثابة إهانة، وأفضى إلى مبارزة قتل فيها ليرمونتوف. ألكسندر غريبويدوف Alexander Griboedov، أحد الكتاب الروس الروّاد في عصره وكان دبلوماسيًا أيضًا، أرسل في مهمة إلى فارس؛ قتل من قبل أحد الغوغاء في طهران. أنصار الثقافة السلافية، أمثال ألكسي خومياكوف Alexey Khomyakov، كانوا يكتبون من وقت لآخر عن الإسلام، لكنهم لم يكونوا في الحقيقة على ذلك القدر من الاطلاع والمعرفة، ومعظم كتاباتهم كانت تعتمد على التقدير والتخمين. ظهرت المؤسسات الأكاديمية المتخصصة بالدراسات الإسلامية إلى حيز الوجود أواخر القرن التاسع عشر وكانت بمعظمها متمركزة في قازان.

استمرت المقاومة ضد الحكم الروسي على نطاق محلي، لكن السلطات الروسية عملت على قمعها بكل سهولة. والأمثلة على ذلك تشمل تمرد آسيا الوسطى عام 1916، عندما فر أكثر من ثلث الشعب القرغيزي إلى الصين، والحملة الباسمتشية Basmachi بعد استيلاء البلاشفة على السلطة، والتي استمرت لحوالي سبع سنوات. ساد هنالك انطباع في أوساط المراقبين الغربيين في فترة الثلاثينات بأن الحكومة السوفييتية، بالرغم من عيوبها الأخرى، كانت قد نجحت في حل ما كان يعرف آنذاك "بالمسألة القومية." لقد تبين بأن هذا كان خطًا، فجمهوريات آسيا الوسطى والجهوريات القوقازية آثرت الاستقلال عندما تفكك الاتحاد السوفييتي. انفصلت جميعها، رغم بقاء البعض منها معتمدًا بشكل أو بآخر على روسيا. أما فيما يتعلق بالجمهوريات الأصغر ذات الحكم الذاتي داخل روسيا، فهي أيضًا كانت تفضل الاستقلال، لكنها كانت صغيرة وفقيرة إلى درجة لم تسمح لها بالوجود والاستمرار ككيانات قابلة للحياة. جرى إخضاع الشيشان في حربين طويلتين، وتم بصعوبة بالغة التوصل إلى تسوية مؤقتة في داغستان.

في الشيشان، بقيت عشيرة قديروف في السلطة، لكن الشريعة الإسلامية حلت محل القوانين الروسية. كانت الحكومة الروسية ميّالة إلى تقبل ذلك وكذلك السماح بالهجرة الجماعية لمعظم السكان الروس وتقبل الأسلمة ذات التأثير غير المباشر، شرط قبول الشيشان بالسيطرة والهيمنة الروسية المطلقة. كان الوضع في داغستان مشابهًا، باستثناء أنه لم يتحول هناك إلى حرب شاملة. أصبح العنف سمة دائمة، ولو على مستوى أدنى. وبالرغم من اعتناقها الإسلام، إلا أن العشائر الحاكمة في الجمهوريتين كلتيهما ظلت "خائنة" فيما يتعلق بموقفها من المعارضة. مع ذلك، على الصعيد العسكري، تمت هزيمة المعارضة ولم تعد في وضع يمكّنها من الانخراط فـي عمليات عسكرية أو إرهابية كبيرة. فـي عام 2009، أعلن الكرملين أن العمليات العسكرية الكبيرة ضد المتطرفين في الشيشان كانت قد شارفت على نهايتها؛ بعد خمس سنوات، أنشأت موسكو وزارة جديدة للشؤون القوقازية.

يبقى أن نعرف فيما إذا كان أولئك الذين يمثلون مصالح روسيا فـي الشيشان وداغستان يمكن الوثوق بهم، لأن رغبتهم في نيل قدر أكبر من حرية العمل والتحرك، إن لم يكن الاستقلال الكامل، تبقى ثابتة لا تتزعزع. لكن طالما أن الحكومة المركزية قوية، فإن فرصهم في الحصول على تنازلات أكبر من موسكو تبقى ضئيلة. ولكن إذا ما تراخت قبضة الحكومة المركزية، فإن ولائهم لن يكون من المسلّمات. حتى في الوقت الحالي، فقد تردد عن وجود علاقات بين السلطات المحلية المؤيدة لروسيا فـي داغستان (وبدرجة أقل فـي الشيشان) والمعارضة الأكثر راديكالية. رجل موسكو في داغستان هو رمضان عبداللطيبوف Ramazan Abdulatipov، الذي انتهج سياسة بالغة الصرامة حققت بعض النجاح. رغم ذلك فهنالك حوالي خمسون إلى ستون شخصًا يقتلون شهريًا في حوادث إرهابية.

من المستحيل معرفة ما إذا كان نجاحه هذا سيستمر على المدى الطويل

- كما هو معتاد في مثل هذه الحالات، فإن الكثير يعتمد على وجود أو غياب مجموعة من القادة الأكفاء والموالين وعلى رغبة الكرملين في تقديم دعم مالي أساسي لداغستان. ولكن في زمن الركود الاقتصادي، هنالك ممانعة لا يستهان بها للحؤول دون تقديم مثل هذه المساعدة، لأنها ستعني اقتطاعات مالية من جوانب أخرى من الميزانية الروسية.

ما هـي قوة تأثير الإسلاميين - المسلمون الراديكاليون المطالبون بالانفصال، واذا استدعى الأمر، النضال العنفي؟ بحسب مصادر معينة، أقوى بكثير في القوقاز منه في باقي المناطق ذات الكثافة السكانية المسلمة. ولكن حتى هناك، فالدلائل متفاوتة إلى حد كبير لدرجة أنها غير ذات جدوى. فهي تتراوح بين التأكيد على عدم وجود أي متطرفين، إلى الزعم بأن كل شخص هناك هو متطرف. واستنادًا إلى نتائج بعض الانتخابات في داغستان، فقد برز الشيوعيون كحزب رئيسي، الأمر الذي، إن ثبتت صحته، لن يكون له على الأرجح أي علاقة بالقضايا السياسية /الإيديولوجية قدر علاقته بشخصية المرشح المتقدم للانتخاب (والذي يحتمل أن يكون منتميًا إلى عشيرة مؤثرة ذات نفوذ واستغل الحزب كمطية توفر له أكبر قدر ممكن من حرية العمل).

لطالما كانت الصوفية أقوى الاتجاهات المسلمة في القوقاز، ولا تزال تتمتع بهذه القوة في العديد من المناطق. وقد جرى تنفيذ العديد من المهام والعمليات المتطرفة من قبل الحركة السلفية أكثر من

أيٍّ من الأحزاب السياسية أو الدينية، ومن قبل حزب التحرير (المتواجد في آسيا الوسطى أكثر منه في القوقاز). إنه منظمة تأسست في مدينة القدس عام 1953، وهي ناشطة فـي بعض مناطق العالم مثل المملكة المتحدة، لكن ليس لها وجود تقريبًا في مناطق أخرى. إنهم يطالبون بإلغاء الحدود الحالية بين الدول المسلمة وانشاء كيان واحد - تحت راية الخـلافة. ومع ذلك هنالك بشكلٍ عام قدر كبير من النشاط الراديكالي يعتمد على شخصية ونشاطات العشائر المحلية.

لقد تزامنت الصحوة الدينية السياسية للإسلام (والإسلام المتطرف) مع تنامي حالة قومية راديكالية في أوساط المجتمع الروسي. وغنيٌّ عن القول إن هذا الأمر كان له أن يفضي إلى توترات. وإلى تدفق كبير للعمال المسلمين من آسيا الوسطى والقوقاز بشكل رئيسي إلى المدن الروسية.

لم يوفَّر لهم السكن اللائق ولم تقدم لهم أي خدمات أساسية أخرى، باستثناء الخدمات المقدمة من قبل عدد ضئيل جدًا من المساجد؛ لقد أصبحت حالة الاستياء من وجودهم على أشدها الآن، ما دفع بمحافظ موسكو الحالي للإعلان بأنه لن تكون هناك أية مساجد أخرى في مدينته بعد اليوم. مع ذلك، فهم إذا ما أدوا صلاتهم في الشوارع، يتهمون بتعكير أمن النظام العام وعرقلة حركة المرور. لكن هذا لا ينفي أن الأمن في الشوارع قد تأثر سلبًا، ومن نواحـي عديدة من المفاجئ أنه لم تحدث هنالك أي أعمال شغب أخرى. لقد نشأ هنالك وضع متناقض، اعتبر وضعًا غير مرغوبٍ فيه مطلقًا من وجهة نظر الحكومة.

وفـي حين أن الأجهزة الأمنية ينتابها القلق بشأن النشاطات الهدامة للانفصاليين في أوساط المهاجرين والشرطة المحلية المكلفة بمهام حماية القانون وحفظ النظام، فإن وزارة الخارجية كانت ترزح تحت هاجس الانطباع السلبي الذي تشكل في العالم الإسلامي حول المشاعر (والنشاطات) المناوئة للمسلمين في المدن الروسية. بعد مبادرة وزير الخارجية الروسي آنذاك يفغيني بريماكوف Yevgeny Primakov (مستعرب بالمراس)، جرى عقد مؤتمر عالي المستوى لاحتواء الوضع والحد من تداعياته. لقد سبق لسمعة روسيا في العالم الإسلامي أن تردت إلى أدنى مستوى في أعقاب الحرب الأفغانية وحربي الشيشان. لقد تذرعت وزارة الخارجية بأنه إذا ما قدر لظاهرة الإسلاموفوبيا أن تستشري في روسيا، فستكون بمثابة ضربة قاضية لسمعة روسيا المتعلقة بالتسامح والنزاهة. قلقهم الرئيسي بالطبع هو من احتمال أن تخسر روسيا فرصها السياسية في العالم الإسلامي؛ مع ذلك فقد تم إنقاذ روسيا عن طريق التدخل الأمريكي في أفغانستان. فبمجرد أن انسحبت روسيا من أفغانستان، توقفت عن كونها ذلك الهدف المباشر للعالم الإسلامي.

في أعقاب احتلال القرم، باتت معاملة تتار القرم موضع قلق بالنسبة للمسلمين في باقي أنحاء البلاد. كان قد تم نفيهم وإساءة معاملتهم في عهد ستالين وبعد الحرب العالمية الثانية.

كان مصير المسلمين الروس ونشاطاتهم في ذيل قائمة اهتمامات العالم الإسلامي، وذلك بسبب تواجدهم المحدود خارج روسيا. وبالرغم من أن الحج السنوي إلى بيت الله الحرام في مكة كان يلقى التشجيع بطرقٍ شتى، فإن أعدادًا ضئيلة نسبيًا من المسلمين الروس كانوا يستفيدون من هذا الركن الديني. ويزعم المسلمون الروس أن أعدادًا كبيرة منهم ترغب في الذهاب إلى مكة المكرّمة لكنهم لا يستطيعون القيام بذلك لأن العدد محدد بحوالي عشرين ألفًا من قبل السلطات السعودية.

(كانت هنالك شكاوى أيضًا في أوساط أولئك الذاهبين إلى مكة من وجود أعداد كبيرة جدًا من عناصر أجهزة الأمن المكلفين بمراقبة المتطرفين الإسلاميين). منظمة التعاون الإسلامي (منظمة المؤتمر الإسلامي سابقًا) امتنعت في مناسبات عديدة عن لوم روسيا أو انتقادها، وكانت دائمًا ترفض قبول عضوية إتشكيريا Ichkeria، المنظمة السياسية لمتمردي الشيشان. فقد كان خطب الود الروسي أكثر أهمية بالنسبة لها من التضامن مع مناصري الحركات الدينية في روسيا.

خلال التسعينات، برز مستجدّ يتماشى مع استراتيجية الحكومة تجاه الإسلام الروسي. بالإجمال، فقد طغت البراغماتية على الإيديولوجية. وكان جناح اليمين الروسي، سيما أقصى اليمين، يذكر أبناء بلده على الدوام بأن البلدان المسلمة، سيما العربية منها، كانوا حلفاءهم الطبيعيين في الصراع ضد الغرب. ديمتري روغوزين Dmitry Rogozin، الذي كان حينها رئيسًا لحزب رودينا اليميني المتطرف، وصل إلى حد الترويج للفكرة المقترحة أساسًا من قبل منظمة المسلمين من الفولغا السفلى حول وجوب تعيين نائب رئيس روسي مسلم بشكل دائم. لكن سياسة نهج التهدئة (كانت تعززها أحيانًا دعوات "مناهضة للصهيونية") لم تجد مناصًا من التصادم مع حالات الاستياء من المسلمين في الشارع الروسي، وتحتم على هذه الفكرة بالتالي أن تسقط. كذلك لم يكن قادة أقصى اليمين هؤلاء راغبين بالتخلي عن القوقاز أو تقديم تنازلات مشابهة ذات تأثيرات بعيدة المدى مقابل دعم سياسي من قبل البلدان المسلمة. لهذه الأسباب وغيرها، جرى إلقاء ظلال من الشك والريبة تجاه روسيا في العالم الإسلامي. وكما هي الحال في روسيا، فقد كان هنالك دائمًا قناعة بأن روسيا ليس لديها أي حلفاء يمكن الوثوق بهم إلا قواتها المسلحة. فقد قام ممثلو حماس والمنظمات الفلسطينية الأخرى بزيارة موسكو في مناسبات مختلفة من دون أي نتائج ملموسة. المنفعة الوحيدة التي تم تحقيقها من هذه النشاطات هو أن البلدان الإسلامية أحجمت عن تقديم دعم علني للمواطنين المسلمين داخل روسيا، الأمر الذي أصاب المسلمين داخل روسيا بحالة من الإحباط الكبير. من الأمثلة البارزة على ذلك كان انعدام الدعم السياسي عندما كان تتار القرم يرزحون تحت الضغط في أعقاب الغزو الروسي عام 2014.

لا بد أيضًا من ذكر المشكلات المحددة التي تعاني منها الجيوب الإسلامية في القوقاز الشمالي، التي بالإضافة إلى تلك التي سبق ذكرها، تشمل إنغوشيتيا Ingushetia والتي يبلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة. في حين أنه جرى الحؤول دون وقوع كارثة كبرى، وفي حين أن الهجمات الإرهابية لم تترك أثرًا كبيرًا، فإن الخطر الذي يستهدف أنابيب النفط والغاز الممتدة من حوض القوقاز إلى أوروبا لا يزال قائمًا.

يبدو بأن الخبراء وصناع السياسة الروس مدركون تمامًا للأخطار التي تواجههم في القوقاز، وربما في مناطق أخرى من البلاد أيضًا. ينظر إلى الحركة الانفصالية الإسلامية بمثابة خطر كبير مصدره الكتب المستخدمة في جامعة القوى الأمنية، والتي لا يكن مؤلفوها أي تعاطف حيال المناطق التي طبقت الشريعة الإسلامية والسياسة الإسلامية. ولكن في الوقت نفسه، فإنهم لم يقترحوا أي طريقة لمواجهة هذا التحدي، باستثناء اقتراح أن تقوم روسيا بالتوجه نحو الشرق الأوسط بدلًا من الغرب لتستمد الإلهام والهداية.

مثال آخر عن حالة الارتباك السائدة على الساحة هي ظاهرة غيدار تزيمال Geydar Dzhemal. وتزيمال هو شخصية عامة من موسكو في أواخر الستينات وشاعر قام بنشر الكثير

من الكتابات حول الطب النفسي، لكنه يعمل أيضًا كرئيس مجلس إدارة للجنة الإسلامية لروسيا. تزيمال هو نصف روسي ونصف أذربيجانـي ومواظب فـي مراحل مختلفة فـي حياته على دعم وتأييد الماركسية اللينينية والحركات المعادية للسامية "باميات" (Pamyat) والعديد من الإيديولوجيات الأخرى. وبحسب تعاليمه، فإن السياسة العالمية ("العولمة") لا يمكن فهمها إلا من خلال مقارنتها بالنزاع القائم بين الجناحين الرئيسيين (الجناح الذي ترأسه الأرستقراطية البريطانية وذاك الذي ترأسه النخبة الأمريكية في واشنطن). شكلت أحداث الحادي عشر من أيلول حافزًا مهولًا لأحد الجناحين ضد الولايات المتحدة والعالم الإسلامي. وبحسب تزيمال، فإن أسامة بن لادن وطالبان كانوا مجرد دمى بأيدي الـ CIA والصهيونية العالمية إلى جانب إلى الـ KGB، أدوات أفضت إلى سيطرة وهيمنة مطلقة على كوكب الأرض. الخبراء المخضرمون في مجال نظريات المؤامرة سيتعرفون إلى المصدر الذي تأتي منه هذه النظريات: تأثير ألكسندر ديوجين في وقت سابق.

في الحقيقة، لقد تعاون تزيمال بشكل وثيق مع ديوجين خلال الأيام التي قضياها معًا في "باميات". انتقل ديوجين لاحقًا إلى الميادين الأرقى والأكثر احترامًا للجيوبوليتيك والأوراسية الجديدة، في حين بقي تزيمال منخرطًا بالعمل ضمن اللجان الإسلامية المختلفة. من المستحيل معرفة ما إذا كان هذا الخليط من الافتراض اللاعقلاني جدير بالتصديق حقًا من قبل أي كان، وما هو مدى الإتجار بالعبثية أو الفوضى المتعمدة، أو ما هو المقدار المخصص منه للتصدير أكثر منه للاستهلاك المحلي. على أية حال، تعتبر نظرياته مثالية للحالة الذهنية والعقلية السائدة في هذه الأوساط.

بما أن روسيا ليست قوية بما فيه الكفاية لمواجهة التأثير الأمريكي والأوروبـي، يقترح مؤلفو أحد كتب الاستخبارات إنشاء تحالف يضم روسيا والصين والهند وايران (يدعى ريكي Riki). يذكر هؤلاء المؤلفون الذين يعوزهم حس الظرف والفكاهة بأنهم على دراية بـ ريكي تيكي تافي Riki - Tikki - Tavi، النمس البطل في "كتاب الأدغال" Jungle book لمؤلفه كبلينغ Kipling. كانت البلدان المذكورة أعلاه تتصرف بشكل لائق جدًا في الماضي ولم تستغل حالة الضعف الروسي (فـي التسعينات) بعد انهيار الاتحاد السوفييتي. (walter Laqueur, Harvest of a Decade: Disraelia and Other Essays, 2011).

تتارستان (بلاد التتار)

مع استمرار التوتر في القوقاز، كان هنالك ارتياح عظيم مستمد من حقيقة أن الهدوء كان يسود تتارستان وباشكورتوستان Bashkortostan. نقلت وسائل الإعلام بأن السكان المحليين كانوا قد استفادوا من القفزة الكبيرة في أسعار النفط والغاز وأن قبضة المؤسسة الإسلامية التقليدية هناك كانت قوية. هذا صحيح، فبعض الدعاة الراديكاليين كانوا قد وصلوا إلى هناك. لكن الغالبية العظمى من السكان لم يكن لديها رغبة في العيش في ظل ظروف تشبه ظروف وأحوال "العصور الوسطى" كما يبشر به بعض غلاة رجـال الدين الجدد الوافدين من الخارج والغرباء عن عادات وتقاليد البلاد.

كان يبدو بأن الوضع تحت السيطرة حتى جرت محاولة بشكل مفاجئ لتفجير سيارة إيلدوس فايزوف Ildus Faizov، المفتي الأعلى للمنطقة يوم 19 تموز/يوليو 2012. نجا المفتي من الحادث باستثناء بعض الإصابات، في حين أن أحد مساعديه قتل. أفضى هذا الحادث إلى تحقيقات ومناقشات تفصيلية، ولم تكن الصورة المستجدة تبعث على الكثير من الارتياح، بعكس الأحوال التي كانت سائدة من قبل. عندما اجتمع أعضاء البرلمان المحلي بعد عدة أسابيع، أعلن أرتين خوخورين Arten Khokhorin، رئيس وزارة الشؤون الداخلية المحلية، على الملأ بأن حالة حرب حقيقية غير معلنة كانت سائدة في المنطقة خلال السنوات الثلاث عشرة الماضية. خلال تلك الفترة، كانت تتارستان موضع اختراق ممنهج من قبل الدعاة. البعض كانوا أجانب، وآخرون كانوا من أبناء المنطقة بمعنى آخر، كانت المنطقة تتعرض للتحول العقائدي عن طريق التعاليم السلفية. علاوة على ذلك، فإن تشكيلة حشد المصلين الذي كان يؤم الجامع أيام الجمعة والأعياد كان قد تغير: نصف المصلين أو أكثر كانوا من القادمين الجدد من آسيا الوسطى من الذين سبق أن خضعوا لعملية غسل دماغ من قبل الصوفيين في الأماكن التي كانوا قدموا منها. الشيء نفسه كان قد حدث في أجزاء أخرى من روسيا، مثل إقليم ستافروبول (حيث يشكل المسلمون الآن أكثر من ربع السكان)، وحتى في جنوب الأورال وغرب سيبيريا، والتي بحسب بعض التقارير كانت قد أصبحت إحدى أهم المناطق المستهدفة من قبل السلفيين. رئيس باشكورتوستان (المعروفة سابقًا باسم باشكيريا)، والتي كانت نسبيًا خالية من المشاكل، أفاد الآن بأن مخاطر العصبية الدينية آخذة شيئًا فشيئًا بالتحول إلى خطر سياسي. فالقضية لم تكن مقتصرة على أن القيادة التقليدية لم تكن مدركة لهذه المستجدات؛ كانوا قد عملوا على إعداد المتطرفين ورعايتهم. كان الرهان على أنه في حال نجحت عملية قتل فايزوف، فإن خليفته سيكون أحد كبار دعاة السلفية في البلاد.

بعد محـاولة الاغتيال بوقت قصير غادر راميل يونوسوف Ramil Yunusov، إمام أكبر جوامع قازان (أكبر جامع في أوروبا الشرقية)، على جناح السرعة إلى لندن لتحسين مهاراته في اللغة الإنكليزية (بحسب أحد الناطقين). لم يعد منذ ذلك الحين. وفي حين أن أحدًا لم يتهمه بالتورط المباشر بالهجوم، فقد كان مناوئًا دينيًا/إيديولوجيًا رئيسيًا للمفتي. علاوة على ذلك، كان قد درس لسنوات عديدة في المدينة المنورة، وكان يعتبر داعية ذا شخصية كاريزمية متميزة، ولكن في الوقت نفسه كان على علاقة طيبة مع المؤسسة الدينية. بصورة أكثر عمومية، كان الدعاة الأصغر سنًا ممن تدربوا فـي بعض الدول الإسلامية أكثر شعبية من رجال دين المؤسسة الذين كانوا يتلقون دعم السلطات العلمانية وأجهزة الأمن الروسية.

لو كانت أحداث قازان بمثابة استثناء وذات طبيعة محلية محضة، لما استقطبت قدرًا أكبر من الاهتمام السياسي. لكنها لم تكن استثنائية. لنقتبس مجددًا ما قاله ألكسي مالاشينكو: "في بعض مناطق روسيا التي كانت سابقًا طيعة سهلة الانقياد، بدأ السكان المسلمون يتحولون شيئًا فشيئًا إلى راديكاليين، بل حتى متطرفين. حتى قبل محاولة اغتيال المفتي كانت هنالك هجمات، بعضها كان ناجحًا، ضد دعاة كانوا يعتبرون من المعتدلين، من ضمنهم الطرقاوي Tirqawi، وهو زعيم روحـي من جماعة أصحاب الطريقة Tariqists الصوفية: يعتبر بعض المراقبين الوضع الحالي كبداية لقوقزة إقليم الفولغا".

هذا صحيح، هنالك نزعة سببية اقتضائية لتضخيم التأثير السلفي؛ فدعاة المؤسسة الدينية يميلون لشجب كافة معارضيهم، مهما كانت آراؤهم، كسلفيين. ولكن لا يوجد هنالك أي شك بأن مشكلة الإسلام الراديكالي هي في طريقها للانتشار بصورة أكثر حدّة. وهي لم تعد مقتصرة على بعض التجمعات القليلة، بل امتدت لتشمل معظم الأماكن التي يعيش فيها مسلمون في روسيا.

ما الذي بوسع السلطات الروسية أن تفعله للحد من تأثير المتطرفين؟ بإمكانها أن تحول دعمها من الدعاة التقليديين إلى أولئك الأكثر شعبية (سيما في أوساط هؤلاء الذين لهم تأثير على الجيل الأصغر). ولكن من غير المؤكد فيما إذا كان هؤلاء الدعاة سيتعاونون معها في وقت ما عندما تسود هنالك حالة من الراديكالية القومية في أوساط المجتمعات الروسية.

علاوة على ذلك، فإن خطر انتقال العدوى من بلدان مجاورة مثل كازاخستان آخذ بالتنامي. لطالما كانت كازاخستان في حال أفضل بكثير اقتصاديًا من الجمهوريات الإسلامية المجاورة، لكن هذا لم يحل دون انتشار ظاهرتي التطرف والإرهاب الإسلامي. في كانون الأول /ديسمبر 2012، أعلنت حكومة كازاخستان لأول مرة أن جيش الخلافة بات يشكل خطرًا على الأمن القومي. وقد أعقب ذلك سلسلة من الهجمات الانتحارية في الجمهورية.

كان بعض الإرهابيين يتحدر من القوقاز، وآخرون كانوا قد تلقوا تدريبهم في أفغانستان. وقد أكدت أيضًا الشرطة الكازاخستانية أن هنالك مراكز تدريب محلية للإرهابيين لتدريبهم على شن الهجمات داخل البلاد. ومع أن بوسع كازاخستان من خلال التعاون مع منظمة تعاون شنغهاي التعويل على المساعدة الصينية والروسية في مثل هذه الحالات الطارئة، إلاَّ أن حجم الخطر لم يكن يستدعي ذلك بحسب رأيهم. لكن من جهة أخرى، فإن مئات آلاف "العمال الضيوف" الكازاخستانيين بل أكثر من ذلك من الجمهوريات المجاورة يعيشون الآن في روسيا. وسيكون للمؤثرات الراديكالية في أوساط هؤلاء تأثير مباشر في المستقبل.

لعل التقارير المقلقة حول احتمال أن تتحول روسيا إلى بلد إسلامي في غضون جيل أو اثنين هي تقارير مبالغ فيها. لكن لا حاجة هناك إلى قدر كبير من الفطنة والحصافة السياسية لفهم أن مشكلات جدية يحتمل بروزها قبل أن يشكل المجتمع المسلم نسبة 51 بالمئة من عدد السكان. لا يمكن الجمع بين استراتيجية بوتين السكانية و"روسيا للروس" في بوتقة واحدة، ويبقى من غير المؤكد فيما إذا كانت روسيا ستكون قادرة على تنفيذ سياسة تفضي إلى تكامل وتعايش حقيقي بين تلك الملايين العديدة من الوافدين الجدد. إن تشريع السنوات الأخيرة لا يعطي جمهوريات الحكم الذاتي قدرًا كبيرًا من الاستقلالية؛ على العكس، فهو الآن أكثر محدودية مما كان عليه في الماضي.

علاوة على ذلك، فإن جمهور "روسيا للروس" ليس هو فقط ما يجعل الحياة صعبة بالنسبة لبوتين. فالكنيسة الأورثوذوكسية الروسية تعارض كذلك ما تعتبره استياءً رسميًا من الإسلام؛ إنها تطمح للمحافظة على مكانتها القديمة / الجديدة كدين للدولة. والأهم من كل ذلك أن غالبية الرأي العام تعارض السياسة الرسمية.

لطالما كان هنالك تردد في إقرار واعتماد سياسة الخارجية الروسية تجاه الإسلام والأسلمة، في محاولة لترك كافة الخيارات مفتوحة. وبوجود ملامح الخطر الأمريكي التي لا تزال تلوح في

الأفق، ينبغي على النشاطات المناوئة للإسلاميين أن يكون مرحب بها من دون تحفظ، وفي حالات كثيرة كانت كذلك. ولكن في ضوء انسحاب أمريكا وحلف الناتو من أفغانستان، فقد بات مقدرًا على ذلك البلد من جديد أن يغدو مشكلة روسيا كقاعدة لنشاطات الجهاديين في آسيا الوسطى، لأن روسيا قريبة وأمريكا بعيدة. وتبقى استراتيجية الحكومة الروسية واقعة تحت هيمنة الظل الأمريكي والقناعة بأن ما يخدم الولايات المتحدة يجب أن يكون في غير صالح روسيا. قد يستغرق من روسيا وقتًا طويلًا للتخلص من هواجسها حيال الخطر الغربي. لقد كان قدر روسيا أن ترى الأخطار والأعداء في الأماكن الخطأ وتتغافل عن الأخطار والأعداء الحقيقيين. مثل هذه النزعات لها جذور عميقة ومن غير المحتمل أن تتلاشى بين عشية وضحاها.

المعارضة

كان على حكومات ما بعد الحقبة السوفييتية أن تواجه مقاومة محلية منذ البداية. في الأيام الأولى، كان لهذا الأمر بشكلٍ رئيسي علاقة بالتغيرات الحاصلة في الدستور، سيما بالدور الرائد للحزب الشيوعي في الحياة السياسية للبلاد. في مرحلة لاحقة، جرى إزالة هذا العائق بالتحديد وباتت البلاد ترتدي حلة ديمقراطية، على الأقل فيما يتعلق بقوانينها.

مع صعود بوتين إلى سدة الحكم، فرضت نزعة مغايرة نفسها: كان الشعب الروسي يطالب بالاستقرار والنظام أكثر منه الحرية والديمقراطية. ولكن الحرية التي كانت قد تحققت بدأت تتقلص شيئًا فشيئًا أو يجري تجاهلها عمليًا. لقد كان يعتقد على نطاق واسع بأن الإصلاحات الغربية للديمقراطية لم تكن مناسبة لروسيا، بالتأكيد ليس في ظل الظروف الحالية - بعد انهيار النظام القديم والانتفاضات العامة لفترة التسعينات. حدث هذا جزئيًا بسبب المصاعب التي واكبت عملية الانتقال من الفترة الشيوعية والأخطاء التي ارتكبت خلال تلك السنوات. السؤال الذي بقي من دون جواب كان حول ما إذا كان لأي شكلٍ آخر من أشكال الديمقراطية أن يناسب روسيا. لقد اكتسب مصطلحا "ديمقراطية" و"ديمقراطي" مدلولًا سلبيًا.

مع تقليص الحريات السياسية، اندلعت التظاهرات - وهذا أدى لمزيد من القيود. عبرت المعارضة عن نفسها من خلال الاحتجاجات ضد الانتخابات التي (حسب المزاعم) تعرضت للتزوير. انطلقت هنالك أيضًا مسيرات سلمية ونشاطات مشابهة. في البداية، كان يقود هذه الأحداث منشقون من الحقبة السوفييتية الأخيرة، ولكن شيئًا فشيئًا برز إلى الواجهة جيل جديد من المعارضين، شباب أصغر سنًا من أمثال ألكسي نافالني Alexei Navalny وسيرجي أودالستوف Sergei Udaltsov، الأول منهما أكثر ميلًا لليمين والثاني لليسار. لكن "اليسار" و"اليمين" كانا أيضًا يخسران مكانتيهما ولم يعودا على ذلك القدر من الأهمية كما كانا في يومٍ من الأيام. لم يكن لمطالب اليسار علاقة بالماركسية اللينينية، ووطنيتهما كانت على الأقل بمستوى وطنية الآخرين لا أكثر ولا أقل. فالقضايا الرئيسية باتت الآن الفساد وغياب الحرية السياسية. فلاديمير ريزكوف Vlamimir Ryzhkov، الذي كان يومًا نائبًا لرئيس الوزراء، نوه قائلًا بأنه على مدى سنوات لم يتم الاعتراف بأي حزب سياسي، وأن هذا كان أمرًا عاديًا في ظل غياب الحرية السياسية. في حين أن حزب روسيا المتحدة United Russia الحكومي بمنظمته الشبابية

ناشي (Ours) كان قد أعطي كل المزايا، فقد كانوا في الحقيقة "محتالين وأنذال" بحسب مقولة شهيرة لـ نافالني Navalny.

بصفته محاميًا شابًا ذا شخصية كارزمية متميزة، فقد عرّف ألكسي نافالني عن نفسه بأنه ديمقراطي قومي (أو العكس). كان من المفترض عادةً أن لديه بضعة آلاف من الأتباع فقط، لذلك فقد كانت بمثابة مفاجئة أن مئات الآلاف صوتوا له في الانتخابات لمنصب محافظ موسكو في أيلول 2013 ضد سيرجي سوفيانين، الذي كان مرشح بوتين. لم يكن لدى نافالني أي ظهير مالي أو منظمة قوية، لكنه كان ناجحًا أيضًا كصاحب مدوّنة إلكترونية. كيف نفسر إذًا أن نافالني ومثل هؤلاء المعارضين الآخرين لم ينجحوا ضد مرشحين رسميين؟

كما هي العادة، هنالك أكثر من سبب. عمليًا، فإن كل أولئك الناشطين في مجال السياسة الروسية في الوقت الحالي متفقون على أن التغيير لن يأتي بنتيجة الانتخابات. إذا كان لأحد مرشحي المعارضة أن يفوز، فالاعتقاد السائد أنه سيعتقل بتهمة ما - اختلاس، أو اغتصاب، أو مذبحة جماعية، أو مخالفة مرورية، أو تهرب ضريبي، ويمكن أن يقتل أيضًا.

سبب ثان: ضمن العديد من الانشقاقات في صفوف المعارضة، هنالك أعداد لا حصر لها من الأحزاب الصغيرة التي تبدو غير قادرة على جمع قواها من أجل عمل مشترك. سيرجي أودالتسوف هو قريب إيديولوجيًا من الشيوعيين وشغل منصب رئيس أركان زعيمهم. ولكن في آخر لقاء معه قال بأنه لم يكن يريد رؤية ذلك الزعيم كرئيس قادم. ولعل هواجسه كانت مشروعة تمامًا.

علاوة على ذلك فإن بوتين لديه دعم ثابت من شرائح معينة من السكان، بما فيها المتقاعدون وموظفو الدولة والطبقة العاملة. أما دعم المعارضة فيأتي بشكلٍ رئيسي من طبقة النخبة المثقفة وشرائح الطبقة المتوسطة. قد يكون لدى أنصار نافالني وأودالتسوف إيمان راسخ بالنزاهة الشخصية لمرشحيهم المفضلين، ومع ذلك فإن الروح القومية لنافالني وعلاقة أودالتسوف الوثيقة مع الشيوعيين لا توحي بالثقة.

تعتمد حكومة بوتين سياسة الاحتكار التام لوسائل الإعلام. كانت الرقابة على وسائل الإعلام قد ألغيت رسميًا في عهد غورباتشيف عام 1995 لكن الرقابة الذاتية هي رقابة قوية في الحقيقة. كافة القنوات التلفزيونية الرئيسية تعود لمالكين يمكن الاعتماد عليهم والوثوق بهم في عدم بث أي مواد سلبية أو ناقدة للحكومة؛ وعدد قليل من محطات الإذاعة والتلفزيون مثل إيكوموسكفي Echo Mosky وDozhd لا تزال مستقلة. جرى تهديد الصحفيين غير المناسبين، وجرى الاعتداء عليهم بدنيًا، وفي حالات معينة جرى قتلهم.

هل الإعلام الروسي في الوقت الحالي أكثر أو أقل حرية مما كان عليه أيام روسيا القيصرية؟ هنالك تشابهات مثيرة معينة: كان يمكن لكتابات كارل ماركس أن تطلب وتشترى في روسيا قبل عام 1917 بالإنكليزية والألمانية، لكن ليس بالروسية. اليوم يمكن نشر المواد الإخبارية في صحيفة موسكو تايمز التي لم تظهر أبدًا في وسائل الإعلام التي تستخدم اللغة الروسية. الكتب في روسيا، كما هي في الغرب، لم تعد تقرأ على نطاقٍ واسع، في حين أن معظم الناس يتلقون معلوماتهم من وسائل الإعلام الأكثر حداثة.

هنالك، مع ذلك، ثغرة واحدة كبيرة (وغير مستحبة) فيما يتعلق بالسلطات - الإنترنت، التي يستقي منها العديد من الروس معلوماتهم حول الأحداث في روسيا والخارج. لهذا السبب، ما برحت الحكومة تسعى منذ بعض الوقت لإصدار تشريع يجعل من هذه الخدمة أمرًا مستحيلًا عن طريق إنشاء "إنترنت وطنية" كتلك الموجودة في الأنظمة الاستبدادية الأخرى. قد يعترض البعض قائلًا إن مثل هذا الإجراء سيفسر بلا شك على أنه انتقال من جانب النظام من استبدادي إلى ديكتاتوري، لهذا السبب فإن بعض البلدان غير الاستبدادية تراجعت عن اتخاذ مثل هذه الخطوة، كونها أخذت تعقيدات وملابسات مثل هذا الأمر بعين الاعتبار. حتى من دون تشريع رقابة، فقد كانت السلطات الروسية قادرة على إغلاق المواقع الشبكية المزعجة، ورئيس موقع Vkontakte، أكبر موقع تواصل اجتماعي في روسيا، أرغم عام 2014 على مغادرة البلاد. في ضوء هذه الظروف، وفي ظل غياب حرية المعلومات، يكون لدى الحكومة والحزب الحكومي احتكار كامل للمعلومات.

إذا كان النجاح لم يحالف حزب "روسيا المتحدة"، حزب بوتين الحكومي، إلا أن شعبية بوتين الشخصية حافظت بثبات على زخمها المرتفع. بعد انتهاء دورة الألعاب الأولمبية الشتوية في سوتشي، وغزو جزيرة القرم عام 2014، حققت شعبيته رقمًا قياسيًا قارب نسبة 95 بالمئة. السياسة الوطنية /القومية كانت فائزة: حتى جزء من المعارضة الديمقراطية التي لم توافق على سياسة بوتين في الأزمة الأوكرانية باتت تتوافق معه على أن القرم كان جزءًا من روسيا ويجب أن يعود إليها ثانية. طالما أن بوتين نجح في لعب الورقة الوطنية /القومية دون تعريض السلم العالمي للخطر أو التسبب بتدهور خطير في الاقتصاد، فقد باتت التوقعات بقدرة المعارضة على تحقيق تقدم ذي شأن في حدودها الدنيا.

هل بوسع روسيا التطور باتجاه فاشية كاملة متكاملة؟ لقد ارتأى بعض المراقبين بأن روسيا قد وصلت سلفًا إلى هذه المرحلة. لكن في الوقت الذي يمكن فيه تفهم مثل هذه التأكيدات من وجهة نظر عاطفية - سيكولوجية، إلا أنها بالكاد تستطيع الصمود أمام تحليل بالغ الدقة، كما أنها لن تكون ذات جدوى في فهم ديناميكية السياسة لروسيا المعاصرة. بوريس نيمتسوف Boris Nemtsov، أحد زعماء حركة سوليدارنوست Solidarnost الديمقراطية ونائب رئيس وزراء سابق، أعلن أنه في ربيع العام 2014 كانت روسيا قد تحولت إلى دولة ديكتاتورية. وعلى الرغم من إمكانية بناء قضية محقة لصالح هذا التأكيد، إلا أن المرء لا يمكنه أن يحس بالارتياح الكامل حيال مثل هذا التصريح القاطع. لأن روسيا لم تكن بلدًا حرًا حتى قبل ذلك، ولم تتحول إلى ديكتاتورية شاملة حتى بعده، بالرغم من حقيقة أن النزوع نحو الديكتاتورية كان أمرًا مؤكدًا.

من الصعب العثور على قاسم مشترك للأنظمة السياسية المشار إليها "بالفاشية" في أوروبا القرن العشرين. ألمانيا النازية لم تكن "فاشية"، وإيطاليا "الفاشية" لم تكن نازية. يغدو الأمر حتى أكثر صعوبة عند محاولة العثور على قواسم مشتركة إذا ما اعتبر المرء أيضًا أن البلدان الأوروبية الأصغر مشمولة بالمعادلة ذاتها. ولهذا علاقة جزئية أيضًا بعامل الوقت - لم تدم الحقبة الفاشية طويلًا - حيث اندلعت الحرب العالمية الثانية بعد ست سنوت فقط من تسلم النازيين لمقاليد السلطة. إن مصطلح "فاشي" بالذات لا ينطوي إلا على قدر ضئيل من الدلالة على صعيد التحليل والفهم.

من غير المحتمل أن كل البلدان والحركات الفاشية أو نظيرة أو شبه الفاشية كان يمكن لها أن تتطور بالطريقة ذاتها. كانت هنالك اختلافات واضحة بين البلدان الفاشية الكبيرة والصغيرة - الكبيرة منها كانت تنحى نحو التوسعية والعدوان العسكري، أما الصغيرة فلم تفعل ذلك، على الرغم من احتمال أنها قد تكون تحمل تلك الروح في آرائها وأفكارها. هنالك قواسم وسمات مشتركة معينة تجمع بين البلدان الفاشية كافة - على سبيل المثال، وجود زعيم وعقيدة يحملها هذا الزعيم. الأنظمة التي لم تفرض مبدأ حزب الدولة الأوحد، أو التي قبلت بوجود أكثر من حزب وأكثر من إيديولوجية واحدة، كانت أقرب على الأرجح إلى كونها ديكتاتوريات شعبوية يمينية لا تحمل شخصيتها خصائص الفاشية.

بدأت تتجلى في روسيا في الآونة الأخيرة الملامح الأولى لعقيدة عبادة أو تقديس الشخصية (يمكن الرجوع إلى المجموعة الأدبية من إعداد هيلينا غوسيلو Helena Goscilo بعنوان "بوتين، الشخصية الفذة والأيقونة الثقافية") رغم كونها متواضعة تمامًا مقارنة بنظيرتها الستالينية. قد يعود السبب ربما إلى غلواء العقيدة الستالينية وشخصيتها التي غالبًا ما كانت تنطوي على سمات سخيفة مضحكة، ولم تخلف ذلك الانطباع الحسن حتى في أوساط الشيوعيين بالذات، ما أظهر العقيدة البوتينية بمظهر العقيدة الفاترة التي تعوزها الحماسة. جرت هنالك محاولات بين الفينة والأخرى لإبراز صورة بوتين بوصفه "أب الأمة" father of the nations، لكنه لم يكن يحمل شخصية مثل هذا الأب، ومثل هذه المحاولات كانت بلا شك محكومة بالفشل. كانت شخصيته العامة أقرب إلى شخصية الوطني والسيلوفيكي المتحمس لوطنه والمستعد للدفاع عنه، مع افتقاره لبقية الخصائص الضرورية الأخرى لشخصية القائد العظيم. كانت شخصيته تتسم بتلك اللمسة "العنترية" بالغة القوة التي تشكل قاسمًا مشتركًا بينه وبين موسوليني. وفي حين أن موسوليني كان نادرًا ما يكشف عن الجزء العلوي من جسده - كانت الفروسية رياضته المفضلة - غالبًا ما كان بوتين يستعرض تلك الأجزاء اللافتة من نصفه العلوي في أثناء ممارسته لرياضة الجودو أو غيرها من الرياضات أو مشاركته في إحدى مبارياتها. لم يكن مثل هذا التصرف تصرفًا لائقًا أو مناسبًا في ألمانيا في أوساط القادة النازيين، كما أن هتلر أو غورنغ أو غوبلز لم يكونوا يمتلكون تلك البنى الجسدية التي يفخر المرء بإبرازها للعيان واستعراضها أمام الآخرين. إلبرت Elbert، الرئيس الديمقراطي الاجتماعي، جرى تصويره في إحدى المرات بلباس السباحة، الأمر الذي ألحق به ضررًا سياسيًا بالغًا خلال فترة العشرينات. ألبرخت Ulbricht، الزعيم الألماني الشرقي، كان فلتة استثنائية على صعيد رياضة الجمباز، لكنه لم يظهر يومًا بلباس غير لائق على الإطلاق.

إن تاريخ الأحزاب السياسية في روسيا هو تاريخ قصير جدًا. وفي حين أن هذه الأحزاب كانت بعد تفض الاتحاد السوفييتي ممثلة في مجلس الدوما، من غير الواضح إذا كانت منظمات حقيقية أصيلة، ومن كان يقف وراءها، ومن كان يشرف عليها ويمولها، ومصالح من كانت تمثل. مع ذلك، أليس من الممكن لهذه الأحزاب التابعة المزيفة أن تتحول فجأة خلال الأزمات إلى كيانات مستقلة لها إرادتها وسياستها الخاصة؟ أليس من الممكن أيضًا لمثل هذا الوضع أن يظهر إلى حيز الوجود في يوم من الأيام؟

حزب الدولة

كان قادة روسيا الحاليون قد تعلموا في شبابهم أن وجود حزب سياسي قوي ضرورة لا غنى عنها كونه يعتبر السير الناقل لإدارة البلد. طالما أن هنالك انتخابات وغيرها من مستلزمات النظام الديمقراطي ومنكهاته، فقد كانت هنالك حاجة لمثل هذا الأمر لحشد الجماهير وتسخير الدعاية اللازمة لإيصال رسالة الشريحة الحاكمة إلى الناس. كان غورباتشيف وكذلك يلتسن قد حكما في سنواتهما الأخيرة من دون حزب، لكن هذا كان قد خلق مجموعة من المشاكل للزعيم ومن حوله. ولأنهما كانا بحاجة للدعم والمال، ولجماعة من الناشطين لشتى أنواع المقاصد والأهداف. لم يريدا الاعتماد كليًا على الأوليغاركيين والحكومات المحلية، رغم أن المحافظين كانوا ينتخبون بالأساس محليًا، في حين أنهم الآن يعينون من قبل الكرملين.

في الأيام الأخيرة لنظام يلتسن، اتحدت مجموعات أصغر حجمًا مؤيدة للكرملين معًا وظهر حزب الدولة الحالي إلى الوجود استعدادًا لانتخابات مجلس الدوما عام 1999. أعلنوا عن أنفسهم حزبًا وسطيًا مناوئًا للفاشية معارضًا للنهج المتطرف لجناحي اليسار واليمين. كان بوتين في يوم من الأيام رئيسًا لهذا الحزب، لكنه تراجع وانسحب لاحقًا، كما فعل ديمتري مدفيديف وكذلك سيرجي شويغو Sergey Shoygu، الذي سبق أن شغل منصب رئيسه السابق.

لطالما كان هذا الحزب هو الأقوى في مجلس الدوما، محققًا بين 49 بالمئة و 72 بالمئة من إجمالي الأصوات؛ وكان دعمه هو الأعلى في 2007 - 2008، عندما كان الازدهار في أوجه. كانت هنالك بالطبع اتهامات متبادلة بالتلاعب بنتائج التصويت عن طريق إتخام صناديق الاقتراع بأوراق سرية وغيرها من أساليب الغش والخداع، لكن نتائج التحقيق لم تصل يومًا إلى نتائج حاسمة على هذا الصعيد.

على أية حال، لم يلق خيار تأسيس حزب واحد للدولة كقوة حاكمة وحيدة للبلاد ذلك القدر من النجاح في السنوات الأخيرة. كذلك كان مشروع إنشاء منظمة شبابية على مستوى البلاد أكثر صعوبة. لقد استغرق هذا المشروع وقتًا طويلًا، ولم يَرْقَ في نهاية المطاف إلى مستوى قوة ديناميكية فاعلة. ظهر إلى حيز الوجود عام 2005 من خلال منافسة مع "الثورات البرتقالية" في بعض الجمهوريات التي كانت انشقت عن الاتحاد. واستقطب إليه عددًا لا يكاد يذكر من الأعضاء الذين كانوا بحسب الشائعات من أولئك الذين تم العثور عليهم في أوساط مشجعي كرة القدم والذين لم يظهروا للعيان إلا بعد أن دفعت لهم أتعابهم لقاء حضور التظاهرات. استنادًا إلى برنامجهم الرسمي، كانوا ضد اليمين واليسار المتطرف، وضد الفاشية ولكن أيضًا ضد الإفراط من جانب الأوليغاركيين المناوئين للوطنية. من الواضح أنه كان من ابتداع وابتكار سوركوف رئيس أركان بوتين وكبير منظّريه الإيديولوجيين حتى العام 2011. لم يبد استعدادًا كبيرًا لتولي هذه المهمة بصفة منظم، ولم يكن لمنظمة "ناشي" ذلك الظهور البارز بعد على مسرح الأحداث. كان يفتقر إلى كل المعايير الأساسية المطلوبة لحركة ديناميكية شبابية فاعلة، وقبل كل شيء كان يفتقر إلى الحماسة. لعلهم لم يكونوا جميعًا لصوصًا وأوغادًا، على حد قول ألكسي نافالني، لكنه على ما يبدو كانوا عديمي الجدوى سياسيًا.

بافتقارها إلى حزب سياسي يعمل، بحسب الدستور القديم، كمحركٍ لسير الانتقال في البلاد، وإيديولوجية رسمية تقف في وجه نظام استبدادي، لا يمكن لروسيا أن تبقى هكذا ببساطة عبارة عن مجتمع من المعجبين ببوتين وحسب. حتى فيما يتعلق بهذا الهدف، منظمة فاعلة - إلى جانب مجموعة من الأشخاص من ذوي العقلية المتماثلة والمصالح والاهتمامات المشتركة - هو أمر مطلوب. لقد كان هؤلاء، إلى درجة معينة، أعضاءً في الـ KGB (المعروف حاليًا بالـ FSB). واستنادًا إلى "النظام العمودي" الشهير المتعلق بالحكومة، فهم مخولون بإصدار الأوامر لجهازي الشرطة والقضاء. وبوسعهم تهديد وسائل الإعلام أو شراؤها. بوسعهم إنشاء تحالفات عمل مع بعض ذوي النفوذ والمناصب الرفيعة في الحكومة - أو حتى تعيين البعض من أزلامهم في مثل هذه المناصب.

حاول طلاب الحركات السياسية والفاشية تحديدًا إيجاد سمات وقواسم مشتركة معهم – "الحد الفاشي الأدنى" - وجرى توضيح عشرة أو اثني عشر أو أربعة عشر مكونًا. لطالما كان للفاشية في السلطة زعيم؛ ولم تكن محكومة من قبل لجنة. وكان لديها دائمًا حزب واحد، وغياب مثل هذا الحزب سرعان ما كان يفسح المجال أمام بروز أسئلة واستفسارات حول الشخصية الحقيقية لمثل هذا النظام. النظام الفاشي لديه احتكار (أو ما يشبه الاحتكار) فيما يتعلق بنشر أفكاره والترويج لها، ولديه احتكار أيضًا (أو ما يشبه الاحتكار) بخصوص العنف السياسي. لم يكن هنالك أي جهاز قضائي في ظل الفاشية.

في الوقت ذاته، كان كل من هذه الأنظمة مختلفًا من بعض النواحي. كان النظام الروسي فريدًا من نوعه تمامًا من حيث إنه أول من تحول من الشيوعية إلى نظامٍ مغاير تمامًا - سواء كان من أقصى اليمين أو شبه الفاشي أو غير ذلك. وفي حين أن من المثير الإشارة إلى هذه التباينات والاختلافات فيما بينها، فإنه لا ينبغي تكريس قدر كبير من الطاقة العقلية ربما لمسألة التصنيف، لأنه في أغلب الأحيان فإن هذه الأنظمة (أو الحركات) هي في حالة انتقال.

يعد غياب إيديولوجية رسمية بعد فترة من التشبع المفرط بالإيديولوجية أمرًا لافتًا بالتأكيد، ولكن من غير الواضح إطلاقًا ما إذا كان هذا الوضع سيستمر وإلى متى. هنالك فترات في التاريخ كان يمكن خلالها التسامح مع قضية غياب عقيدة أو نظام عقائدي، على الأقل مؤقتًا، في حين أنه في فترات أخرى لم يوضع مثل هذا الأمر في الحسبان مطلقًا. بطريقة مشابهة، هنالك فترات حتى في تاريخ الديكتاتوريات كان فيها قدر ضئيل من القمع كافيًا للبقاء في السلطة، في حين أنه في فترات أخرى كان هناك حاجة لقدر كبير من هذا القمع (أو هكذا كان يعتقد). إذا كان الخوف من الفوضى كبيرًا، لا يكون لزامًا على أولئك الذين في السلطة أن يثبتوا أن هنالك حاجة لاستخدام القبضة الحديدية. الشيء ذاته يصح في حال كان النظام الديكتاتوري حديث العهد نسبيًا أو أظهر كفاءته في الماضي القريب.

هل يمكن الإبقاء على مثل هذا النظام في ظل هذه الظروف؟

وماذا عن المعارضة؟ ما هي آفاق واحتمالات نجاحها في ظل نظام سياسي كالقائم حاليًا في روسيا؟

عندما يكون قد مضى على نظام ما أو حـاكم ما وقت طويل جدًا فـي السلطة، يصار إلى اعتماد وتطبيق عملية "رَوْتنة" routinzation، تغدو من خـلالها المطالبة بالتغير عملية مكثفة ومكرورة - ما لم يكن النظام بالطبع نظامًا ناجحًا بصورة استثنائية في معالجته لكافة الأمور. حتى في هذه الحال فإن قبضة الحزب الحاكم قد تتعرض للخطر إذا ما حدثت انشقاقات في قاعدتها السلطوية.

وصلت معارضة نظام بوتين حاليًا إلى درجة معينة من جانب أعضاء أقصى اليمين الذين يزعمون بأن الحكام الحاليين غير جذابين بما فيه الكفاية ومناوئون للديمقراطية. ومع ذلك، فالإجراءات القمعية المتزايدة المتخذة من قبل الحكومة، والشعبية التي أكسبتها إياها عملية الاستيلاء على القرم، إضافة إلى الدعم القوي من جانب الانفصاليين الأوكرانيين، قد أسهمت فـي خفض حدة أصواتهم حاليًا. أما فيما يتعلق بالمعارضة الديمقراطية، لا يبدو فـي ضوء الظروف الحالية أن الدعم الشعبي لمثل هذا النوع من المعارضة أمرًا مرجحًا، طالما أن غالبية الروس على ما يبدو مقتنعون تمامًا بالحكم الاستبدادي.

يعتمد نظام بوتين بصورة رئيسية على القوة المستندة للحكومة المركزية، بمصالح إقليمية يجري تجاهلها. والحقيقة أن معارضة تمثل المصالح الإقليمية ستحظى بفرصة أفضل بكثير، لكن هذا الخيار لم يجر اختباره بعد.

الفصل السابـع

العقيدة القومية الجديدة

العودة إلى الجذور

انهار الاتحاد السوفييتي في التسعينات، لكن الإيديولوجيا التي كان يرتكز إلى أسسها وقواعدها كانت ولوقت طويل تعاني من إنهاك وترهل شديدين. صحيح أن القيم والمبادئ الكلاسيكية للماركسية اللينينية كانت بمثابة منهل للاقتباس والاستشهاد عند الضرورة، لكن الروح الثورية الديناميكية التي كانت سائدة بقوة خلال فترة العشرينات تلاشت ولم يعد لها وجود. ما الذي كان يمكن أن يحل محلها؟ حافز ثوري آخر كان يبدو خارج إطار البحث؛ يسار جديد يمكن تلمس ملامحه في الجامعات الأمريكية والأوروبية، ولكن ليس في الاتحاد السوفييتي.

بدا بأن القومية والدين هما الجواب الشافي، كما كانت عليه الحال قبل ثورة 1917. لكن روسيا القيصرية، سيما في مرحلتها الأخيرة، لم تكن تشكل نمطًا جذابًا مغريًا إلا في نظر أنصار المَلكية من أولئك المخلصين الثابتين على مبادئهم (حتى هؤلاء كانوا يتذمرون من ضعف نيقولاي الثاني). كان على هؤلاء في سياق عملية البحث عن إيديولوجيا جديدة أن يعودوا إلى الماضي الأبعد - ربما إلى نيقولاي كارامزين، الذي كان قد كتب عن حبه للوطن والاعتزاز بالقومية قبل حوالي مئتي عام. فقد عمد في كتابه "تاريخ الدولة الروسية" إلى تمجيد إنجازاتها. صحيح أن روسيا كانت ترزح تحت القيود على مدى فترات طويلة من تاريخها، لكن الحال كان نفسه بالنسبة لباقي الأمم في أوروبا. على أية حال، كان قد تم كسر القيود وتحطيمها بكل فخر واعتزاز. كان بطرس الأكبر قد أسهم في توحيد روسيا مع أوروبا: "توجهنا بأنظارنا نحو أوروبا... ومن خلال نظرة سريعة واحدة تمكنا من تشرب واستلهام ثمار معاناتها الطويلة". كان الجيش الروسي قد ألحق الهزيمة بأقوى جيش في أوروبا. باختصار: "أي أمة في أوروبا يحق لها أن تكون أكثر فخرًا؟"

لكن كارامزين، بصفته مرشدًا، بدا أكثر بعدًا عام 2000. فقد اعترف بأن إنجازات روسيا الرئيسية كانت في المجال العسكري - وهذا يعود بشكل رئيسي إلى أنها كانت تحـارب دفاعًا عن وجودها. القادة العسكريون أمثال ألكسندر سوفوروف Alexander Suvorov كانوا يطلقون مقولات وشعارات تتسم بالعمق والبلاغة (من قبيل "الرصاصة لن تجدي، استخدم الحربة")، وقد كان ميخائيل كوتوزوف Mikhail Kutuzov محقًا في رفضه شن الهجوم على نابليون حتى آخر النهار. لكن طبقة النبلاء الروس كانت لا تزال تتحدث بالفرنسية فيما بينها. وطبقة النخبة المثقفة كانت لا تزال غير سعيدة. لقد كتب بايوتر تشاداييف في "رسالته الفلسفية" philosphical (1836) التي غالبًا ما يتم الاقتباس منها:

> إنها واحدة من الحقائق المؤسفة لحضارتنا الفذة أننا لا نزال نكتشف الحقائق بأن الشعوب الأخرى، حتى الأقل تقدمًا منا بكثير، لم تعد تكن لنا ذلك القدر من التقدير والاحترام. السبب هو أننا لم نكن نواكب أبدًا مسيرة الشعوب الأخرى. نحن لا ننتمي لأي من السلالات العظيمة للجنس البشري، نحن لسنا تابعين للغرب ولا للشرق وليس لدينا تقاليد وتراث أي منهما. ونحن في موضعنا هذا خارج إطار الزمن، لا نزال لم نتعلم أو نستخلص بعد الدروس والعبر من الثقافة الشاملة للجنس البشري.

وفيما بعد:

نحن لوحدنا في هذا العالم، لم نقدم شيئًا للعالم، لم نعلمه أي شيء. لم نضف فكرة واحدة إلى الناتج الإجمالي للحضارة البشرية؛ لم نسهم في أي تقدم للروح الإنسانية، وما اقتبسناه من هذا التقدم عملنا على تشويهه وإفساده. منذ بداية وجودنا كمجتمع لم ننتج شيئًا للصالح العام للبشرية جمعاء، ولا أي فكرة مفيدة انبثقت من التربة القاحلة لأرض الوطن....

غني عن القول أن هذه "الرسالة الفلسفية" كتبت بالفرنسية.

لقد انشق السلافوفيل بكل أسف ومرارة. الشعب الروسي (كتب إيفان أكساكوف) غير مهتم بالسياسة. لهذا السبب أخطأت الحكومة بمواصلتها اتخاذ الإجراءات لمنع قيام ثورة خشية اندلاع انتفاضة سياسية، وهو حدث كانت له آثاره العكسية على روح وجوهر الشعب الروسي بالذات. كان الشعب الروسي يسعى إلى الحرية الأخلاقية والمعنوية، حرية الروح. تاركًا ملكوت العالم للدولة، الشعب الروسي وضع أقدامه على طريق حرية داخلية، على طريق حياة روحية: مملكة المسيح.

كان فيودور تايوتشيف أحد أعظم الكتّاب الروس وأكثرهم مظلومية. وضعه تولتسوي في مرتبة أعلى من بوشكين؛ فقد كتب قائلاً إن بوشكين أكثر غزارة في إنتاجه، لكن تايوتشيف أكثر عمقًا. وكونه عاش في الخارج لسنوات عديدة، فقد كان تايوتشيف يتابع الأحداث في أوروبا باهتمام كبير ووصل إلى قناعة مفادها أنه كان هنالك حزبان فقط في أوروبا، حزب الغرب الثوري وحزب روسيا المحافظ. وبالرغم من تعيينه كبير مراقبين إلا أنه لم يكن في الحقيقة محافظاً. كان يرحب بإصلاحات ذلك الزمن، وفوق كل شيء إلغاء العبودية. كتب فـي "الجغرافية الروسية" قائلًا:

ولكن أين أقصى ما انتهوا إليه، وأين حدودهم؟

إلى الشمال، إلى الشرق، إلى الجنوب، وإلى مشرق الشمس.

الأقدار سوف تقدمهم للأجيال القادمة.

من النيل إلى النيفا Neva (نهر يقع شمال غرب روسيا)، ومن الألب إلى الصين ومن الفولغا إلى الفرات.

هذه هي الإمبراطوية الروسية ولن تطالها يد الفناء أبدًا

تمامًا حسبما تكهنت الروح القدس وتنبأ دانيال.

كان عشق تيوتشيف لروسيا مقترنًا بضرب من ضروب هوس الاضطهاد. كتب لأخته بأن البلدان الأوروبية سوف تخسر فرصتها بإلحاق الأذى بروسيا. لكن زيجاته وعلاقات حبه كانت بمعظمها مع سيدات ألمانيات، ونقل عن أصدقائه قولهم بأن لغته الفرنسية كانت أفضل من لغته الروسية.

ما الذي كان بوسع أنصار الحضارة السلافية القدامى تقديمه للوطنيين في العام 2000؟ حتى الرفاق السلافيون لم يكونوا موضع ثقة؛ الأقطاب كانوا خونة. أحد كبار الشخصيات المناصرة للحضارة السلافية الأواخر كان يحتقر العقلية الاستهلاكية الأوروبية ويثني على القيم البيزنطية. كانت هذه آراء قسطنطين ليونتيف، القنصل في ألبانيا. نيقولاي دانيليفسكي Nikolay Danilevsky، الذي غالبًا ما كان يجري الاستشهاد به إلى جانب ليونتيف، كان من المنادين بالمذهب الطبيعي (لكنه كان يعارض داروين) وأصبح مشهورًا بفضل روسيا وأوروبا، واجهته العريضة تجاه الغرب. أوروبا لم تكن مجرد كائن غريب (من عالم آخر) بالنسبة لنا وحسب، وإنما كائن معادٍ أيضًا، فقد كانت مصالحها واهتماماتها متعارضة مع اهتمامات ومصالح روسيا.

من غير المؤكد أن ليونتيف ودانيلفسكي ينبغي اعتبارهما من أنصار الحضارة والثقافة السلافية. كانا يعتقدان بأن زمن تلك الحركة قد مضى وانقضى. كانا من المناوئين لليبرالية والمناوئين للغرب، وهذا ما حببهم لألكسندر ديوجين وآخرين ممن اعتمدوهما كمعلمَيْن ناصحَيْن مخلصَيْن. كانت القاعدة التاريخية التي استندت إليها هذه الإيديولوجية أقل ما يقال فيها إنها ضعيفة. لأن روسيا عندما كانت تتعامل مع أوروبا القرن التاسع عشر، كان البلد الأساسي هو عادة ألمانيا، التي بالكاد كان يمكن اعتبارها آنذاك "بلدًا ليبراليًا".

كان ليونتيف ودانيليفسكي أيضًا من بين مكتشفي (أو مخترعي) ظاهرة الرهاب الروسي Russophobia. لم يكن لدى ليونتيف متسع من الوقت لإضفاء الصفة المثالية على المزارع الروسي أو باقي الشعوب السلافية. وبقدر ما كان ظلاميًا - كان أقرب إلى كونه معاصرًا ومن المؤمنين بنظرية الواقعية التنبؤية. في أواخر حياته، توصل إلى الاستنتاج بأن الرأسمالية الغربية والليبرالية لن يكون لهما أي مستقبل في روسيا - حيث إنه سيكون من المتعذر إعادة إحياء تقاليد الأورثوذكسية الشرقية (بيزنطة)، وأن المستقبل الوحيد أمام روسيا سيتمثل بشكل من أشكال الاشتراكية، التي ستوفر المستلزمات الضرورية لفرض النظام والانضباط (والقمع)، الذي من دونه فإن كافة خيوط ذلك النسيج الاجتماعي سوف تنحل وتتفكك. هذه طريقة عصرية جدًا لتوصيف الوضع الروسي الراهن.

كان ليونتيف مفكرًا تشاؤميًا إلى حد كبير وكان أيضًا نزيهًا وصادقًا للغاية. كان يرى بأن التمجيد الممنهج لماضي روسيا مجرد وهم، والأحلام الوردية حول مستقبل روسيا مجرد خرافة. وكان يرى بأن أفضل شيء يمكن للمرء أن يطمح إليه ويحلم به هو الحفاظ على الوضع الرهن على حاله بكل سلبياته. بمعنى آخر، كان متقدمًا في رؤيته على باقي مفكري اليمين الراديكالي لزمننا الحالي. وبوصفه محافظًا، كان يزدري مبدأ تمجيد الحضارة والثقافة السلافية، التي كان يعتبرها ثقافة ديمقراطية سوقية مبتذلة، وتنطوي على مخاطر جمة. وكان يعارض السياسة الخارجية العدائية حيال الثقافة السلافية في البلقان و"الرَوسنة" Russification الداخلية في بلدان البلطيق وفي أماكن أخرى. كانت آراؤه الأدبية مختلفة تمامًا عن آراء معاصريه من المحافظين. كان يفضل تولستوي على دوستويفسكي، بوصفه كاتبًا ومناضلًا وطنيًا في آن معًا.

كان تأثير ليونتيف محدودًا في أثناء حياته، على عكس دانيلفسكي، الذي كانت كتابته تلقى رواجًا كبيرا من جانب القراء. ظهرت رائعة دانيلفسكي الأدبية في العديد من اللغات الأوروبية الرئيسية. كانت سياسته ليبرالية مبدئيًا، ومن بعض النواحي بقي الرجل راديكاليًا بشكل دائم - كان أبلغ الناطقين بالروسية الحاملين لرسالة إمبراطورية روسية. غالبًا ما يقارنونه بأوزوالد سبنغلر وجوزيف ستالين، لكن بعض التشبيهات والمقارنات لا ينبغي المبالغة فيها. على غرار سبنغلر، كان دانيلفسكي يؤمن بصعود الإمبراطوريات وأفولها. وعلى غرار ستالين، كان يضع تصورًا لنظام ديكتاتوري ذي نوعية رديئة. لكن آراءه ووجهات نظره كانت، بشكل طبيعي، مستمدة من بربرية القرن العشرين. كان يؤمن بتفسخ الغرب وسقوطه وتنبأ بصراع طويل ودموي مع أوروبا، ستخرج منه روسيا منتصرة. وبوصفه عالمًا، لم يتردد بتزويد روسيا بأحدث صنوف العلم والتكنولوجيا. كان معارضًا لاستنساخ الأنماط الثقافية والسياسية الغربية: الديمقراطية البرلمانية، الصراع الطبقي، والامبريالية البلوتوقراطية الغربية. بعض معتقدات دانيلفسكي كانت من السخف

بحيث إنها أثارت شكوكًا حول سلامته العقلية - على سبيل المثال، عندما كتب بأن الدويلة الغربية كانت مبنية على الاضطهاد العنفي والعبودية والعدائية، في حين أن الحكم الروسي كان مبنيًا على الود والحرية والسلام. في مناسبات أخرى، يبدو بأن تعليقاته كانت عقلانية تمامًا، ولو أنها متطرفة بعض الشي ء.

لم يكن تأييده للتوسع الروسي بدافع إيمانه بالجيوبوليتيكا الجديدة وغيرها من النظريات العصرية التي كان يعتقد بتفاهتها المطلقة؛ كان يستمد إلهامه من خلال إيمانه بقيم روحية ورسالة تاريخية عالمية. وعلى غرار دوستويفسكي، كان يؤمن بأن الروس هم الشعب الوحيد الذي يخشى الله والذي سينقذ العالم: كانوا يمثلون جسد الله. وحدهم الأورثوذوكس من كان قد حافظ على الصورة الإلهية للسيد المسيح بكل نقائها وطهارتها، ويحق لهم بالتالي أن يكونوا بمثابة النبراس الهادي لبقية الشعوب التي كانت قد ضلت طريقها. هذه هي القواسم المشتركة بين ليونتيف ودوستويفسكي.

من الصعب تصديق أن أولئك الذين يعملون على استحضار ليونتيف ودانيلفسكي حاليًا قد قرأوا أعمالهما فعليًا. ولو كانوا قد فعلوا، لأحسوا بتأنيب عظيم للضمير.

بحسب هؤلاء المفكرين المناوئين للغرب، فإن موقف الأوروبيين تجاه روسيا كان موقفًا متسمًا بظاهرة الرهاب الروسي. كان هذا أمرًا غامضًا غير واضح، رغم أنه لم يكن مستبعدًا بالمطلق. لم يكن وحده اليسار الأوروبي من رأى في روسيا العدو الأول للحرية والتقدم، بل جهات عديدة أيضًا في الداخل والخارج.

يعود التقليد المتمثل بالنظر إلى روسيا كبلد بربري (أو على الأقل شبه بربري)، بالرغم مما حاول بطرس الأكبر فعله، إلى أوائل القرن التاسع عشر، ونشر ما يسمى بـ "ميثاق بطرس الأكبر" - الذي كان عبارة عن تزوير قام به أحد الكتاب البولونيين في فرنسا. العمل الكلاسيكي في هذا المجال كان كتابًا بعنوان "روسيا عام 1839" لمؤلفه ماركيز دو كوستين Marquis de Custine. كان كوستين محافظًا ومناصرًا عنيدًا للملكية، ولعل ميوله الجنسية الشاذة تسببت في تورطه في مشكلات ومتاعب عديدة داخل روسيا المعاصرة. (لكن هذا ينطبق أيضًا على سيرجي أوفاروف، وزير التربية الروسي الذي ابتدع العبارة الشهيرة "الأرثوذكسية، والحكم المطلق، والهوية". ومع ذلك، مالاحظه كوستين في رحلته إلى روسيا تخطى أسوأ مخاوفه. أصبح صاحب العبارة الشهيرة حول روسيا كونها ملكية استبدادية، ونظام لا يخفف من غلوائه سوى الاغتيالات. كان منزعجًا بشكل خاص من التجسس الحكومي المستمر والمستشري بشكل كامل في كافة مفاصل الدولة. الشعب الروسي (كتب قائلًا) جرى تحويله إلى أمة من الروبوتات الخرساء التي تحمل نفسية العبيد؛ وفي حين أن هذا النوع من الطغيان والاستبداد في فرنسا كان بمثابة شر عابر، كان في روسيا شرًا مستطيرًا ذا جذور متأصلة بعمق. أجرى كوستين العديد من المحادثات مع القيصر. هل كان لدى القيصر الإرادة والصلاحيات لتغيير النظام الحكومي؟ كان يشك في ذلك. كتاب كوستين (مجلدان من حوالي ثمانمئة صفحة) جرى حظره في روسيا، لكن بعض النسخ وجدت طريقها إلى داخل البلاد. جرى طبعه بشكل كامل في روسيا عام 1996 لأول مرة.

هل كان ذلك العمل السطحي الذي كتبه أحد المتأنقين المتحذلقين الفرنسيين الحاقدين عملًا متحاملًا غير منصف؟ كان مؤلفًا يعتريه الكثير من جوانب الضعف، بعد أن كان كوستين قد كرس

له جل وقته فـي اثنتين من كبريات مدن البلاد. لكنه بأي حـال من الأحوال لم يكن قد وصل إلى هناك مضطهدًا أو متحاملًا عليه؛ كان مراقبًا ذا بصيرة ثاقبة، ولم يكن يختلق قصصه ورواياته. بحسب ما كتب جورج كينان George Kenan بعد سنوات عديدة لاحقة، إن لم يكن تقرير كوستين وصل إلى مستوى الكمال في وصفه لروسيا عام 1839، إلا أنه أعطى صورة ممتازة عن روسيا في ظل حكم ستالين.

ما كتبه كارل ماركس حول روسيا حينها يمكن اعتباره مثالًا ممتازًا حول الرهاب الروسي. لكن ماركس لم يكن خبيرًا روسيًا، أو من أهل البيت العارفين ببواطن الأمور. لهذا السبب، على المرء أن يتحول إلى مذكرات أحد ألمان البلطيق ويدعى فيكتور هين Vicor Hehn، وهو رجل مثقف يعمل بصفة أمين مكتبة مغمور. كانت مقالته بعنوان De Moribus Ruthenorum (1892) بمثابة وصف مدمر لكافة الجوانب السلبية للحياة فـي روسيا، وقبل كل شيء السذاجة والسطحية التي يتسم بها حتى المثقفين الروس، وعدم الكفاءة، والأكاذيب، والحجج والذرائع والفساد. لم يجد ما يحبه، ناهيك عن ما يحوز على إعجابه في روسيا. الكتاب أيضًا هو أقل من منصف (مثال واحد فقط على ذلك: بوشكين وليرمونتوف لا وجود لهما في الكتاب على الإطلاق، وجرى تقديم غوغول ككاتب ثانوي بأخطاء قاتلة).

إذا ما أخذنا بالاعتبار أن هين كان يكتب في ستينات القرن التاسع عشر (أكثر من نصف مؤلفات دوستويفسكي كان قد تم نشرها آنذاك وكانت رواية "الحرب والسلام" قد بدأت بالظهور، ناهيك عن تيوتشيف وتورغينيف وآخرين)؛ وأن "الأرواح الميتة" Dead Souls و"المفتش العام" Revisor كانت بكل المعايير فـي عداد الأعمال العظيمة آنذاك؛ وأن منتصف ذلك القرن كان فترة شحيحة في حوليات الأدب الألماني - فنحن أمام استعراض إما للجهل المطبق أو الوقاحة المتمادية.

بأية حال، ظاهرة الرهاب الروسي تعني "الخوف من روسيا،" ولم يكن كوستين أو الآخرون الذين جرى ذكرهم خائفين من روسيا. كانوا ينظرون إليها بازدراء، وهو ما يمكن أن يكون قد زاد الطين بلة وتسبب بمزيد من الانزعاج.

هل كان أوتو فون بسمارك Otto von Bismarch خائفًا من روسيا؟ كان يشغل آنذاك منصب سفير في روسيا. تنقّل في دوائر أخرى، ولم يكن اهتمامه الرئيسي بالثقافة الروسية. لم يكن بالضبط خائفًا من روسيا، لكن التحذير الذي تركه لصناع السياسة الخارجية الألمانية كان: "لا تذهبوا إلى الحرب ضد روسيا." والأمر غير المفاجئ أن بسمارك أصبح شخصية محبوبة لدى القوميين الروس، آنذاك والآن. كانت هذه المشاعر متبادلة: عندما جرى اغتيال ألكسندر الثانـي، نشرت صحيفة المحافظ برلين Kreuz - Zeitung خبرًا تحت عنوان رئيسي يقول "لقد مات إمبراطورنا."

لم تكن هنالك أي أحزاب سياسية في روسيا خلال هذه الفترة؛ فقد ظهرت بعد خمسين عامًا، قبل وخلال وبعد الثورة الروسية الأولى. في هذا الوقت ولدت المنظمات القومية الراديكالية، وفي هذه الفترة بدأ بعض غلاة وطنيي العصر الحاضر يتلمسون ملامح إلهامهم.

هذه النزعة المتمثلة بالعسكرة المتزايدة والشعور بالحاجة إلى التنظيم لم تكن بأي حال من الأحوال ظاهرة روسية منعزلة؛ إذ يمكن ملاحظتها في كافة البلدان الأوروبية الرئيسية. كانت مستندة إلى الخوف من أن اليسار كان يحقق تقدمًا متواصلاً وأن بلدان أوروبا كانت تواجه ربما خطر الثورة. في فرنسا على سبيل المثال، أفضت هذه النزعة إلى ظهور مجموعة العمل الفرنسي Action Francaise ومجموعات مشابهة. قسمت قضية درايفوس Dreyfus البلاد وخلقت مناخًا أساسيًا من الود والدعم لأقصى اليمين. في ألمانيا، لم تؤد النزعة القومية المتطرفة إلى إنشاء حزب سياسي كبير. على العكس كان رد الفعل ثقافيًا: فقد نجح المحافظون، حزب اليمين القائد، بامتصاص هذه النزعة والتكامل مع صفوفها بالذات. أصبحت أكثر عداءً للسامية وأكثر عداءً لليبرالية وأكثر ميلًا للحرب.

في روسيا، أدى التحرك الإرهابي المتنامي والاهتياج الثوري إلى تأسيس مجموعات مختلفة بأسماء متنوعة من قبيل اتحاد الشعب الروسي (SRN)، الذي استقطب إليه الناس من شتى شرائح المجتمع. كان يستمد الدعم من رجال الدين والشرطة ومن شرائح الطبقة العليا، ولكن بشكل أكثر قوة من الطبقة المتوسطة الأدنى ومن أوخوتني رياد Okhotny Ryad. كان هذا اسم شارع وحـي صغير وسط موسكو القديمة حيث يقع سوق اللحوم. كان الناس الذين يعيشون هناك بمعظمهم من الوافدين الجدد من الأرياف، غير متحضرين وتنقصهم الثقافة، منبهرين بحياة المدينة ووتيرة التغيير الاجتماعي المتسارعة. أفسح العنصر الإجرامي المتجذر بقوة فـي هذه الأحياء فـي المجال أمام ظهور حركة المئة السوداء Black Hundred (إحدى المنظمات اليمينية المتطرفة)، التي لعبت دورًا بارزًا (أو كانت المحرض الرئيسي) في المذابح التي وقعت في روسيا عامي 1905 - 1906.

بحسب البيانات الرسمية المتعددة الصادرة عن حركة المئة السوداء، فهم لا يدعون أبدًا إلى قتل أي إنسان، ناهيك عن مشاركتهم في مثل هذه المذابح. كانوا يسعون ببساطة إلى حشد الجماهير، وهو أمر لم يكن المحافظون التقليديون قادرين على القيام به. كان قادتهم يعتقدون أن نشاطاتهم لوحدها قادرة على تقويض أركان النظام القيصري فـي أعقاب الحرب الخاسرة ضد اليابان.

كانت حركة المئة السوداء بمثابة منزلة متوسطة بين القوى المحافظة والرجعية فـي روسيا، التي كانت عبارة عن تجمعات من الوجهاء والفاشيين العصريين القادرين على حشد الجماهير. كانت حركة ناشئة حديثة العهد بهذا النوع من العمل؛ وكانت شخصيتها ونشاطاتها تختلف من مكان إلى آخر. معظم أعضائها كانوا يؤمنون بالعنف، والعديد من المذابح حصلت بشكل رئيسي في الجنوب حيث تقيم الغالبية العظمى من اليهود. بحسب سياسة "نطاق الإستيطان" فإن عددًا لا يكاد يذكر من اليهود كان يسمح لهم بالعيش فـي موسكو ومدن روسيا الكبرى.

لم يكن لدى حركة المئة السوداء أي زعيم يتمتع بالمهابة وأي تنظيم قوي يتمتع بالكفاءة. كان هدفها المعلن منع الثوريين الذين كانوا يريدون تدمير روسيا من تحقيق مآربهم. لكن معظم ضحاياها البارزين لم يكونوا من الثوريين، وانما ميخائيل هيرتزنشتاين Mikchail Herzenstein وغريغوري آيوليس Grigori Iolles، وهما برلمانيان من حزب كاديت الوسطي. الشعار غير الرسمي لحركة المئة السوداء هو "اسحقوا اليهود وأنقذوا روسيا". ربما كان

يتوجب إنقاذ روسيا، لكن لم يكن واضحًا على الإطلاق أن سحق اليهود سيحقق هذا المطلب. لأن اليهود لم يكونوا يمثلون الخطر الرئيسي.

عدد لا بأس به من وزراء الحكومة كانوا يدعمون حركة المئة السوداء، لكن الغالبية كانت تحتقرهم وتزدريهم وترى بأن هؤلاء الغوغائيين كانوا يلحقون الأذى والضرر بروسيا أكثر مما يقدمون لها من الخير والنفع. حتى في أوساط رجال الدين، لم يكن الدعم شاملًا. من بين أعضاء رجال الكهنوت السبعين المنتخبين إلى مجلس الدوما، كان الربع، أو حتى ربما الثلث من الليبراليين ذوي النوعية الردئية. حتى آيون كرونستادت Kronstadt، الكاهن الراعي للحركة، كان قد شجب وأدان مذبحة (1903) التي أودت بحياة تسعة وأربعين يهوديًا. تراجع كرونستادت لاحقًا عن هذه الإدانة وأنحى باللائمة على اليهود. وجرى منحه البركة لاحقًا.

كان القيصر يؤمن بحركة المئة السوداء ويسميهم "المثال المشع للعدالة والنظام لكافة الناس". لكن القيصر لم يكن مهمًا سياسيًا. فقدت الحركة كل زخم كانت تملكه؛ كانت جماعة اتحاد الشعب الروسي لا تزال تتمتع بدعم حوالي 10 بالمئة من أبناء الشعب، ولديها عدد لا بأس به من المتعاطفين في مجلس الدوما وبعض مناصري الإعلام. كانت منشورات جماعة اتحاد الشعب الروسي تتلقى جزءًا من تمويلها من قبل الحكومة التي كانت بهذه الطريقة تمارس نوعًا من السيطرة عليها.

باختصار، كان مسموحًا لجماعة اتحاد الشعب الروسي والمئة السوداء أن يكونوا أكثر شعبية من أصحاب الجناح اليميني الرئيسي، ولكن لدرجة معينة فقط. على سبيل المثال، كانوا يطالبون بوجوب أن يكون القيصر أقرب إلى الشعب وأقل انعزالية، وهو مطلب قديم لأنصار الحضارة السلافية. كانوا من وقت لآخر ينتقدون البيروقراطيين المحليين. لكن لم يكن مسموحًا لهم التمادي بشعاراتهم العنصرية - سيكون مثل هذا الشيء بمثابة تصرف غير حكيم في إمبراطورية متعددة القوميات.

بعد أن كانت الفورة الثورية قد همدت وخفت حدتها، لم يعد لجماعة اتحاد الشعب الروسي تلك الأهمية وباتت حركة المئة السوداء موضوعاً يستقطب اهتمام المؤرخين وعلماء السياسة. تسبب بعض قادتهم بقدر من الفضائح في مجلس الدوما، لكنها كانت تصب في خانة الفكاهة والتسلية ولم يكن لها أي تأثير سياسي. بعض محاربيها القدماء عادوا إلى الاتحاد السوفييتي في عهد ما بعد ستالين، وبعض المهاجرين تنبأوا بسقوط الأممية وصعود قومية جديدة داخل الاتحاد السوفييتي. أهم شخصيات معسكر سمينوفيكوفتسي Smenovekhovtsy هذا كان نيقولاي أوستريالوف Nikolai Ustryalov، عضو سابق في حزب كاديت وأحد أنصار السلافية. عاد إلى روسيا وطالب أصدقاءه السياسيين بأن يقوموا بالشيء نفسه. لكن توقيته كان خاطئًا، إذ كان عليه أن يتريث لخمس عشرة أو عشرين سنة أخرى كي يكون في وضع آمن. جرى اعتقال أوستريالوف وإعدامه عام 1937. كان قدره بخلاف قدر الجنرال بروسيلوف Brusilov، أحد أبطال الحرب العالمية الأولى (قائد هجوم بروسيلوف الشهير)، الذي عاد أيضًا، وعندما توفي عام 1926، أقيمت له جنازة رسمية.

كانت هذه الفترة، السنوات التي سبقت وأعقبت الثورة الروسية الأولى مباشرة، هي الفترة التي ظهرت فيها بروتوكولات حكماء صهيون والمؤلفات المناوئة للماسونية. كانت الفكرة التي تتحدث عن وجود مؤامرة كونية تعود لمعارضي الثورة الفرنسية من أمثال الكاهن أوغستين بارول Augustin Barrrul. في البداية لم يكن هنالك أية إشارة لليهود، لأن اليهود لم يكونوا جزءًا من الحياة السياسية لفرنسا. لم تؤسَّس العلاقة حتى أواخر القرن التاسع عشر، عندما أصبحت المؤامرة يهودية - ماسونية. لكن لم يكن لها ذلك الصدى في أوساط العامة. لم يكن هنالك سوى قدر ضئيل جدًا من المعلومات حول الماسونيين في روسيا؛ كان قد جرى حظر المحافل الماسونية lodges وتحريمها عام 1822. لا بد أنه كان هنالك استعداد عظيم للإيمان بالحضور الكلي والمطلق والنشاطات الشنيعة لهذه القوى الخفية، لكن لم يكن الأمر كذلك، واستغرق منها حوالي قرن تقريبًا حتى تمكنت آراء من هذا النوع من تحقيق انتشار وتداول أوسع.

لقد استغرق وقتًا أطول للهستيريا الحالية حول القوى الخفية الشريرة في روسيا كي تتجسد وتتخذ لها شكلًا محددًا. كانت هنالك نهضة على صعيد هذا النوع من البروباغندا في ألمانيا النازية، لكن الفرق كان شاسعًا: لم يكن النازيون في الحقيقة خائفين من القوى الخفية، والتي كانوا يستخدمونها كاستراتيجية دعائية. كان النازيون يشعرون بأنهم أقوى بكثير من أعدائهم، بينما في روسيا بدا بأن هنالك خوفًا حقيقيًا من مثل هذه القوى.

في معظم النقاشات حول ظهور العقيدة الروسية الجديدة المناوئة للغرب، هنالك بطل واحد مهم يجري الاستخفاف به عادةً أو تجاهله جملةً وتفصيلًا - الكنيسة الأورثوذكسية. سبق التطرق إلى ذكر المتروبوليت آيون، متروبوليت سانت بطرسبرغ ولادوغا، وراعي بروتوكولات حكماء صهيون في الحقبة ما بعد السوفييتية. لكن آيون لم يكن شخصية مركزية في البداية، ولم يصبح كذلك إلا بعد أفول نجم العقيدة اللاهوتية لهذه المدرسة الأورثوذكسية، والتي تعود لأمثال تلك الشخصيات الرائدة في تاريخ الكنيسة الأورثوذكسية أمثال سيرافيم، كاهن كنيسة ساروف، وكاهن كنيسة كرونستادت، وكثيرين غيرهم. لم يصبحوا مجرد مفكرين كنسيين ذوي تأثير عظيم وحسب، بل موضع تقديس وتبجيل حقيقي. تعاليمهم الأخروية تتمحور حول ظهور المسيح الدجّال ونهاية العالم وكذلك حول الصراع الأخير بين قوى المسيح والشيطان، والتي ستلعب فيها روسيا المقدسة، المختارة من قبل الله، دورًا محوريًا حاسمًا: هذه العناصر من جنون العظمة وغيرها قد تجسدت بشكلٍ بارز في داخل ومحيط الكنيسة الأورثوذكسية لوقت طويل.

بحسب روايات سابقة، المسيح الدجّال (المولود في روسيا) هو ثمرة علاقة دنسة بين ابن الشيطان وعاهرة تنتمي إلى قبيلة دان Dan الإسرائيلية، ولكن فيما بعد حدثت علمنة وتسييس وبات المسيح الدجال يرمز لجميع أعداء روسيا المقدسة: الماسونيون الأحرار Free Masons، وحركة التنوير Enlightenment، والكنيسة الكاثوليكية الهرطقية، ونزعة الحداثة للعملاء الروس Russian agents modernism، والعديد غيرها. بهذه الطريقة أصبح "الوحش" الميتافيزيقي الذي يرمز للمسيح الدجّال هو أمريكا الحقيقية اللاميتافيزيقية التي تضم كافة قوى الشر. ولتحقيق رسالتها المظفرة، كان على روسيا المقدسة أن تؤسس إمبراطورية قوية، كونها نقطة الانطلاق لقوى الكنيسة الأورثوذكسية والقومية الروسية.

إن فكرة العودة الثانية للمسيح والصراع الأخير ونهاية العالم قد ظهرت ولا تزال بأشكال متعددة لا حصر لها في روسيا وعلى كافة مستويات التطور والتعقيد. لا بد لهذه الفكرة أن تتعامل مع قضية العودة الثانية للمسيح، والتي سيسبقها ظهور المسيح الدجال. من المثير معرفة كيف وجدت بعض مفاهيم لاهوت العهد الجديد، وبعضها غامض تمامًا، طريقها إلـى هذا النوع من الميثولوجيا السياسية المعاصرة.

المفارقة أن هذا الشعار ظهر أيضًا في عهد الشيوعية في صحيفة "the International" تحت عنوان الصراع النهائي الحاسم. في الوقت الحالي يجري طرحها من قبل كتّاب أمثال أركادي مالير وميخائيل نازاروف، وهما غير معروفين مطلقًا خارج روسيا، لكن كتبهما تلقى رواجًا واسعًا فـي ذلك البلد. إن هذه المدرسة من الفكر تستحق اهتمامًا أكبر بكثير مما تلقته حتى الآن، لأنها ضرورة لا غنى عنها لفهم السياسات الروسية المعاصرة. فهي تساعد إلى حدٍ كبير في فهم المخاوف والآمال المتعلقة بجنون العظمة والتي أصبحت بالغة القوة في السنوات الأخيرة - مخاوف من الكوارث القادمة، وآمال بالنهوض والإصلاح وتحقيق النصر النهائي.

الحزب الروسي في ظل العهد السوفييتي

عندما أصبحت الغلاسنوست سياسة رسمية مع تسلم غورباتشيف مقاليد السلطة في الاتحاد السوفييتي، كان الليبراليون من بين المستفيدين من ذلك القدر الأكبر بكثير من حرية التعبير، أولئك الذين كانوا مضطهدين في ظل النظام القديم. لكن سرعان ما تبين بأن القوميين وخاصة "الغلاة منهم" قد استفادوا أيضًا من قدر أكبر بكثير من حرية التعبير والتحرك. لقد تجلى هذا أول ما تجلى في نشاطات جماعة "باميات" Pamyat، وهي جماعة ناشطة بشكل رئيسي فـي موسكو وبطرسبرغ والتي كان لها جذورها في حركة الحفاظ على الصروح والمباني الوطنية. طلبت باميات (على اسم رواية لفلاديمير سيفليتشين) عام 1982 السماح لها بعقد الاجتماعات وتنظيم التظاهرات، وكان لها ما أرادت في الوقت المناسب. كانت باميات في غاية النشاط وتتمتع بقدر كبير جدًا من الشعبية تحت رئاسة المصور الفوتوغرافي ديمتري فاسيلييف. ولكن لم يكن واضحًا الهدف الذي كانت ترمي إلى تحقيقه، باستثناء أنها كانت مناوئة للسامية. تركت معظم الأسئلة مفتوحة بلا جواب: ماذا، على سبيل المثال، كانت قناعاتها بخصوص الستالينية والنظام القديم عمومًا؟ سرعان ما تبين أن هذا الافتقار إلى الوضوح لم يكن عرضيًا، لأنه كان يجمع بين أشخاص ذوي قناعات سياسية متباينة للغاية. عرّف فاسيلييف عن نفسه بأنه بلشفي غير حزبي، ولكن من يعرف إن كان هذا التصريح حقيقيًا، وفـي حـال كان كذلك، ما الذي كان يعنيه عمليًا. وبحسب تعليق أحد الكتاب حينها، كان الوضع يشبه الأيام الأولى للحركة النازية في ميونخ.

كان للتباهي بالعداء للسامية مزايا معينة. أول هذه المزايا كانت قانونية تقريبًا؛ كان يجري الدعوة إليها والحض عليها من قبل أجهزة الحزب الشيوعي الحاكم على مدى وقت طويل من الزمن، طالما أنها كانت تدعي العداء للصهيونية. كان هنالك العديد من الكتابات المناوئة للصهيونية، لكن كان من الواضح حتى لأولئك الأميين سياسيًا أن أولئك العاكفين على تلقين تلك التعاليم والمبادئ كانوا متعامين أو متغافلين عن تيودور هرتزل أو إسرائيل، وكذلك عن اليهود.

سرعان ما بدأت باميات تتفكك إلى أجزاء، ثم تلاشت نهائيًا قبل موت زعيمها عام 2004. لقد شكلت باميات مثالًا ممتازًا على كل أماكن الخطأ التي كانت متغلغلة في مفاصل القومية الروسية المتطرفة. لكن من المفيد أن نتذكر أن أقسى صنوف النقد كان يأتي من الروس أنفسهم، وليس من الأجانب أو اليهود والماسونيين، ربما لأنهم كانوا يعرفونها أكثر من أولئك الموجودين في الخارج. لم يصفها أحد بشكل أكثر قسوة من نيقولاي بيردابيف، الذي كتب عن العقيدة القومية وممارسات أقصى اليمين الروسي بأنها كانت "بربرية، وحمقاء، ووثنية وغير أخلاقية في طبيعتها، مليئة بالتطرف والجهل الأعمى"، طقسٌ بدائي صاخب من طقوس الفسق والفجور والعربدة الروسية القديمة.

والأمر الذي لم يكن معروفًا قبل الغلاسنوست (إلا لقلة قليلة في موسكو) هو أن الحزب الروسي كانت له جذور أعمق بكثير ضاربة في عمق الماضي، سيما داخل المستوى المتوسط لجهاز الحزب الشيوعي. كان من المعروف عمومًا أنه في الثلاثينات حدثت هنالك انعطافة في عهد ستالين من الأممية البروليتارية نحو الوطنية السوفييتية. كان هنالك ما يسمى بقضية بوكروفسكي Pokrovsky عام 1936: وهو بلشفي مخضرم، ومؤرخ محترف، وشغل لفترة منصب نائب وزير الثقافة. كتب ميخائيل بوكروفسكي العديد من المقالات التاريخية عن روسيا بأسلوب مستلهم من الروح اللينينية القديمة فضحت زيف كافة التشويهات القومية السابقة. معارضته المتطرفة للوطنية ربما كانت العامل الحاسم في الانعطافة الحاصلة في كتاب التاريخ السوفييتي؛ وبنتيجة مواضيعه وكتاباته الساخرة، عاد ألكسندر نيفسكي وديمتري دونسكوي، وحتى أبطال تقليديين آخرين أمثال إيفان الرهيب جميعًا إلى مكانهم الصحيح في التاريخ الروسي.

مع ذلك، فقد كان للانعطافة نحو الوطنية حدودها، ولم يستقطب الحزب الروسي داعمين ومناصرين حتى عهد ستالين، حتى على أعلى المستويات. أحد كبار داعميه كان ألكسندر شيليبين Alexander Shelepin (1918 - 1994)، الذي كان يعمل في قيادة منظمة الشبيبة الشيوعية، الكومسومول Komsomol، وعمل رئيسًا للـ KGB بين عامي 1958 و1961. كان أحد أزلام خروتشوف، لكنه اشترك لاحقًا في انقلاب ناجح ضده، يحدوه الأمل (بحسب بعض الدلائل) في خلافته. كان هذا التصرف بمثابة سوء تقدير. فقد احتفظ شيليبين بمنصبه في المكتب السياسي لبعض الوقت، لكنهم نجحوا شيئًا فشيئًا بالتخلص منه وإقصائه خارجًا. تحت قيادته أصبح العنصر القومي الروسي في الجهاز الحزبي أكثر قوة وتلقى قدرًا أكبر بكثير من حرية الحركة والمناورة، وكل ذلك ضمن حدود.

يمكن لتخطي الحدود والقواعد من خلال الإحجام عن تقديم ولو قدر من التملق والمجاملة على الأقل لإيديولوجيا الحزب، أو حتى من خلال معارضتها علنًا، أن يكون خطرًا. بعض القوميين الذين كانوا قد تجاهلوا القواعد وجدوا أنفسهم في معسكرات الاعتقال. لكن عددهم كان ضئيلًا جدًا مقارنة بأولئك الذين كانوا يطالبون بقدر أكبر من الحقوق الديمقراطية. من حماة القومية الآخرين الرواد كان يوري ميلينتيف، أيضًا في قيادة الكومسومول، والأهم، العديد من المسؤولين رفيعي المستوى فـي المكتب الرئيسي للحزب الشيوعي للاتحاد الروسي.

في حين أن الحزب الشيوعي في عهد ليونيد بريجنيف كان يتمتع بإدارة حرة (تقريبًا) لشؤونه السياسية، لأن السكرتير الأول لم يكن لديه أية اهتمامات بالإيديولوجيا، فإن حرية الحركة

والمناورة بالنسبة له كانت أكثر محدودية في عهد يوري أندروبوف، الذي كان يمقت هذه الانحرافات المغالية في قوميتها. لكن فترة حكم أندروبوف كانت قصيرة، وكانت انتكاساتهم مؤقتة. كانت هنالك عدة دلائل على حدوث نهضة وطنية أواخر الفترة السوفييتية، مع ظهور جماعة البوتشفينيكي Pochvenniki، وهـي جماعة من كُتَّاب "الأرياف" أو الكُتَّاب القرويين من فترة الستينات، أو ربما قبل ذلك. من هؤلاء، على سبيل الذكر لا الحصر، ميخائيل شولوخوف Mikhail Sholokhov (1905 - 1984)، الذي كان ينأى بنفسه عن نشاطات جماعة موسكو. لكن مع تقدمه فـي السن أصبح شخصًا بالغ الحساسية عصبي المزاج يصعب التعامل معه. كان عمله "Tikhiy Don" (وينساب نهر الدون بهدوء) عملًا ذا نوعية متميزة ولم يكن لديه الكثير من القواسم المشتركة مع سياسة الواقعية الاشتراكية للحزب الحاكم. كان في الحقيقة عملًا يفوق بمراحل أي شيء كتبه في السنوات الأخيرة، لدرجة بروز شكوك حول ما إذا كان حقًا من تأليفه أم أنه على الأقل كتب بمشاركة كتاب آخرين. كان محافظًا حقيقيًا يزدري كُتَّاب المدينة وينأى بنفسه علنًا عن الحياة المدنية وكل ما يمت إلى المدينة بصلة.

لم تكن حـالة ليونيد ليونوف (1899 - 1994) تختلف كثيرًا عن حالة شولوكوف. فهو كاتب كبير خلال فترة العشرينات والثلاثينات، أضفى على رواياته الأخيرة (مثل بيراميدا، التي عمل عليها لأكثر من أربعين عامًا) صبغة دينية وطنية غامضة، ما ألحق الضرر والإساءة بالقيمة الأدبية لتلك الروايات. بالكاد كان يقبل أحد على قراءتها. وفي عهد الغلاسنوست انضم إلى معسكر كتّاب أقصى اليمين، معارضًا "دمقرطة" البلاد وغيرها من البدع والإصلاحات التي كانت مخالفة لمبادئه ومعتقداته. كانت حالة محزنة لتردي كاتب بارز، لكن أهميتها كانت تكمن في أنها كشفت بأن الحزب الروسي لم يكن فصيلًا معزولًا لكنه كان يتلقى دعم بعض الكتّاب الذين كانوا يومًا محسوبين بشكل كلي على النظام الشيوعي.

بدأت جماعة البوتشفينيكي نشاطاتها في فترة الستينات وكانت تضم بعض الكتّاب من ذوي الموهبة الأصيلة أمثال فاسيلي شوكشين، وفاسيلي بيلوف وفالنتين راسبوتين. توفي شوكشين، الذي ربما كان أكثرهم موهبة، عن عمر مبكر؛ كان يعمل في مجال إنتاج الأفلام وتأليف الكتب. أما بيلوف فكان أبعد ما يكون عن الانشقاق السياسي، لكن بما أن مواضيعه الرئيسية كانت عن حياة القرية، لم يكن يخفي قناعته بأن تطبيق مبدأ الملكية الجماعية للأرض الزراعية كان خطأً فادحًا، بل حتى مأساة حقيقية. فقد أدت إلى التحضر والمدنية. كان بيلوف يرى بأن حياة المدينة حياة لا تتعامل بمبدأ الأخلاق ولا تعترف بأي معايير أخلاقية (وكان ينحى باللائمة جزئيًا على الغرب في ذلك). كانت القيم الحقيقية لروسيا تتجسد في القرى - لكن حياة القرية كانت تتراجع بقيمها الأخلاقية خلال الفترة السوفييتية. كان بيلوف يميل لإضفاء صبغة مثالية على القرية خـلال مرحلة ما قبل الثورة؛ لم يسبق له أن عرفها قط، وربما كان هذا النتيجة الحتمية لتنكره لحياة المدينة. المفارقة أن بيلوف كان عليه أن يقضي معظم الفترة الأخيرة من حياته في موسكو، كونه أصبح شخصية سياسية بارزة في اتحاد الكتّاب وغيرها من المنظمات.

يعود بيلوف في أصوله إلى منطقة ألتاي Altai، وقد توفي عام 2012؛ أما شوكشين فيعود بأصوله إلـى جوار فولوغدا Vologda فـي الشمال. وأما راسبوتين فكان من مواطني سيبيريا، وهو لا يزال على قيد الحياة حتى كتابة هذه السطور وآثر البقاء في موطنه الأصلي في إيركوتسك

Irkutsk. وعلى غرار بقية الكتّاب القرويين، فقد كان مناضلًا دافع عن الكثير من القضايا البيئية كمعارضته لمشروع تحويل مجاري بعض الأنهار السيبيرية وحماية بحيرة بايكال. ومع قدوم البيريسترويكا أصبح من أشهر الكتّاب القرويين الأحياء على الإطلاق، معلقًا في رسائله المفتوحة إلى الشعب الروسي وقادته حول الأحداث الراهنة. كما أصبح واحدًا من أشرس المناضلين ضد البدع الليبرالية والديمقراطية، معلنًا عن نفسه نصيرًا ومؤيدًا لسياسة القياصرة وقادة "الجيوش البيضاء" المناوئة للشيوعية في الحرب الأهلية. اتهم النقاد راسبوتين بمغالاته في العداء للحداثة واضفائه صفات مثالية على حياة القرية المؤيدة للثورية، ما وضعه بالتالي في خانة اللاواقعيين الميئوس من إصلاحهم. لا شك بأن سياسات راسبوتين أوقعته في العديد من التناقضات، ما حدا به بالنتيجة إلى تمجيد ستالين، الذي كان بدوره ورغم كل شيء مسؤولًا عن قانون الملكية الزراعية الجماعية. لكن الاتهامات بتلميعه لصورة حياة القرية تبدو على الأقل مبالغًا فيها. روايته المعبرة "الحريق" لا تعبّر بأي حال من الأحوال عن تقاليد الرومانسية، بل تصف المشهد في إحدى البلدات الصغيرة جدًا حيث يندلع حريق كبير - بشكل خاص ردود فعل أبناء البلدة المنشغلين بحلقات السُكر والعربدة بدل المبادرة إلى مكافحة الحريق وإخماده. أما الراوي فهو شرطي محلي من أبناء البلدة فقد كلَّ أملٍ بالعيش في قريته الأصلية، ولذلك قرر مغادرتها.

أخيرًا، الحزب الروسي وحركة الحفاظ على الصروح والمباني الوطنية. كانت هنالك مثل هذه المجموعات، التي يضم بعضها العديد من الأعضاء، أولًا في موسكو ولاحقًا في أمكنة أخرى. لقد انقسم المؤرخون في رأيهم بشأن مدى أهمية هذه الجماعات في سياق النهضة القومية. كما امتنعوا عن إصدار البيانات السياسية، لكن مما لا شك فيه أنهم منذ البداية كانوا بمعظمهم تحت سيطرة القوميين الروس. تأسست الجماعة الرئيسية عام 1965، واحتفلت باليوبيل الستمئة لمعركة كوليكوفو Kulikovo، لكن كان هناك اجتماع مكرس لنضال لينين ضد تروتسكي الذي لم يكن له علاقة بالحفاظ على الصروح والمباني التاريخية، لكنه أفسح في المجال أمام مناقشة علاقات تروتسكي المختلقة مع الحركة الصهيونية. ولكن بما أنهم، في الحقيقة، لم يكونوا يأبهوا للصهيونية أيضًا، فإن الحافز الحقيقي لا بد أن يكون العداء للسامية. في مناسبات أخرى، جرى ترتيب زيارات جماعية لمناطق غرب موسكو حيث كان القتال قد اندلع عام 1941.

في منظور الماضي، يبدو بأن الحزب الروسي لم يحقق إنجازات هامة على صعيد التقدم. الشخصيات ذاتها كانت تحضر دائمًا اجتماعاته، ورسالته لم تصل إلى جمهور أوسع نطاقًا. ومع ذلك، فقد كانت بعض المنشورات الأدبية في قبضة أيديهم، سيما مجلّتا مولودايا غفارديا Moldoya Gvardiya وناش سوفريمينيك Nash Sovremenik الشهريتان. الأولى منهما كانت تنحى أكثر باتجاه ستالين والستالينية؛ أما الثانية فكانت تعبر عن آراء ووجهات نظر القومية الروسية. بهذه الطريقة، أمكنهم الوصول إلى مئات آلاف القراء. التباينات الإيديولوجية لم تختف كليًا، وكانت هنالك اختلافات جدية في الرأي، لكنها على ما يبدو لم تكن عصية على التقارب. أناتولي إيفانوف، محرر مولودايا غفارديا، كان قد انخرط في بروباغاندا مناوئة للدين، في حين أن ناش سوفريمينيك، بصفتها لسان حال الكتّاب القرويين، كانت تؤيد حدوث تقارب مع الكنيسة الأورثوذكسية وكانت معادية للشيوعية بشكل أساسي. حتى مثل هذه الأحداث غير المؤثرة وغير المؤذية ظاهريًا، كمعركة كوليكوفو، التي كان ديمتري دونسكوي قد هزم فيها التتار، يمكن أن

تتسبب بتناقضات فـي الرأي ووجـهات النظر. وذلك لأن الأوراسيين كانوا يريدون التعاون لا النزاع مع جيران روسيا الآسيويين، الذين كانوا يكنون لهم كل التقدير والاحترام: لماذا إذًا نحتفل بالحرب أكثر من التعايش السلمي مع شركاء روسيا الأقرب؟ إلى حد معين، فإن الاختلافات يمكن إزالتها بسهولة - على سبيل المثال بإعطاء ستالين صورة البطل القومي الروسي الذي لم يكن في حقيقته ماركسيًا (الأمر الذي هو في الواقع نصف حقيقي).

استمر هذا النزوع نحو الوحدة في صفوف الحزب القومي الروسي، بل أصبح أقوى فـي عهد الغلاسنوست؛ والخلافات بين الشيوعيين (السابقين) وأقصى اليمين لم يعد لها وجود تقريبًا، وبات من المستحيل تقريبًا تحديد انتماء كاتب معين إلى هذا المعسكر أو ذاك.

مع بزوغ فجر الغلاسنوست، بات بوسع الحزب الروسي الخروج إلى العلن، رغم أن الظروف لم تكن دائمًا مؤاتية. كان الاتحاد السوفييتي بحالة تداع، مثلما كانت حال الإمبراطورية الروسية. ما حققه "جامعو الأراضي الروسية" عبر القرون تلاشى في بضعة شهور. الانقلابات المختلفة، ومحاولات الإطاحة بالحكومات الجديدة، لاقت فشلًا ذريعًا. ولكن بسبب هذه الكوارث بالضبط، تلقّى الحزب الروسي زخمًا جديدًا مع تعزز القناعة بأن البلاد كانت بحاجة ماسة إلى من ينقذها من الدمار المحقق. كانت هنالك طريقة وحيدة فقط لإنقاذ الإمبراطورية واسترجاعها، استرجاع ما يمكن استرجاعه. لأن روسيا كبلد صغير غير ذي شأن لا يمكنها البقاء والاستمرار. أملها الوحيد كان يتمثل ببروزها كقوة عظيمة، برسالة عظيمة.

إعادة اكتشاف إيفان إيلين Ivan Ilyin

"نخبةٌ من دون إيديولوجيا هي بمثابة خطر محدق"، كتب ألكسي بودبيرزكين Alexey Podberezkin عام 2014، فـي العدد الأول من صحيفة زافترا zavtra، لسان حال حزب أقصى اليمين الروسي. هنالك ظلال من الشك حول صحة هذه العبارة. عبر تاريخها، لطالمت واجهت روسيا المحن والكوارث، لكن معظمها كان بنتيجة الإفراط والتخمة، لا العجز والعوز، على صعيد الإيديولوجيا. إذا كان بودبيرزكين لم يبل بلاءً حسنًا جدًا في الانتخابات الرئاسية، محققًا نسبة 0.1 بالمئة فقط من الأصوات. ولعل ذلك لأنه أدلى بالكثير من الأفكار في الوقت نفسه - خليط من القومية الراديكالية والمسيحية الأورثوذكسية، وكذلك العقيدة ما بعد الستالينية. الخليط ذاته تقريبًا كانت تقدمه أحزاب أخرى، ما جعل من الصعب تحديد الجهة التي سيقدم إليها الدعم. كان بودبيرزكين مستشارًا لزعيم الشيوعيين، ولكن ليس عضوًا في حزبه، ولم يتمكن الناخبون ربما من حزم أمرهم حيال كونه ثوريًا محافظًاً أو محافظًاً ثوريًا.

لكن من المؤكد أن معظم الأحزاب السياسية الروسية كانت حتى فترة قريبة تسعى إلى الإبقاء على كافة الخيارات مفتوحة. والبازار الإيديولوجـي كان من الغنى والثراء بحيث إن بوسع كل شخص العثور فيه على ما يشتهي ويتمنى. ومع ذلك، فقد بدأ البحث عن شيء أكثر تحديدًا وأكثر واقعية في الآونة الأخيرة يكتسب صفة أكثر زخمًا وإلحاحًا. فبمبادرة من الرئيس بوتين، تم إرسال ثلاثة كتب إلى كل المحافظين وكبار السياسيين في الجهاز الحكومي لمطالعتها بمناسبة عيد الميلاد للعام 2013: "تبرير الخير" The Justification of the Good لفلاديمير سولوفيوف،

و"فلسفة اللامساواة"، The Philosophy of Inequality لنيقولاي بيردياييف، و"مهامنا" Our Tasks لإيفان إيلين.

إنه مطلب عسير، ولا يعتقد بأن السياسيين في أي بلد آخر واجهتهم مثل هذه المطالب. الكتّاب الثلاثة كانوا لاهوتيين، لكن الكتب المختارة من قبل بوتين لم تكن تمت إلى الله أو إلى إبليس بصلة.

كان فلاديمير سولوفيوف من كتّاب أواخر القرن التاسع عشر يكتب في مجـالات متنوعة، وكـان له تـأثير قوي على معاصريه (ومن ضمنهم دوستويفسكي) والأجيال اللاحقة. وبفضل قصيدته "القومية المغولية" Pan Mongolism أمكن اعتباره جد الأوراسية. ومع ذلك، فإنه لم يكن متيمًا البتة بما كان يعتبره "الشرق الفارسي" The East of Xeres. كان مفكرًا دينيًا، لكن موقفه كان مسكونيًا ecumenical - فقد كان من المؤيدين لفكرة المصالحة بين الكنيسة الشرقية والكاثوليكية. لم يعزز هذا الموقف من شعبيته في الأوساط الأورثوذكسية الرسمية، الذين كان موقفهم تجاه الكنائس المسيحية الأخرى موقفًا عدائيًا؛ لذلك لم يكن محط إعجاب لاعتباره البرافوسلاف Pravoslav عارًا معاديًا للسامية.

كان نيقولاي بيردياييف يتحدر من عائلة من طبقة النبلاء الذين خدم معظمهم في الجيش. كان ينتمي للجيل الذي أعقب سولوفيوف، ومات مهاجرًا بُعيد الحرب العالمية الثانية مباشرة في باريس. وبوصفه رجلًا واسع المعرفة، فقد كان من خيرة المفكرين الدينيين الروس المعروفين على الإطلاق في الغرب. ومن دون أية خلفية أو مؤهلات أكاديمية قط، عُيّن أستاذًا في روسيا ما قبل الثورة، وهو إنجاز غير مسبوق، وبالكاد كان له نظير في مجال التاريخ الفكري الروسي. كان أحد ركاب السفينة المشؤومة التي أقلت مئة وستين مفكرًا روسيًا إلى المنفى في ألمانيا عام 1922 بناءً على أوامر لينين.

لكن كتاب بيردياييف الذي جرى إرساله إلى السياسيين لم يكن يمت بصلة إلى الأخلاق المسيحية أو الحقيقة والإلهام؛ كان عبارة عن تحليل مركّز لقضية اللامساواة الاقتصادية، وهي شيء يكمن فـي صميم أحد الأسلاف الروس لـ Ayn Rand. كان هذا مفاجئًا لجملة من الأسباب. فـي سنواته الأولـى، كان بيردياييف رجـلًا يساريًا (تعرض للنفي لعدد من السنوات)، وبصفته لاهوتيًا لا بد أنه كان على علم بما ورد في إنجيل تيموثاوس 10:6 بخصوص أن حُبَّ المال أصل لكل الشرور وانجيل متى 25:15 بخصوص مرور جمل من إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله. لم يكن كتاب جون راولس John Rawls "نظرية العدالة" قد نشر بعد في أيام بيردياييف، لكن لا بد أنه كان يعرف بأن جرعة زائدة من العدالة والمساواة كانت أمرًا سيئًا، وأن الكثير من المساواة كانت تتسبب بمشكلات لا حصر لها. من جهة أخرى، لا بد أن بوتين كان يعرف أن المزاج العام في العالم ينحى باتجاه قدر مفرط من اللامساواة، نتيجة العولمة كأحد الأسباب.

لا بد أن بوتين كان يعرف أيضًا بأن اللامساواة الاقتصادية في روسيا هي أكبر بكثير منها في كافة البنى الاقتصادية المتقدمة أو شبه المتقدمة الأخرى. حوالي 110 مواطنين روس يملكون بحسب التقارير 35 بالمئة من ثروة البلاد، المكونة بمعظمها من أموال يعود مصدرها بشكل رئيسي إلى قطاع الموارد الطبيعية على مدى الأعوام الخمسة والعشرين أو الثلاثين الماضية. لم يكن هذا يشكل مشكلة سياسية أساسية وحسب، وإنما قضية اقتصادية بالغة الخطورة، وعائق حقيقي

أمام مزيد من التقدم الاقتصادي. لأن الثروة إذا ما تركزت في أيدي حفنة قليلة من الأغنياء، فإن الطلب سيغدو محدودًا. في ضوء هذه الظروف، يبدو بأن حس الفطرة السليمة السياسي والاقتصادي البدائي يملي استراتيجية تتمثل بنشر الثروة على نطاق أوسع. في كتاب بيردابيف، فإن ثروة أمريكا العظيمة يجري تفسيرها بالإشارة إلى لامساواة الممتلكات والدخل.

المرجعية الإيديولوجية الثالثة والأكثر إرباكًا الموصى بها من قبل بوتين هي إيفان إيلين. يرى بوتين وزملاؤه بأن البحث الطويل عن عقيدة جديدة قد انتهى، وأنهم وجدوا في إيلين المتنبي الذي سيقدم لهم الإيديولوجية التي هم بأمس الحاجة إليها.

كان إيلين معروفًا تمامًا في أوساط المهاجرين الروس في فترة العشرينات والثلاثينات، والذي دخل عالم النسيان لاحقًا، ولم يكتشف مجددًا إلا مؤخرًا. هذا الكاتب الذي أعيد نشر أعماله مجددًا بشكل مكثف، لطالما شكل المنهل الذي ينهل منه بوتين في خطاباته ومقالاته، وأيضًا من قبل شخصيات روسية بارزة أخرى مقربة منه. وبحسب تعبير وزير التنمية الإقليمية الروسي: "لقد بات الطلب على أفكاره في روسيا اليوم قويًا جدًا إلى درجة بتنا نشعر معها أحيانًا بأن إيلين هو من أبناء عصرنا."

يتحدر إيلين، المولود فـي موسكو عام 1883 على مرمـى حجر من الكرملين، من عائلة من الطبقة العليا التي خدم معظم أفرادها فـي الجيش الروسي. درس القانون في روسيا وألمانيا (والدته كانت روسية من أصل ألماني) وكتب عن هيغل Hegel وفيخته Fichte وفلسفة القانون. في السنوات التالية، انخرط في المسائل الدينية، وكان هو أيضًا أحد المسافرين على متن سفينة الفلاسفة الـ 160 غير المرغوب فيهم المنفيين من روسيا عام 1922. استقر المقام بإيلين في برلين، حيث عمل في المعهد العلمي الروسي بصفة محاضر سياسي وكاتب. كرّس جهوده كليًا لقضية الصراع ضد البلشفية، التي كان يرى بأنها تشكل خطرًا داهمًا على البشرية. قام بإعداد كتاب بعنوان "الإنسانية على شفير الهاوية"، وهو عبارة عن مجموعة مقالات مكرسة للحديث عن إساءات البلاشفة؛ وقد جرى ترجمة الكتاب ونشره على نطاق واسع. مع ذلك، فقد كان لإيلين معاناته مع الغستابو، فجرى طرده من عمله في تموز/يوليو عام 1934، وبات ضربًا من المستحيل بالنسبة له العثور على عمل ككاتب أو محاضر. صحيح أن النازيين طردوه من عمله، لكن لم يذكر على نطاق واسع أن مكان عمله كان جزءًا من وزارة جوزيف غوبلز الخاصة بالبروباغندا. انتقل إلى سويسرا بمساعدة الملحّن والمؤلف الموسيقي سيرجـي راحمانينوف، حيث أمضى بقية حياته حتى وفاته عام 1954. أشرف بوتين شخصيًا على مراسم نقل رفاته إلى العاصمة الروسية عام 2005، حيث جرى إعادة دفنه في أحد أديرة موسكو. وفي العقدين الأخيرين، جرى إعادة نشر حوالي ثلاثين عملًا من أعماله في روسيا.

ما الذي كان يجتذب بوتين وبقية الشخصيات الروسية البارزة إلى كتابات إيلين؟ ماذا كانت أفكاره بشأن إعادة بناء روسيا ما بعد الشيوعية؟ من بين أبناء جيله من المهاجرين الروس، كان إيلين ثاني اثنين من اللاهوتيين /الفلاسفة الذين قدّموا ما هو أبعد من الفكر الروتيني لمستقبل روسيا. في الوقت الذي كان فيه اللاهوتي والفيلسوف الكبير جورجـي فيدوتوف Georgy Fedotov من أنصار الحركة الإنسانية والديمقراطية، لم يُخفِ إيلين مطلقًا حقيقة أنه كان من أنصار المَلكية والديكتاتورية الأوتوقراطية (ولكن ليس الاستبدادية). بعد الحرب العالمية الثانية،

نشر فيدوتوف مقالة زعم فيها أن روسيا القيصرية لم يكن بوسعها بأي حال من الأحول أن تشكل نمطًا لروسيا ما بعد الشيوعية. ما الذي ستؤمن به روسيا بعد موت البلشفية، بعد انتهاء الثورة والثورة المضادة؟ سأل فيدوتوف. سوف تكون القومية الروسية، أجاب قائلًا، ولكن أي شكل من أشكال القومية ستعتمد؟ بدءًا من اليوم، يبدو بأن الجواب سيكون إيفان إيلين، لكن الثورة المضادة قد لا تكون لفظت أنفاسها الأخيرة بعد. كان إيلين المفكر الوحيد الذي نهل منه بوتين في خطاباته كرئيس للجمهورية: في خطابه الرئاسي عامي 2005 و2006 وكلمته أمام مجلس الدولة في السنة التالية. في عام 2009، توجه بوتين إلى دير ستريتينسكي لوضع إكليل من الزهور على ضريح إيلين.

كان إيلين من أنصار ومؤيدي سلطة مركزية قوية لروسيا ما بعد الشيوعية، مع قدر ضئيل من الحقوق للمناطق غير الروسية مثل أوكرانيا والقوقاز، الأمر الذي قد يساعد في تفسير شعبيته في أوساط القيادة الروسية الحالية في عصرنا هذا.

وصل هذا الشكل من التضامن والتكافل الخاص بإيلين إلى روسيا من خلال تأثيره على إحدى منظمات جيل الشباب المنفي "ناسيونالني ترودوفوي سويوز" Natsionalny Trudovoi Soyuz (NTS)، التي اعتمدته كمنظّرها الإيديولوجي الأول بعد الحرب العالمية الثانية؛ عندما رجع بعض أعضائها إلى روسيا بعد سقوط الشيوعية، حملوا أفكاره إلى موسكو. من المحتمل أن يكون الرسول الناقل ألكسندر سولجنيتسين Aleksandr Solzhenitsyn أو منتج الأفلام نيكيتا ميخالكوف Nikita Mikhalkov، رجل الأفكار اليمينية بامتياز ونجل الشاعر الذي كان قد قدم النشيد الوطني السوفييتي البديل لنشيد "الأممية" The International

"لقد أنعم الرب على إيلين بنعمة التنبؤ"، بحسب أحد وزراء التنمية الإقليمية الروس، مُعليًا من شأن القناعة التي مفادها أن نبوءات إيلين المتعلقة بتفسخ وانحلال الاتحاد السوفييتي كانت صحيحة، كذلك كانت نبوءاته بشأن المحاولات العدائية لتقويض أركان السيادة السوفييتية بعد السقوط.

لكن لم تكن كل أفكار إيلين على الدرجة ذاتها من الإغراء. في الحقيقة، كان البعض منها مخطئًا إلى درجة محرجة. "ماذا فعل؟" كتب عن أدولف هتلر. "أوقف عملية البلشفة في ألمانيا وبذلك أدى خدمة جليلة لأوروبا."

إيلين، بكلمات أخرى، لم يتنبأ بأن هتلر، بعد إغلاق الباب في وجه البلشفية، سيفتحه مجددًا بإطلاقه للحرب العالمية الثانية.

"أوروبا لا تفهم الحركة النازية. لا تفهمها وهي خائفة"، كتب إيلين قائلًا. "وكلما ازدادت مخاوفها، قلّ فهمها وأصبحت أكثر استعدادًا لتقبل كل الإشاعات السلبية، وكل قصص الرعب التي رواها "الشهود،" وكل النبوءات التي تبثّ الذعر في النفوس. يعكف أعضاء اليسار المتطرف في جميع البلدان الأوروبية قاطبة على خلق مناخ من الغلوّ والكراهية. لسوء الحظ أن صحافتنا الروسية بدأت تنهج هذا النهج شيئًا فشيئًا، عواطف (الليبراليين اليهود) باتت شيئًا فشيئًا نماذج ومعايير للخير والشر."

كتب إيلين قائلًا بأنه فـي الوقت الذي كان يتفهم فيه عواطف اليهود الألمان، فقد رفض رفضًا قاطعًا إصدار حكمه على الاشتراكية القومية والأحداث الأخيرة فـي ألمانيا من وجهة نظرهم. نظرًا لوقوعها تحت تأثير التنويم المغناطيسي للآراء الديمقراطية الليبرالية، فقد باتت أوروبا غير قادرة على التبصر بعواقب وأخطار الخطر البلشفي المتربص بها.

"لم يفلح الرأي العام الأوروبي حتى اليوم في فهم أن الاشتراكية القومية ليست بأي حال من الأحوال عنصرية راديكالية لا تحترم القانون"، بحسب تكيد إيلين. "إن روح الاشتراكية القومية لا تفضي إلى العنصرية." إنها لا تفضي إلى الإلغاء، بل تولد روحًا إيجابية وخلاّقة لإدارة المهام التي تواجه كافة الأمم. الافتراءات ذاتها جرى استحضارها ضد المهاجرين الروس وضد موسوليني.

بالإجمال: لم يكن إيلين نازيًا، بل متعاطفًا قويًا أساء تقدير جوهرها عمومًا. تقديراته السياسية كانت تقديرات حمقاء بالمطلق. لم يكن مدركًا قط لعنصرية هتلر أو أنه لم يكترث لعنصريته ضد روسيا أو حقيقة أن هتلر كان يعتبر الروس أناسًا دون مستوى البشر. ولم يدرك كذلك أن النازية كانت تفضي إلى حرب ضد روسيا وأن بواعثها لم تكن إيديولوجية بشكل أساسي. كان إيلين راغبًا فـي التقرب من كل أعداء الشيوعيين. لكن بالنسبة إلى هتلر، لم تكن الشيوعية تشكل ذلك الخطر الداهم؛ كانت البروباغاندا التي اعتمدها هتلر بهذا الخصوص بروباغاندا مضللة بشكل متعمّد. كان إلى درجة معينة معجبًا بستالين. وكان يريد احتلال أوروبا الشرقية وروسيا والسيطرة عليهما.

شن إيلين هجومًا شرسًا على "الصحافة البورجوازية اليهودية" لـ وايمر جيرمانـي Weimar Germany التي اتهمها بالولاء للسوفييت وعدم البوح بالحقائق حول روسيا. صحيح أن صحف تلك الفترة في ألمانيا كانت تتحاشى النقد أحيانًا، لكن ذنوبها وخطاياها المتعلقة بالأشياء التي أنجزت وتلك التي لم تنجز لم تكن لتقارن بخطايا إيلين وأخطائه على صعيد سوء التقدير المطلق، بل الأعمى والمتزمت.

ما الذي يمكن قوله في معرض الدفاع عن إيلين؟ ليس كثيرًا، باستثناء ربما حقيقة أن هذه السطور (وغيرها من التي كتبت بمزاج مشابه) كانت قد كتبت في أوائل العام 1933. لكن يبقى صحيحًا أيضًا أنه وبالرغم من كونه من أنصار المَلَكية، فقد كان يعتبر النازية ظاهرة إيجابية تصلح لروسيا المستقبل إذا ما أجريت عليها بعض التعديلات والتصحيحات.

هل غيّر إيلين آراءه بعد الحرب؟ نعم، ولكن ليس إلى ذلك الحد. كان يؤثر التعليق على الفاشية بالعموم، وليس على النازية بالتحديد. زعم في مقالة له نشرت في عام 1948 أن الفاشية كانت بمثابة قَدَرٍ لا يمكن تجنبه، في ضوء فوضى اليسار الأوروبي واستبداديته. كان على القوى القادرة أن تؤكد ذاتها وتثبت وجودها مجددًا، تمامًا مثل ديكتاتورية روما القديمة في حالات الطوارئ. حدث هذا في أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى وقد يحدث في المستقبل أيضًا. كانت الفاشية محقة فيما يتعلق بطموحها لتحقيق إصلاحات اجتماعية وسياسية مبررة وفيما يتعلق بحقيقة أن سياساتها كانت مستندة إلى مشاعر وطنية لا يمكن لأي شعب أن يحيا من دونها. ومع ذلك، ارتكبت الفاشية العديد من الأخطاء الجسيمة والخطيرة والقاتلة التي أفضت إلى سقوطها. أدرج إيلين ستَّةً من هذه الأخطاء، إلا أن الأول منها هو الإكثر أهمية:

لم تكن الفاشية حركة دينية - كانت في الحقيقة معادية للمسيحية. أفضت إلى ظهور ديكتاتورية اليمين، في حين أن احتكار حزب سياسي أفضى إلى خلق كل أنواع الشرور والفساد. أصبحت كذلك قيصرية شوفينية متميزة.

بما أن إيلين كان عميق التدين، فقد كان افتقار الفاشية إلى الدين أمرًا حاسمًا بالنسبة له. لكن لم تكن كل أشكال الفاشية مناوئة للدين: فقط في ألمانيا النازية كان هناك تدخلٌ في شؤون الكنيسة وحالات من القمع من وقتٍ لأخر. لم يكن يحدث شيء من هذا القبيل في إيطاليا وبقية البلدان والحركات الفاشية الأخرى. في بعض الحالات، كان هنالك تعاون وثيق تمامًا بين الدولة (الفاشية) والكنيسة.

هل أسهم إنشاء الحزب الواحد في خلق مناخات الفساد والانحلال؟ أسئلة مشابهة برزت بخصوص النقاط الأخرى المدرجة على القائمة. كان إيلين يؤمن بأن كل الانحرافات والمبالغات والأخطاء لم تكن ضرورية. لقد أدرك بينيتو موسوليني أنه كان بحاجة إلى الكنيسة، لكن هتلر بإلحاده الفظّ لم يدرك أنه كان يسير على خطى المسيح الدجّال. كما أنه لم يكن من الضروري إنشاء احتكار حزبي.

كان تقديس القيصرية وتمجيدها أكبر أخطاء الفاشية. كانت معارضة تمامًا للمَلَكية وأفضت بشكلٍ حتمي إلى الاستبداد وإلغاء الحريات والإرهاب. القيصرية عديمة الأخلاق، وقاسية وديماغوجية وغوغائية، تزدري الناس وتضرب بالقانون وحقوق الفرد عرض الحائط. أدرك فرنسيسكو فرانكو وأنطونيو دو أوليفيرا سالازار هذا الأمر ولم يسموا أنفسهم بفاشيين، حسب ما اقترح إيلين. لا ينبغي للفاشية أن تؤدي إلى قدرٍ مفرط من الخيلاء والزهو والفوقية، الأمر الذي سيفضي إلى عزلتها وبالتالي سقوطها.

أعرب إيلين عن أمله بأن يتعلم الفاشيون الروس من أخطاء أسلافهم وأن لا يقعوا فيها مرة أخرى، الأمر الذي سيكون بمثابة ضربة قاضية لقضيتهم الوطنية. حتى بعد الحرب العالمية الثانية، وجد إيلين أن من الصعب تبين الفرق بين الخطيئة والجريمة، فرق كان عليه أن يعرفه.

بالنسبة لبعض النقاط، كانت آراء إيلين ووجهات نظره قد تغيرت بحلول العام 1948. لم تكن الملكية الدستورية التي بشر بها قبل الحرب العالمية الثانية الملكية الدستورية التي عرفتها المملكة المتحدة أو السويد أو هولندا، لكنها كانت مساوية للديكتاتورية السلطوية. لم يكن إيلين فاشيًا في يومٍ من الأيام، لكنه في الفترة التي تخللت الحرب كان قد تحرك في ذلك الاتجاه. أصبحت آراؤه حيال الملكية أكثر غموضًا وضبابية بعد العام 1945. كان مصطلح "استبدادي" لا يزال مستخدمًا، لكن الديكتاتورية كانت قد اكتسبت سمعة سيئة وجرى إسقاطها. مع ذلك، طالما أنه كان لا يزال معارضًا للنظام الديمقراطي، ما هو المستقبل السياسي الذي كان متوقعًا لروسيا المستقبل؟

لم يفصح يومًا عن آراء إيلين ووجهات نظره الحقيقية حيال السياسة الاجتماعية والاقتصادية: إذ لم تكن في الحقيقة ضمن مجال اختصاصه. كان من دعاة التضامن والتكافل، ولكن أي نوع من التضامن والتكافل؟ فقد كان يعني أشياء مختلفة في بلدان مختلفة في أوقاتٍ مختلفة. ظهر أول ما ظهر في فرنسا، ووجد أقوى صدى له على لسان الأكاديمي النمساوي أوسمار سبان Othmar

Spann، وكان يتلقى الدعم أيضًا في بلدان عديدة، ولعل أهم مصادر الدعم هذه كان الكاثوليك اليساريون.

كانت الإيديولوجيا التضامنية Solidarism ضد الفوضى الاجتماعية وتحلل النسيج الاجتماعي وتفكك روابطه. كانت تتعارض مع الاشتراكية ولكن أيضًا مع منظري السوق الحرة؛ كانت هنالك حاجة ماسة لقوة فوقية للسيطرة على السوق وأولئك الذين كانوا يحققون أقصى فائدة منه. لم يكن ممكنًا الوثوق بالسوق لحل كافة المشكلات سيما العويصة منها.

لطالما تقربت الفاشية من الإيديولوجيا التضامنية وتعاملت معها، لكنها لم تعتمدها قط بشكلٍ كامل. كان سبان Spann يأمل بأن أفكاره ستلاقي القبول عند الحكام الجدد في ألمانيا، لكن لم يكن لدى النازيين مثل هذه النية. لقد عمدوا عوضًا عن ذلك إلى اعتقال سبان وإقصائه عن منصبه في جامعة فيينا. كان التضامنيون ضد الاشتراكية التقليدية، لكنهم أيضًا كانوا ضد الرأسمالية التي تتدخل فيها الدولة في الشؤون الاقتصادية. ينبغي أن يسمح للنظام (الرأسمالي) الحالي بالعمل طالما أنه ينتج البضائع، ولكن فقط تحت الإشراف والسيطرة. كان التضامنيون (ولا يزالون) يفضلون البقاء وسط الضباب: على الدولة أن تكون المسؤول، وليست السوق.

على أية حال، لم تشكل الضبابية في هذا الميدان الهام عائقًا أمام تنامي شهرة إيلين في روسيا. لقد شكل المرجعية العظمى التي كان يتم الرجوع إليها أكثر من أي مرجعية أخرى، مهما كانت طبيعة القضية. وغني عن القول إنه كان هنالك بعض أوجه النقد والتباين. كان اللاهوتيون يمقتون حقيقة أن إيلين كان دائمًا يتحدث ويكتب عن الله - ولكن نادرًا ما كان يكتب عن الكنيسة؛ سبق لبيرداييف وآخرون أن وجهوا إليه انتقاداتهم خلال العشرينات والثلاثينات؛ فمن وجهة نظرهم لم تكن نظرته العالمية مسيحية حقًا، ناهيك عن كونها أورثوذكسية. كان يستخدم المسيحية لدعم آرائه ومواقفه السياسية، مقتنعًا بأن آراءه كانت محقة وكل ما عداها من آراء ووجهات نظر كانت على خطأ.

كانت أشرس الهجمات على إيلين تأتي من أكثر الأصوات راديكالية في مجتمع المهاجرين الروس. على هذه الصورة كان فيكتور أوستريتسوف، مهاجر روسي متخصص بشؤون الجمعية السرية لليهود والماسونيين الأحرار التي كانت القوة الأساسية التي تتحكم بسياسة العالم وكل الشرور في هذا الكون.

بحسب أوستريتسوف، لم يكن إيلين ملكيًا أو مسيحيًا حقا، بل كان عميلاً لليهود والماسونيين. لم يكن من العسير العثور على الدليل: لو كان حقاً عدواً للبلاشفة، لما اتخذ مقعده على متن السفينة التي كانت تقل الفلاسفة المنفيين، كان من الممكن أن يرسّل إلى سيبيريا أو أن يُقتل. عندما جاء إلى برلين، كان ينتمي إلى جمعية الفلاسفة الروس إلى جانب بيرداييف، نموذج يثير قدراً من الشك والريبة حتى أكثر من إيلين بين أتباع أقصى اليمين الروسي، وسيمون فرانك - متهودٌ جديد. هل هناك حاجة لقول المزيد؟ كان مقر هذه الجمعية في المبنى العائد للمحفل الماسوني لليهودي بنعاي بيرث، الذي كان قد وضعه بتصرف المفكرين اللاجئين في بداية إقامتهم. لا نعلم على وجه اليقين إن كان إيلين قد زار هذا المبنى في برلين، لكن الأقرب إلى المنطق أن مثل هذه السلسلة من الأحداث والظروف لا يمكن أن تكون عرضية.

لم يؤثر هجوم أوستريتسوف وأمثاله من المعتوهين غريبي الأطوار على مكانة إيلين في روسيا المعاصرة. لماذا نأتي على ذكر هذا الهجوم في المقام الأول؟ لأن هذا يظهر بأن الجنون والهوس الذي سبق ذكره في أوساط الكتّاب المعاصرين في روسيا لم يأت من العدم. كان له سوابقه. من الصعب تحديد إلى أي مدى سينتشر هذا البلاء أو المدى الذي قد وصل إليه فعلاً مثل هذا الانتشار.

الفصل الثامن

السياسة الخارجية والدولة النفطية

لطالما كانت الشؤون والقضايا المحلية الشغل الشاغل لصنّاع السياسة الروس وباقي البلد على مدى زمن طويل. ما لم يكن هنالك حد أدنى من الاستقرار محليًا، وما لم يكن واضحًا من الذي يدير البلاد، وما لم تكن عجلة الاقتصاد تعمل ولو بالحد الأدنى، فإن روسيا ستغدو موضوعًا سياسيًا لا كثر، وليس قوة طبيعية تسعى وراء تحقيق مصالحها الخاصة. كان غورباتشيف ويلتسن يتفاوضان أيضًا مع قوى خارجية، لكن مهمتهما الأساسية كانت، من وجهة نظر كُلٍّ منهما، الحد من الأضرار والخسائر الحاصلة؛ كان الاقتصاد الروسي قد انهار وتداعى، وكانت البلاد بحاجة ماسة إلى المساعدة الخارجية. أتى التغيير بصورة تدريجية، بعد بضع سنوات من تسلم بوتين لمقاليد السلطة كرئيس لروسيا. تمكن بوتين من توفير الحد الأدنى من الاستقرار المنشود، لكن هذا وحده لم يكن ليؤدي الغرض. لم يأت نتيجة صحوة روحية أو لأن روسيا استعادت فجأة ثقتها بنفسها والإحساس بالهدف، بل جاء نتيجة أسباب أكثر سخفًا وأقل أهمية - الطلب المتنامي من جانب الأسواق العالمية على النفط والغاز والارتفاع الحاد في أسعار هاتين المادتين الخام. في غضون سنوات قليلة، وجدت روسيا نفسها في وضع أفضل بكثير. لو أن إيغور ليغاتشيف Yegor Ligachev، أحد منافسي غورباتشيف الرئيسيين يومًا، أو أي شخصية أخرى من حزب الإصلاح، كان قد تسلم مقاليد السلطة بدلاً من غورباتشيف ويلتسن، لكان استفاد من هذا التحول نحو الأفضل. ولكان الثناء والتقدير أغدق على الحزب الشيوعي وقادته عام 2005 لتحقيقهم هذا التحول على صعيد ثروة البلاد. مع ذلك، لم يكن لهذا التحول أن يوقف انهيار الاتحاد السوفييتي، لأن النظام كان متعفنًا بالأساس، وسقوط النظام كان سيأتي بنتائج وعواقب أكثر كارثية. لكن كان لمثل هذا التحول أن يتأخر لعقدين أو ثلاثة في ظل أوضاع عالمية مختلفة كلئا عما كانت عليه الحال عام 1991.

إساءات تقدير مذهلة سادت وانتشرت في أنحاء الغرب والشرق كليهما بخصوص الأحداث الجارية في الاتحاد السوفييتي لأسباب متعددة، أقلها أن ما كان يجري لم يكن متوقعًا على الإطلاق.

ساد هنالك جو من الارتياح الكبير في واشنطن والعواصم الأوروبية لكون الحرب الباردة قد وضعت أوزارها أخيرًا. إذا كانت تلك الأحداث لم تفسر على أنها نهاية التاريخ، فقد بات ينظر إليها على أنها بالتأكيد فجر جديد لحقبة جديدة من الأمن والسلام. بسلوك روسيا لطريق الديمقراطية، تم التخلص من خطر الحرب مرة والى الأبد، والترسانات العسكرية سيجري تخفيضها بصورة دراماتيكية، وسيغدو بوسع البلدان الغربية أخيرًا وبعد طول انتظار أن تكرس جهودها ومواردها لمعالجة القضايا المحلية المهملة منذ زمن بعيد. معظم المراقبين كانوا يتابعون الأحداث والتطورات في الاتحاد السوفييتي السابق بمزيج من التفاؤل والتراجع المطرد في الاهتمام. كان بعض المراقبين الغربيين يعتقد بأن طريق روسيا نحو الحرية سوف يكون طويلًا وشاقاً، لكنه لم يكن رأي الغالبية بحال من الأحوال. حتى من منظور تفهم طبيعة الحوادث بعد وقوعها، من الصعب تفسير موجة التفاؤل غير المضمونة تلك التي عمت العالم. إذا ما أخذنا ماضي روسيا وظروفها

الحالية بعين الاعتبار، نجد بأن جذور ذلك التفاؤل كانت متأصلة في تربة الآمال والأمنيات لا أكثر. القليل جدًا من المراقبين وضع في اعتباره احتمال أن خسارة الإمبراطورية لم يكن نهاية القصة، وأنه ستكون هنالك، كما يحدث غالبًا في التاريخ، محاولة لاستعادة المجد الضائع.

كان ينبغي استحضار المثال الألماني: من دولة تعرضت لهزيمة ماحقة وباتت بلا حول ولا قوة عام 1918، إلى قوة عظمى في غضون خمسة عشر عامًا فقط. كان ينبغي إدراك أنه عندما كانت تنشأ هنالك توترات جديدة، فهي لم تكن بتحريض من بوتين والـ كي جي بي. على غرار الشعب الألماني أوائل الثلاثينات، كانت غالبية الشعب الروسي تطمح إلى حياة كريمة فقط، ولكن بشرط أن يكون جزءًا من قوة كبرى، قوة عظمى إن أمكن. سيكون من الخطأ اتهام القادة الروس أنهم كانوا بصدد الاحتفاظ بنواياهم السرية طي الكتمان. كانت هنالك شكاوى وتذمرات حتى من جانب غورباتشيف ويلتسن بالذات من أن ما كان منتظرًا من الغرب كان أكبر بكثير من الواقع، وأن التنازلات السوفييتية في التسعينات لم تكن متبادلة. كان قد جرى اتخاذ خطوات من قبل الغرب (كتوسيع حلف الناتو) اعتبرها الكرملين نوعًا من الاستفزاز.

بعض هذه الشكاوى كانت عصية على الفهم - على سبيل المثال، تلك المتعلقة بالإجراءات الدفاعية المحضة المتخذة من قبل الولايات المتحدة (مثل تركيب الرادار والدرع الصاروخي في أوروبا الشرقية لمواجهة التهديد الإيراني). لكن الغرب فشل في أخذ المخاوف والهواجس الروسية بعين الاعتبار. مهما كانت حقيقة الوضع، لم يكن صحيحًا أن القادة الروس لم يفلحوا في إيضاح موقفهم. ربما تم جعل هذا الموقف أكثر وضوحًا في بعض خطابات بوتين. ومع ذلك، حتى العام 2003 كانت المفردات الرئيسية فيما يتعلق بالعلاقات الأمريكية - الروسية هي الصداقة، والتعاون، والمشاركة، وأجندة الحرية، والتوازن، والتعاون الثنائي، والبراغماتي، وهكذا دواليك.

قَبِل الناس في موسكو المساعدة من الغرب، لكن لم يكن واضحًا بأي طريقة يمكن للغرب أن يساعد إلا عن طريق دعم البنك الدولي. ولكن كان هنالك شك، صغير في البداية، لكنه ما برح يتعاظم باطراد، بأن الغرب سوف يستغل ضعف روسيا. مضى البعض أبعد من ذلك وأعرب عن قناعته بأن سقوط الاتحاد السوفييتي كان قد أعد وصمم وخطط له من قبل الإمبريالية الغربية. تعاظم الخوف من الغرب (Zapadophobia) بصورة دراماتيكية. تشكلت قناعة راسخة بأن أي مبادرة هي في صالح الغرب لا بد وأنها ستلحق الضرر بروسيا ويتوجب بالتالي إلغاؤها. اليمين الراديكالي، الذي كان قد برز كقوة يحسب لها حساب في موسكو، كان يتضرع إلى الله من أجل عودة الحرب الباردة. واجهت روسيا الإفلاس أكثر من مرة خلال فترة التسعينات وكان يمكن لاقتصادها أن ينهار لولا مبادرات الإنقاذ الغربية. ولكن نادرًا ما كان القادة الروس يتطرقون إلى هذه الحقيقة. خلال هذه الفترة، كان لا يزال يجري التطرق إلى ذكر الولايات المتحدة بين الفينة والأخرى بوصفها "الشريك الاستراتيجي ". وغالبًا ما كان القادة الروس يستحضرون اتحاد بلدان البريك (BRIC) (البرازيل، روسيا، الهند، الصين) بوصفه شريكهم الجديد المفضل. لم يؤخذ هذا الأمر على محمل الجد في الغرب، لأن البريك كان يفتقر إلى الكثير من القواسم المشتركة على الصعيدين السياسي والاقتصادي، كما أنه لم يكن هنالك كثير من الاهتمام بتحقيق تعاون وثيق مع موسكو. علاوة على ذلك، فإن بعض تلك البلدان كان يعاني من أزمات داخلية و/أو اقتصادية لا يستهان بها.

وجد الموقف الروسي صيغته المقتضبة في أحد الخطابات العنيفة لبوتين في مؤتمر الأمن في ميونخ في شباط /فبراير 2007. كان هجومًا شرسًا ضد الأحادية القطبية - أي الولايات المتحدة، التي كانت قد برزت على أنها القوة العظمى الوحيدة المتبقية. وتحت شعار نشر الديمقراطية، كانت الولايات المتحدة تستخدم القوة العسكرية في كافة أنحاء الكوكب، معرضة بذلك السلام العالمي للخطر.

أصيب بعض القادة الغربيين بالصدمة بسبب النبرة الحادة للخطاب؛ كان عليهم أن يكونوا ممتنين لبوتين لتنقية الأجواء. كان عليهم أن يكونوا مدركين إلى أن بوتين، بحسب ما قالته ميركل في حديث لها مع الرئيس باراك أوباما إبان الأزمة الأوكرانية، كان يعيش في كون مختلف. كان هذا صحيحًا. مع ذلك، فقد كانوا مخطئين بافتراضهم أنهم هم القاعدة وأن بوتين هو الاستثناء الذي عفا عليه الزمن. كانوا مخطئين أيضًا باعتقادهم أنه في ضوء ديمغرافيتها ونقاط ضعفها الأخرى، فإن روسيا لم تعد على ذلك القدر من الأهمية؛ لعل هذا كان صحيحًا بالمنظور الطويل الأمد، لكنه كان خاطئًا فيما يتعلق بالعقد القادم أو العقدين القادمين، إذا ما وضعنا بالاعتبار ضعف أوروبا ورغبة أمريكا الواضحة بتقليص نشاطاتها في الشؤون العالمية بعد أفغانستان والعراق. فيما يتعلق بواشنطن، كانت روسيا لا تزال في وضع يؤهلها للتسبب بقدر كبير من الضرر.

كان بوتين قد أطلق التحذير اللازم. لماذا لم يستثمر الأوروبيون بشكل أكبر في الاقتصاد الروسي؟ كان بوسعه إلقاء قدر أكبر من الملامة على الصينيين عندما اتخذوا موقفا سلبيًا من الاقتصاد الروسي وقرروا عدم الاستثمار، لكنه لم يستطع معاملتهم بالمثل. وجه انتقادًا لاذعًا للغرب على "موقفه الاستعماري ". وعبّر عن غضبه في مناسبات عديدة أخرى. ولم تكن تلك مزاجية شخص واحد وحسب: لقد حصل على دعم وتأييد الرأي العام وغالبية الناس. وقد وجدت آراؤه ومواقفه صداها في العديد من الوثائق السياسية، مثل "مفهوم السياسة الخارجية الروسية الجديد" (2013) و"خطة أوبوروني" Plan Oborony (العقيدة العسكرية الجديدة للعام 2010). لم يكن أحد يعير هذه الوثائق انتباهًا في الغرب، على افتراض أنه في حال كانت هنالك تغييرات مهمة جارية على صعيد التفكير الروسي، فبالكاد تجري مناقشتها بالتفصيل في وثائق رسمية من هذا النوع.

ولكن بهذه المناسبة، كان الكرملين صريحًا تمامًا. فقد أكد على انتقال القوة الدولية من الغرب إلى الشرق، من أوروبا إلى منطقة الباسفيك الآسيوية. وفي حين أن وثائق سابقة من هذا النوع (2005 - 2006) كانت تناقش بناءً على الحاجة لتصفية ما تبقى من مواقف الحرب الباردة؛ تم تجاهل ذلك الآن. في وثائق أقدم عهدًا، فإن إمكانية التفاعل مع الناتو جرى أخذها بعين الاعتبار، لكن هذا أيضًا لم يعد يشكل جزءًا من جدول الأعمال. عوضًا عن ذلك، باتت الحاجة لإنشاء علاقات أكثر متانة مع الصين والهند على رأس قائمة الأولويات. على عكس التوجهات الانعزالية في السياسات الأمريكية والأوروبية، فقد اتجهت السياسة الخارجية الروسية نحو آفاق أوسع، الأمر الذي لم يتنبّه له العديد من الناس في الغرب. ظهرت مشكلات وفرص جديدة، من ضمنها الاهتمام بمناطق القارتين القطبيتين الشمالية والجنوبية. وبما أن روسيا كانت قد أصبحت قوية، فقد بات بوسعها اتخاذ مبادرات في شتى الاتجاهات.

غني عن القول إن صنّاع السياسة الخارجية الروسية لم يناقشوا جميع مشكلاتهم المتعلقة بالسياسة الخارجية تحت دائرة الضوء؛ فقد كان هنالك حدود أمام حركة الانفتاح والإصلاح (الغلاسنوست). لا بد أن البعض منهم على الأقل كان يعرف بأن مفهوم الأوراسية برمته كان موضوعًا خلبيًا من دون مضمون (كما عبر عنه أحد الدبلوماسيين البريطانيين البارزين). كانت روسيا جزءًا من آسيا، لكنه لم يكن جزءًا مهمًا أو موضع ترحيب، ولم تكن البلدان الآسيوية تنتظر ظهوره بشوق ولهفة. لم تكن روسيا موضع ترحيب كبير في آسيا؛ فقد كانت في نظرهم بلدًا أوروبيًا.

علاوة على ذلك، كانت النقلة من الغرب إلى الشرق في عرف السياسة العالمية بمثابة النقلة الضارة النافعة من وجهة النظر الروسية. إذا لم تتحرك روسيا بحرص بالغ فسوف يؤول بها المآل شريكًا صغيرًا متواضع الشأن تابعًا للصين. في غمرة غضبها من الغرب، جرى تقديم الإغراءات إلى روسيا لتجاهل هذا الأمر، في ضوء الشكوك والهواجس التقليدية المتعلقة بالسياسات الغربية. كان بوسع العواطف الروسية أن تتغلب بسهولة على التقديرات الناقدة المتشائمة. كانت القصة القديمة ذاتها حول صنّاع السياسة الروسية الذين يفتشون وينقبون عن مصادر خطر وتهديد ليس لها وجود أصلاً أو لم تكن ذات شأن يذكر. ربما كان أمرًا محتمًا لا مناص منه، ربما كان على روسيا أن تتعلم درس كونها شريكا صغيرًا كي تحرر نفسها من مفاهيم وهواجس عصر مضى وانقضى.

إذا كان لدى المفهوم الأوراسي على الأقل قاعدة ضعيفة على صعيد المصطلحات الجيوبوليتيكية، ما الذي يمكن قوله بشأن الميل نحو بلدان البريك؟ في دراسة للمفهوم الروسي حول مشاركة الاتحاد الروسي في منظومة بلدان البريك، كان هنالك العديد من الصفحات حول الفائدة العظيمة للأهداف الاستراتيجية من مثل هذا التحالف، وحول الدعم القوي لمبادئ ومعايير القانون الدولي المعترف بها بشكل عام، وحول الاتحاد الروسي المؤيد لوضع منظومة بلدان البريك في النظام العالمي كنمط جديد من أنماط العلاقات الدولية تتجاوز خطوط التقسيم القديمة بين الغرب والشرق والشمال والجنوب. بيانات من هذا النوع كانت تظهر بأن الدبلوماسيين الروس كانوا قد أتقنوا لغة الجعجعة والثرثرة السياسية الفارغة للأمم المتحدة. ولكن ما علاقة ذلك بحقائق ووقائي السياسة العالمية؟ أية منافع استراتيجية كان يمكن أن تتحقق لروسيا من خلال تعاون وثيق مع البرازيل وجنوب أفريقيا؟

كانت حقائق ووقائع السياسة العالمية تتجلى بتدهور العلاقات مع الولايات المتحدة. كانت أوكرانيا لا تزال موضوع نزاع وجدال قبل أزمة القرم عام 2014 بوقت طويل، وكانت هنالك مواضيع جورجيا، وسوريا، واغتيال ألكسندر ليتفيننكو في المملكة المتحدة، ومصير بعض الأطفال الروس الذين جرى تبنيهم في الولايات المتحدة، والقنبلة النووية الإيرانية، ووضع المنشق إدوارد سنودن (كاشف الأسرار الأمريكي الذي قال له بوتين شخصيًا بأن مثل هذه الممارسات لا تحصل في روسيا) الذي منحته موسكو حق اللجوء المؤقت. مثل هذه الخلافات وغيرها عكرت صفو العلاقات بين البلدين.

كان الرئيس أوباما لا يزال يحتفظ بقدر معتدل من التفاؤل، متحدثًا عن إعادة ترتيب للعلاقات وواعدًا الرئيس ديمتري مدفيديف بأنه عند الحاجة سيكون قادرًا على تكريس المزيد من الجهد

لتحسين العلاقات. لكن ذلك كله لم يفض إلى شيء. حاول الروس أن يوضحوا للأمريكيين بأن مفهومهم عن ديمقراطية (السيادة) - مع التأكيد على السيادة أكثر منه على الديمقراطية - كان مختلفًا عن المفهوم الغربي، سيما المفاهيم الأمريكية. كانت "ديمقراطية السيادة " أحد ابتكارات فلاديسلاف سوركوف، رجل الفكر الأول في الكرملين وأفضل خبراء العلاقات العامة في روسيا، والذي لم يأت تعيينه رئيسًا لوكالة الإعلان لسائر أنحاء روسيا من فراغ.

في منظور العديد من الروس، كانت الديمقراطية تعني تخلخل النظام، إن لم يكن الفوضى. كان على النظام الروسي أن يكون استبداديًا بدرجة معينة على الأقل، والعزف على وتر القيم الديمقراطية وحقوق الإنسان في مثل هذه الظروف لم يكن ذا جدوى وسيعطي نتائج عكسية. لكن هذا الوضع لم يدم طويلاً في واشنطن وباقي العواصم الغربية. ربما لم يكن يلقى قبولاً، لأن قبوله كان مقتصرًا على الحاجة إليه كثقل موازن في وجه البروباغاندا المواظبة على عدائها لأمريكا من جانب الإعلام الروسي.

روسيا واليمين الراديكالي الأوروبي

لماذا سلكت العلاقات الروسية مع الغرب الطريق الخطأ؟ هنالك مقالة بالروسية بقلم مكسيم براتيرسكي Maxim Bratersky نشرت في مجلة الشؤون العالمية Global Affairs (2014). تعد هذه المقالة مثيرة وعلى الأقل مقبولة ظاهريًا. إنها بالتأكيد تقدم دليلاً على الأفكار التي تشكل الأرضية التي يستند إليها سلوك الخارجية الروسية في الوقت الحاضر والسنوات القادمة.

التحليل بإيجاز هو كما يلي: كانت انتخابات روسيا الرئاسية للعام 2012 بمثابة حدّ فاصل في العلاقات بين روسيا وبقية العالم. جرى استبدال خيار التكامل مع البنى والإيديولوجيات الغربية بالحفاظ على استقلال روسيا والتوجه نحو شركاء في الشرق والجنوب. كان الهدف من دمج الاقتصاد الوطني بالسوق العالمية قد تغير لضمان إعادة النهوض بحركة التصنيع في البلاد، ووضع الأسس لاستقلالها الاقتصادي وتأسيس هيئة اقتصادية خاصة بها.

لقد أفسحت استراتيجية البحث عن حلول وسط مع القادة الغربيين في المجال أمام إعادة تشكيل النظام العالمي بالتعاون مع البلدان غير الغربية، حيث تكون روسيا أحد قادتها. في فلسفة السياسة الخارجية الروسية، جرى استبدال قيم الليبرالية الساذجة لفترة التسعينات بأفكار الواقعية والدَوْلانية. جرى ملء الفراغ في إيديولوجية السياسة الخارجية الروسية بفكرة جمع العالم الروسي تحت راية واحدة، واعطاء الأولوية لحماية القيم المسيحية التقليدية. كان هذا التطور حتميًا تقريبًا، لأن الغرب كان يعتقد بأن روسيا كانت قد خسرت الحرب الباردة، وانتهج منذ البداية سياسة معادية لروسيا. كان يريد تحويل روسيا إلى ما يشبه المستعمرة المعتمدة على الغرب تكنولوجيًا وماليًا.

كان الغرب معارضًا بقوة لنهج الحفاظ على نظام سياسي في روسيا بإمكانه تركيز الموارد على مناطق لها الأولوية على الصعيد السياسي. خلال عقد الألفين، لم يعد مثل هذا الشكل من التكامل يناسب روسيا، وأثار قضية "صفقة كبرى " تتضمن (من جملة ما تتضمن) نظامًا معفى من

التأشيرات بين روسيا والاتحاد الأوروبي. في منتصف عقد الألفين، بدأ الاتحاد الأوروبي بتقييد الفرص أمام استثمار منتج في أوروبا من قبل رأس المال الروسي.

بلغت التناقضات والتباينات بين الغرب، وعلى رأسه الولايات المتحدة، وروسيا ذروتها عام 2008 بعد النزاع الجورجي - الروسي الذي أثارته وحرّضت عليه المبادرات الأطلسية وتوقف المفاوضات المتعلقة باتفاقية التعاون الاستراتيجي بين روسيا والاتحاد الأوروبي. في عام 2009، بعد قمة مجموعة العشرين (G - 20) في لندن، توصلت روسيا إلى قناعة مفادها أن النظام النقدي والمالي القائم الذي يسيطر عليه الغرب كان على تناقض مع مصالحه. جرى أخيرًا تهميش فكرة التكامل مع الغرب وتنحيتها جانبًا نتيجة حرب معلومات شنها الغرب ضد ألعاب سوتشي الأولمبية والأزمة السورية والنزاع الحاد الذي اندلع في أوكرانيا.

هذه هي الخلاصة المقتضبة للرواية الروسية حول الأحداث. إنها تثير العديد من الأسئلة والاستفسارات. على سبيل المثال، قد يكون القراء غير المتحيزين مهتمين بمعرفة الطريقة التي أسهمت من خلالها الحربان اللتان تورطت بهما روسيا في أثناء العقد الأخير ضد جورجيا وأوكرانيا/القرم في حماية القيم المسيحية، كما يزعم الكرملين. لعلهم يريدون معرفة المزيد عن "حرب المعلومات " بخصوص الألعاب الأولمبية الشتوية وفيما إذا كان مصطلح "التجمّع " gathering يمكن أن يكون مرادفًا للإمبريالية. مثل هذه المراوغة والمواربة، على أية حال، لن تذهب بالمرء بعيدًا جدًا نحو فهم العقيدة التي تشكل أساس السياسة الخارجية الروسية.

الجانب المهم حقًا هو التسلسل الزمني للأحداث. في الوقت الذي ترى فيه مقالة براتيرسكي بأن تغيرًا أساسيًا قد حصل في روسيا في العام 2009 أو على الأكثر عام 2014، تقدم مقالة أخرى ليوري أفاناسييف Yuri Afanasiev نشرت في مجلة Perspective في شباط /فبراير 1994 تحت عنوان "إمبريالية روسية جديدة " جدولاً زمنيًا مختلفًا وتفسيرًا مغايرًا مستندًا إلى "العقيدة العسكرية الروسية " الرسمية لعام 1993. من المبادئ الأساسية، تتطرق المقالة إلى ذكر روسيا قوية كأفضل ضمان لكامل أراضي الاتحاد السوفييتي السابق؛ ولعب دور صانع السلام في كافة الأراضي؛ والالتزام بحماية الروس في الخارج القريب؛ ومعارضة توسيع حلف الناتو؛ والدفاع عن مصالح الروس داخل الوطن وخارجه. يمكن لهذا، على حد قول الكاتب، أن يكون حقيقيًا تمامًا، لكنه كان يثير القلق، لأن المقالة تقول إن المصالح الروسية لا تقتصر فقط على مجمل أراضي الاتحاد السوفييتي السابق، بل تمتد أيضًا لتشمل بلدان "المعسكر الاشتراكي" السابق، حتى لو اعتقدوا بأنهم كانوا قد تحرروا من سيطرة موسكو وليس لديهم أي رغبة في العودة إليها.

في أثناء فترة التسعينات، اقتربت روسيا أكثر من مرة من شفير الإفلاس، ولم تكن في وضع يمكّنها من السعي لتحقيق أهدافها. كانت تعتمد على المساعدات الإنقاذية من قبل الغرب عن طريق البنك الدولي. مع ذلك، في السنوات التالية، وفي أعقاب الطلب المتزايد على النفط والغاز، مكّن التغير في الوضع الكرملين من انتهاج سياسة أكثر حزمًا وصرامة. يتطرق الكاتب أيضًا إلى الافتراض بأن هذا النهج حتّمه لدرجة معينة على الأقل الشعور من جانب السلطات بخسارة "مجد الماضي وعظمته " والمعاناة من الشعور بعقدة دونية. إنه صوت البلد الذي "يشعر بالمهانة والإذلال الآن كون صوته لم يعد مسموعًا كما في الأيام الخوالي ". لم يحدث هناك أي تغير دراماتيكي عام 2008 أو 2010، التغير في الظروف فقط هو ما مكّن روسيا من تحقيق أهداف

سياستها الخارجية. تتسم هذه التعليقات بالأهمية نظرًا لأنها كانت تعليقات تنبؤية ولأنها أيضًا ذات صلة بمسألة ما إذا أسهمت سياسة أخرى من قبل الغرب في منع حدوث توترات حالية ومستقبلية مع روسيا. من الممكن أن الغرب كان بوسعه مساعدة روسيا على استعادة مكانتها السابقة كقوة عظمى، حتى لو عنى ذلك التصرف ضد رغبات المناطق والجمهوريات التي لم تكن ترغب في أن تكون جزءًا من الاتحاد السوفييتي؛ ولكن من غير الواضح لماذا كان يتوجب عليها أن تفعل ذلك. علاوة على ذلك، وفي ضوء ارتياب روسيا العظيم حيال الغرب، فإن "غُلاة الروس " كانوا سيعتقدون على الأرجح بأن مثل هذه المساعدة الغربية كانت تهدف، بطريقة سرية غامضة جدًا، إلى إلحاق الأذى والضرر بروسيا. أية خدمات مقدمة من قبل الغرب كانت موضع شك وريبة.

إذا كانت العلاقات بين روسيا والولايات المتحدة قد تدهورت بعد العام 2006 لتصل إلى دركها الأسفل عام 2014 مع اندلاع الأزمة في أوكرانيا والقرم، فقد كانت هنالك عملية مشابهة في العلاقات مع الاتحاد الأوروبي. أوروبا، بعكس أمريكا، كانت تعتمد بقوة على واردات الطاقة الروسية والاستيرادات الروسية من أوروبا، خاصة البضائع والسلع الكمالية. كان بوسع الروس تهديد أوروبا بكل أنواع الإجراءات المضادة، ولكن ليس إلى تلك الدرجة من الفظاظة. إن أي مقاطعة لإمدادات النفط والغاز كانت ستؤدي حالاً إلى انخفاض مكاسب روسيا وعائداتها وتدفع بالغرب إلى تقليص اعتماده على النفط والغاز الروسيين.

كذلك بقيت الاستثمارات الأوروبية في روسيا دون التوقعات الروسية بكثير بسبب الشكوك حول سلامة الاقتصاد الروسي، ونتيجة شكوك وهواجس سياسية أخرى. شكلت هذه الأمور مصادر إزعاج متكررة. لم يكن الروس راضين عن الوضع في كوسوفو، وكان البريطانيون يتذمرون من أن موسكو كانت ترفض تسليم شخص كان يشتبه بتورطه في جريمة قتل ألكسندر ليتفيننكو، المحقق في الـ كي جي بي. كانت روسيا تعلق آمالاً كبيرة على علاقاتها بألمانيا، شريكتها التاريخية في مشاريع عديدة. فالذي حدث بين عامي 1941 و1945 جرى التغاضي عنه؛ كان لدى بوتين ذكريات لا تنسى عن سنوات وجوده في ساكسونيا. غيرهارد شرودر، وهو مستشار ألماني سابق، أصبح موظفًا في غازبروم Gazorom، شركة الغاز الروسية الرائدة. أعلن شرودر أن بوتين كان ديمقراطيًا مئة بالمئة، وهو تصريح قد يكون أحرج بوتين قليلاً لأنه كان قد بذل قصارى جهده لإيضاح بأنه كان ديمقراطيًا سياديًا، وليس ديمقراطيًا بالمفهوم الأوروبي. ليس هناك أي سبب يدعو للتشكيك بتصريح شرودر نظرًا لأنه هو وبوتين كانا صديقين حميمين. لكن هل كان لعمله في شركة غازبروم الروسية علاقة بهذا الأمر؟

الاهتمامات الأوروبية فيما يتعلق بالعلاقات مع روسيا لم تكن لتنطبق على الولايات المتحدة. فاعتماد أوروبا على إمدادات الطاقة الروسية كان (حوالي ثلث احتياجاتها الإجمالية) كبيرًا، وعلاقاتها التجارية التاريخية معها كانت تميز تلك العلاقة وتجعلها مختلفة تمامًا عن علاقة أمريكا معها. من هنا، لم يكن مستغربًا تبرؤ البلدان الأوروبية من بعض المبادرات الأمريكية بخصوص روسيا والتي كانت تعتبرها مبادرات فظة وعدوانية أكثر من اللازم. شكل تطبيق العقوبات على روسيا بعد أزمة أوكرانيا/القرم أحد الأمثلة على ذلك. من جهة أخرى، لم يكن هنالك أي إجماع داخل أوروبا على ذلك؛ البلدان الأقرب لروسيا مثل بولونيا وجمهوريات البلطيق أحست بأنها معرضة بشكل مباشر كثيرًا للضغط الروسي وباتت بحاجة ماسة للحماية. في الوقت نفسه، إن أي

بلد أوروبي لا يمكن أن يرغب في سلخ نفسه كليًا عن السياسة الخارجية الأمريكية. كانت روسيا تسعى إلى استغلال الخلافات بين الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة وتحقيق أكبر مكاسب ممكنة من هذه الخلافات، لكن نجاحها كان محدودًا على هذا الصعيد. فإذا كانت هنالك شكوك متأصلة تجاه العالم الخارجي في روسيا، لم تكن أيضًا هنالك أية ثقة كبيرة بالنوايا الروسية في أوروبا. كانت المخاوف والهواجس تتعزز كلما كانت روسيا تتصرف بشكل استفزازي، حتى حيال القضايا الثانوية نسبيًا، كالاختراق الروسي لشبكة الانترنت في أستونيا. كانت روسيا تنظر إلى أوروبا بصفتها قارة هرمة في طور التداعي والأفول، ولكن من دون شطبها نهائيًا عن قيد الحياة نظرًا لأهميتها الاقتصادية. كان لدى روسيا هواجس واضحة حيال الخطط الأوروبية بتحقيق قدر أكبر من التكامل، سواء عن طريق إنشاء جيش أوروبي أو وضع سياسة خارجية أوروبية، أو عن طريق الموافقة على سياسة طاقة مشتركة. أوروبا موحدة تعني أوروبا أقوى، وهو آخر شيء كانت تريده روسيا. أوروبا مقسمة تعني أوروبا أضعف وفرصًا عديدة متاحة أمام روسيا لتأليب بلد ضد بلد آخر.

جرت هنالك عدة محاولات من جانب الاتحاد الأوروبي لتقريب روسيا أكثر إلى أوروبا قبل أزمة العام 2014. كانت معظم الطموحات مستندة إلى مشروع سيلفيو بيرلوسكوني Silvio Berlusconi القطب الإعلامي والسياسي المالي البارز بجعل روسيا عضوًا كامل العضوية في الاتحاد الأوروبي. كان بيرلوسكوني الذي شغل منصب رئيس وزراء إيطاليا ثلاث مرات قد أنشأ علاقة شخصية وثيقة (حسب اعتقاده) مع بوتين، لكن مشكلاته المستمرة مع القانون في إيطاليا جعلت من المستحيل بالنسبة له تحقيق مشروعه. كانت المشاريع الأخرى الهادفة إلى تحقيق "سياسة الجوار الأوروبي " (ENP) والاقتصاد المشترك وغيرها من المبادرات أقل طموحًا. لكن روسيا لم تكن متحمسة لمشاريع من هذا النوع.

إضافة إلى ذلك، كانت روسيا عاكفة على إعداد وصقل العديد من أحصنة طروادة في صفوف الاتحاد الأوروبي. هذا يشير قبل كل شيء إلى هنغاريا التي جرى اعتماد سياسة مناوئة للديمقراطية فيها بمثابة سياسة رسمية جديدة تمثل عقيدة الدولة " واليونان، التي لا تعتبر من الناحية الإيديولوجية على علاقة وثيقة بروسيا، لكنها تلهث وراء أصدقاء ومتعاطفين معها في أزمتها الاقتصادية الخانقة وأزماتها الداخلية العويصة. وينطبق هذا الشيء بشكل خاص على بلغاريا، حيث نجحت حكومة بلامين أوريشارسكي Plamen Oresharski المكونة من ائتلاف أحزاب اليسار وأقصى اليمين السابقة الغارقة في الفساد المتمادي بكل المعايير في التشبث بالسلطة لعام ونيف 2013 - 2014. إن سعي الروس للبحث عن حلفاء هو سعي يستعصي على الفهم، وكذلك حقيقة عجزهم عن أن يكونوا انتقائيين في مسعاهم. لكن الإنجاز الذي يسجل لهم على الأقل هو خروجهم بمجموعة من القوى المقبولة بالحد الأدنى في مجمل أنحاء أوروبا.

كانت رحلة الانتقال من الصراع الطبقي إلى التضامنية، ومن المادية التاريخية إلى الفلسفة المثالية، ومن الإلحادية المتشددة إلى الكنيسة الأورثوذكسية، ومن الأممية البروليتارية إلى القومية والشوفينية، رحلة طويلة. لكن كما أظهرت روسيا، لم يكن الانتقال مستحيلاً بالتأكيد، حتى في غضون فترة قصيرة.

كان هنالك في وقت من الأوقات شيوعية دولية، وكان بوسع موسكو التعويل على تعاطف ودعم اليسار الراديكالي في أوروبا. لكن تلك الأيام مضت وانقضت، ربما للأبد، وإذا كانت روسيا تريد حلفاء لها في أوروبا، عليها أن تنظر في اتجاه مختلف. وبحسب قول سيرجي بابورين Sergey Baburin، نائب المتحدث باسم الدوما الروسي وأحد قادة أقصى اليمين، بإيجاز وصراحة، في مقابلة له مع سيرجي رايازانوف Sergy Ryazanov في صحيفة سفوبوديانا بعنوان "طابورنا الخامس في أوروبا": روسيا تمتلك حلفاء أقوياء غير ظاهرين في أوروبا - وهم تحديدًا قوى اليمين المتطرف. لقد تم استبدال الشعار القديم "يا عمال العالم اتحدوا" بشعار "يا قوميي كل البلدان اتحدوا". إنها وحدة مناوئة للأمريكيين، وحدة مناوئة للأوروبيين ووحدة مناوئة للناتو، ويمكن التعويل عليها في دعم روسيا بشتى السبل.

كانت هذه الفكرة قد خطرت على بال القادة الروس على مدى سنوات عديدة بعد أن كانت السياسة الروسية داخليًا وخارجيًا قد أصبحت يمينية وقومية أكثر فأكثر، على صعيد الممارسة الإيديولوجية والسياسية معًا. كان اليسار الأوروبي، سيما الشيوعيون والشيوعيون السابقون، بطيئين جدًا في إدراك هذا الأمر. بعضهم كان لا يزال ينظر إلى موسكو كحصن تقدمي للبشرية اشتراكي بتوجهاته. ليس من السهل تفسير أسباب حدوث ذلك. لعله كان تجاهلاً حقيقيًا للتغيرات في روسيا؛ فمثل هذا التردد والإحجام عن تقبل هذه التطورات قد يكون سيكولوجيًا، ومجرد تفكير مستند إلى الأحلام والتمنيات.

جرى دعوة قادة اليمين المتطرف الأوروبي إلى العاصمة الروسية قبل وقت لا بأس به من مقابلة بابورين. كانت الجبهة الوطنية الفرنسية قد حصلت على قرض روسي لتمويل حملتها. ومع تعاظم الدعم المقدم لهؤلاء السياسيين والإيديولوجيين (البعض منهم كان قريبًا تمامًا من الفاشية الجديدة) بنتيجة الكراهية والنفور المتزايد ضد بروكسل، اكتسب غلاة القوميين الأوروبيين أهمية سياسية. كان أنصار بوتين من الأوروبيين منجذبين لميوله الدينية وصورته كناقد لبعض السلوكيات الغربية المنحطة كالمثلية الجنسية والعداء البائن لأمريكا.

لا شك بأن هنالك أعداء مشتركين لروسيا ومتطرفي اليمين الأوروبي، ولكن إلى أي درجة يمتلكون قيمًا ومعتقدات مشتركة؟ قد يكون من السهولة بمكان استبعاد أن يكون هذا التحالف الناشئ الجديد مجرد زواج مصلحة محض. لقد انتقلت روسيا إلى اليمين، وبمعنى أدق، اليمين المتطرف جدًا. فإلى أي مدى ستذهب أبعد من ذلك، المستقبل وحده كفيل بإعطاء الجواب. لكن بما أن المدرسة المحافظة القديمة لم تعد جذابة جدًا (أو فاعلة) في العالم المعاصر، فهي بحاجة إلى قدر لا بأس به من الشعبوية التي يرجح لها أن تحقق لها تقاربًا كبيرًا مع الفاشية. هل بإمكانها أن تنجح على المدى الطويل من دون حزب أحادي حاكم، ومن دون قائد وعقيدة قيادية، ومن دون ماكينة دعائية مكثفة وقمع واسع النطاق؟ لو تتمكن فقط من إثبات نجاحها وشعبيتها واسعة النطاق. وهذا غير مؤكد بمجمله على المدى البعيد. إن تحالفًا بين روسيا واليمين الأوروبي لم يكن تحالفًا غير مسبوق بأي حال. كان جزءًا من السياسة الأوروبية على مدى قرن من الزمن - من مؤتمر فيينا 1814 - 1815 حتى الثورة الروسية. كانت الرابطة السوفييتية مع أقصى اليسار الأوروبي ذات عمر أقصر.

لطالما كانت روسيا تبحث عن أصدقاء وعملاء ذوي تأثير في أوروبا لهدف أساسي وهو تلميع صورتها هناك، هذه الصورة التي لم تكن بالشكل المرضي الذي تريده. في بداية القرن التاسع عشر، كانت الصورة التي يتم النظر إليها من موسكو صورة واعدة: كانت روسيا قد هزمت نابليون، والقوى المناوئة لنابليون، القوميين والوطنيين - سيما أولئك الذين هم من ألمانيا أمثال بارون فوم شتاين Baron von Stein؛ وكارل أوغست فون هاردنبيرغ Karl Augest؛ von Hardenbergوجوهان Johan Yorck؛ والكونت نايدهارت فون غنايسيناو Count Neidhardt von Gnisenau؛ وايرنست مورتيز آرندت Ernist Mortiz Arndt ، الذين كانوا قد اجتمعوا في روسيا أو تعاونوا مع الروس. ولكن حركة مضادة ظهرت بعد ذلك مباشرة. كانت روسيا ترمز للظلم والاضطهاد. وفي عدد من المؤتمرات كانت تنسق إجراءات الحظر على حرية التعبير. عملاء ذوو نفوذ وتأثير أمثال أوغست فون كوتزبيو August von Kortzebue وليوبولد فون جيرلاخ Leopold von Gerlach كانوا يفعلون فعلهم، لكن كوتزبيو تعرض للاغتيال، وبالنسبة للرأي العام، سيما الرأي الديمقراطي، كانت روسيا هي العدو بامتياز. كان نهج ألكسندر غورتشاكوف Alexander Gorchakov، وزير الخارجية الروسي، بشكل عام نهجًا مؤيدًا لألمانيا، معالما كان نهج بسمارك مؤيدًا لروسيا.

لكن الرأي العام كان معارضًا بقوة للقيصرية، وأصدقاء روسيا الوحيدون كانوا من اليمين. الأدميرال فون هينتزVon Hintze، أمين سر الإمبراطور الألماني وموضع ثقته، كتب في تقرير إلى ويلهلم الثاني Wihelm II قبل سنوات قليلة من اندلاع الحرب أنه كان هنالك اهتمام مشترك بالإبقاء على البولنديين واليهود. اتخذت هذه النزعة صفة علنية، سيما مع انتهاء القرن بالحلف الثلاثي المناوئ للألمان. كانت المهمة الأساسية للدبلوماسيين الروس وعملاء الشرطة السرية الروسية العاملة داخل البلاد وفي الخارج تتمثل بمحاولة خلق مناخ أكثر تعاطفًا قدر الإمكان تجاه روسيا.

نجحت روسيا في تجنيد عدد من العملاء الموهوبين أمثال أولغا نوفيكوف Olga Novikoff في لندن، والعديد من السيدات في باريس - البعض منهم كان يعمل عن قناعة، وآخرون بدافع المال. كانت الصحف والمجلات الفرنسية من اليوميات الرئيسية حتى الريفيو ديبلوماتيك Revue diplomatique والريفيو ديه دو موند Revue des deux Mond تتلقى إعانات أساسية. ألكسندر بينكندورف Alexander Benckendorf ، وهو دبلوماسي روسي في لندن، أرسل قائمة من الصحف التي كان له علاقة مع رؤساء تحريرها إلى وزارته. كانت قائمة لافتة للغاية، وقد حرصت الصحف لسبب أو لآخر على التقليل من أهمية ثورة 1905 والمذابح المنظمة إلى جانب وقائي أخرى غير سارة. الوضع اليوم هو وضع مشابه. الروس لا يحجمون عن شراء صحف الأندبندنت The Independent والإيفنينغ ستاندارد Evenning Standard في دندن وحسب، ولكن أيضًا عن شراء صحف في باريس. في ألمانيا، كان المحافظون منقسمين حول الموقف من روسيا. الصحيفة المحافظة المتزمتة كروزتانغ Kreuzzeitung كانت في جانب روسيا، ولكن بعد استقالة بسمارك، أصبحت الأصوات المطالبة بحرب وقائية أقوى. تردد بأن الوضع في الوقت الحالي ليس متباينًا، باستثناء أن الدعم المالي المقدم لا يقدم الآن من قبل السفارات أو العملاء السريين، بل من قبل الشركات والمكاتب التجارية.

روسيا والصين

تعد العلاقات الروسية - الصينية الآن من بين أهم جوانب الشؤون الخارجية الروسية، على المدى القصير والطويل كليهما. لقد شهدت هذه العلاقات تحسنًا كبيرًا على مدى الأعوام العشرين الماضية. معظم مصادر النزاع الحالي، كالنزاعات الحدودية، جرى إزالتها. مهما يكن من أمر، هنالك فجوة متباعدة بين الخطاب المتمادي حول الشراكة والوقائي المحدودة للتعاون. هنالك مصالح مشتركة، سيما على صعيد إمداد الطاقة مع روسيا كمورِّد للنفط والغاز، لكن نادرًا ما يتم تنسيق هذه المصالح بصورة مشتركة. لن يكون هذا في التقليد الروسي أو الصيني المتعلق بإدارة السياسة الخارجية التي تدار عن طريق الظن والشك أكثر منه عن طريق النوايا الحسنة والإرادة الطيبة. من منظورٍ أوسع نطاقًا، فإن الصين تحتاج إلى روسيا أقل مما تحتاج روسيا إلى الصين. لقد تغير ميزان القوى بين البلدين بصورة أساسية وسوف يستمر في التغير. قبل خمسين عامًا، لم يكن هناك شك حول من هو الأقوى منهما. اليوم بات عدد سكان الصين يفوق بعشرة أضعاف عدد سكان روسيا، ويرجح لهذه الزيادة أن تستمر بعد تخلي الصين عن سياسة إنجاب الولد الواحد. التفاوت في إجمالي الناتج المحلي آخذ بالإتساع أكثر فأكثر، والتغيرات تحدث بسرعة أكبر مما يظن معظم الناس. في عام 1993 كان اقتصاد البلدين متساويًا تقريبًا، أما اليوم فالاقتصاد الصيني يفوق نظيره الروسي بأربعة أضعاف.

قبل عشر سنوات كانت روسيا محط اهتمام الصين في مجال تقديم أنظمة سلاح تقليدي متقدم وقدر من التعاون المحدود في مجال منظومات الدفاع الصاروخي. أما اليوم فمعظم احتياجات الصين تنتج محليًا. ما برحت المخاوف الروسية من الصين تتزايد عسكريًا وقد تكون أحد أسباب تنامي صادراتها من السلاح إلى الهند بدرجة كبيرة، ولكن في ضوء التوترات الصينية - الهندية، فقد يتسبب ذلك بمشكلات سياسية.

بعد عشر سنوات من المفاوضات جرى التوصل إلى اتفاقية في أيار/مايو 2014 حول واردات النفط والغاز الروسية إلى الصين. شكل هذا خطوة هامة للبلدين كليهما، بالنسبة للصين بسبب احتياجاتها الضخمة والمتنامية بشكل دائم للطاقة. ولكن في ضوء النجاحات الأخيرة التي تحققت وتلك القادمة على هذا الصعيد، كإنتاج الغاز الحجري (الصين بوصفها تمتلك أكبر الاحتياطات في العالم)، لا ينبغي المبالغة بأهمية اتفاقية من هذا النوع. المفارقة العجيبة أنه مع اتساع نطاق التعاون وظهور مشاريع مشتركة جديدة (حقول نفط سخالين الثلاثة)، كلما تعاظم الوجود الصيني في الشرق الأقصى الروسي وسيبيريا، تعاظمت التعقيدات والملابسات السياسية. كل هذا في وقتٍ أصبح فيه السؤال حول ما إذا كانت روسيا ستكون قادرة على التمسك بأقاليمها في آسيا أكثر أهمية. مع انسحاب الولايات المتحدة من آسيا الوسطى ومكانة أوروبا الأخذة بالتراجع في الشؤون العالمية، فإن بوادر نزاعات محتملة بين روسيا والصين سوف تلوح في الأفق بشكل أقوى مما كانت عليه في الماضي، عندما كان التعاون بين روسيا والصين قويًا ومتجذرًا إلى درجة كبيرة في ضوء خطر غربي (أمريكي) مشترك. مع بداية انحسار هذا الخطر، بدأت قاعدة التعاون بالتقلص.

التركيز الرئيسي للسياسة الروسية في آسيا (خاصة فيما يتعلق بالصين) هو على العلاقات الاقتصادية - الصادرات الروسية إلى الصين واليابان وكوريا الجنوبية تصل إلى 150 مليار

دولار، وهنالك توقعات بازديادها. ولكن كي يحدث هذا، فإن روسيا بحاجة لاستثمارات أساسية لتعزيز بنيتها التحتية، سيما في مجال النقل. ستقدم الصين مساعدتها في هذا المجال، لكنها بصدد إبرام صفقة عسيرة على هذا الصعيد، كما هي حال المفاوضات حول سعر النفط والغاز في اتفاقية العام 2014، وهذا لن يتغير في المستقبل.

في عام 2014، أطلق المعلقون الصينيون مفاجئة حول تراجع الاهتمام الروسي بالاستثمارات الصينية في المشاريع الاقتصادية في المناطق الحدودية. وبينما كانوا الصينيون يظهرون قدرًا ضئيلًا من الاهتمام بالاستثمار في مشاريع مركزية كبرى في روسيا، فقد كانوا راغبين بالاستثمار في المناطق الحدودية الآسيوية، لكنهم كانوا يواجهون دائمًا بمصاعب وممانعة من جانب البيرقراطية الروسية - هذا بالرغم من حقيقة أن مثل هذا الاستثمار الصيني كان مطلوبًا. بالنسبة للصينيين، لم يكن هذا الامر ذا أهمية بالغة، لكنهم بدوا منزعجين من الممانعة الروسية.

دخلت اتفاقية منظمة تعاون شنغهاي (SCO) حيز التنفيذ منذ التسعينات، وتشمل روسيا والصين والعديد من البلدان الأخرى وتقدم إطار عمل للتعاون في شتى المجالات. أعقب ذلك اجتماعات سنوية والعديد من إجراءات بناء الثقة. بالتالي، فقد جرى وضع آلية أكثر ديمومة في عام 2001 كان الهدف منها التعامل بشكل رئيسي مع المشكلات الأمنية (بما فيها مناورات مواجهة الإرهاب). قدمت الحماية لجمهوريات آسيا الوسطى في وجه "الثورات الملونة" كتلك التي اندلعت في أوكرانيا أو الاحتجاجات ضد الحكومات المحلية كتلك التي حصلت في ساحة تيانامين Tiananmen Square. من ناحية أخرى، لم توضع اتفاقية منظمة تعاون شنغهاي قيد الاختبار. كان هنالك الكثير من اللغط حول شراكة استراتيجية شاملة، لكن اللغط كان أكثر من الفعل بكثير. هنالك مصالح مشتركة بين روسيا والصين في آسيا الوسطى - على سبيل المثال احتمال بروز خطر إرهابي. ولكن في الوقت الذي يتحرك فيه البلدان بحذر، فهما يبقيان ندين متنافسين في هذه المنطقة على الصعيدين الاقتصادي والسياسي.

لا يبدو بأن الصينيين لديهم رغبة بالتورط بشكلٍ مباشر في مسألة التعامل مع الإرهابيين في آسيا تحت إشرافي روسي. لكن الوضع في المستقبل يبدو أكثر تعقيدًا بقليل. إذا كان الروس يعتقدون حقًا بأن العلاقة بين القوتين لن تتأثر بحقيقة أن سكان إحداهما يفوق بعشرة أضعاف سكان البلد الآخر والتفاوت الكبير على صعيد إجمالي الناتج المحلي والناتج الصناعي لا يقل أهمية، فسيكونان أمام مفاجئة. إحدى الشكاوى الروسية الأساسية بشأن أوروبا والولايات المتحدة خلال السنوات التي أعقبت تفكك الاتحاد السوفييتي كانت تتعلق بأنه لا يجري التعاون معهما على قدم المساواة. سوف يكون مذهلًا ملاحظة مقدار المساواة التي يحتمل أن تتشكل في المستقبل بين بلدين غير متساويين في معظم الجوانب، كروسيا والصين.

لقد أصبحت العلاقة بين الصين وروسيا أشبه بالعلاقة بين أخ أكبر وأخ أصغر. في أثناء مؤتمر دولي أخير، أشار أحد الباحثين الآسيويين إلى روسيا بوصفها أكثر القوى حداثة، وإنما أيضًا كثرها ضعفًا في القارة. وغني عن القول إن روسيا تريد أن تكون شريكًا أكثر منه أخًا، ناهيك أخًا أصغر. هنا يبرز السؤال حول ما إذا كان بمقدورها التملص من هذا النوع من العلاقة. ربما لن تستطيع ذلك، طالما أن الولايات المتحدة لا تزال في نظر الكرملين خطرًا رئيسيًا. إنه الثمن الذي سيتوجب على موسكو أن تدفعه بصرف النظر عن توجهاتها السياسية أو السيكولوجية الجديدة.

الخارج القريب

تعد علاقات روسيا مع الجمهوريات التي انفصلت بعد تفكك وانهيار الاتحاد السوفييتي قضية جرى تداولها على نطاق واسع في الإعلام ولا حاجة لمناقشتها بكثير من التفصيل. الاعتقاد السائد لدى منظري الإيديولوجيا القوميين الروس بأن بلادهم لا تستطيع البقاء إلا كقوة أو إمبراطورية عظمى هو اعتقاد متأصل بعمق ويعود إلى أزمنة بعيدة. فبالنسبة للعديد من الروس، فإن العديد من المناطق التي تم خسارتها (كأوكرانيا مثلًا) لا تزال في نظرهم جزءًا حقيقيًا من الأرض الروسية.

الإمبراطورية الروسية لم توجد منذ آلاف السنين، بخلاف ما يعتقده كثير من الروس. العديد من الأقاليم جرى اكتسابها في عهود متأخرة نسبيًا. جرى ضم القرم إلى روسيا في عهد الإمبراطورة كاترين العظمى عام 1783، وجورجيا عام 1813 وآذربيجان عام 1813 أيضًا. أما فتح القوقاز الشمالي فقد استغرق وقتًا أطول؛ فقد وجد السكان الأصليون في شامل Shamil أحد أسياد حرب عصابات الموهوبين واستمر القتال لحوالي عقدين من الزمن.

تعاقب على حكم مولدوفا أكثر من جهة، وجرى تقسيمها مرات عديدة، ولم تصبح جزءًا من روسيا حتى القرن التاسع عشر. غالبية أولئك الذين يعيشون في بلدان البلطيق كانوا من الناطقين بالألمانية على مدى قرون. لتوانيا ولاتفيا وأستونيا عرفت الاستقلال لفترة قصيرة فقط امتدت ما بين الحربين العالميتين. اليوم، يعيش مئات الآلاف من الروس الإثنيين هناك لكنهم (أو آباءهم أو أجدادهم) كانوا قد وصلوا إلى هناك في عهد الحكم السوفييتي بعد الحرب العالمية الثانية. كانت سيبيريا قد اكتشفت منذ بداية القرن السادس عشر، لكنها لم تصبح مأهولة حتى القرن التاسع عشر. تأسست فلاديفوستوك على يد أحد الضباط ومعه ثمانية وعشرون بحارًا في ستينات القرن التاسع عشر. حتى في تلك الأيام، فإن نصف سكانها لم يكونوا من الروس. نوفوسيبيرسك Novosibirsk، أكبر مدن شرق الأورال لا يتجاوز عمرها المئة عام؛ إيركوتيسك Irkutsik، التي تأتي في المرتبة التالية، تأسست في وقت أبكر، في القرن الثامن عشر.

أصبحت آسيا الوسطى جزءًا من روسيا في القرنين الثامن والتاسع عشر. بدأ المستوطنون الروس بالتوافد حوالي هذا الوقت تقريبًا، ولكن بشكل رئيسي إلى كازاخستان الشمالية والمدن الكبرى. أطلق على أبطال الفتح الروسي أسماء فون كوفمان Von Kaufman، وجورج ستيلر George Steller، وبريفالسكي Przewalski ، ومارتنز Martens، ومانرهاين Mannerherin - ما يظهر بأنهم لم يكونوا متحدرين من سلالة الروريك. كانت رسالتهم إلى عامة الروس بأن سكان تركستان Turkestan المحليين (كما كانت تسمى آنذاك) كانوا يتوقون لأن يصبحوا جزءًا من روسيا، لكن هذه الرسالة لم تحظ بموافقة الجميع. يقول ألكسندر بلوك Alexander Blok في قصيدة شهيرة ده عن السيزيين Scythians - أبناء سيزيا Scythia وهي منطقة قديمة من أوراسيا تمتد بين منبع نهر الدانوب على البحر الأسود حتى الأرض الواقعة شرق بحر آرال:

أنتم ملايين، ولكن نحن حشود، حشود، حشود.

مهما يكن من أمر، حتى لو كانت حديثة العهد، كان الروس بحلول القرن التاسع عشر قد أصبحوا إمبراطورية، وكانت خسارتها أواخر القرن العشرين بمثابة ضربة مؤلمة. كان ينبغي أن

يكون واضحًا بأن محاولات سوف تبذل لاستعادة ما أمكن من مجد الماضي إذا ما سنحت الفرصة. كثيرون تساءلوا، مع ذلك، إذا كانت المملكة المتحدة وفرنسا قد قبلتا بخسارة الإمبراطورية، فلماذا لم تقبل روسيا بذلك؟ ربما بسبب قناعة روسيا بعدم قدرتها على البقاء والاستمرار إلا كقوة عظمى.

مع تعافي الاقتصاد الروسي في أعقاب القفزة الكبيرة في أسعار النفط والغاز، حصل الغزو الروسي لأوكرانيا عام 2008، وجرى استعادة القرم وشرق أوكرانيا، وبذلت محاولات لإعادة أخذ زمام المبادرة في اتجاهات أخرى.

من جانبها، أبدت جمهوريات آسيا الوسطى رغبة في تأسيس علاقات طبيعية، بل حتى وثيقة، مع روسيا - شرط ألا تتدخل موسكو في شؤونها الداخلية إلا بطلب من هذه الجمهوريات. ومثل هذا الاتفاق قد يناسب موسكو: فهي بلدان فقيرة، وباستثناء كازاخستان، ليس لديها أي آفاق أو توقعات بحصول تحسن أساسي في المستقبل المنظور. قد يفضي الحكم المباشر لهذه الجمهوريات من قبل موسكو إلى نشوب نزاع مع الصين واستثارة مقاومة داخلية، والأهم إلزام روسيا بالقيام باستثمارات كبيرة في هذه المناطق من دون أي أمل بتحقيق عائد سريع.

كانت المملكة المتحدة وفرنسا قد أدركتا في القرن العشرين أن امتلاك إمبراطورية من وجهة نظر اقتصادية لا ينطوي على أي قدر يذكر من المنافع، مقابل ثمن باهظ جذا سيتوجب دفعه. كان للاتحاد السوفييتي تجربة مشابهة في السبعينات والثمانينات. كانت هنالك شكاوى كثيرة حتى في عهد بريجنيف من أن جمهوريات آسيا الوسطى لم تكن تعوّل على قدراتها الذاتية في البقاء والاستمرار، بل كانت على الدوام بحاجة إلى مساعدات مالية. كان على روسيا الجديدة أن تدفع ثمنًا باهظًا للشيشان وداغستان، ومنذ اللحظة التي تمت فيها استعادة القرم، برزت هنالك مطالب ملحة لدعم مالي فوري. باختصار، لم تعد الإمبراطوريات صفقة مغرية.

ما الذي سيجبر الكرملين على انتهاج سياسة توسعية في وقت يواجه فيه مشكلات جدية في الداخل؟ تكوّن انطباع لدى المراقبين الخارجيين بأن القيادة الروسية لم تكن مدركة (أو على الأقل غير مدركة بشكل كامل) لخطر خسارة سيبيريا والشرق الأقصى الروسي في ضوء القضايا الديمغرافية والتفاوت في القوة الاقتصادية بين الصين وروسيا في هذه المناطق. لكن مثل هذا الانطباع كان خاطئًا. فالروس كانوا مدركين تمامًا لهذا الخطر.

بالرجوع إلى العام 2001، كان ألكسي كودرين، وزير المالية الروسي، قد تحدث بصراحة عن الحاجة إلى جهود روسية ملحة وضخمة لتحسين الوضع في هذه المناطق. من دون مثل هذه الجهود، فإن الصين وغيرها من البلدان الآسيوية سوف تجتاح سيبيريا والشرق الأقصى الروسي. عندما كان ديمتري مدفيديف في سدة الرئاسة، أعلن في خطاب له في كامتشاتكا أنه ما لم تحقق روسيا تقدمًا مهمًا على صعيد تطوير الاقتصاد في الشرق الأقصى، فسوف يتحول إلى قاعدة للمواد الأولية للبلدان الآسيوية الأكثر تطورًا، وإذا لم يصر إلى تسريع الجهود وتكثيفها، فسوف تخسر روسيا كل شيء. بيانات وتصريحات مشابهة جرى إطلاقها من قبل زعماء روس آخرين، وبوتين وعد أيضًا بتقديم مساعدة ملحة للغاية. لكن شيئًا من هذا لم يحصل: هجرة الصينيين، الشرعية وغير الشرعية، بقيت مستمرة؛ قد تكون السلطات الروسية قد تبينت، ولأسباب سياسية،

أن من المستحيل اتخاذ إجراءات حاسمة على هذا الصعيد. أصبحت سيبيريا والشرق الأقصى الروسي أكثر اعتمادًا بشكل متزايد على الخدمات والواردات والبضائع واليد العاملة الصينية.

شيء ما أشبه بحركة انفصالية سيبيرية ظهر إلى حيز الوجود، وجرى تقديم تنازلين اثنين من قبل الكرملين. تمثل التنازل الأول بالسماح لسكان سيبيريا بذكر عبارة "سيبيري " بدلاً من "روسي " للدلالة على جنسيتهم في جوازات سفرهم الداخلية. أما التنازل الثاني فتمثل بتعيين بوتين للجنرال نيقولاي روغوزخين Nikolai Rogozkhin في أيار/مايو 2014 كموفده المفوض في سيبيريا. لسوء الحظ، وعلى الرغم من ولاء روغوزخين وموهبته، فهو متخصص في مجال الأمن الداخلي وليس التنمية الاقتصادية، كما أنه يفتقر إلى الخبرة والموارد المالية التي تؤهله للتعامل مع مسألة التنمية. وبما أن بوتين كان منشغلاً بنتائج أزمة أوكرانيا/القرم، لم يرجح لهذا التعيين الجديد أن يحل مشكلات روسيا في آسيا. بعد مضي ثلاثة أشهر، اعتبرت لقاءات أجريت مع مواطنين أن الانفصاليين السيبيريين كانوا ممنوعين من التحرك وحرية التعبير، بالرغم من أن مطالبهم كانت معتدلة تمامًا.

قام أناتولي أنتونوف Anatoly Antonov ، وهو ديمغرافي قومي في جامعة موسكو الحكومية، بنشر عدد من التقارير في الشهر ذاته الذي عين فيه بوتين ممثله الجديد للشؤون السيبيرية. بحسب أنتونوف، فإن عدد سكان روسيا سينخفض إلى النصف في غضون الأعوام الخمسين القادمة. بتطبيق هذا المعدل من الانخفاض على سيبيريا والشرق الأقصى الروسي، سيعني هذا انخفاض عدد السكان من أربعين مليونًا إلى عشرين مليون شخص. في ضوء مثل هذا التخمين، هل سيكون في وسع روسيا الاحتفاظ بكل تلك الأقاليم الشاسعة الواقعة بين الأورال وساخالين؟ وصل المهاجرون من آسيا الوسطى إلى روسيا بأعداد كبيرة بعد 1990، لكنهم لم يكونوا موضع ترحيب كبير من قبل السكان المحليين وبعد العام 2010 عاد العديد منهم إلى المكان الذي كانوا قد قدموا منه.

وضع متناقض ظاهريًا، ومن وجهة النظر الروسية فقد يكون وضعًا غير متوقع مرشحًا للظهور. مع الخروج الأمريكي من أفغانستان، وبدرجة كبيرة من البلدان الشرق أوسطية، وجدت روسيا نفسها في منافسة مع الصين. يحبذ الكرملين تحاشي وضع من هذا النوع، ولكن من الصعب تبين كيفية تحقيق ذلك. هاجس الخوف والريبة حيال أمريكا والعداء ضد الغرب شكلا جزءًا لا يتجزأ ليس فقط من هواجس القوى الأمنية الروسية، وإنما السكان عمومًا. في أعقاب فترة من الهدوء على صعيد نشاطات البروباغاندا المناوئة للغرب في التسعينات، أصبحت هذه البروباغاندا في غاية القوة في العقد التالي. إن عودة أمريكية أو غربية إلى آسيا الوسطى أو الشرق الأقصى هي أمر مستبعد تمامًا. هذا يعني أن أي محاولة من جانب روسيا لتعزيز موقفها في أي مكان من آسيا، ستقابل بمواجهة حتمية مع الصين، وليس الغرب. في ضوء هذه الظروف، فإن أي محاولة لتبني نهج قوي مناوئ للغرب سينظر إليه على أنه عمل يائس متهور. لتجنب تخليها عن أحلامها الأوراسية، قد تجد روسيا نفسها مرغمة على تقبل وضعها الجديد المتصاغر كـ "أخ أصغر" تابع لبيجين.

إذا كانت روسيا مستعدة للتصرف وفق ما تتوقعه بيجين، بكونها موردًا موثوقًا للنفط والغاز وغيره من المواد الأولية بأسعار معقولة، فقد تحجم الصين عن التمادي في تدخلها المباشر في ما

يعرف الآن بـ"روسيا في آسيا". الميزان الديمغرافي هو بدرجة كبيرة لصالح الصين، لكن أحدًا لا يرغب حقيقة في الاستقرار في سيبيريا.

ما الذي بوسع أية حكومة فعله لدفع مثل هذا التوجه في الاتجاه المعاكس؟ إذا ما توجب على الروس الإثنيين الذي يعيشون حاليًا خارج روسيا العودة إلى ما يعتبره كثيرون وطنهم الأم، فهذا سيسهم بالتأكيد في إبطاء العملية، لكنه لن يؤثر على الوضع في آسيا. يمكن لسياسة بوتين المتمثلة باستيعاب غير الروس، سيما من جمهوريات آسيا الوسطى، ودمجهم في المجتمع الروسي، أن يشكل خطوة أخرى في هذا المجال. لكن هذا مبني على افتراض أن هنالك استعدادًا من جانبهم لمثل هذا الاندماج والتكامل. يعتقد أنتونوف أن الحكومة التي هي في السلطة سوف تعمد في غضون العشر أو الخمس عشرة سنة القادمة، في ضوء إدراكها إلى أن مصير الدولة يعتمد على الديمغرافيا، إلى تعزيز صورة العائلات الأكبر حجمًا. وهذا قد يتضمن رفع رواتب الرجال إلى مستوى يمكنهم من دعم مثل هذه العائلات في مساكن مريحة لائقة. كما أنه سيتضمن أيضًا زيادة مقدارها عشرة أضعاف على صعيد دعم الرعاية الصحية وكذلك الحوافز العائلية والوصول بها إلى مستويات أوروبية. من المؤكد بأية حال أن تمويل سياسة من هذا النوع سيكون متوفرًا. أخيرًا، لم تثبت التجربة التاريخية بأن رفع مستويات المعيشة يؤدي إلى زيادة في معدل الولادات.

لا يبدو بأن النقاشات حول المشكلات الديمغرافية تعود إلى تحليل السياسة الخارجية، لكن يبدو من المحتمل أن اعتبارات من هذا النوع سيكون لها تأثير مباشر وحاسم على السياسة الروسية تجاه الخارج القريب.

النفط الروسي

يعد قطاع الطاقة عنصرًا أساسيًا في مجال السياسة الداخلية والخارجية الروسية. إنه أيضًا الجانب الأشهر والأكثر تحليلاً وتوثيقًا من جوانب الشؤون الروسية؛ لهذا السبب، ليست هناك حاجة لمناقشته بقدرٍ كبير من التفصيل. لقد ارتفعت مساهمات صادرات النفط والغاز خلال المئة عام الأخيرة من سبعة بالمئة إلى حوالي خمسين بالمئة. إن مصطلح "الدولة النفطية " الذي ما برح يطلق على روسيا المعاصرة ليس من دون سبب، لأن المحاولات الهادفة إلى تنويع الاقتصاد الروسي لم تكن ناجحة حتى الآن، ولا يرجّح لها أن تنجح في المستقبل القريب. إنه سلاح روسيا الأساسي الوحيد في مجال السياسة الخارجية. إن الدعم الشعبي الذي تحظى به الحكومة، والاستقرار الذي تشهده البلاد، ورفاهية السكان، ومخصصات الدفاع، والعديد من القضايا الأخرى تعتمد على تصدير (وعلى سعر) النفط والغاز.

كيف سنتمكن إذاً والحال هكذا من تفسير أن صادرات النفط والغاز لم تمنع تفكك الاتحاد السوفييتي؟ هذا يعود إلى حد كبير لأن الطلب العالمي على النفط والغاز كان أقل حينها، وسعر النفط كان أكثر انخفاضًا بكثير. إذا كان الاقتصاد الروسي قد تضاعف على صعيد الحجم بين عامي 2000 و2008، فهذا يعود إلى صادرات النفط وسعر النفط والغاز. وإذا كانت هنالك انتكاسة عام 2008، فالسبب هو تراجع الطلب على النفط والغاز. في الوقت نفسه، شكلت صادرات النفط والغاز سلاحًا سياسيًا مهمًا. وإذا كان على بيلاروسيا أن تدفع جزءًا يسيرًا فقط من الثمن الذي دفعته أوكرانيا، فالسبب لم يكن اقتصاديًا. في السبعينات كان على البلدان التي تدور في

فلك روسيا في أوروبا الشرقية أن تدفع أقل بكثير من البلدان التي لم تكن تنتمي لمجلس المساعدات الاقتصادية المشتركة. كان الاتحاد السوفييتي محظوظًا لكونه قادرًا على إنتاج نفط رخيص نسبيًا، ولكن بمرور الوقت، بات الإنتاج أعلى كلفة، وارتفعت الأسعار للمستهلكين الأجانب، وحتى الحلفاء السياسيين، ما تسبب بموجة عارمة من الاستياء والسخط في الخارج. المشكلة السياسية المركزية كانت تتمثل باعتماد أوروبا على النفط والغاز الروسي: كانت روسيا تصدِّر حوالي ثلث احتياجات أوروبا من هاتين المادتين.

لا ينصب اهتمامنا في السياق الحالي على تاريخ شركة غازبروم، إحدى أقوى الشركات الدولية، أو على سياسة التجاذب المتعلقة بخطوط الأنابيب المختلفة، أو على العديد من التطورات اللافتة الأخرى في هذا المجال والتي حصلت في العقود الأخيرة. يقتصر اهتمامنا على الأصداء والتداعيات السياسية المحتملة لصادرات النفط والغاز من روسيا. لسوء الحظ، لا يمكن التكهن بالمستجدات على صعيد قطاع الطاقة إلى حدٍ كبير، على الرغم من أنها ستتسم بأهمية كبيرة لفترة طويلة قادمة بالنسبة للمنتجين والمستهلكين على حدٍ سواء.

لم يكن الاتحاد الأوروبي قادرًا على الموافقة على سياسة مشتركة للطاقة. وبوجود قوى متنابذة داخل الاتحاد قامت بلم شملها واستجماع قواها، من غير المرجح لهذا الوضع أن يتغير قريبًا. هنالك بالطبع حدود للضغط الذي تستطيع روسيا من خلاله التهديد به أو تطبيقه - إذا ما ارتفعت أسعار الصادرات أعلى من حب معين، فسوف يتحول المستهلكون إلى اتجاهات عديدة بديلة. علاوة على ذلك، سيكون لدى روسيا اهتمام مؤكد بالازدهار والرخاء الأوروبي، لأن أ ي انتكاسة مفاجئة تحل بالاقتصاد الأوروبي سوف تعني تراجعًا في طلب أوروبا على النفط والغاز.

كيف تنظر روسيا إلى آفاقها المستقبلية؟ لطالما كدت السلطات الروسية بأنها على استعداد لتأسيس علاقات تجارية مع كافة البلدان، وأن اهتمامها الرئيسي ينصب على الحفاظ على الاستقرار، كذلك كدت على أن الاعتبارات السياسية لا ينبغي أن تتدخل بهذه المصالح والاهتمامات الاقتصادية الأساسية. وهذا موقف عقلاني تمامًا، ولكن الاعتبارات السياسية قد طغت في الحقيقة على القضايا الاقتصادية. هل سيتغير هذا في المستقبل؟

بحسب تقرير منتدى الطاقة الدولي International Energy Forum عام 2014، فإن الصادرات الروسية تتوقع طلبًا متزايدًا من قبل منطقة آسيا والباسفيك. وهم يتوقعون أيضًا وضعًا متوترًا بنتيجة سياسات التدخل بصادرات النفط والغاز. التأثير الكبير لصادرات النفط الحجري والغاز الحجري قد حول الولايات المتحدة من مستورد إلى مصدر للطاقة. وبحسب خبراء روس، فإن الوقود غير التقليدي سيكون له أيضًا تأثير بالغ الأهمية خارج أمريكا في غضون السنوات العشر القادمة، بالرغم من أن أحدًا لا يستطيع التنبؤ بالحجم الذي سيكون عليه هذا التأثير، وكيف سيؤثر على الأسعار وعلى اعتماد أوروبا على الصادرات الروسية، أو فيما إذا كان سيفضي إلى استخدام أكبر لمصادر الطاقة المتجددة أو غيرها من الاحتمالات.

هنالك مشكلات روسية معينة تتمثل بإحجام الشركات الدولية - لأسباب سياسية واقتصادية - عن القيام بالاستثمارات الضخمة التي تحتاجها صناعة النفط الروسية بشكلٍ ملح. علاوة على ذلك،

هنالك اعتقاد متزايد بأن مؤشرات تصدير الغاز الطبيعي من روسيا باتت مؤشرات واعدة أكثر من مؤشرات النفط.

قد يكون التراجع الدراماتيكي في أسعار النفط عام 2014 (وبالتزامن مع هبوط قيمة الروبل) تراجعًا مؤقتًا، لكنه يشير إلى نقطة ضعفٍ كبيرة في بنية الاقتصاد الروسي والى العواقب السياسية لهذا التراجع. وصل سعر برميل النفط إلى حدود 150 دولارًا في مرحلة ما عام 2008. وعند كتابة هذه السطور كان بحدود 52 دولارًا.

حالف بوتين الحظ لأنه قدم إلى السلطة في زمن ارتفاع الطلب وارتفاع أسعار النفط والغاز، خاصة بعد العام 2004. لقد دفعه إدراك الأهمية الكبرى لصادرات النفط والغاز في بقاء النظام إلى إعادة تأميم الصناعة. هذا أيضًا لا يرجح له أن يتغير. حتى أكثر الخبراء جرأة لا يتوقع لهم أن يتخطوا بتنبؤاتهم وتوقعاتهم هذه الحدود الجلية الواضحة.

الفصل التاسع

مصادر النزاعات المستقبلية

إلى أين أنت ماضية لها روسيا؟

جرى طرح هذا السؤال عدة مرات. اليوم، كما ذي قبل، يتوجب على نقاش من هذا النوع أن يتخذ من مشهد نيقولاي غوغول الشهير في روايته العظيمة "الأرواح الميتة " حول الترويكا (عربة روسية يجرها ثلاثة جياد متراصة) المتسارعة عند نقطة انطلاقها:

وأنت، يا حبيبتي روسيا - ألست أيضًا تنطلقين مسرعة أشبه بترويكا لا يمكن لأحد أن يتجاوزها؟ ألا ينفث الطريق أسفل عجلاتك دخانًا وتقرقع الجسور حالما تعبرين فوقها وتهدرين كالرعد، مخلِّفة كل شيء في الوراء، والمشاهدين المأخوذين بهذه المعجزة، يتنحون جانبًا ليتساءلوا عما إذا كنت صاعقة مرسلة من السماء؟ ما الذي ينبئنا عنه تقدمك المذهل ذاك؟ ما هي تلك القوة الخفية الكامنة في أعماق جيادك المطهّمة الغامضة؟

إنها افتتاحية رائعة لرواية عظيمة، الترويكا الرشيقة كالعصفور والتقدم المذهل. ولكنه كوصف لروسيا المعاصرة، لعله ينطوي على قدر من المبالغة.

هل الأوليغاركيون والسلوفيك يتجاوزون العالم أجمع حقًا؟ هل ترغم الترويكا الخاصة بنا كافة الأمم وكافة الإمبراطوريات على التنحي جانبًا؟ والأهم، إلى أين أنت ماضية، يا حبيبتي روسيا؟ ولكن لا جواب بعد.

لا ينبغي لأحد أن يبالغ في سرعة الترويكا الخاصة بنا. فالمحاولات الماضية للتنبؤ بالتوجهات المستقبلية في روسيا أشارت إلى المصاعب والعراقيل التي تقف في وجه مثل هذه المساعي. لنطلع على إحدى الدراسات المنشورة عام 1995، التي أجريت عندما كان غورباتشيف في السلطة وكان الاتحاد السوفييتي لا يزال قائمًا. Soviet Union2000: Reform or Revolution? (Edited by Walter Laqueur, New York, 1990)

خمنت الدراسة آفاق التغيير السياسي كما يلي:

لطالما كان نمط السياسة الروسية على مدى قرون نمطًا استبداديًا وهكذا كانت والى درجة كبيرة عقلية الحكام والمحكومين على حد سواء. يمكن لهذا أن يتغير، ولكن فقط بنتيجة ثورة ثقافية تطال شرائح واسعة من الناس. لقد حصلت مثل هذه الثورات من قبل، لكن نتائجها كانت دائمًا تستغرق وقتًا طويلاً لتظهر وتتكشف. من السهولة بمكان استبدال طاقم من الحكام بآخر. والأكثر صعوبة بكثير أن تُستأصل عقلية اللاحرية، وأن تغرس في النفوس روح المسؤولية المدنية، وروح المبادرة، وروح التسامح والاستعداد للمهادنة. لم تكن هذه السجايا تحتل مراتب متقدمة قط على جداول الأعمال السياسية القيصرية والبلشفية. إن مرحلة الانتقال من نظام استبدادي إلى آخر ديمقراطي، حتى ولو ديمقراطية موجهة، هي مرحلة تكتنفها توترات هائلة ومصاعب جسام.

لقد رجحت الدراسة أيضًا احتمال دوام الحكم الاستبدادي واستبعاد نشوء نظام ديمقراطي في روسيا والمحافظة عليه:

لن تتمخض الرغبة في التغيير عن اعتماد أفكار وقيم ليبرالية غربية. لم تكن الليبرالية يومًا متأصلة بعمق في التاريخ الروسي، فقد كان تأثيرها بصورة عامة مقتصرًا على شرائح معينة من النخبة المثقفة، وحتى بين هؤلاء، كانت القلة القليلة فقط تعتمدها. الاعتقاد السائد اليوم هو أن ليبرالية النمط الغربي قد تناسب تمامًا المجتمع الليبرالي الغربي، سيما للبلدان الأصغر التي لا تكون النزاعات الاجتماعية والقومية فيها متفشية بلا حسيب ولا رقيب. لكن في مجتمع كالاتحاد السوفييتي

الذي يفتقر إلى هذا الأمر، فإن مثل هذا التغيير المؤسساتي سيكون بمثابة كارثة. لم تصل البلاد بعد إلى هذه الدرجة من النضوج المطلوب، ولا يرجح لها أن تصل في المستقبل المنظور.

يعكف بعض المفكرين الروّاد على التبشير بفضائل ومزايا تسامح أعظم، وحرية تعبير أكبر وفطرة سليمة بدل العصبية العقائدية في السياسة، وهم ينظرون بعينالحسد للثقافة السياسية الأرفع في بعض البلدان الأوروبية. حتى أعظم المتفائلين بينهم يشعر بالحاجة إلى يدٍ قوية للتحكم بالإصلاح على مدى وقتٍ طويل. إنهم يشيرون إلى حقيقة أن كل إصلاح في التاريخ الروسي، من استيراد البطاطس فصاعدًا، جرى تقديمه تراتبيًا من الأعلى، في مواجهة قدرٍ كبير من الممانعة.

قبل خمسة وعشرين عامًا كانت هذه التقديرات تبدو وكأنها وصف دقيق تمامًا للبوتينية، بنمطها "العمودي " المتعلق بسياسة القيادة. الشيء الذي لم يكن متوقعًا حينها كان تفسخ وتفض الاتحاد السوفييتي والمحاولات اللاحقة لترميمه واستعادته، والظروف الفوضوية لحقبة يلتسن، والى أي مدى ستذهب ردود الفعل ضد هذا الشيء - ظهور الأوليغاركيين والسيلوفيك. كذلك لم يكن النفوذ المتنامي للكنيسة الأورثوذكسية موضع ترحيب كامل. تظهر تجربة دراسة "روسيا في العام 2000. أنه كان من السهولة بمكان التنبؤ بالتوجهات طويلة الأمد أكثر منه بالأحداث القصيرة الأمد.

دراسة ثانية منشورة من قبل مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية (CSIS) كان لها شرف الظهور بعد سبع سنوات من حكم بوتين، عندما هدأت البلاد واتضحت ملامح موازين القوى الداخلية. وفي حين أن دراسة العام 1990، لم تحاول تحقيق إجماع بين من أسهموا في إعدادها، بل اكتفت بتقديم الآراء الشخصية، فإن دراسة مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية سلكت النهج ذاته بطموح كبر، لتدرك بأنه كانت هنالك تباينات واسعة في الرأي ولم يكن بالإمكان التوصل إلى إجماع.

قدمت سيناريوهات متنوعة لفترة عشر سنوات (2007 - 2017) والكثير منها كانت صحيحة. لكنها قللت من درجة تشدد السياسة الداخلية والخارجية وتأثير الإيديولوجيات المختلفة لأقصى اليمين على سياسة النظام، ورفعت من شأن بعض التوجهات، بما فيها المستوى الرفيع من الثقافة للسكان " كان هذا صحيحًا في الماضي، لكنه تراجع في ضوء تخفيض مخصصات الثقافة من قبل الحكومة. كان تنويع الاقتصاد مبالغًا فيه. كافة المتحدثين الرواد اتفقوا على ضرورة العمل لتحقيق هذا الهدف، لكن القليل فقط تم تحقيقه على هذا الصعيد.

سكولكوفو، التي كانت ستصبح مركز الإبداع والابتكار، تورطت في مشكلات ومتاعب جدية في وقت مبكر بنتيجة المشاحنات بين مختلف البيروقراطيات، وكانت هنالك تهم بالفساد. شكل ذلك أحد أسباب سقوط فلاديزلاف سوركوف، رئيس أركان بوتين لفترة طويلة من الزمن.

صرحت دراسة مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية بما يلي: " ليس فقط من الممكن، بل من المرجح، أن روسيا ستكون الاقتصاد الأكبر في أوروبا بحلول العام 2017". بالنظر إلى هذا التصريح من منظور العام 2014 يبدو أن هذا غير مرجح " حاليًا، يأتي إجمالي الناتج المحلي الروسي في ذيل القائمة، ليس بعد ألمانيا، وإنما بعد إجمالي الناتج المحلي لفرنسا والمملكة المتحدة، وحتى إيطاليا. هذا يمكن أن يتغير، ولكن ليس في المستقبل القريب.

الهوية الروسية

ينبغي لأي نقاش حول مستقبل روسيا أن يبدأ بمعطياتها وتنبؤاتها الديمغرافية. إن تاريخ مثل هذه المعطيات والتنبؤات هو تاريخ زاخر بالأخطاء. كان الاعتقاد السائد عمومًا على مدى العقود الثلاثة التي أعقبت الحرب الفرنسية - البروسية في عام 1870 - 1871، التي خسرتها فرنسا أمام ألمانيا، بأن فرنسا ستفنى وتنقرض. تنبؤات مشابهة سرت وانتشرت خلال عشرينات القرن الماضي، على الرغم من أن فرنسا كانت من بين الدول التي خرجت منتصرة في الحرب العالمية الأولى، لكن شلالات الدم التي تدفقت كانت من الهول والغزارة بحيث إن مثل هذه النبوءة بدت أمرًا محتمًا. في عام 1974، تنبأ نادي روما، وهو منتدى فكري ثقافي شبه رسمي مرموق جدًا، بأن نهاية العالم باتت وشيكة جدًا بنتيجة الزيادة المفرطة في أعداد السكان التي فاقت طاقة الكوكب على التحمل "لأننا كنا نتناسل بمعدلات سريعة تفوق بمراحل المعدلات الطبيعية للتكاثر السكاني ".

نشأ منذ ذلك الحين نوع من الحذر المتزايد، وشرع المتنبؤون بتقديم سيناريوهات متفائلة وأخرى متشائمة، وأحيانًا سيناريوهات تتفاوت بين التفاؤل والتشاؤم. فيما يتعلق بروسيا، كانت التنبؤات تتأرجح بين "لقد بات الدب على حافة الانقراض " و"الوضع الروسي ليس أسوأ من وضع البلدان الأخرى ".

مهما يكن من أمر، هنالك أرقام معينة ليست موضع جدل؛ والتوجهات هي شبيهة بتوجهات بقية البلدان المتقدمة الأخرى. كان معدل الخصوبة لدى النساء الروسيات بحدود 6 - 7 بالمئة قبل مئة عام، ثم انخفض هذا المعدل لحوالي 1.9 بالمئة خلال فترة الستينات، وهو حاليًا بحدود 1.6 بالمئة. إنه يفوق بقليل نظيره في بقية بلدان أوروبا الشرقية، لكنه أقل من معدل التكاثر البالغ 2.1 بالمئة. هذا يعني أن عدد سكان روسيا مرشح للتراجع في العقود القادمة، ليس على الفور، وانما في غضون 20 - 30 سنة. يبلغ عدد سكان روسيا حاليًا 143 مليون نسمة، ووفقًا لإحصاءات أمريكية فإن هذا العدد سينخفض إلى 109 ملايين نسمة بحلول العام 2050. واستنادًا إلى الإحصاءات الروسية، فإنه سينخفض فقط إلى 130 مليونًا. هنالك العديد من التقديرات الأخرى المتأرجحة بين هذين الرقمين. تستند أكثر التنبؤات تفاؤلاً إلى عدد من الافتراضات، كالهجرة الأساسية بمعدل 400.000 أو أكثر سنويًا وتحسن خدمات الرعاية الصحية (التي تضمن للناس حياة أطول). هنالك مزايا إعفاء ضريبي ومنح مباشرة تقدم للعائلات التي لديها ولدان أو كثر. إضافة لهذه العوامل وغيرها من العوامل التي لا يمكن التنبؤ بها هنالك عامل آخر يتمثل باحتمال أن تعمد روسيا إلى احتلال وضم المزيد من الأراضي التي يتحدث سكانها اللغة الروسية كأوكرانيا الشرقية وترانسنستريا Transnistria، الأمر الذي، إن حدث، سيسهم بالتأكيد في تحسين الوضع السكاني من وجهة النظر الروسية - على المدى القصير.

من جهة أخرى، لا بد من دفع ثمن معظم الإجراءات التي قد تتخذ لتعزيز معدل الولادات أو الحجم السكاني. لا شك بأن الهجرة الضخمة للروس غير الإثنيين ستشجع على تفشي ظاهرة الخوف من الروس. كان معظم المهاجرين خلال العقد الأول الذي أعقب سقوط الاتحاد السوفييتي من الروس الإثنيين من دول مثل كازاخستان. لكن معظم أولئك الذين كانوا يريدون الهجرة حققوا الآن طموحاتهم.

أولئك الذين يمكن توقع هجرتهم الآن إلى روسيا هم بشكل رئيسي من غير الروس. ويبقى عدد المهاجرين غير الشرعيين غير معروف، تتراوح التقديرات من 10 إلى 20 مليون مهاجر. معظم

الذين هم الآن في روسيا، إضافة إلى أولئك المتوقع قدومهم، هم من المسلمين، الأمر الذي قد يسهم في خلق مشكلات اجتماعية وسياسية كبرى. وبحسب معهد موسكو للاستراتيجية القومية (MINS)، إذا ما استمرت هذه الاتجاهات الديمغرافية الحالية على وتيرتها ستغدو نسبة مرتفعة جدًا من سكان روسيا (من ضمنهم المهاجرين والأقليات) من الروس غير الإثنيين بحلول منتصف القرن الحالي.

ترتكز السياسة الرسمية الروسية المتعلقة بالهجرة إلى فرضية أن غير الروس سيندمجون بالمجتمع الروسي في غضون فترة قصيرة نسبيًا. لكن مثل هذه الرغبة في الاندماج لا يمكن التسليم بها على أنها من البديهيات. تظهر التجارب التاريخية في كل أنحاء العالم أن مثل هذا الاندماج، في حال حدوثه، نادرًا ما كان يحصل بسرعة، وغالبًا ما كان يواجه بممانعة لا يستهان بها من قبل السكان الأصليين. في أغلب الأحيان، كان يحدث سطحيًا أو ظاهريًا فقط - كاكتساب معرفة بلغة البلد المضيف. لم تكن روسيا يومًا، بخلاف أستراليا وكندا والولايات المتحدة، بلدًا مضيافًا لديه تقاليد الترحيب بالمهاجرين ودمجهم في مجتمعه؛ كانت ظاهرة الخوف من الروس ظاهرة معروفة منذ وقت بعيد. مثل هذا التنبؤ، إن صدق، أو حتى قارب الصدق، سيقدم حافزا إضافيًا للزعماء الروس لضم مناطق الاتحاد السوفييتي السابق التي يقطنها روس إثنيون.

لماذا نعلق أهمية كبيرة على هذا الموضوع؟ عمليًا، فإن كافة البلدان المتقدمة تواجه تراجعًا على صعيد عدد السكان، وهنالك أسباب عديدة لعدم اعتبار مثل هذا الأمر بمثابة الكارثة على الإطلاق. لكن روسيا ليست بلجيكا أو بلغاريا؛ إنها بلد كبير له طموحات كبيرة في أن يصبح في مرتبة القوة العظمى، بلد يشعر بأن على كاهله مهمة يتوجب عليه أداؤها. ما هو مصير روسيا البادي للعيان، ولماذا يمكن أداء هذه المهمة إذا كان تعداد سكانها يبلغ 150 مليون نسمة، وليس النصف أو أقل؟

لطالما جرت مناقشة هذه المسألة منذ وقت طويل، وسوف تستمر هذه المناقشة حتى إشعار آخر. ولكن قبل الخوض في هذه المسائل الشائكة والمعقدة، لا بد من الإتيان، ولو بإيجاز، على ذكر اعتبار آخر: نقطة ضعف روسيا الأساسية كفضاء شاسع من دون سكان، أو بالأحرى عدد ضئيل من السكان. في عام 1926 كان أحد الكتاب الألمان، ويدعى هانس غريمHans Grimm، قد نشر كتابًا بعنوان ("شعب حدوده الفضاء ")، الذي أصبح على الفور من أكثر الكتب رواجًا تقريبًا وحافظ على هذه المكانة على مدى الأعوام التسعة عشر الماضية. الحدث حصل في أفريقيا، حيث كان المؤلف قد عاش لفترة طويلة. لم يكن عضوًا في الحزب النازي، لكنه كان على قناعة راسخة بأن بلده محكوم بالهلاك بسبب افتقاره لمساحات قابلة للحياة. لهذا السبب، كانت هنالك حاجة ماسة للمستعمرات التي كانت ألمانيا قد خسرتها في الحرب العالمية الأولى. هتلر، على غرار معظم الشخصيات الأخرى من أعضاء أقصى اليمين، كان يشارك غريم قناعته، لكن لم يكن يركِّز على أفريقيا. لم يكن يعتقد بأن المستعمرات في أفريقيا سوف تحل مشكلات ألمانيا. من هنا جاءت فكرة التوسع الألماني شرقًا وغزو الاتحاد السوفييتي.

مشروع الإمبراطورية الجديدة

ينبغي لأي نقاش حول مستقبل روسيا أن يتعهد بدراسة وتحليل مفهوم روسيا الأبدية ذي الأصداء السيكولوجية، والمنطوي على رسالة مسيحية عظيمة يتوجب تنفيذها. لقد ظهر هذا المفهوم بأشكال

متنوعة وتحت مسميات مختلفة ويعود إلى زمن بعيد. إنه يعمل بمثابة تبرير للسياسة الإمبريالية الروسية وفكرة الدولة، لكنه يستخدم أيضًا كمفهوم لاهوتي محض. كان يعتقد لفترة من الزمن، حتى من قبل بعض الفئات غير الشيوعية، بأن البلشفية كانت مشروعًا روسيًا وأعظم إنجازات روسيا للبشرية جمعاء. مع سقوط الاتحاد السوفييتي، برزت هنالك حاجة لاعتماد إيديولوجيا جديدة. في عهد بوريس يلتسن، كانت هنالك منافسة لصياغة مشروع قومي جديد. لكن هذا المسعى كان أكثر تعقيدًا بكثير من مسألة التوافق على نشيد وطني جديد وجرى بالتالي التخلي عنه - ليتجدد ثانية في عهد بوتين. حتى الصحف اليومية شاركت في عملية البحث عن هوية وطنية جديدة.

جرى منذ ذلك الحين التقدم بالعديد من الاقتراحات بهذا الاتجاه، خاصة من قبل إيديولوجيي جناح اليمين في الطيف السياسي. الفيلسوف إيغور تشوبايس Igor Chubais، على سبيل المثال، اقترح المسيحية، بوتقة البلاد الجامعة الأولى، ومن ثم المذهب التعاوني Communitarianism بمثابة هوية وطنية للبلاد. على المستوى الديني - الفلسفي الأكثر تعقيدًا، عاد البحث إلى بيزنطة، التي كانت تعتبر نفسها الوريث الشرعي الوحيد للمسيحية الحقة. (بعد سقوط بيزنطة، اعتبرت روسيا نفسها الوريث الشرعي الوحيد لهذا الإرث.)

تجلى الزخم الرئيسي التالي في البحث عن إيديولوجيا جديدة أكثر ما تجلى في القرن التاسع عشر. بخصوص صياغة مشروع وطني، كان هنالك التعريف الشهير المسمى "المشروع الثلاثي " (triad) الذي ابتدعه سيرجي أوفاروف، وزير التربية آنذاك (وهي "الأورثوذكسية، والحكم المطلق، والهوية الوطنية narodnost)، الذي ظهر أول مرة في مذكرة رسمية أرسلت عام 1833 لعدد من المربين التربويين. أعجب القيصر بالصيغة الثلاثية، وأيده في ذلك بعض المفكرين الروّاد. أصبحت هذه الصيغة الصيغة الرسمية حتى ثورات 1917، رغم أن عبارة الهوية الوطنية كانت عبارة غامضة إلى حد ما ولم تكن ترجمتها الإنكليزية مقنعة على الإطلاق.

جرى فيما بعد صياغة "المشروع الروسي " Russian idea من قبل فلاديمير سولوفيوف عام 1888. لكن مفهوم سولوفيوف حول المشروع الروسي ربط نفسه بقضايا ومسائل روحية عوضًا عن بناء الإمبراطورية. الشيء ذاته كان ينطبق على نيقولاي بيردياييف، الفيلسوف واللاهوتي الروسي الشهير للقرن التالي. في كتابه الشهير "المشروع الروسي "، تطرق بيردياييف إلى الحديث عن الشخصية الأخروية والتنبؤية للفكر الروسي، باعتبار أن الشعب الروسي هو "شعب مترفع عن الشؤون الدنيوية، والفلسفة الروسية هي فلسفة ذات طبيعة دينية أكثر منها دنيوية ".

كان سولوفيوف وبيردياييف وطنيي الانتماء، لكن أحدًا لم يكن أكثر تدميرًا في تعليقاته على جنون العظمة لدى اليمين المتطرف الروسي من سولوفيوف. وفيما يخص تعليقات بيردياييف عام 1908، فالتعليق التالي حول شوفينية أقصى اليمين ينبغي أن يكون كافيًا: "كانت شوفينية بربرية حمقاء، كانت وثنية وغير أخلاقية في أفكارها، مليئة بالهمجية والشذوذ والجهل الشرقي؛ إنها طقس من طقوس العربدة والانحلال الروسية ". (سلوفو، 7 كانون الأول /ديسمبر، 1908). إن أحدًا لا يمكن له أن يتخيل وصفًا أكثر قسوة من ذلك. كان سولوفيوف وبيردياييف اثنين من الكتاب الثلاثة الذين أوصى بوتين بوجوب قراءتهم من قبل كبار المسؤولين الروس عشية الميلاد عام 2013. ومع ذلك، وفي حين أن خيار بوتين كان صائبًا بخصوص الكتّاب، لكنه لم يكن كذلك بخصوص

الكتب. فهو لم يدرج ما كان عليهم أن يقولوه حول نقائص وعيوب القومية الروسية، لأنهم كانوا قد أصبحوا جزءًا من الإيديولوجية الناشئة للدولة. بدا هذا واضحًا من وثيقة نشرت عام 2014 تقدم الخطوط العريضة للدعم الرسمي لثقافة روسيا (تتماشى وروح العصر البوتيني) مستندة في جزء كبير منها إلى مقتطفات من خطابات لبوتين في مناسبات متنوعة يصرح فيها بأن "روسيا ليست أوروبا".

إنه تصريح مثير، رغم أن أحدًا لم يقل حتى الآن بأن روسيا هي أوروبا. تحض الوثيقة على وجوب وضع قيود وضوابط لسجية التسامح التي لطالما شكلت السمة المميزة للتاريخ الروسي وثقافته. وإلا فإن ذلك سيفسر على أنه تنازل خطير في غير محله لصالح المؤثرات (العدائية) الخارجية وقبول بتقاليدها وقيمها الغريبة عن الروح والثقافة الروسية. بمعنى آخر، إنها بمثابة هجوم شامل ضد توجهات الحداثة في الثقافة الروسية والعالمية. تأتي الوثيقة على سبيل المثال على ذكر كازيمير ماليفيتش بوصفه مثالًا للفنان التافه عديم القيمة. مثل هذه الهجمات ليست جديدة في التاريخ (معرض "الفن المنحط " في ميونخ، تموز/يوليو 1937). ليست كل الفنون المعاصرة ذات قيمة رفيعة خالدة، أو تحقق أرقام مبيعات عالية في المزادات كما يحصل حاليًا. لوحة Supermatic Composition لماليفيتش (1916) بيعت في مزاد سوثبي Sotheby عام 2008 بمبلغ 60 مليون دولار، وهو أعلى سعر تحققه لوحة روسية. سواء كانت هذه هي القيمة الحقيقية للوحة أم كان السعر مبالغًا فيه إلى حد كبير، يبقى سؤالًا بلا جواب. بعض اللوحات باهظة الثمن اليوم قد تكون منافية للعقل والمنطق في منظور الأجيال القادمة. في الوقت الحالي، لن تتأثر أسعار المزادات إلى حد كبير بقبول أو عدم قبول زملاء ماليفيتش وأبناء بلده من المناوئين للحداثة.

أحد المشاركين في كتابة الوثيقة هو المؤرخ فلاديمير ميدينسكي Vladimir Medinsky، وزير الثقافة والسياحة الروسي، وشخصية جدلية بحسب رأي العديد من زملائه. مع ذلك، فإن النقد الثقافي المحافظ ليس مشروعًا فقط، وإنما ضروري. يستشهد كتّاب الوثيقة بعدد من الشخصيات الثقافية الغربية والروسية لتعزيز قضيتهم، من ضمنهم أرنولد توينبي Arnold Toynbee وسام هنتنغتون Sam Huntington، والصهيوني الأول ماكس نوردو Max Nordau، الذي شن هجومًا ذكيًا جرى إغفاله عن غير وجه حق ضد الفن المعاصر في الثمانينات. القليل من المختصين فقط يعرفون الآن شيئًا عن اسمه وعن أعماله. الكتاب الروس أيضًا المعروفون بالنسبة لشتى سلطات القمع بكونهم خبراء مناوئين للحداثة أمثال غونداروف I.A. Gundarov وروسوليمو I.Rossolimo، الذين، إن كان لهم وجود حقًا، فهم غير معروفين بتاتًا حتى في أوساط الخبراء والمختصين. القضية المطروحة في الوثيقة هي قضية محقة ومشروعة فيما يتعلق بالدفاع عن الثقافة الروسية، بفرض أن مثل هذا الدفاع هو ضروري بالأساس.

إذا كان وزير الثقافة والسياحة متهما حقًا بقدر كبير من الانتحال، بحسب منتقديه، قد يحتج المدافعون عنه بأن الاتهامات ذاتها قد جرى فبركتها فيما يخص العديد من وزراء الحكومة الألمان المعاصرين (الفرق أن مثل هذه الاتهامات، في حال ثبتت صحتها في ألمانيا، سيكون لها عواقبها - أما في روسيا فلن يكون لها أية عواقب).

لقد أفسحت حقيقة تمرير أطروحة الوزير ميدينسكي والموافقة عليها في المجال أمام موجة عنيفة من الأخذ والرد في العالم الأكاديمي الروسي. ففي سياق كتابته عن زوار روسيا الغربيين

الأوائل، استبعد ميدينسكي كل أولئك الذين كان لهم آراء نقدية واصفًا إياهم بالكذابين والمصابين ببظاهرة الخوف من الروس - على سبيل المثال، سيغموند فون هيربرشتاين Sigismund von Herberstein (1486 - 1566)، وهو دبلوماسي نمساوي كان ملمًا ببعض الروسية، ما أعطاه أفضلية معينة على باقي الأجانب. يعد كتابه من أكثر التقارير الأولى تفصيلًا، وقد ترجم أيضًا إلى الإنكليزية ويعتبر مرجعًا موثوقًا أكثر من غيره من المصادر. هنالك بعض ملامح الغرور والتكبر العرضية في كتاباته، تكبر الأوروبي المتأنق المثقف على الروسي البدائي عديم الثقافة. ولكن بما أنه من المؤكد أن أوروبا كانت حينها في مستوى ثقافي أكثر تقدمًا، فلا غرابة في ذلك ولا تطرف. مع ذلك، بالنسبة لميدينسكي، كانت ظاهرة الخوف من الروس ظاهرة عابرة، لأن موقفه تجاه بقية الزوار الأوائل، والبعض منهم من إنجلترا، هو نفسه، على سبيل المثال، كتقرير الشاعر والدبلوماسي والرحّالة وعضو البرلمان غيلز فلتشر Giles Fletcher (1548 - 1611) الذي كتب عن الكومونولث الروسي. يقول ميدينسكي في سياق حديثه عنه: "كتاباته بمثابة إهانة أليمة للدولة الروسية وحكامها وشعبها". لكنه لم يفلح في إثبات امتلاكه لمصادر هذا النقد الجارح، والعديد من مناوئيه شبهوا مستوى كتاباته بكتابات طالب في السنة الأولى. أما المدافعون عنه، من جهة أخرى، فقالوا بأنه، وعلى الرغم من أن كتاباته لم تكن سوية إلى حد ما، إلا أنها كانت مشربة بالحب لروسيا، وهو الأهم في النهاية.

هل من واجب الحكومة التدخل في النقاشات والمناظرات السياسية؟ بفرض أن بوتين وميدينسكي كانا محقين في زعمهما بأن على روسيا والثقافة الروسية عدم توقع أي شيء إيجابي من قبل الأجانب، وأن الثقافة الروسية متفوقة على الثقافة الأوروبية، وأن روسيا هي أيضًا متفوقة أخلاقيًا، مثنيًا على طيبها وسماحتها وكرم ضيافتها - هل يعد مثل هذا التفاخر والتباهي مفيدًا على صعيد الذوق واللباقة؟ الجواب قد يكمن في حقيقة أن روسيا بالأساس ليست دولة ديمقراطية (على الأقل بحسب مفهوم الغرب)، وأنها "ديمقراطية موجهة "، وهو مصطلح ابتدعه سوكارنو زعيم إندونيسيا، وأن المعايير الغربية لا تنطبق بالتالي على هذا النوع من الديمقراطية.

لماذا التعامل مع ميدينسكي والخطوط الثقافية العريضة لوزارة الثقافة والسياحة؟ لأنهم يشيرون إلى نهج أساسي معين سيعتمده الحكام الروس في السنوات القادمة. في حين أن الثقافة والتربية الوطنية وغرس القيم والمبادئ التقليدية في نفوس السكان، والتركيز على الإنجازات أكثر منه على جوانب العجز والتقصير والفشل، هو أمر طبيعي ويطبق في كل مكان، فإن القمع والكبت والتستر الشامل على الأحداث والاتجاهات السلبية والانتقاص الممنهج من قدر الثقافات الأخرى، هي أفعال خطيرة حتى في أوقات الحروب، ناهيك عن أوقات السلم. فهي تخلق النزاعات وتفاقمها وتسهم في ديمومتها وتجعل من مسألة إقامة علاقات طبيعية مع الغير أمرًا صعبًا. أليس من الأنسب لحكومة ما أن تعزز دعمها للثقافة والتربية للحؤول دون حدوث انهيار في القيم والمعايير التي كانت قائمة في روسيا منذ زمن بعيد؟ لطالما كان مناخ الخوف من الأجانب سائدًا بقوة في تقاليد الثقافة الاجتماعية الروسية: ما لم يتم إغداق قدر من المديح والثناء المقزز الباعث على الغثيان على كل ما هو روسي من دون استثناء - الروحانية العميقة لدى الشعب الروسي، الروح الروسية، والشيروكايا ناتورا غير القابلة للترجمة - يجب النظر إلى الأجنبي على أنه عدو يتربص بالبلد لإيذائها وينبغي معاملته على هذا الأساس.

ينطوي هذا النهج بمجمله على قدر كبير من التناقض وعدم التناسق. فالناطقون الرسميون باسم النظام سينكرون أي عدائية تجاه الغرب، والذي (بحسب زعمهم) لن يكون متناغمًا مع روح الصداقة والثقة التقليدية التي يظهرها الروس تجاه الأجانب. لسوء الحظ، فإن دليل الإثبات يشير إلى اتجاه مختلف لا يبشر بخير بخصوص العلاقات الروسية مع العالم الخارجي في السنوات القادمة.

الروسوفوبيا والزاپادوفوبيا (الخوف من الغرب)

لا تزال مسيرة البحث عن الهوية مستمرة في روسيا، ليس على الوتيرة العالية ذاتها التي كانت عليها قبل مئتي عام، ولكن بقدر كبير من الحماس والرغبة. ما يعزز هذه النزعة هي القناعة بأن روسيا ليست أوروبا، وأن هنالك مؤامرة كبرى لتدمير روسيا. يصاحب ذلك مجموعة أخرى من المعتقدات بأن كل خطأ أو خلل يحدث في روسيا مردّه إلى الأجانب، لأن فكرة أن يكون الروس هم المسؤولون أيضًا هي فكرة غريبة ومستبعدة بالكامل. بفضل هذه التركيبة الفكرية، لا حاجة بروسيا على الإطلاق لأي قدر ولو ضئيل من النقد الذاتي.

تعود الجذور الأساسية لهذا النمط من التفكير إلى تأثير الحركة الرومانسية الألمانية، التي تزامنت مع الحرب ضد نابليون وظهور القومية في أوروبا. كان للمدرسة الرومانسية الألمانية تأثير هائل في روسيا، ولم يسبق لأي فيلسوف أن وصل إلى شهرة فريدريك شيلنغ Friedrich Schelling، الذي كان يعتقد بأنه فيلسوف روسي، مثلما كان يعتقد بأن فريدريك شيلر Friedrich Schiller كان شاعرًا روسيًا. من الأصدقاء الذين كانوا يتبادلون الرسائل مع شيلنغ هنالك فيودور تيوتشيف وسيرغي أوفاروف، وزير الثقافة اللاحق ومؤلف "الثلاثية" ("الأورثوذكسية والحكم المطلق والهوية الوطنية "). كان شيلنغ فيلسوفًا متعدد الاهتمامات، والمسؤول الأول عن أفكار "الروح الوطنية " وروح العالم (animamundi). وهذه المفاهيم بدورها تعود إلى زمن أقدم بكثير وكان لها علاقة بما يسميه شيلنغ "روح الطبيعة"؛ لكنها يمكن أن تنطبق أيضًا على السياسة. وبالنسبة لروسيا، فقد ألت إلى الإيمان بعقيدة المسيحية المخلصة messianism والإيمان بقدر محتوم. أمدّت هذه المفاهيم أنصار الحضارة السلافية بزخم جديد. كتب قسطنطين كساكوف مبينًا بأن الغرب (الروح الغربية) كانت منهكة وفي طور التردي والأفول. فقد جرى استبدال الضمير بالقانون، والبواعث الداخلية بالأنظمة والتعليمات. كانت مهمة روسيا التاريخية الاستمرار في بحثها عن هوية وطنية من النقطة التي كان الغرب قد انطلق منها في الطريق الخطأ.

لم تكن مثل هذه الخيبة، على أية حال، مقتصرة على جناح اليمين وأنصار الحضارة السلافية. لقد سبق لألكسندر هيرتزن Alexander Harzen أن جاء إلى الغرب مفعمًا بالإعجاب والرغبة بالاقتداء بالنهج الغربي، ولكن بعد بضع سنوات حلت خيبة الأمل محل مشاعر الإعجاب والتقدير. الشيء ذاته حدث مع ميخائيل باكونين، الذي وصل إلى برلين كغربي لا غبار عليه. لكن أول ما شاهده على جدار أحد الأبنية كان نسرًا روسيًا عملاقًا، وتحته كتابة تعلن بأن هذا المكان كان دكان خياط. كانت الكلمات المكتوبة تقول حرفيًا:

تحت جناحيك بوسعي أن أقوم بكيّ الثياب من دون خوف أو وجل

لكن باكونين ورفاقه لم يسبق لهم أن جاؤوا إلى الغرب لكيّ الثياب بأمان وطمأنينة. كانوا يمقتون البراغماتية. بنتيجة مثل هذا النوع من خيبة الأمل، كانوا على مسافة خطوة أو اثنتين فقط من النأي بأنفسهم عن الغرب والبحث عن مشروع وطني جديد. كانت النخبة المثقفة الروسية معظم الوقت عاجزة عن حزم أمرها بخصوص ما إذا كانت البلاد متجهة نحو مستقبل زاهر أم نحو كارثة.

لم يكونوا راغبين بالتخلي عن الأمل بشكل كامل: أعلن أنصار الحضارة السلافية من أمثال إيفان كيرييفسكي بأنهم ما زالوا يحبون أوروبا. لكن العديد منهم كان يعتقد بأن روسيا هي الوحيدة التي كانت في حالة من النهوض والازدهار الكامل على صعيد قواها الحية التي هي في عمر النضوج، على الرغم من أنه حتى في الأيام الأولى من عصر ميخائيل ليرمونتوف، كانت هنالك نذر شؤم مروعة:

سيأتي ذلك اليوم على روسيا، ذلك اليوم المشؤوم، الذي سيسقط فيه تاج القيصر.

نذر مشابهة كانت تلوح في أفق البلدان الأوروبية، ولكن إلى أي مدى يمكن أخذها على محمل الجد؟ كان عصرًا سادته الفوضى العظيمة، ليس فقط في أوساط الروس، ولكن أيضًا بين أولئك الذين كانوا يحاولون فهم روسيا عن بعد. كانت النخبة المثقفة تطرح السؤال التالي: هل ينبغي علينا الالتصاق بأوروبا، أو التخلي عنها مرة والى الأبد؟

لم تكن مثل هذه المشاعر السلبية تجاه أوروبا متأصلة في خيبة الأمل بقدر ما كانت متأصلة بشعور الدونية. وبما أن روسيا لم تؤمن يومًا بفضائل الاعتدال، فقد أدى ذلك إلى مشاعر متطرفة وخطيرة من العداء والشك. كان يمكن لذلك أن يكون أقل أهمية لو كانت تلك العدائية مقتصرة على أقلية صغيرة، كالتي يمكن إيجادها في كل بلد. لكن هنالك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنها أصبحت وجهة نظر الأغلبية منذ أيام أنصار الحضارة السلافية.

كان الرومانسيون الألمان في بحث دائم عن الزهرة الزرقاء الشهيرة، تمامًا مثلما كان القوميون الروس في بحث دائم عن المشروع الروسي. لم يحالف النجاح أيًا من المشروعين، حيث إنه لم يكن هنالك أية زهرة زرقاء وأي مشروع روسي، إلا على مستوى الميثولوجيا. ولكن طالما أنه كانت هنالك حاجة للأساطير، فقد بذلت محاولات لتقديمها بصورة اصطناعية مركبة. فالأزهار الاصطناعية، إذا ما أُعدت بصورة متقنة، قد تبدو كالطبيعية تمامًا، لكنها تبقى اصطناعية - والشيء ذاته ينطبق على المشروع الروسي، عندما كان بيردياييف Berdyaev يبحث عن المشروع الروسي كان يقصد فكرة أو رؤية الله لروسيا. عمليات البحث في زماننا هذا تهدف إلى فبركة (أو ربما تحويل) بحث ديني أو ميتافيزيقي معين إلى بحث براغماتي عن إيديولوجيا للدولة، التي تعتقد السلطات بأنها ضرورية لتأسيس وحدة وإحساس بالهدف المشترك، بعيدًا عن الكوزموبوليتانية Cosmopolitanism. جرى تصنيف أولئك الذين لم يتمكنوا من تقبل الإجماع الجديد في خانة الخونة الذين يتوجب التخلص منهم.

هنالك إجماع عام على أن المواقف الروسية تجاه الغرب والديمقراطية قد تراجعت وتدهورت خلال العقد أو العقدين الماضيين. عندما سئلوا عام 2008 عما إذا كان المجتمع الغربي يشكل قدوة حسنة لروسيا، حوالي 80 بالمئة قالوا "كلا"، وهو أعلى رد فعل سلبي في أوروبا ومن أعلى معدلات الرفض في العالم. قام مركز ليفادا الروسي - منظمة أبحاث سوسيولوجية مستقلة مقرها موسكو - بتنفيذ استقصاء توصل إلى نتائج أكثر من إيجابية: حوالي 60 بالمئة كانوا في صف

الديمقراطية أكثر منه في صف القبضة القوية. ولكن من بين الـ 60 بالمئة هؤلاء، حوالي النصف كانوا يريدون ديمقراطية تتماشى واحتياجات روسيا، والتي يمكن تفسيرها بالبوتينية أكثر منها بالديمقراطية.

لا شك بأن هذه المواقف السلبية مرتبطة بقوة بالظواهر السلبية المصاحبة لإصلاحات فترة التسعينات وظهور طبقة الأوليغاركيا. لقد تأثروا أيضًا بجرعات هائلة من الشحن العقائدي من جانب الإعلام الرسمي. كان البعض يفترض بأن المواقف حيال الديمقراطية سوف تتغير نحو الأفضل مع الازدهار والرخاء المتنامي، لكن ذلك لم يحدث. لقد تحسنت مستويات المعيشة، لكن هذا التحسن لم يفض إلى قدر أكبر من الديمقراطية.

حتى مع تقديم كافة الحوافز والعلاوات، ليس هنالك ثمة شك بأن الدعم المقدّم للقبضة القوية في روسيا هو، بعكس الإيمان بالديمقراطية، كان دائمًا من جانب السلطة. إن كان ثمة من أمر، فهو أن الوضع بهذا الخصوص قد تدهور، وبرز السؤال حول ما إذا كان ممكنًا أن نشهد تراجعًا في نسبة العداء تجاه الغرب ودعمًا للحرية والديمقراطية، وضمن أية ظروف.

على أية حال، وفي الوقت نفسه، فإن الضغط من أجل حكم ذاتي إقليمي ما برح يتزايد في كافة أنحاء هذا البلد الشاسع، ولعلها عملية حتمية تمامًا نظرًا لحجم البلاد الكبير جدًا. إنه أمر لا يتطابق ومفهوم الانفصالية، لكنه لا يزال يواجه عدائية لدودة من جانب الكرملين واصراره على تفوّق قوة السلطة وعدم الاستعداد لتقديم تنازلات. ومن السهولة بمكان التنبؤ بحدوث توترات في سياق هذه النزاعات. فقد خسرت المعارضة المعركة ضد الحكومة لأنها لم تظهر قدرًا كافيًا من الوطنية أثناء غزو القرم. ولكن يمكن لهذه التوترات الجديدة والمطالبة المتزايدة بقدرٍ أكبر من الحكم الذاتي الإقليمي أن تكون بمثابة ميدان قتال جديد رئيسي بين القوى المركزية ومعارضة صاعدة - تحديدًا، المصالح المحلية القوية.

قبل بضع سنوات قام نادي حوار فالداي (VDC)، وهو مؤسسة شبه رسمية تأسست عام 2004 لتعزيز الحوار بين النخب الروسية والدولية المثقفة، بإعداد تقرير حول الهوية الوطنية لروسيا. قام باستشارة عدد من الرجال والنساء من كافة ألوان الطيف السياسي، وكان هناك إجماع عام على أن الهوية الروسية موجودة فعلًا. ولكن ما هي طبيعتها؟ تاريخيًا، الشخصية الروسية هي شخصية محبة للحرية وشهدت معاناة طويلة: "نحن منفتحون على الثقافات والديانات الأخرى،" قال النادي. "نحن شجعان ومحبون. نحن رائعون وموهوبون. لدينا مستوى عال من قوة الإرادة ونعرف كيف نفوز. ومع ذلك، لقد نسينا معظم المؤهلات المدرجة على هذه القائمة في غضون السنوات العشرين الماضية. من جهة أخرى، نحن سمحنا لأنفسنا بتعزيز أسوأ سجايا شخصيتنا الوطنية: الكسل، والتشاؤم، والفردية المتوحشة، واللامسؤولية وانعدام الثقة التام بالآخرين ". تطرق التقرير أيضًا إلى ذكر "الإحساس المرهف بالعدالة، والتي تنطوي على مفهوم أوسع نطاقًا من العدالة في العالم الغربي ". لقد نوه التقرير إلى أن قيم المواطن الروسي قد تغيرت على مدى الأعوام العشرين الماضية، ولكن ليس نحو الأفضل. من بين قيم روس اليوم، تحتل البحبوحة المادية والاستهلاك المرتبة الأولى: 55 بالمئة عام 2006، مقابل 31 بالمئة عام 1986. وسيفضي التفاوت الكبير في توزيع الدخل في روسيا إلى مزيد من التشتت للمجتمع وتنامي التوترات الاجتماعية.

إن البحث عن تعريف للشخصية الوطنية الروسية ولمشروع روسيا الغد محكوم بأن يبقى بحثًا مضللًا. ما هي آفاق الاعتدال والوسطية، ما هي آفاق تخفيف حدة العداء وانعدام الثقة تجاه الغرب، ما هي آفاق استعادة ولو جزء بسيط على الأقل من قيم الحرية والإنسانية، ما هي آفاق الابتعاد عن الاستبداد والاتجاه نحو قدرٍ أكبر من الحرية؟ إذا كانت الحكومات الرجعية قوية في روسيا، فإن حزب الحرية، حتى لو كان ضعيفًا جدًا في الوقت الحاضر، فإن له تقليدًا متأصلًا في تاريخ البلد. ما هي آفاقه في المستقبل المنظور؟ مثل هذه التغيرات الهائلة في الحالة العامة قد حدثت في العديد من البلدان عبر التاريخ، ولا يمكن بالتالي استبعادها في روسيا، حتى ولو بدا بأن الفرصة ضئيلة في اللحظة الراهنة. في ظل أية ظروف يتوقع لمثل هذه التغيرات أن تحصل في روسيا؟

يبين لنا التاريخ بأن مثل هذه التغيرات قد حصلت، على سبيل المثال، في حالة حرب خاسرة أو أزمة اقتصادية كبيرة. لكنها حصلت أيضًا عندما عمد الحزب الحاكم إلى إطالة أمد الترحيب به وأخفق في الوفاء بوعوده. لقد حدثت بسبب الضجر والملل أو مع ظهور جيل جديد - نتيجة صراع الأجيال. لقد حدثت من دون أي سبب واضح على الإطلاق، أو لأن الحزب الحاكم وايديولوجيته فقد كل ما يملك من دينامية وجاذبية كان يمتلكها في البداية. لا يوجد توصيف كامل لكل هذه الظروف والأحوال، كما أنه لا يوجد أي تفسيرات كاملة لحقيقة أن بعض الأمم في التاريخ تنهض وأخرى تسقط، وأن بعض الأمم تتعافى من نكسات كانت تبدو نهائية ومدمرة، في حين أن بعض الأمم لا تتعافى أبدًا.

يمكن مع ذلك استثناء بعض العوامل الكامنة وراء سقوط نهائي أو تعافي مفاجئ.

<u>المستقبل الاقتصادي</u>

هناك العديد من التنبؤات الاقتصادية المتنوعة لروسيا، وهي تأتي من كافة الجهات. لقد وضع نادي حوار فالداي الآنف الذكر أربعة سيناريوهات لهذا الموضوع. بحسب أكثر هذه السيناريوهات تفاؤلًا، فإن عوائد صادرات النفط والغاز ستكون مرتفعة، بحدود 146 دولارًا للبرميل. لذلك، فإن الحكومة ستكون قادرة وراغبة في تنفيذ إصلاحات اقتصادية طويلة الأمد. في هذه الحال، فإن معدل النمو الروسي سيكون أعلى مما هو عليه في معظم البلدان الأخرى وسيصبح معدل دخل الفرد عام 2030 مساويًا لدخل الفرد في سويسرا حاليًا.

وبحسب نشرة تنبؤية أكثر تشاؤمًا، فإن أسعار النفط ستكون منخفضة، ولن يكون هناك أية إصلاحات، وسيصاب الاقتصاد الروسي بحالة من الركود. في هذه الحال، فإن معدل النمو الروسي سيكون أقل مما هو في أي مكان آخر، حوالي 2 بالمئة، وسيكون معدل دخل الفرد مساويًا لنظيره في جمهورية التشيك في الوقت الحالي.

وبحسب اقتصاديين روس سيكون هنالك سيناريوهان "أساسيان " على الأرجح. السيناريو الأول يستند إلى فرضية أن أسعار النفط ستكون بحدود 94 دولارًا للبرميل، لكن موجة كاسحة من الإصلاحات سوف تنفذ. والسيناريو الآخر يستند إلى فرضية أن أسعار النفط ستكون مرتفعة نسبيًا (بحدود 140 دولارًا للبرميل)، ولكن لن يكون هنالك سوى قدرٍ ضئيل جدًا من الإصلاحات وعلى المستوى المحلي فقط. في هذه الحال، فإن معدل دخل الفرد سيكون شبيهًا بنظيره في فرنسا في

الوقت الحالي. مع كتابة هذه السطور (كانون الثاني /يناير 2015)، فإن تنبؤات روسية تتوقع كسادًا - والتغيرات المتوقعة لن تحصل إلا في عام 2017.

في سياق هذه الحوارات والمناقشات التي جرت في تشرين الثاني /نوفمبر 2012، فقد برزت بعض الحقائق المثيرة. فقد أفاد علماء الاجتماع بأن هناك رغبة حقيقية في الإصلاح في أوساط أولئك الذين يحققون دخلًا فوق المتوسط. ومع ذلك، فإن 68 بالمئة منهم يريدون لأطفالهم أن يدرسوا ويعملوا خارج روسيا لبضع سنوات على الأقل، و37 بالمئة يريدون لهم أن يغادروا روسيا إلى الأبد. لماذا؟ بسبب حالة عدم الاطمئنان السائدة بشأن مستقبل البلاد، ولكن بشكلٍ رئيسي لأن فرص العثور على عملٍ مناسب للشباب الموهوب تكاد تكون معدومة.

يعتقد أعضاء مجموعة فالداي بأن وجود مجال اقتصادي أوراسي، بما فيه كازاخستان، سيكون له تأثير إيجابي على النمو الإقتصادي.

ثمة تقرير متفائل آخر نشرته مؤسسة برايسووترهاوس كوبرس Pricewaterhouse Coopers عام 2013 يرى بأن أمام الاقتصاد الروسي فرصًا لمواكبة نظيره الأوروبي بحلول العام 2030 والمحافظة على تلك المكانة، متفوقًا على ألمانيا. ومع ذلك، فإن هذا التنبؤ يستند إلى مقدمة طوباوية مفادها أن السياسيات الاقتصادية الصارمة، وليس علم السياسة، ستكون العامل الحاسم في دفع الاقتصاد الروسي قدمًا إلى الأمام.

لكن التكهن الذي قام به إيفسي غورفيتش Evsey Gurvich، وهو عالم اقتصاد روسي معروف كان أقل تفاؤلًا. يعتقد غورفيتش بأن الغالبية العظمى من الشعب الروسي يطمحون إلى العيش بكرامة، ولكن يريدون لاقتصادهم أيضًا أن يغدو قوة عظمى، وهو يشكك بإمكانية الجمع بين الهدفين كليهما في الوقت الحاضر. تنفق روسيا حاليًا ضعف ما تنفقه بلدان الناتو على متطلبات الدفاع (4.5 بالمئة)، والأموال المطلوبة للقوات المسلحة لن تتوفر إلا بعد خفض ميزانيات الصحة والتعليم. وما لم تُرفع الضرائب بنسب أساسية (المعدل الحالي الأقصى هو 13 بالمئة)، فإن مستوى أعلى من الإنفاق العسكري سوف يعني مستوى أقل في متوسط عمر الفرد ومستوى أقل من التعليم. وحتى في الوقت الحالي، بحسب إحصاءات الأمم المتحدة، فإن روسيا تحتل المرتبة الرابعة والثلاثين بعد المئة من بين 207 بلدان على صعيد متوسط عمر الفرد - أقل مما هو عليه في بنغلاديش وغواتيمالا وهندوراس وبلدان أخرى. ويعتقد غورفيتش بأن العقوبات التي فرضت على روسيا في أعقاب أزمة القرم عام 2014 لن يكون لها سوى تأثير آني محدود؛ ومع ذلك، فإن بوسعها أن تخفض بشكلي أساسي من نسبة الاستثمارات الأجنبية. في هذه الحال، فإن معدل النمو الروسي لن يتجاوز 2 بالمئة في السنوات القادمة وربما ينخفض حتى إلى1 بالمئة.

قد يكون من الممكن سيكولوجيًا تفهم الرغبة في امتلاك البنادق والزبدة في آن معًا، لكنه نهج ينطوي على كثير من المخاطر. إن محاولة تحقيق هذا النهج في فترة ما بعد الحرب نجم عنه "أعظم كارثة جيوبولتيكية شهدها القرن " (بوتين)، وهي انهيار الاتحاد السوفييتي. ولكي تحقق معدل نموٍ أساسي، على روسيا أن تستعيد ثقة المستثمرين الأجانب، والا فلن تحصل لا على البنادق ولا على الزبدة، وستبقى في مستوى تركيا أو إندونيسيا. حتى في الوقت الحاضر، فإن الاستثمارات في روسيا منخفضة نسبيًا، أي حوالي 20 بالمئة من إجمالي الناتج المحلي، وهو أدنى

من معدل الأسواق الناشئة. علاوة على ذلك، فإن معظم الاستثمارات حاليًا تذهب إلى قطاع الطاقة، الذي يشكل بالضبط، بحسب رأي الجميع، نهجًا ينبغي على روسيا أن تبتعد عنه، وهو الاعتماد على تصدير الموارد الطبيعية.

إن السياسة الروسية المتمثلة باستعادة بعض أو كل الأقاليم التي خسرتها مع تفكك الاتحاد السوفييتي تعمل بمثابة رافعة داعمة للمعنويات وتعزز من شعبية حكومتها. لكن ذلك مقابل ثمن يتوجب دفعه.

حتى قبل عملية ضم القرم (التي كلفت 7 مليارت دولار عام 2014)، كان على روسيا أن تخصص أرصدة لا يستهان بها لأوسيتيا الجنوبية وأبخازيا وتدعم الأنظمة في بيلاروسيا وترانسنيستريا. وجمهورية أوكرانيا الشرقية مدينة لموسكو حاليًا بمبلغ 4 مليارات دولار على شكل فواتير غاز غير مسددة. لقد خصصت روسيا أرصدة لا يستهان بها لأرمينيا وقرغيزيا وطاجيكستان للإبقاء على نفوذها في هذه المناطق والإبقاء على قواعدها العسكرية في هذه البلدان ولأهداف أخرى. ولا يرجح لهذه المخصصات أن تتراجع في السنوات القادمة.

لا يوجد أرقام دقيقة لهذه المخصصات. فعندما كانت القرم جزءًا من أوكرانيا كان على ثلثي ميزانيتها أن تغطى من قبل كييف؛ كذلك فإن روسيا تسهم بحوالي ثلثي ميزانية الطاجيك. وبالإجمال، فإن كلفة الإمبراطورية حاليًا يمكن أن تتراوح من 25 إلى 35 مليار دولار سنويًا، ما يشكل حوالي 6 بالمئة من الميزانية الروسية، من دون احتساب كلفة ميزانية قوات الجيش والشرطة. ليست هذه الأرقام بالأرقام الكبيرة، لكنها مرشحة للازدياد، وإذا لم تتمكن موسكو من تنفيذ التزاماتها أو تقليص مخصصاتها، فسوف يتسبب هذا بقدر كبير من خيبة الأمل والاستياء في أوساط المتلقين، الذين كانوا يعلقون آمالًا كبيرة ومتزايدة فيما يتعلق بعلاقاتهم مع روسيا. في الوقت نفسه، سينشأ هنالك تذمر في روسيا إذا ما تأثرت ميزانيتا الصحة والتعليم إلى جانب الميزانيات المقرر أساسًا دفعها لتحديث الاقتصاد الروسي.

سيكون بمقدور روسيا تسديد فاتورة الإمبراطورية - إذا ما ازدهر اقتصادها. كل شيء يعتمد على أسعار النفط والغاز. علمًا بأن مستوى أسعار النفط يعتمد على عدد من الظروف التي لا يمكن التنبؤ بها، مثل وضع الاقتصاد العالمي والطلب على النفط والغاز. ويعتمد أيضًا على الوضع السياسي في الشرق الأوسط، وهل سيكون بوسع هذه المنطقة المحافظة على إمداداتها أو حتى زيادتها. إضافة إلى ذلك، فكل شيء يعتمد كذلك على الإرادة السياسية للاتحاد الأوروبي، وهل سيكون بمقدوره الموافقة على سياسة مشتركة للطاقة لتخفيض اعتماده على الصادرات الروسية والشرق أوسطية. ناهيك عن أنه يعتمد أيضًا على التقدم التكنولوجي، الذي يمكن أن يجعل من عملية استخدام المصادر البديلة للطاقة مسألة أقل كلفة بكثير. وهو يعتمد من جملة ما يعتمد على حقيقة ووضع البنية الأساسية لصناعة النفط والغاز الروسية، وهل سيكون بوسع روسيا استخراج وتسليم الكميات المطلوبة بتكاليف معقولة لا ترهق كاهل المنتجين.

هنالك صلة وثيقة بين كلفة الإمبراطورية والعوامل الاقتصادية.

كان سجل الاقتصاد الروسي في عهد بوتين سجلاً لافتًا. فالهدف الرئيسي لبوتين فيما يتعلق بالاقتصاد كان الاستقرار. كانت هذه السياسة سياسة عقلانية، لكن السنوات المؤاتية للغاية التي

عززت الآمال والتوقعات بالمستقبل بشكل كبير قد تكون شارفت على نهايتها. ولا يبدو بأن من المحتمل لتحديث الاقتصاد الروسي أن يحقق تقدمًا أساسيًا في السنوات القادمة. إنها عملية مكلفة، وهنالك قدر لا يستهان به من الممانعة ضدها، الأمر الذي قد يعيدنا لأسعار النفط والغاز. وإذا ما بقيت أوروبا على حالها من الضعف السياسي، أو آل هذا الضعف إلى مزيد من التفاقم في السنوات القادمة (وهو أمر محتمل جدًا على ما يبدو)، لا حاجة بالاقتصاد الروسي لأن يخشى من الانهيار. إن إعادة انتزاع وضم بعض آخر أقاليمها قد يسهم أيضًا في التعويض عن تلك المشكلات الاقتصادية المؤلمة. لكن أوروبا ضعيفة تعني أيضًا اقتصادًا ضعيفًا وطلبًا أقل. وفي ضوء هذه الظروف الضبابية، فإن كافة المحاولات لإعطاء تكهنات مفيدة ستفضي من دون شك إلى سلسلة من إشارات الاستفهام الكبيرة.

وجه الجيل الشاب

يمكن للتغيير السياسي الأساسي أن يأتي أحيانًا نتيجة لأزمة اقتصادية، وفي أحيان أخرى في أعقاب حرب ما، رابحة كانت أم خاسرة. لكنه حصل أيضًا نتيجة ظهور جيل جديد يتقدم الصفوف ليقف في الطليعة. أدى هذا أحيانًا إلى تغيير عنفي من قبل حركات راديكالية لجيل الشباب، كالفاشية والشيوعية. وقد حصل مثل هذا التغيير أحيانًا بالتدريج، من دون هزات كبيرة.

أحد الأمثلة على مثل هذا التغيير هي حركة جيل الشباب التي ظهرت في فرنسا حوالي العام 1900. حتى ذلك الحين، كانت الحالة السائدة في ذلك البلد حالة تشاؤمية إلى حد بعيد (في الحقيقة، انهزامية) في أعقاب الحرب الخاسرة ضد ألمانيا؛ إذ ساد هنالك اعتقاد على نطاق واسع بأن فرنسا قد انتهت. ثم ظهر جيل جديد - متبرم من التشاؤمية السائدة، ومنشغل بالرياضة ومتفائل إجمالًا في تطلعاته. جيل جديد مفعم بالروح الوطنية بل حتى القتالية، أكثر منه السلمية أو الانهزامية. جيل جديد بنى برج إيفل، وكان أول من حلّق فوق القنال الإنكليزي، وآمن بمستقبل فرنسا.

غني عن القول إن شخصية جيل الشباب في روسيا تتسم بأهمية كبرى عند التفكير بمستقبل البلاد. ومع ذلك، تقليديًا، فإنه لم يكن يلقى سوى قدر ضئيل من الاهتمام. في أواخر العشرينات، ذهب أحد الطلاب الألمان ويدعى كلاوس مينرت Klaus Mehnert إلى الاتحاد السوفييتي وألف كتابًا أصبح أشبه بتحفة كلاسيكية. كان قد ولد في موسكو، وفي السنوات التالية أصبح من أهم الكتّاب الألمان المهتمين بشؤون الاتحاد السوفييتي. لاحظ مينرت أن الشباب في السنوات الأولى للثورة كانوا يشكلون العنصر الرئيسي في الأدب السوفييتي، بصفتهم رموز مستقبل البلاد. ومع ذلك، في السنوات التالية أو في عهد الغلاسنوست، جرى استبدالهم باستطلاعات الرأي والاستقصاءات السوسيولوجية.

تميز جيل الشباب لمرحلة الثلاثينات، ولدرجة معينة، جيل مرحلتي الخمسينات والستينات، بالتفاؤلية على وجه العموم. وبحسب ما عبرت عنه الأغنية المفضلة آنذاك: " كل الطرق مفتوحة أمام الشباب في بلادنا".

كان من السهل أن تكون متفائلًا حينها عندما كنت شابًا - لم يكن أولئك الذين كانوا يرتادون المعسكرات الصيفية يعرفون سوى القليل عن حقائق الحياة المرة وعن قسوة السياسة. كان الجيل الذي قبلهم في القرن السابق هو الجيل الذي وقف في طليعة النضال ضد الاستبداد (وضد طلائي الإرهابيين) - كان هؤلاء الشباب من بين أكثر الداعمين للنظام الشيوعي حماسة، في العقود الأولى على الأقل.

أما فيما يتعلق بالوقت الحاضر، تفيد الاستقصاءات بأن الكلمة الرئيسية المتعلقة بجيل الشباب هي "anomie"، وهي مصطلح ابتدعه عالم الاجتماع إميل دوركهايم Emile Durkheim عام 1893 ويعني الفوضى الاجتماعية، والتغريب، والعبثية، وحتى انعدام الأمل. كما أنه يعني تفكك الروابط الاجتماعية بين الفرد والمجتمع. جرى التطرق سابقًا إلى ذكر العدد المتزايد للشباب الروسي الراغب في العيش في الخارج - هذا على الرغم من حقيقة أن لديهم سببًا وجيهًا للاعتقاد بأن حياتهم، بعكس آبائهم، ستكون أفضل في حال بقائهم في روسيا (بدل هجرتهم إلى الغرب).

خلال الأيام الأولى التي أعقبت سقوط الشيوعية في الاتحاد السوفييتي، ساد مناخ من التفاؤل الكبير. لسوء الحظ، لم يبق الكثير من هذا التفاؤل. ما هو السبب؟ بحسب دراسات أجريت مؤخرًا، فإن الشباب الروسي يعاني من التغريب وعدم قدرة الأهل على فهم أبنائهم، والأهم أنه يشعر بالتحامل عليه من قبل الآخرين. البعض ينحى باللائمة على نسب الطلاق المرتفعة والعنف الأسري. لكن الحقيقة تبقى أنه في حين أن الشباب كانت تحدوه موجة من التفاؤل حتى وقت قريب بخصوص المستقبل الاقتصادي لبلاده، فقد بات الآن أكثر ميلًا إلى التشاؤم بخصوص مستقبله هو بالذات، والفرص المتاحة أمامه للتمتع بحياته واحتمالات حصوله على فرص عمل شريفة. إنه يشعر بالاستغلال، ويعتقد بأن فرص الحصول على عمل لائق ضئيلة جدًا خارج موسكو؛ إذ إن فرص العمل في موسكو هي أفضل بكثير، لكن المنافسة أقوى بمراحل.

تعد مواقف الشباب الروسي حيال السياسة متناقضة ومتباينة إلى حد كبير. إن نسبة الداعمين لبوتين وسياسة حكمه هي أكبر في أوساط الشباب منها بين أبناء الجيل الأكبر سنًا. لكن 24 بالمئة فقط من الشباب يبدون نوعًا من الاهتمام بالسياسة وشؤونها. وحوالي 80 بالمئة لا يثقون بالحكومة أو بالأحزاب السياسية أو بالبرلمان، أو حتى بالسياسة عمومًا. إنها حالة يكتنفها مزيج من السأم وانعدام الثقة. إن ثقافتهم السياسية محدودة للغاية. فهم يعتقدون بأن على روسيا أن تكون دولة قوية محترمة مرهوبة الجانب تحكمها قبضة قادرة، وأن تكون مهمة الرئيس الأساسية هي الحفاظ على النظام داخل البلاد. أكثر السياسيين شهرة بعد بوتين هو فلاديمير زيرينوفسكي Valadimir Zhirinovsky، ما يدل على صورة بائسة محزنة لنضوجهم السياسي وقيمهم الأخلاقية، وفشلهم في تبين الفرق بين رؤية مستقبلية لبلدهم وأداء هو أشبه بأداء مجموعة من المهرجين داخل سيرك. يلعب التلفزيون الحكومي دورًا أساسيًا في تشكيل الآراء وجهات النظر السياسية لهذا الجيل. وقد جرى تعريف هذا الشحن العقائدي بأنه "حفل سيرك على النمط الغربي تنقصه الديمقراطية " وكان على درجة كبيرة من التأثير والفاعلية.

لم تظهر استطلاعات الرأي التي حصلت عام 2008، والاستطلاعات الأخيرة عام 2014 التي أجريت من قبل مركز ليفادا، أي انحراف أساسي عن هذه التوجهات. على العكس من ذلك، فقد ارتفعت نسبة المؤيدين لبوتين في أعقاب أحداث القرم وأوكرانيا الشرقية بين المشاركين الشباب

الذين تراوحت أعمارهم بين 18 و24 عامًا إلى 92 بالمئة، وهي أعلى من نسبة المشاركين في التصويت من الفئات العمرية الأكبر سنًا. كان هنالك دعم طاغ لعنصر استعراض القوة من قبل الحكومة، يقابله كراهية للأعداء - الغرب والقوميين الأوكرانيين. أكثر من 70 بالمئة أعربوا عن قناعتهم بأن روسيا عادت من جديد لتصبح قوة عظمى. عند سؤالهم عن مدى تفضيلهم لروسيا كقوة عظمى محترمة ومرهوبة الجانب من قبل باقي البلدان أو كبلد بمستويات معيشة مرتفعة، أجاب 56 بالمئة منهم بأنهم يفضلون الخيار الأول. مرة أخرى، فإن مثل هذه الحماسة كانت أقل لدى الفئات الأكبر سنًا.

من جهة أخرى، أظهرت استطلاعات الرأي لعام 2014 جهلًا تامًا تقريبًا بشخصية المجتمع الروسي ومؤسساته؛ فقد كانت معرفة جيل الشباب مقتصرة على محيطه المباشر. وبالنسبة للغالبية العظمى، كان هنالك قائد قومي يقرر كافة الأمور السياسية الهامة المتعلقة بحاضر ومستقبل بلادهم؛ لم يكن لباقي السكان أي تأثير على هذا القرار، ولم يكن هنالك ثمة من سبب يدعو لتغيير هذا الواقع السائد. لم تكن مسألة المشاركة في الحياة السياسية تعنيهم بشيء، ولم تكن هنالك أية حاجة لإجراء أية إصلاحات على النظام القائم.

لا تبين استطلاعات الرأي هذه إلى أي مدى تعكس هذه الآراء حالة ذهنية مزمنة ينظر إليها على أنها طبيعية. كما أنها لا توضح إذا كانت هذه الفورة الوطنية المتمادية في عدائها للديمقراطية ظاهرة مؤقتة مرشحة للتأثر بانتكاسات الحكومة على الصعيدين الخارجي والمحلي. فقد بدا بأنها تظهر بأن بوتين وباقي الناطقين باسم النظام كانوا محقين عندما أشاروا في أثناء المناقشات مع الغرب إلى وجود خلافات أساسية بين الديمقراطية الغربية والنمط الروسي الأساسي لـ "ديمقراطية السيادة."

وبحسب الدلائل والبيانات المتوفرة، فإن المال وتمجيد القوة هما ما يحدد إيديولوجيا جيل الشباب. لم يعد هذا الجيل جيل الإنسان السوفييتي العادي Home sovieticus. فقد حل مكانه، على ما يبدو، جيل الشباب البوتيني Home Putinus.

ما الذي حل بالمثالية العظيمة وروح التضحية الثورية لشبّان القرن التاسع عشر الروس؟ في يوم من الأيام، كانت هنالك قناعة بأن المال لا يعني شيئًا، وأن المهم هو التوق للعيش بحرية وبناء مجتمع جديد وخلق إنسان جديد بعيد عن الأنانية والمصالح الذاتية، يكون مثالًا للبشرية جمعاء. كانت الرؤية ساذجة وطوباوية، ولكن حتى أولئك البعيدين سياسيًا عن هذه الآراء لم يتمكنوا من إخفاء إعجابهم بها. لقد بلغ الافتقار إلى الرؤية حاليًا مدى لا يستهان به.

في إحدى مراحل حقبة التسعينات بدا مؤكدًا أن التيارات والاتجاهات الغربية ستجد لها مؤيدين ومناصرين في روسيا - عاهرات، ومتسولون، ورواد ملاهي، وسائقون، ودراجون، وحشاشون، ومغنو أزقة، وشباب ينثرون شعاراتهم على الجدران بواسطة الطلاء. لكن هذه الظاهرة كانت مقتصرة على عدد من المدن الكبيرة، ولم تدم طويلًا. في مناطق أخرى لم يكن هنالك سوى الضجر والملل القاتل وشعارات اليمين الوطنية الطنانة - رغم أن أحدًا لم يكن يعرف حقيقة مدى تغلغلها في النفوس، باستثناء الكراهية التي كان يبديها أنصارها تجاه الأجانب (والأوليغاركيين). عدا ذلك، فقد كان السعي للحصول على المال هو الشغل الشاغل في كافة أرجاء البلاد.

كان أنصار المعارضة في صفوف جيل الشباب يمارسون معارضتهم من خلال عضوياتهم في شتى الأحزاب والجماعات، ومن ضمنها حزب أوبورونا Oborona (الدفاع)، وبورا Pora (آن الأوان)، ودا Da (نعم)؛ لكنها كانت جميعًا أحزابًا سطحية عابرة عديمة الهدف، نتيجة نقص الإلهام والقدرة على القيادة من جانب زعمائها.

بعدها توصل شخص ما من حزب روسيا المتحدة الحاكم إلى قناعة مفادها أن البلاد بحاجة إلى شريحة شبابية (تعمل بشكل رئيسي كقوة مضادة في وجه أي "ثورة ملونة " محتملة كتلك التي اندلعت في جورجيا وأوكرانيا). وهكذا أنشأ فلاديسلاف سوركوف، رئيس أركان بوتين، حركة ناشي Nashi.

سعت الحركة بقيادة سوركوف وفاسيلي يكيمنكو، زعيم حركة "ناشي "، لاجتذاب الشباب المتوافق مع مبادئها عن طريق استخدام تقنيات طليعية. بالأساس، جرى إنشاء "ناشي " لتلبية رغبات وطموحات الشباب غير المسيّس الذي كان لا يزال بحاجة إلى حلم وصورة معينة للمستقبل. لسوء الحظ، لقد أثبت سوركوف رفيع الثقافة على أنه إيديولوجي مبدع مفرط في إيديولوجيته في وقت كانت فيه روسيا بحاجة إلى شخصيات فاعلة أقل تسييسا بوسعها الانخراط في أعمال أكثر إنتاجية.

جرى وضع الخطوط العريضة لهذه السياسة الجديدة من قبل الرئيس بوتين، الذي ذهب إلى أحد المعسكرات السنوية الرئيسية "لناشي " عند بحيرة سيليغار (قرب تفير) وغيره من الناطقين باسم الحكومة. يبقى احتمال نجاح هذه السياسة الجديدة سؤالًا مفتوحًا.

من الواضح أن القيادة السياسية لم تكن مدركة بأن حركة من هذا النوع كان ينبغي أن تخرج من أوساط الشباب، وليس النخبة الحاكمة للجيل الأقدم. لم يكن هنالك ثمة من شيء تلقائي بخصوص "ناشي"؛ لم تكن هنالك أية حاجة أو رغبة حقيقية. كانت بمثابة كيان صوري، ولا يبدو بأن أولئك المسؤولين عنها كانوا مدركين إلى أن مثل هذه المغامرات نادرًا ما تنجح.

كانت "ناشي " يومًا ما تضم أكثر من مئة ألف عضو، ولكن بمجرد مرور خطر الثورة "الملونة " على النظام بسلام، توقفت الحركة عن كونها عاملاً سياسيًا ينطوي على أي أهمية وخسرت الدعم الحكومي. في عام 2010، أعلن ياكيمنكو بأن "ناشي" لم يعد لها وجود.

هنالك العديد من المنظمات الشبابية التي لا تزال موجودة في روسيا، ومن ضمنها منظمات ذات برامج بيئية، لكن الناشطة سياسيًا منها توجد بشكل رئيسي على الأجنحة المتطرفة، مقتدية بالشيوعيين والفاشيين الجدد. لا تعد الخلافات الإيديولوجية القائمة بين هذين الحزبين، مرة أخرى، خلافات جوهرية. هنالك القليل من القواسم المشتركة بين الشيوعيين واليسار التقليدي ولا توجد هنالك أية قواسم مشتركة على الإطلاق مع الماركسية والأممية؛ فهما لم تعتنقا الوطنية وحسب، بل شوفينية القوى الكبرى، وما برحتا تبحثان عن موافقة الكنيسة. يشترك أصحاب اليمين المتطرف في الكثير من النقاط مع برنامج الشيوعيين. الجناحان المتطرفان لهما عدو مشترك واحد - الليبراليون والديمقراطيون، الذين يدعونهم بـ الليبراست Liberasts (مصطلح يشير إلى الليبراليين الروس الذين لا يمتون إلى الليبرالية الحقيقية بصلة). انهم يتظاهرون بالإيمان بأن كل

المنحرفين والشاذين هم ليبراليون وديمقراطيون، والعكس صحيح. ولطالما خرج هذان المعسكران معًا في التظاهرات.

لطالما كان تأثير المتطرفين مبالغًا فيه لأنهم الوحيدون القادرون على حشد الآلاف في تظاهراتهم. لكن سرعان ما ننسى بأن مثل هذه الأعداد لا تعني الكثير في مدينة مثل موسكو يبلغ تعداد سكانها من 12 إلى 14 مليون نسمة. في ضوء خط بوتين الاشتراكي المتميز وتبنيه لموقف معارض لبعض الأوليغاركيين وبعض المؤسسات الكبيرة، فقد جرى تحقيق الكثير عن طريقهم. ولكن ماذا لو تدهور الوضع الاقتصادي وخابت آمال وتوقعات شرائح كبيرة من المواطنين؟ ماذا لو تقلص الدعم السياسي الإجمالي للنظام الحالي؟

بحلول العام 2014 كان بوتين والحكومة قد وصلوا إلى قناعة مفادها أن حركة "ناشي " هي حركة فاشلة؛ لم يعد سوركوف وياكيمنكو موضع ترحيب. كانت "ناشي" حركة فظة ووقحة للغاية (تزعج السفراء الأجانب وشخصيات المعارضة) لكنها لم تكن واعية وفطنة بما فيه الكفاية. كانت نشاطاتها عدائية ميالة للحروب والقتال، لكنها لم تكن تلقى الكثير من التجاوب. ولكن عندما واجهت الحكومة تظاهرات من قبل كافة أنواع المجموعات المعارضة في نهاية 2011، فشلت "ناشي " في حشد الشباب وتقديم أي بديل. منذ ذلك الحين اختفت الحركة تقريبا عن مسرح الأحداث وعن العناوين الرئيسية للصحف.

وبحسب استطلاعات مركز ليفادا، فإن 50 بالمئة من الروس يعتقدون بأن بلدهم بحاجة إلى معارضة؛ في حين أن 23 بالمئة فقط يرون أنها يمكن ان تتدبر أمورها من دون معارضة. لا يوجد هنالك أي معارضة في مجلس الدوما الحالي. وسيغدو جيل شباب عام 2015 جيل ناخبي الغد. من الصعب رؤية معارضة المستقبل في هذا الجيل، لكن ظروفًا غير متوقعة قد تدفع بهم في هذا الاتجاه.

يشكل هؤلاء الحراس الشباب لعام 2014 - 2015 جيلًا غريبًا بأراء ومواقف متناقضة في الغالب؛ إنه جيل معجب ببوتين، لكنه لا يحمل أي تعاطف تجاه السياسيين بشكل عام. اللامبالاة السياسية أمر خطير، لأنها يمكن ان تعني احتمال أن يقوم الراديكاليون بفرض آرائهم على الأغلبية في وقت الأزمة. إنه جيل اشتراكي، لكن العديد من أفراده يفضلون مغادرة روسيا. إنه أيضا جيل حزين بائس: يبلغ معدل الانتحار بين الشباب الروسي ثلاثة أضعاف معدله في أي بلد أوروبي آخر. وبحسب العديد من التقارير، قد تكون الأرقام الفعلية لمعدل انتحار الشباب أعلى من الأرقام الرسمية لأن الحوادث التي تحصل خارج المدن الكبيرة غالبًا ما تفسر على أنها هي سبب الوفاة أكثر منه الانتحار.

إنه جيل متوافق مع قيمه ومبادئه، وليس ثوريًا بأي حال من الاحوال. ولكن مع ذلك، هنالك توتر متزايد. وكما هي الحال في بقية البلدان والمجتمعات المتقدمة، كان هنالك عقد اجتماعي غير مكتوب في الماضي؛ كان الأبناء يعتنون بأطفالهم، وعندما هرم جيل الآباء تولى جيل الشباب العناية بهم. أما الآن فقد قلت أعداد الشباب وبات الكبار يعيشون لفترة أطول. سيكون هنالك عبء أثقل على كاهل أولئك الذين هم شباب اليوم. إنه ليس بالجيل المثالي لبناء ذلك النوع من الإمبراطورية التي يحلم بها بوتين، أو لتحقيق أي هدف رئيسي ما لم يمكن إنجازه بسرعة ومن

دون الكثير من الجهود والتضحيات. تتجلى المصلحة الرئيسية لهذا الجيل بأمنه الاقتصادي والمالي أكثر منه بالشخصية السياسية للنظام، بصرف النظر عن مستوى الحرية في روسيا. لذلك لن يكون بوسع المعارضة توقع الكثير من الدعم من جماعة هذا العصر.

قد تتغير المواقف السياسية والاجتماعية، ولكن من المبكر جدًا تحديد الاتجاه الذي سيسلكه مثل هذا التغير.

نزاعات آسيا الوسطى

جرى تكريس السنوات الأولى من عهد بوتين من أجل الاستقرار والتضامن السياسي. وبمجرد أن تم تحقيق هذا الهدف، باتت المهمة الرئيسية تتمثل بتعزيز الموقف السياسي الخارجي لروسيا. لم تعد روسيا قوة عظمى، ومعظم أقاليمها كانت قد فقدت منها. ولكن في ضوء المستجدات الدولية المبشرة، وأمريكا الضعيفة، وأوروبا المفككة، فقد تحسنت المؤشرات المتعلقة باسترجاع بعض ما فقد على الأقل بعد سقوط الاتحاد السوفييتي. كانت استراتيجية بوتين تستند بشكلٍ رئيسي إلى فكرة المشروع الأوراسي، وهو مشروع لم يستبعد استعادة مواقع مفقودة في أوروبا. كان هذا يستند إلى فرضية أن روسيا لم تكن قوة أوروبية وحسب، وانما أيضًا قوة لها حضور أساسي في آسيا، وأن آسيا كانت بصدد لعب دور متزايد الأهمية في الشؤون العالمية.

كانت استراتيجية محفوفة بالمخاطر. فحضور روسيا في آسيا حضور ضعيف فيما يتعلق بسكانها - لقد تراجع عدد الروس في الشرق الأقصى بحوالي 20 بالمئة في غضون عدة سنوات. والأهم، أن النشاطات الروسية المتزايدة في آسيا الوسطى يمكن أن تفضي إلى نزاع مع الصين، التي أبدت أيضًا اهتمامًا متزايدًا بهذه المناطق.

لطالما كانت هنالك توترات أساسية بين هذين البلدين في أوقات سابقة، والتي توجت باندلاع القتال بينهما عام 1969؛ لكن النزاعات الحدودية جرى تسويتها أيام غورباتشيف، وفي عام 1998 وُضع خط ساخن بين بيجين والكرملين للتعامل السريع مع الأزمات المحلية حال حدوثها. في أثناء العقدين الأخيرين، جرى إخلاء المناطق الحدودية من المظاهر المسلحة وجرى إبرام سلسلة من الاتفاقيات بين البلدين، ذات طبيعة اقتصادية بشكل رئيسي - تجارة الطاقة ومدّ الأنابيب لتسهيل تصدير النفط والغاز. ومع ذلك، لا تزال المصالح الصينية والروسية بهذا الخصوص غير متطابقة. فالبلدان كلاهما يطمح إلى زيادة عائدات النفط والغاز، لكن روسيا تريد الاحتفاظ بسيطرتها على العائدات وترغب في الإبقاء على الأسعار مرتفعة، في حين أن الصين كمستهلك تريد أسعارًا متدنية. وكإجراء احتياطي، عمدت الصين أخيرًا إلى شراء العديد من شركات النفط الكازاخستانية. وتخشى جمهوريات آسيا الوسطى، سيما كازاخستان وتركمانستان، روسيا أكثر من الصين بسبب قربها الجغرافي - لدى روسيا قواعد عسكرية في جمهوريات آسيا الوسطى، في حين أن الصين ليس لديها مثل هذه القواعد - وهي تحبذ أن تؤلب إحداهما على الأخرى. ولطالما لقيت الأقلية الروسية في كازاخستان معاملة طيبة - إلى درجة أنهم رشحوا نور سلطان نزارباييف، الرئيس الكازاخستاني، لجائزة نوبل عام 2013. في ظل قيادة مختلفة، فإن الوضع قد يتدهور، ولكن في ضوء الأوضاع الحساسة للبلاد، حتى القيادة المستقبلية قد تتصرف بحذر.

لقد أشارت الحكومتان إلى علاقتهما بوصفها "شراكة استراتيجية ". كانت روسيا تدعم الصين كلما جرى طرح قضايا التيبت وتايوان في محافل المنتديات الدولية، في حين أن الصين كانت دائمًا تدافع عن نشاطات روسيا في القوقاز. لقد جرت المناورات العسكرية تحت رعاية منظمة تعاون شنغهاي التي تضم ستة أعضاء، والمنشغلة إلى حد كبير بأمن المنطقة لمواجهة تهديدات الإرهاب والحركات الانفصالية. مع ذلك، فإن التعاون الذي تنص عليه المعاهدة لا يمتد ليشمل تبادل التكنولوجيا العسكرية المتطورة؛ لقد أحجمت روسيا عن تزويد الصين بالتكنولوجيا النووية الأكثر تطورًا.

رحبت موسكو بصفقة الطاقة التي أبرمت عام 2014 وتنص على تقديم الغاز من روسيا إلى الصين على مدى ثلاثين عامًا والمقدرة بـ 400 مليار دولار، كإنجاز سياسي ذي أهمية بالغة كونه سيسهم في تقليص اعتماد تجارة الطاقة الروسية على زبائنها الأوروبيين. كذلك، أنشأت روسيا في عام 2014 الاتحاد الاقتصادي الأوراسي مع كازاخستان وبيلاروسيا. وهنالك تباين في الآراء حول أهمية هذه السوق المشتركة في المجالات السياسية والاقتصادية. بالنسبة لبوتين، فإن الخطة البعيدة الأمد تتمثل بتوسيع نطاق الاتحاد الجمركي ليشمل كافة بلدان ما بعد المرحلة السوفييتية (باستثناء بلدان البلطيق). لقد أعربت أرمينيا وقرغيزيا عن اهتمامهما بالانضمام للاتحاد، على الرغم من أن البعض في أرمينيا يعارض مثل هذا التحرك، بحجة أنه سيحد من سيادتها الوطنية. ولم تبد الصين وبقية البلدان الآسيوية أي اهتمام حتى الآن بالانضمام إلى هذا الكيان، لكن أيًا منها لم يعارض وجوده.

وعلى العموم، لقد تحركت روسيا والصين كلتيهما بحذر وتأنٍ في آسيا الوسطى، كي لا تتعدى إحداهما على مصالح الأخرى. وفي الوقت الحاضر، تقتصر مصلحة الصين على واردات الطاقة وبعض المعادن. لم تبد روسيا أو الصين حتى الآن أي اهتمام بالاحتلال الجغرافي لآسيا الوسطى. فقد حاولت روسيا الإبقاء على وضعها السياسي التقليدي المسيطر في المنطقة، لكن هذه السيطرة لم تؤد إلى أي معارضة من جانب الصين، طالما أن مصالحها الاقتصادية في آمان.

مع ذلك، ومن منظور بعيد المدى، لا يبدو من المؤكد أن روسيا ستكون قادرة على المحافظة على وضعها الحالي، لأن عدم التوازن الديمغرافي سوف يكون طاغيًا ربما. فعدد السكان الروس الإثنيين مرشح للتناقص إلى أقل من ثلاثين مليونًا، في حين أن عدد سكان جمهوريات آسيا الوسطى المسلمة مرشح للوصول إلى عتبة الثمانين مليونًا، وسيحتفظ الصينيون بجالية سكانية تفوق المئة مليون نسمة في الأقاليم الحدودية. ومن المرشح لمثل هذا التفاوت أن تكون له إرهاصات وتداعيات سياسية لا يستهان بها. قد تبقى روسيا قادرة على المحافظة على وجودها، ولكن في موقف ضعيف لم تكن معتادة عليه في الماضي، وقد تجد صعوبة في تعديله في المستقبل.

ما هي المناطق الأخرى التي يحتمل أن تكون مجالاً للنزاع في السنوات القادمة؟ لقد أصبحت منطقة القطب الشمالي محل نزاع بين روسيا والغرب، بمطالب إقليمية متباينة من جانب خمسة بلدان: كندا والدنمارك والنروج والولايات المتحدة وروسيا. تتعلق هذه المطالب أيضًا بافتتاح طرق بحرية باتت سالكة في أعقاب الاحترار العالمي، وباتت هذه المطالب أكثر إلحاحًا الآن في ضوء التدهور في العلاقات بين روسيا والغرب.

جرى إبرام العديد من الاتفاقيات الدولية استنادًا إلى ميثاق الأمم المتحدة، لكن قانون البحار لا يتسم بذلك المستوى من الدقة، فهنالك العديد من المسائل لا تزال مفتوحة فيما يتعلق بالسيطرة على المنطقة البحرية القطبية الشمالية. وبحسب القانون البحري، هنالك منطقة مائية إقليمية تبلغ مساحتها 12 ميلًا بحريًا تسمح للدول الساحلية بوضع قوانين لتنظيم استخدام واستغلال الموارد. إضافة إلى ذلك، هنالك منطقة مجاورة تمتد على مسافة اثني عشر ميلًا بحريًا إضافيًا تسمح بوضع قوانين متعلقة بالتلوّث وفرض الضرائب والجمارك. أخيرًا، هنالك "منطقة اقتصادية" حصرية تمتد على مسافة مئة ميل بحري للتحكم بكافة الموارد الحية وغير الحية.

لقد أفسحت المنطقة الاقتصادية البالغة مساحتها مئتا ميل بحري في المجال أمام نشوء هذه المطالبات المتباينة. فروسيا وكندا والدانمارك (غرينلاند) تطالب بحيد لومونوسوف Lomonosov، (وهو حيد غير عادي بحجم نصف قارة أوروبا. كما تعتبر السيطرة على الممر الشمالي الغربي (طريق بحري يربط شمال الأطلسي ببحار المحيط الهادئ عبر القطب الشمالي) موضوعًا آخر من الموضوعات المتنازع عليها. يمكن لهذه المطالبات وغيرها أن تحل بالطرق السلمية؛ ولكن لسوء الحظ، لا توجد ضمانات مؤكدة على أنها ستحل بهذه الطريقة.

هنالك اعتقاد متزايد بأن حقولًا كبيرة للنفط والغاز موجودة في المنطقة، ومن هنا فإن الحماسة الروسية لامتلاك أكبر عدد ممكن من حقول النفط والغاز في المنطقة القطبية الشمالية - بالرغم من المصاعب التقنية والتكاليف الباهظة الذي ينطوي عليها استخراج النفط والغاز في المنطقة - يمكن فهمها في ضوء حقيقة أن بعض الحقول الواقعة على البر الروسي تقترب من النضوب. من هنا جاءت المطالبة بتواجد عسكري روسي قوي والقيام باستعراضات للقوة في المنطقة القطبية الشمالية، على سبيل المثال، من قبل ديمتري روغوزين، وهو ناطق اشتراكي بارز ونائب لرئيس الوزراء، إذ يقول: "إنه أمر بالغ الأهمية بالنسبة لمصالحنا القومية في هذه المنطقة. إن لم نقم بذلك فسنخسر معركة الموارد، ما يعني أننا سنخسر معركة كبرى لحقنا في السيادة والاستقلال".

لقد سبق لروسيا أن أقامت قواعد عسكرية في المنطقة القطبية الشمالية، ولكن في أعقاب إبرام تفاهم حول إخلاء المنطقة من المظاهر المسلحة، لم تمض روسيا في استكمال إقامة تلك القواعد. ومع ذلك، أعلن بوتين في أيار/ مايو 2014 عن إعادة افتتاح القواعد لحماية مصالح روسيا الاستراتيجية في المنطقة القطبية الشمالية. وهذا بدوره أفضى إلى إعلان من قبل أمين عام حلف الناتو مفاده أن أعضاء الحلف سيتوجب عليهم معالجة القضية في ضوء الإجراءات الروسية. كانت الولايات المتحدة مترددة بالمشاركة في نزاعات المنطقة القطبية الشمالية، لكن أعضاء آخرين في الناتو أقرب إلى مسرح الأحداث (كالنروج وكندا) أعربوا عن قلقهم في أعقاب بناء القواعد العسكرية الروسية. بعض المعلقين الروس توقعوا حتى اندلاع حرب حول ملكية حقول النفط والغاز في المنطقة القطبية الشمالية في غضون السنوات العشر التالية.

لا يعرف سوى القليل خارج روسيا (وليس الكثير داخلها) عن بعض الأقاليم التي كانت يومًا جزءًا من الاتحاد السوفييتي والتي يعد وضعها المستقبلي موضع نزاع. ترانسنيستريا هي إحدى تلك الأقاليم، كما هي أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية - الاثنتان الأخيرتان تقعان في القوقاز. كان ينبغي التطرق إلى ذكر هذه الأقاليم هنا لأنه بحسب التجربة التاريخية، فحتى الأقاليم البالغة الصغر يمكن لها أن تثير نزاعات سياسية كبرى. لا يعرف سوى القليل عن الغاغوز Gagauz، وهي أقلية

تعيش في ترانسنيستريا. وهنالك جدل بين الخبراء حتى على أصولها (بلغارية أم من قبائل السهوب). ومهما يكن من أمر، فهي تحتل مكانة بارزة في النزاع والنقاشات الدائرة بين الكرملين وجمهورية مولدوفا.

ظهرت جمهورية مولدوفا وعاصمتها كيشينيف (تشيزيناو) إلى حيز الوجود مع تفكك الاتحاد السوفييتي. اللغة الرومانية هي اللغة الرسمية فيها. ومع ذلك، فهي أيضًا موطن لعدد كبير من الروس والأوكرانيين والغاغوز. معظم الروس والأوكرانيين كانوا قد انتقلوا إلى المنطقة الواقعة شرق نهر الدنيستر إبان العهد السوفييتي، وهم يمثلون الآن أكثر بقليل من نصف عدد السكان، وبقي الحزب الشيوعي المجموعة السياسية الأقوى هناك. شعرت المنطقة الروسية - الأوكرانية - الغاغوزية بالتحيز والتحامل ضدها، ما أدى إلى حصول انشقاق؛ فجرى إصدار قانون يمنح هذه المنطقة حكمًا ذاتيًا كاملًا تقريبًا، لكنه لم يحظ بمصادقة البرلمان المولدوفي. حصلت هنالك اشتباكات مسلحة، وفي خلال عمليتي تصويت (1991 و2006) أعربت الغالبية عن رغبتها الانفصال والاتحاد مع روسيا، في حين أن مولدوفا كانت تتحرك باتجاه الاتحاد الأوروبي. كان التأثير الاقتصادي والعسكري الروسي قويًا في منطقة ترانسنيستريا. كانت هنالك قوات روسية متمركزة عند منطقة الفصل. وهنالك نشيد وطني خاص بالمنطقة، والكتب الروسية تستخدم في المدارس المحلية، كما أن العملة المحلية هي الروبل؛ ومع ذلك فإن موسكو لم تضغط عليها من أجل التوحد في تاريخ مبكر. لم تبرز هذه القضية إلا وقت أزمة القرم عام 2014. الوضع الاقتصادي لمولدوفيا هو في غاية السوء؛ والوضع الاقتصادي لترانسنيستريا هو أكثر سوءًا، وبدخل فرد متدن للغاية.

تعتبر جمهورية أبخازيا نفسها دولة مستقلة وترغب في البقاء مستقلة. وقد اعترفت بها أربعة دول أعضاء في الأمم المتحدة (روسيا وفنزويلا ونيكاراغوا وجزيرة ناورو جنوب الباسفيك). خاضت أبخازيا ولعدة مرات حربًا ضد جورجيا، التي كانت جزءًا منها، منذ تفكك الاتحاد السوفييتي. أوسيتيا الجنوبية كانت أيضًا جزءًا من جورجيا، لكنها أعلنت استقلالها عام 1990. بنتيجة الاضطرابات الدائمة تقريبًا، فر العديد من أبناء أوسيتيا إلى أوسيتيا الشمالية التابعة لروسيا، بينما انتقل العديد من الجورجيين إلى جورجيا. أدت قضية أوسيتيا الجنوبية إلى نشوب حرب بين جورجيا وروسيا عام 2008. ولا تتمتع المنطقة بأي أهمية استراتيجية، وهي ترزح تحت نير فقر مدقع واقتصاد معتمد كليًا على روسيا.

إن القضايا الحقيقية موضع الرهان بخصوص استعادة الإمبراطورية الروسية لا تتعلق بالمناطق الصغيرة المنشقة، وإنما بأوكرانيا والقوقاز من جهة، وبدرجة التأثير الروسي على البلدان الأوروبية الشرقية من جهة أخرى. وسوف تعارض روسيا أي مشاركة عسكرية حقيقية من جانب هذه البلدان مع الغرب؛ أما قدرة روسيا على منع نشوء علاقات سياسية واقتصادية أكثر متانة بين هذه البلدان وأوروبا الغربية، فتعتمد على ميزان القوة واعتماد أوروبا على واردات النفط والغاز.

لقد جرى مناقشة نقاط الضعف السياسية والاقتصادية الروسية بشيء من التفصيل، ولا يبدو بأن تغيرًا كبيرًا نحو الأفضل سوف يحدث في المستقبل القريب. ومع ذلك، فإن التحرك باتجاه التكامل الأوروبي والموافقة على سياسة مشتركة تشمل الاقتصاد والسياسة والطاقة قد أظهر بوادر متماثلة من الضعف. لقد أفضى ضعف أوروبا إلى استحداث سياسة خارجية روسية تهدف إلى توسيع

نطاق نفوذها، حتى لو كانت القاعدة التي ستستند إليها مثل هذه السياسة هشة ضعيفة. قد تكون الطموحات الإمبريالية الروسية محدودة، لكن الضعف الغربي يمكن أن يشكل طعمًا مغريًا لها.

هنالك وفرة كبيرة في المشاريع السياسية والاقتصادية الأوراسية، ولكن هل ستوفر هذه المشاريع الاستقرار والرخاء في هذا الجزء من آسيا المحاذي لروسيا؟ من بين جمهوريات آسيا الوسطى الخمس، هنالك اثنتان تبليان بلاءً حسنًا نسبيًا، في حين أن المشاريع المستقبلية لبقية الجمهوريات تبقى تشاؤمية لا تبعث على الارتياح في ضوء الظروف الحالية. تمتلك تركمانستان حقول نفط وغاز لا يستهان بها، سيما على الشاطئ الشرقي لبحر آرال. أما كازاخستان فقد أصبحت موردًا أساسيًا للنفط والغاز وبعض المعادن النادرة. وقد استقطب هذا البلد استثمارات كبيرة من الغرب والشرق. وأصبح أيضًا موقعًا لأنبوب نفط هام إلى الصين. وبموجب اتفاقية الـ(SCO)، فإن أمن المنطقة يبدو مصانًا. لكن السؤال يبقى مطروحًا حول ما إذا كانت هذه الاتفاقيات ستوفر استقرارًا داخليًا في حالات الطوارئ. لا يمكن تجاهل التوترات المحلية.

نادرًا ما كان يتم الإشارة إلى الحرب الأهلية الطاجيكية بين شتى القبائل والمجموعات العرقية (1992 - 1998) خارج إطار المنطقة. لقد خلّفت هذه الحرب أكثر من مئة لف قتيل وشردت أكثر من مليون لاجئ. ولم تتمكن الحكومة حتى الآن من فرض سيطرتها الكاملة على المنطقة. وفي حين أن حربًا نظامية تبدو مستبعدة تمامًا بين الجمهوريات، فإن أشكالًا أخرى من النزاع قد تحصل بنتيجة سوء الإدارة وبعض القضايا الأخرى مثل السيطرة على تجارة المخدرات، التي تشكل جزءًا هامًا غير رسمي من الاقتصاد الرمادي للمنطقة. وتعمد الحكومات المحلية إلى إغلاق حدودها في أغلب الأحيان متسببة بمصاعب جمّة للسكان، حتى لو استمر التهريب. وتعود التوترات بين المجموعات الإثنية والدينية إلى عهود موغلة في القدم. وفي الوقت الذي تتجه فيه حكومات مثل تلك الموجودة في كازاخستان وأوزباكستان إلى انتهاج سياسة علمانية قومية، فإن التوجهات الإسلامية المحافظة تسود في العديد من المناطق، والاضطرابات الحاصلة ضد هذه السياسات سوف تفاقم هذا المناخ من عدم الاستقرار.

من الصعب تقييم دلائل ومؤشرات الحركة الإسلامية المتشددة، لأن معظم نشاطاتها تحصل بشكل سري. ويبدو من المحتمل أن بعض مقاتلي الحرب الأفغانية على الأقل سيقومون بمهاجمة جمهوريات آسيا الوسطى.

كانت الحركة المتشددة الاكثر نشاطًا في آسيا الوسطى تتمثل بحزب التحرير، وهو منظمة سياسية إسلامية تأسست في القدس في الخمسينات، وتعتزم إنشاء دولة اسلامية شاملة (خلافة). وحاليًا تعتبر هذه الحركة محظورة في كافة البلدان تقريبًا، ومن ضمنها بلدان العالم العربي. ولكن لا ينبغي الاستخفاف باحتمالات وجود هذه الحركة في بعض بلدان آسيا الوسطى، مثل قرغيزيا.

على العموم، لقد نجحت جمهوريات آسيا الوسطى في قمع الجماعات المتطرفة. إيغوروس، الصيني المسلم، جرى اعتقاله واعدته إلى الصين. ومع أن هنالك قدرًا كبيرًا من الاستياء بين سكان بعض المناطق، بالإضافة إلى تدفق المقاتلين من أفغانستان يمكن أن يغير الوضع. في ضوء الفساد الموجود على المستوى المحلي، إلاَّ أن "الإرادة الطيبة" من جانب السلطات لا يمكن استحضارها إلا في مناطق معينة فقط؛ لأن مثل هذه الظروف قد تبدو مؤاتية لإنتاج أسلحة الدمار الشامل. ومع

ذلك، فإن ظروفًا مشابهة تسود مناطق عالمية أخرى مثل السودان واليمن التي يمكن اعتبارها مناطق مفضلة للإرهابيين من وجهة نظر لوجستية.

جرى حتى الأن التطرق إلى ذكر عودة محتملة للإرهاب في كازاخستان، لكن الوضع في أوزبكستان لا يختلف كثيرًا. لقد فشلت منظمة الحركة الاسلامية في أوزباكستان (IMU) حتى الآن في تحقيق هدفها بالإطاحة بالحكومة في الداخل، لكن فرصة أخرى قد تسنح لها مع عودة الجهاديين الأوزبك من ميادين القتال في أفغانستان وسورية والعراق وبلدان أخرى. وحاليًا، تتمركز الحركة الجهادية الأوزبكية بشكل رئيسي في "الشتات" الأوزبكي لطاجيكستان المجاورة، وبعض البلدان العربية وتركيا، حيث كان الشباب الأوزبكي يتلقى تعليمه كي يصبح راديكاليًا. البعض منهم يتوق بلهفة كبيرة لاستئناف الصراع داخل الوطن، وقد لا تكون الحكومة المحلية قادرة على مواجهة مثل هذا التحدي.

يبقى أن نعرف ما إذا كان بمقدور اتفاقية SCO التعامل مع هذه التهديدات. لقد أظهرت روسيا قدرًا بسيطًا من الحماسة لإدراج قرغيزستان وطاجيكستان على أجندة مشاريعها الأوراسية، مدركة بأنهما ستشكلان عبئًا أكثر منه مكسبًا لها. فمن وجهة نظر موسكو، قد يكون من المفضل تنصيب حكومات شبه مستقلة موالية لروسيا في تلك البلدان. ومع ذلك، فإن مثل هذا المخطط قد يواجه مقاومة وطنية محلية، وخطر وجود دول فاشلة على حدود روسيا لن يتلاشى. من هنا كانت احتمال أن تبقى أجزاء من آسيا الوسطى مناطق خطر.

أنا لم كن أتعامل مع أوكرانيا ومولدوفيا، أو مع جمهوريات البلطيق، أو مع جورجيا وأذربيجان، وهي البلدان التي كانت يومًا جزءًا من الاتحاد السوفييتي أو الكتلة السوفييتية. تعتبر موسكو هذه البلدان جزءًا من منطقة نفوذها، ولا تريد لأي تغيير أن يحصل بهذا الخصوص. وهذا يمكن تحقيقه من خلال المحافظة على وجود روسي مادي مباشر، لكن من المؤكد أن البلدان (أو المناطق) المعنية تريد الاحتفاظ بحد أقصى من الاستقلال. هل ستكون هذه الدول قادرة على التعويل على دعم مساعيها الاستقلالية من خلال قوة أخرى، بما فيها أوروبا والولايات المتحدة، لا أحد يعرف الجواب. لأن هذا الأمر يعتمد على توازن القوى الدولي، وفوق كل شيء على مسألة الطلب والعرض على النفط والغاز. قد يتم، بعد جهود مضنية، التوصل إلى اتفاق أو ترتيب معين، إلا أن نشوب نزاعات مؤقتة ومحلية ضد هذه التوجهات هو أمر مؤكد تقريبًا.

الخاتمة

إلى أين أنت ماضية يا روسيا؟

كيف يتخيل الروس مكانة بلادهم على الساحة العالمية بعد خمسة عشر أو عشرين عامًا من الآن؟ قبل عام أو عامين كان هنالك قدر كبير من التشاؤم، ولكن كان هنالك تغير كبير في حال الكرملين والبلاد عمومًا، بنتيجة الأزمة الاقتصادية بالطبع. وبحسب استطلاعات الرأي العام، ينظر معظم الروس إلى بلدهم كقوة عظمى؛ وهي نظرة أقل انتشارًا بين الخبراء. وحسبما يرونها الآن، فإن الغرب في حالة تقهقر وعزلة. إن قواعد اللعبة التي يجري وضعها من قبل الاتحاد الأوروبي وواشنطن منذ وقت طويل، لم تعد نفسها. وتوسع الناتو والاتحاد الأوروبي إلى تخوم روسيا جرى وقفه. يشترك بهذه الآراء معلقون روس متشددون ومعتدلون أمثال سيرجي كاراغانوف ولكسندر لوكين وغيرهم. لقد جرى تمريغ الكرامة الروسية تحت النعال حتى الآن. مصدر الإزعاج بشكل خاص للطبقة السياسية الروسية كان الخداع والنفاق الممنهج والوعود الكاذبة. ونظرًا لعجزها عن اللحاق بالركب، فقد تخلت روسيا الآن عن محاولاتها كي تغدو جزءًا من الغرب.

لقد بدأ الغرب الآن يفقد سيطرته على الاقتصاد العالمي، وشرعت مزاياه العسكرية بالتضاؤل، والسبب الرئيسي كان رفض الغرب وضع نهاية واقعية وشرعية للحرب الباردة. لطالما كان الغرب يمارس سياسة توسعية ممنهجة لنطاق نفوذه وسيطرته عسكريًا واقتصاديًا وسياسيًا. لقد جرى التعامل مع روسيا كأمة مهزومة وتم تجاهل مصالحها واعتراضاتها. ومع ذلك، لا يعتبر الروس أنفسهم مهزومين. مصدر الإزعاج بشكل خاص للطبقة السياسية الروسية كان الوعود والتعهدات التي كان يجري الإخلال بها بشكل ممنهج ينطوي على كثير من الكذب والنفاق. لقد تم إحاطة الروس علمًا بأن سياسة "مناطق النفوذ" باتت سياسة بالية عفا عليها الزمن. ولكن كان معروفا في بقية مناطق العالم أن هذا ببساطة غير صحيح، وكان عبارة عن مزحة سمجة تسبب التقزز. كان الباعث وراء التوسع الأوروبي حمل روسيا على الاعتقاد بأن أوان التقهقر الأوروبي جيوبوليتيكيًا وسوسيولوجيًا قد انتهى، والتمويه على حقيقة أن أزمة مشروع التكامل الأوروبي هي أزمة غير قابلة للعلاج. كان هذا مؤلمًا جدًا للطبقة السياسية للبلدان الغربية حيث إنه كان يلقي ظلالًا من الشك على مشروعيتها الأخلاقية والسياسية. كان الغرب يريد أيضًا تدمير وتخريب مشروع روسيا الأوراسي في إعادة إنشاء اتحاد اقتصادي آسيوي - أوروبي. اللغة لم تكن واضحة دائمًا، لكن النية كانت موجودة. لم تكن روسيا تحب أوروبا، ولم تكن جزءًا منها، وبأية حال، أوروبا كانت قد انتهت، أو أوشكت على النهاية. أما فيما يتعلق بالوعود التي كان يجري الإخلال بها بشكل ممنهج ينطوي على كثير من الكذب والنفاق، فقد صرح بوتين وبقية الناطقين باسم النظام عدة مرات في السنوات الأخيرة أن الغرب وعد روسيا بأن الناتو لن يتحرك شرقًا، وأن هذا الوعد لم يتم الوفاء به. الوثائق (التي كتبها الرئيس جورج دبليو بوش وجيمس بيكر وهلموت كول) تظهر بأن غورباتشيف كان يريد فعلًا تعهدًا من هذا النوع، لكنه لم يتقدم بمثل هذا الطلب قط. عوضًا عن ذلك، جرى قطع وعد بتقديم مساعدة اقتصادية غربية (وفي المقام الأول، ألمانية) لتجنب الإفلاس الوشيك آنذاك للدولة السوفييتية. يمكن الزعم بأنه كان على القادة الغربيين أن يوافقوا على مثل هذا

التعهد في ضوء ضعف الناتو وعجزه وعدم استعداده لاتخاذ موقف قوي في حال وقوع خطر. ولكن ما حصل كان مغايرًا، والرواية الروسية للسنوات الأخيرة حول موضوع "الخيانة" كانت مبنية على سوء فهم أو، الأرجح، تلفيق. التصريحات الروسية غالبًا ما كانت متناقضة، تعبر عن الخوف والاعتزاز في آن معًا. فمن جهة زعم القادة الروس بأن الغرب كان يطوّق روسيا، ومن جهة أخرى كانت هنالك تأكيدات أسبوعية تقريبًا من جانب بوتين وآخرين بأنه لا يوجد هنالك بلد أقوى من روسيا عسكريًا وأنها قادرة على تدمير وسحق الولايات المتحدة. إذا كان الناتو قد تمدد شرقًا فليس لأن الولايات المتحدة أو بقية أعضاء الناتو مارسوا ضغوطًا على جيران روسيا للانضمام، ولكن لأن هذه البلدان الصغيرة شعرت بأنها مهددة من قبل دولة غالبًا ما تسعى لاستحضار رسالتها الإمبريالية. ربما كان حريًا بالناتو عدم قبول أي أعضاء جدد. ومن غير المؤكد بأية حال ما إذا كان مثل هذا التنازل سيسهم في تهدئة أعصاب روسيا أم أنه، على العكس، كان سيفسر على أنه علامة ضعف ودعوة إلى روسيا للتوسع.

ليس صحيحًا أن الغرب حاول النأي بنفسه عن الشؤون الروسية منذ البداية. لقد قام الغرب بدعوة روسيا للانضمام إلى مجموعة الدول السبع (G7)، والمجلس الأوروبي، ومنظمة التجارة العالمية وغيرها من مثل هذه الهيئات المماثلة. ولكن لولا المساعدة الطارئة التي قدمها البنك الدولي وصندوق النقد الدولي لروسيا في تموز/ يوليو 1998 بقيمة تزيد على 22 مليار دولار، لكانت روسيا على شفير الإفلاس - لكن نادرًا ما كان يتم التطرق إلى ذكر هذه الحقيقة. تشكل هنالك انطباع بأن روسيا كانت تريد المزيد. كانت تريد من أوروبا أن تنضم لمشاريعها الأوراسية بصورة تظهر معها روسيا وكأنها القوة الرئيسية في العالم باستثناء الولايات المتحدة. ولكن توفير دعم كبير لمثل هذه الطموحات لم يكن ممكنًا في الغرب.

هذا ما كان يعبر عنه بشكل كبير كبار الخبراء الروس شفويًا وخطيًا. لكن الأكثر ذكاءً وحنكة بينهم كان يشعر بأن هذه ليست القصة الكاملة. سيرجي كاراغانوف، أحد كبار المراقبين المعاصرين المتابعين للمشهد الروسي لا يزال يرى سُحبًا سوداء فوق الأفق - اقتصادية وديمغرافية وسياسية. روسيا الآن في أوج قوتها، وبعد خمسة عشر أو عشرين عامًا من الآن ستغدو أكثر ضعفًا. وإذا كان الحال كذلك فعلى روسيا أن تبدأ بالبحث عن حلفاء. ربما كانت التنبؤات بشأن القوة المستقبلية للصين مبالغًا بها؟ ربما سيواجه ذلك البلد أيضًا مشكلات أساسية في السنوات القادمة؟ على أية حال، يستحسن بروسيا أن تبقي كافة الخيارات مفتوحة، وألا يؤول بها المآل كتابع لقوة عظمى مستقبلية ما. لا يبدو بأن بوتين مدرك تمامًا لمثل هذه الحاجة، ولكن ربما كان من المستحسن أيضًا عدم التصريح بذلك علنًا.

يوضح المعلقون الروس الأكثر تحفظًا والأقل ابتهاجًا بالنصر بأنه حتى النصف الثاني من العام 2000 كان هدف روسيا الاستراتيجي متكاملًا مع أوروبا وفق شروط مقبولة. فقد أوضحت موسكو الطبيعة الأوروبية للدولة الروسية والحضارة الروسية واقترحت مفهومًا للتعاون بين رأس المال والتكنولوجيا الأوروبية والموارد الطبيعية والبشرية الروسية، الأمر الذي كان يمكن له أن يجعل من أوروبا كيانًا منافسًا على صعيد الاقتصاد العالمي. كان يمكن لها أن تشكل قوة ثالثة في العالم إلى جانب الولايات المتحدة والصين. سعت روسيا إلى تكامل مشابه، وأبدت بعض البلدان

الأوروبية اهتمامها؛ لكن الاتحاد الأوروبي بمجمله لم يكن مهتمًا، سيما الأعضاء الجدد (أوروبا الشرقية) الذين تدعمهم الولايات المتحدة. وهكذا تم خسارة فرصة تاريخية سانحة أخرى.

جانب كبير من هذه التقديرات والتخمينات كان جديدًا وصادفا للغربيين - الإشارة إلى الطبيعة الأوروبية للدولة والحضارة الروسية، التي لطالما كان يجري تفنيدها بقوة معظم الوقت في البروباغاندا المناوئة لروسيا، سيما فيما يتعلق بألعاب سوتشي الأولمبية. لا بد أن الأوروبيين فاجأهم معرفة أنهم كانوا يريدون استمرار الحرب الباردة بأي ثمن. لكن الأهم من كل ذلك، أن الفكرة كانت ستسبب لهم قدرًا كبيرًا من الحيرة والارباك - الفكرة التي بحسب ما قيل كانت موجودة وتم رفضها - حيال الفرصة العظيمة الضائعة لروسيا الباحثة عن التكامل مع الغرب.

يبقى هذا موقف المعتدلين، أو ما يسمى أيضًا بـ "حزب السلام." فهم يعتبرون غزو القرم أمرًا واقعًا مرحبًا به ويرون أن الضغط على أوكرانيا يجب أن يستمر. وبحسب كاراغانوف ينبغي على روسيا أن تدافع عن مصالحها بقبضة من حديد. لكن الضغط ينبغي أن يكون سياسيًا واقتصاديًا أكثر منه عسكريًا، الأمر الذي ينطوي على مخاطر جمة، وقد تكون له عواقب وتداعيات غير مستحبة، إن لم تكن خطيرة.

في كلمة له أوائل العام 2013 أعاد فاليري غيرازيموف Valery Gerasimov، رئيس أركان القوات المسلحة الروسية، التذكير بالطبيعة المتغيرة للحرب المعاصرة التي يمكن خوضها عن طريق وحدات خاصة صغيرة أو إجراءات سياسية واقتصادية، أو من خلال الحرب الإلكترونية. الجيوش الجرارة باتت فكرة قديمة عفا عليها الزمن، بحسب قوله. لقد توصل المفكرون العسكريون الغربيون إلى استنتاجات مشابهة في السنوات الأخيرة. هنالك حزب مؤيد للحرب فى روسيا يرى بأن الوقت الحالي هو وقت مناسب لتوجيه ضربة استباقية للغرب انتقامًا لانهيار الاتحاد السوفييتي واستعادة معظم القوة والنفوذ التي كانت روسيا تمتلكها في يوم من الأيام. فالمخاطر محدودة، والناتو مفكك، والمزاج العام في أمريكا ينحى باتجاه الانعزالية بل حتى الانهزامية. وإذا لم يكن لدى الولايات المتحدة أي استراتيجية تجاه سورية، بحسب قول أوباما عام 2014، فالأرجح أنها لن ترد بقوة في حال حصول أي هجوم عدواني روسي محدود النطاق في أوروبا الشرقية. الدمار المشترك للطرفين كليهما قد يكون لا يزال واردًا في حال حصول هجوم نووي شامل ضد الولايات المتحدة. لكن ضربة نوويةً محدودة ضد أحد الأهداف في أوروبا الشرقية قد لا تستدعي بالضرورة ردًا أمريكيًا. الحالة العامة في الغرب هي بدرجة كبيرة حالة لامبالاة مطلقة تجاه نارفا Narva؟ نارفا هي الجزء الشرقي من أستونيا الذي يعيش فيه العديد من الروس الإثنيين. قد يؤدي فشل الغرب في الرد إلى زوال الناتو وتضاؤل الهيبة الأمريكية في العالم أكثر فكثر. في هذا المنظور، فإن الفشل الروسي بالإقدام على مثل هذا العمل سيكون بمثابة فرصة ضائعة ترقى إلى مستوى فقدان زمام المبادرة في حرب غير معلنة كانت قائمة منذ بعض الوقت.

هنالك داعمون ومؤيدون لوجهة نظر الحزب المؤيد للحرب فيما وراء معسكر غلاة القوميين والجماعات ذات الآراء المتطرفة. فهم يعترفون بأنهم يريدون القضاء على الليبراليين والديمقراطيين في عقر دارهم وفي الخارج؛ وهم يأملون بقدر بالغ من الحماسة بحدوث مواجهة مع الغرب؛ ويعتقدون بأن بروكسل هي "مركز الفاشية العالمية". تعتبر هذه المزاعم محيرة أحيانًا لأن الغرب قد أحيط علمًا مرارًا وتكرارًا بأن الفاشية لم تكن في الحقيقة العدو الرئيسي (إن كان

هنالك ثمة من عدو بالأساس) لكن "الأطلسية" والليبرالية والديمقراطية على النمط الغربي - تلك هي الأخطار الداهمة والشر المستطير. حتى المعتدلين بالحد الأدنى أمثال سيرجي كورجينيان والمقربين من الكرملين، كانوا يوضحون للغرب بأن هنالك الكثير من السجايا التي تستحوذ الإعجاب لدى هتلر حتى العام 1939 على الأقل. إذا كانت هذه هي الحقيقة، فلماذا إذًا تلك الهجمات المفاجئة من الشجب والإدانة ضد هتلر؟ لأنه تخطى حدودًا معينة (ما يسمى بالخطوط الحمر في زماننا)، وهي قضية جرى طرحها أيضًا قبل سنوات عديدة من قبل إيفان الثاني، الذي غدا بمثابة النبراس الأخلاقي والسياسي الأول.

صحيح أن فرصة ذهبية تم هدرها في التسعينات عندما أرادت روسيا الالتحاق بالغرب وجرى رفضها؟ هذه الرواية من روايات التاريخ الحديث غير مقبولة عالميًا. يجدر بنا العودة إلى وجهة نظر المؤرخ الروسي الرائد، يوري أفاناسييف، ("الامبريالية الروسية الجديدة؟" Perspective، فبراير/ مارس 1994). كان تحليله مبنيًا على ما سماه "عقيدة يلتسن" وكذلك العقيدة العسكرية الروسية الرسمية لعام 1993: ضرورة وجود روسيا قوية، تلعب دور صاني السلام وتدافع عن مصالحها المشروعة كدولة. كان هذا هو دور الروس، ولهم الحق بالتصرف بحزم وقسوة. كانت روسيا مرغمة على الدفاع عن مصالح الروس الذين يعيشون في الخارج القريب إذا ما تعرضت حقوقهم للانتهاك. بعبارات سياسية عملية، كان هذا يعني أن مصالح الدولة الروسية كانت تمتد إلى كامل أقاليم اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية السابق (USSR) وبررت محاولة فرض سياسة خارجية خاصة على كافة بلدان المعسكر الاشتراكي الأوروبي السابق. كان يعني عودة إيديولوجيا القوة العظمى (derzhavnost). وما كان لوجهة النظر هذه أن تشكل مفاجأة كبيرة حتى في عام 1994، ويمكن الاستشهاد بالعديد من الأسباب في معرض الدفاع عنها. لكن كان من الصعب الجزم بأن هذا يسمو على الرغبة المتقدة بالالتحاق بأوروبا لتكون جزءًا منها.

من وجهة النظر المثلى لعام 2015، هذا ما حصل تقريبًا. فالليبراليون (الذين كانوا في غاية الضعف) باتوا أكثر ضعفًا وفقدوا بالتالي كل نفوذهم. وما تغير لم يكن الهدف الروسي (الانضمام لأوروبا)، وإنما الظروف التي يمكن من خلالها تحقيق المصالح الروسية المتمثلة باستعادة مكانتها السابقة كقوة عظمى. في عام 1994 كانت روسيا ضعيفة، وكانت بحاجة إلى مساعدة الغرب لتفادي الإفلاس. بعد عشرين عامًا، كانت الولايات المتحدة وروسيا كلتاهما قد أصبحتا أكثر ضعفًا، في حين أن الوضع الروسي كان أقوى بكثير. وبفضل القفزة الكبيرة على صعيد أسعار النفط والغاز، كانت روسيا قد أصبحت من جديد قوة عظمى.

هل كان ذلك خطأ الغرب؟ هل كانت هنالك حقًا ثمة من فرصة حقيقية أمام التحاق روسيا بالغرب خلال الفترة 1989 - 1991؟ لو أن الغرب أبدى قدرًا بسيطًا من بعد النظر، شهامة المنتصر، واستعدادًا أكبر للمهادنة؟ ما هو الزخم الحقيقي والصدقية الحقيقية لرغبة روسيا في التحرك قدمًا نحو التكامل مع أوروبا والغرب؟ في ضوء أزمات روسيا الاقتصادية والسياسية العميقة حاليًا، ما هو بالضبط المعنى الحقيقي لـ "الشروط المقبولة" و"الشراكة المتساوية"؟

تستعرض إحدى الوثائق التي تحمل عنوان "العقيدة العسكرية الروسية" ونشرتها هيئة الأركان العامة للجيش والقوات المسلحة قبل بضع سنوات الأخطار الرئيسية التي تتهدد البلاد. حتى سنوات قليلة مضت، كان يشار للناتو والولايات المتحدة بـ "الشريك الاستراتيجي." لكن هذا لم يعد قائمًا:

في رؤية العام 2014، كان بوتين وبقية الناطقين باسم النظام يصفون الناتو والولايات المتحدة بالعدو الرئيسي الذي يُشكّل تهديدًا مبطنًا لروسيا، مشيرين بذات الوقت إلى ترسانة روسيا النووية ومنددين بمعاهدة 1987 مع الولايات المتحدة، وهي إحدى الطروحات القائمة لتخفيض وتيرة سباق التسلح النووي. لا ينبغي أن تعزى تلك الأهمية التي في غير محلها إلى "العقيدة العسكرية الروسية" التي لم يجر قط نشر النص الكامل المتعلق بها. على أية حال، هنالك ما يدفع إلى الافتراض بأن روسيا قد تجاهلت معاهدة 1987 النووية على مدى سنوات. الحقائق على الأرض هي أكثر أهمية من بيانات وتصريحات رسمية من هذا النوع. والحقائق تقول إن الانفاق العسكري الروسي قد تضاعف بين 2007 و2014، في حين أن إنفاق الناتو تراجع إلى النصف.

ماذا كان العامل الحاسم في التفكير الروسي وماذا كانت البواعث الرئيسية؟ هل كانت الرغبة في حماية الناطقين بالروسية الذين كانوا يعيشون خارج نطاق الجمهورية الروسية، أم كانت الرغبة في استرجاع حدود الاتحاد السوفييتي، وإعادة خلق الإمبراطورية القديمة؟

لن ينتهي النقاش حول هذه القضايا، عندما يتكشف المزيد حول رغبة روسيا في التكامل مع الغرب والمواقف الغربية تجاه مثل هذا التكامل. وبحسب الأدلة المتوافرة حاليًا، فإن الادعاءات الروسية بخصوص الـ "الفرصة الضائعة" هي ادعاءات غير صحيحة.

لا شك أن استعادة وضع القوة الكبرى كان سيصب في صالح الوطنيين الروس. لكن طالما أن الغرب كان يعتبر طيلة هذا الوقت بمثابة العدو اللدود لروسيا، ألم يكن ممكنًا لاستراتيجية التكامل الروسية، حتى لو كانت حقيقية بمجملها، أن تحاط بظلال من الشك والريبة أو بقدر من التردد؟ حينها، كانت روسيا بحاجة إلى المساعدة لتفادي انهيار تام: لو كانت المساعدة الغربية تشتمل على استعادة الحدود القديمة للاتحاد السوفييتي، هل كانت مثل هذه المساعدة ستحظى بامتنان روسيا المطلق؟

يشعر بعض المحللين الروس بعدم الارتياح حتى في وقت انتصار روسيا. وكما قال كاراغانوف:

> روسيا اليوم هي في أوج قوتها. والمستقبل القريب لا يعد بأية فرصة لأن تصبح أكثر قوة. ويبدو أن روسيا قد نقلت عمدًا مركز الثقل لتنافسها مع الغرب من القوة الناعمة والقطاع الاقتصادي إلى القوة الخشنة والإرادة السياسية والفكر والعقل. بمعنى آخر، إلى حيث ترى روسيا بأن قوتها موجودة.
>
> لقد أفضت هذه المحاولة حتى الآن إلى نتائج إيجابية. ولكن كي تعزز موقفها في المدى المتوسط على الأقل، تحتاج روسيا إلى إصلاح سياساتها الاقتصادية والداخلية، وتغيير نخبها الفكرية والثقافية على جناح السرعة، وصوغ الأهداف والمشروع القومي الذي يشترك فيه غالبية المواطنين. ما برحت روسيا تتهيأ وتستعد. لقد ساعدت إحدى الحملات المتلفزة المناوئة للغرب غير المسبوقة منذ الحرب الباردة في تشكيل التوجه الأساسي للرأي العام. وشهدت القوات المسلحة تحديثات أساسية. كانت هنالك نذر متزايدة حول صدام وشيك. لكن النتائج المؤقتة كانت مؤاتية.
>
> انتهزت روسيا المبادرة واحتفظت بها. تتضمن الترسانة الروسية تشكيلة متنوعة من الأدوات الاقتصادية والسياسية إلى حين تحقيق أهدافها، وهي مع ذلك استراتيجية محفوفة بمخاطر جسيمة ستؤدي إلى تعقيد العلاقات مع الغرب لفترة طويلة. ستضعف هذه الاستراتيجية من موقف روسيا في علاقاتها مع الصين (مجالها الحيوي للمناورة سوف يضيق)، رغم أن المرجعية الأخلاقية في عيون العالم اللاغربي سوف تتعاظم. هكذا ستكون الحال إن لم تخسر موسكو، بالطبع.

هذه استرجاعات وتكرارات مثيرة، أكثر تنبؤية من كل التخمينات والتوقعات القادمة من موسكو. من السهولة بمكان إطلاق حملة دعائية ضخمة، ولكن كيف سيتم خلق نخبة جديدة في غضون فترة قصيرة من الزمن؟ هل تخلت روسيا عن المنافسة مع الغرب في المجال الاقتصادي -

وهل تأمل بكسب مزاياها وأفضلياتها عن طريق "القوة الخشنة" و"الإرادة السياسية"؟ هل هذا يعني الحرب؟ إذا كان الأمر كذلك، أي نوع من الحرب؟

من البديهي أنه على الرغم من أن موسكو قد تحركت باتجاه سياسة قومية معادية، بل حتى شوفينية، فإن أحدًا خارج إطار الجماعات المتطرفة الطائشة لا يريد عمليًا حربًا نووية كبرى. ومن الواضح أن البعض في موسكو يعتقدون بظهور منافسة مستقبلية بين روسيا والصين، لأن كل ما تريده الصين هو استعادة تايوان. عظيمة هي قوة الخداع والتضليل الذاتي. كان هناك وقت يعتبر فيه ماو تسي تونغ أن من الأفضل له ذهاب موسكو إلى حربٍ مع الولايات المتحدة لكي تفني القوتان إحداهما الأخرى أو على الأقل تشل إحداهما قوة الأخرى وتجعلها عاجزة عن القيام بأي شيء.

وبافتراض أن روسيا هي الآن في أوج قوتها، وهي عبارة قلما سمع بها أحد في أعقاب الأزمة الاقتصادية لعامي 2014 - 2015 أليس حريًا بها أن تحقق أقصى فائدة ممكنة من هذه القوة؟ ماذا لو لم تتكرر مثل هذه الفرصة الفريدة من نوعها؟ لكن هذا سيكون خطرًا، لأن روسيا إذا ما تمددت ثانيَة، لن تكون النتيجة هي ذاتها كما كانت في الماضي؟ هل ستكون قادرة على الاحتفاظ بما حصلت عليه في وقتٍ من الأوقات من المكتسبات المفضلة؟ أي تقدم إقليمي حققته روسيا أو ستحققه في المستقبل القريب سيعني مرة أخرى دعمًا داخليًا للحكومة الحالية. ولكن كم سيدوم مثل هذا المكسب؟

يريد الروس لبلدهم أن تكون قوة كبرى، قوة عظمى إن أمكن. لكنهم يريدون أيضًا أن يعيشوا بسلام وطمأنينة. هما هدفان منطقيان - ولكن هل يمكن جمعهما معًا؟ الخبراء الاقتصاديون أمثال فلاديسلاف إينوزيمتسيف لديهم وجهة نظر قوية بأن روسيا ليست قوة عظمى ولا يمكن لها أن تكون كذلك طالما أنها تعتمد على العالم الخارجي، وطالما أنها تستورد ما تحتاجه وصادراتها مقتصرة بشكل رئيسي على المواد الخام. والأمر الأكثر سلبية هو اعتماد روسيا ماليًا على الغرب.

تواجه روسيا مصاعب ومشكلات داخلية جمة، لكن المشكلات يمكن حلها والمصاعب يمكن تجاوزها. مرة أخرى، الأمثلة التاريخية متوافرة، مثل تعافي فرنسا ونهوضها بعد 1870 - 1871 وتعافي ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى. في أواخر العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث، كان السويديون والسويسريون معروفين بأنهم من خيرة الجنود وأشرسهم، لكن الحال تغير. كانت بريطانيا معروفة بأنها البلد الصناعي الرائد بامتياز، في حين أن الصين كانت معروفة بأنها البلد الذي لا يتغير فيه شيء أبدًا. لكن الزمان تغير.

تمر الولايات المتحدة بمرحلة من الضعف السيكولوجي الخطير. والمشروع الأوروبي، الحركة باتجاه الوحدة، قد استنفد قواه. لعلها بداية النهاية، لكنها يمكن أن تفضي أيضًا إلى تعافٍ ونهوض.

من بين نقاط الضعف الروسية الاعتقاد المشؤوم بكل أنواع نظريات المؤامرة والأفكار الغريبة، مثل الأوراسية الجديدة والنيوجيوبوليتيك والتخريف ورهاب الغرب المقترن بهوس اضطهادي مزمن، وكذلك الإيمان المتمادي برسالة تاريخية. مثل هذه المحن والبلايا غير مقتصرة على روسيا بأي حال، لكنها لم تكتسب تلك المشروعية التي أغدقت عليها من قبل ألكسندر ديوجين وشرائح من النخبة المثقفة، أو جرى استخدامها للتأثير على النهج السياسي الذي يحدده قادة روسيا. كانت

المشاعر القومية منطلقة بوتيرة عالية في العديد من البلدان وفي أوقات مختلفة، لكن من الصعب التفكير بكراهية متراكمة تشبه ما حصل في روسيا في السنوات الأخيرة. يمكن القول بأن مثل هذه المحن والبلايا قد لا تدوم للأبد، فهي قد تضعف أو حتى تتلاشى. ولكن في الوقت الحالي، في عصر أسلحة الدمار الشامل، هي تشكل خطرًا أساسيًا.

ساد الاعتقاد في الغرب في الأونة الأخيرة مع نهاية الحرب الباردة بأن الديمقراطية كانت حالة طبيعية وأن كل أشكال الحكم الأخرى كانت تشكل انحرافًا مؤسفًا عن القاعدة التي لن تدوم لوقت طويل. لقد أثبت هذا الافتراض بأنه مغالٍ في تفاؤله. فالعقلية الاستبدادية للعديد من الحكام والمحكومين الروس على حدٍ سواء لن تتغير إلا بنتيجة ثورة ثقافية لم تحدث حتى الآن. إنه أمر يدعو للأسف بالنسبة للديمقراطيين الروس، لكن لا بد من مواجهة الحقيقة. لقد أظهرت الأحداث عبر العقدين الأخيرين بأن الفوضى هي أكثر ما يخشى منه في روسيا، أكثر من الحكم الاستبدادي والديكتاتورية. وطالما أن نصف الشعب الروسي يؤمن بعظمة وطيبة ستالين، فلا يمكن توقع أي شيء أخر. قد يتغير هذا الحال يومًا ما، ولكن في الوقت الحالي فإن اقصى ما يمكن أن يحلم به المرء هو عدم حصول تدهور في الأوضاع نحو شكلٍ من أشكال الحكم الأكثر قسوة واستبدادية. لقد تزايد نفوذ أقصى اليمين الروسي والجماعات المتطرفة الطائشة عبر السنين، لكن تطورها إلى فاشية حقيقية متكاملة يبدو أمرًا مستبعدًا. ولا تزال التجربة الستالينية تفعل فعلها إلى حدٍ ما كرادع للكثيرين، وحتى أولئك الذين يلتمسون لها الأعذار لا يريدون تكرار التجربة.

لكن تراجعًا من حكم استبدادي نحو نظامٍ أكثر ديمقراطية يبدو أيضًا أمرًا مستبعدًا. كان بوسع الاتحاد السوفييتي في ظل الشيوعية التعويل على دعم الشيوعيين في كل أنحاء العالم. إن بوسع روسيا يمينية قومية أن تجد (أو تشتري) عددًا من المتعاطفين معها في الخارج، ولكن ليس عددًا كبيرًا. كانت العقيدة السوفييتية مبنية على افتراض أن الثورة العالمية ستسود لاحقًا في كل مكان. لا وجود لمثل هذا الاعتقاد اليوم، ما يفرض قيودًا طبيعية على التوسع الروسي. ولكن من جهة أخرى، من الصعب وضع تصور لتنازل من قبل الحكام الحاليين، ما لم يكونوا متأكدين (كما كان يلتسن) بأنهم لن يتعرضوا للمحاكمة والملاحقة القانونية بعد استقالاتهم - على سبيل المثال، بخصوص الثروات التي تكدست لديهم خلال وجودهم في السلطة.

كيف يمكن تحقيق ذلك؟ يمكن بالكاد تحقيقه بنتيجة انتخابات حرة غير مقيدة. إذا كان الأمر متعلقًا بهذا السبب وحسب، فإن الانتقال نحو نظام أكثر ديمقراطية سيكون صعبًا في الحقيقة. ومع ذلك، هنالك مشكلات إضافية مثل الخوف الروسي التقليدي من الحرية بين شرائح واسعة من السكان. فبمجرد أن يتأصل الهوس الاضطهادي في النفس، يمكن له بسهولة أن ينطلق في الاتجاه الخطأ - داخليًا، ضد شعب وحكومة صاحب هذا الهوس بالذات. واذا كان الأعداء مختبئين في مكان ما، فقد يكونون من بين جيران هذا الشخص بالذات؛ إذ لم يعد بالإمكان الوثوق بأحد بعد الآن. إن تصاعد مد القومية الروسية الذي بدأ يحل محل العقيدة الأممية القديمة هو سلاح ذو حدين. بمجرد خروج المارد الشوفيني من القمقم، لن يجري توجيهه نحو الغرب وحسب، بل يمكن أن يجد له أهدافًا داخلية مثل الأقليات الوطنية وملايين العمال الضيوف في روسيا الحالية. وبحسب السؤال الذي وجهه سفير إحدى جمهوريات آسيا الوسطى إلى أصدقائه الروس في موسكو: "ما الذي تفعلونه بشعبنا الذي يعمل من أجلكم؟ إنهم يعودون إلى الوطن متشددين إسلاميين."

إن حرية العمل الغربية لتعزيز شكل أكثر ودية من العلاقات هي حرية محدودة. حتى لو كانت المواقف الغربية تجاه روسيا تسير بهدي صداقة واحترام ليس لهما نظير، مستجيبة بصورة إيجابية لكل الطلبات الروسية، فليس هناك ثمة من يقين بأن هذا سيؤتي النتيجة المرغوبة. لم يكن النقد الذاتي ظاهرة معروفة في روسيا لوقت طويل؛ فعندما كان يحصل خطأ ما في روسيا، كان عمليًا يعزى دائمًا إلى خطأ الأجانب. وبحسب التجربة الماضية، فإن شعور روسيا بأنها قلعة محاصرة هو شعور متأصل ومتغلغل بعمق ويعود إلى أزمنة موغلة في القدم لأنه إن لم تكن روسيا مثل هذه القلعة، فكيف يمكن تبرير الحكم الاستبدادي، والقيود العديدة المفروضة على أبناء الشعب والتضحيات المطلوبة ومواطن ضعف النظام وتقصيره؟ لهذا السبب، فإن التوقعات بحصول مصالحة دائمة وعلاقات أفضل مع الغرب لا تبشر بكثير من الخير في الوقت الحالي.

لا بد من حصول تغيير. ولكن لا أحد يعرف بالتأكيد متى وكيف وفي أي اتجاه. هل سيكون تغييرًا نحو الأفضل أم نحو الأسوأ؟ إن ترويكا غوغول الآنفة الذكر، بأجراسها الرنانة، تظهر بتجليات عديدة في الثقافة الروسية؛ ولطالما شكلت جزءًا أساسيًا من مشهد الشتاء. فهي تظهر في الأغنيات الشعبية وكذلك في روايات الأدب الرفيع. في إحدى الأغنيات الشعبية يتلقى "سائق العربة" Yamshik (العربجي) قبلة من فتاة جميلة، ولكن هنالك قصص مأساوية أيضًا سببها العربجي السكير. في روسيا القديمة، كان على العربجي أن يمر بفترة تدريب خاصة تشبه التدريب الذي يخضع له سائق التاكسي في لندن. ولكن لم يخضعوا جميعًا لمثل هذا التدريب. من هو الراكب أو المسافر في رواية غوغول العظيمة؟ تشيشيكوف Chichikov، ليس واحدًا من أكثر الأبطال تفاؤلًا وانفتاحًا في الأدب الروسي، لكنه يمثل الشخصية الأكثر إثارة ودهشة. وهكذا تنطلق ترويكا غوغول إلى الأمام كما ذي قبل، سائق العربة لا يستغني عن الجياد، ولا يحدو المرء إلا أمل واحد، وهو أن يكون لديه تصور عام للمكان الذي يتجه إليه والطريق الذي سيوصله إلى وجهته النهائية من دون تعريض ركابه وبقية البشرية للكثير من المخاطر.